الطبعة الأولى
1429هـ - 2008 م



للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - سوريا
ص.ب: 13414
هاتف: 30 24 224 11 963+
فاكس: 36 10 245 11 963+

بيروت - لبنان
ص.ب: 14/6364
خليوي: 833 814 3 961+
تلفاكس: 135 541 1 961+

www.kotaiba.com
E-mail : dar@kotaiba.com

جيمس د.طابور

سلالة يسوع

أسرة يسوع الحاكمة



ترجمة :

أ.د.سهيل زكار



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، والذي لم يتخذ زوجاً أو ولداً.

الحمد لله الذي خلق الكائنات جميعاً من دون شريك أو معين.

الحمد لله المنزَّه عن الزلل والضعف، الدائم والباقي الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، والذي أمره بين الكاف والنون.

يعيش عالمنا الآن في أوضاع شاذة وخطيرة، وخاصّة بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، وقيام سلطة القطب الواحد، وتوسُّع إطار الحلف الأطلسي واحتكار دوله التي تشكل أقل من 13٪ من سكان العالم لحوالي 63٪ من ثروات بني البشر، ويسعى القطب الواحد إلى فرض إرادته على جميع بني البشر، أحياناً باسم الديمقراطية والحرية، وأحياناً أخرى باسم العولمة وتشعُّباتها، وهو يستخدم في سبيل ذلك شتّى الوسائل، وعلى رأسها الصاروخ والتضليل الإعلامي، وإثارة الفتن، وغير ذلك من الوسائل اللاأخلاقية والوحشية.

ولأسباب كثيرة يركز القطب الواحد جهوده كلها تقريباً ضد الإسلام والمسلمين بشكل عام، ولكن ضد العرب بشكل خاص، لأن العرب هم مادة الإسلام، فما الذي في الحقيقة يدفعه إلى ذلك؟

إن المجتمعات الغربية حققت الازدهار، وامتلكت جميع أسباب العيش، لكنها تعاني من مشاكل عميقة أخلاقية ونفسية، واجتماعية، منذرة تكاد تقود إلى الانهيار، لأنها في الحقيقة تعاني من الخواء العقائدي والإيماني، ذلك أن تراثها الديني والفلسفي ليس فيه الحل للخواء الروحي والعقائدي، فالإنسان لا يطرب لمنظر القتل وهدر الدماء وسفكها، وليس في الموسيقى الغربية اللاهوتية والعلمانية ما يمنح الروح الغذاء الذي يحتاجه في هذه الأيام.

والأزمات الحالية ليست وليدة هذه الأيام، جذورها تمتد إلى عصر النهضة، حين استيقظ العقل الغربي، وتمرد على الكنيسة ورفض إملاءاتها، وشرع يبحث في أصول المسيحية وتطورها، ومن أوائل من فعل ذلك رماروس Rimarus (1694-1768)، الذي استطاع من خلال دراسة دقيقة أن يبرهن أن عقيدة التثليث لا علاقة لها بالمسيح، وأن جميع طقوس الكنيسة لا تعود بأصولها إليه[1]، واستمرت الدراسات وخرج إلى النور ما لا يحصى من الكتب، ولكن هذه الدراسات دخلت مرحلة جديدة مهمة منذ أواخر القرن الماضي، ومطلع هذا القرن الذي نعيشه، وقد استفادت من مواد جديدة بعضها مكتوب، واعتمد بعضها الآخر على تحليل نصوص الأناجيل الأربعة وسواها، وأكثر على المكتشفات الأثرية، وقد تبرهن من خلال جميع الدراسات الجادّة، لا بل حتى شبه الجادّة، أن هناك توترات دائمة بين حقائق التاريخ الموثقة وبين أطروحات الإيمان الكنسية القديمة والمعاصرة، وزاد هذا من حدة الأزمات الروحية والعقائدية في الغرب، ولم يتوفر الحل في الكفر وعدم الإيمان، ووجد عدد كبير من الأمريكيين الحل في المزيد من التعصُّب، وولادة التيار الذي

---

(1) The Cambridge History of Christianity. Vol I, Cambridge 2006,pp 5-16.
من الممكن العودة إلى هذا الكتاب لمزيد من المعلومات، فهو أحدث المنشورات في بابه، ويغطي ثلاثة قرون ونيف، أي حتى ما بعد مجمع نيقية (325م).

يعرف باسم تيار «المحافظين الجدد» وهو الذي أوصل الرئيس بوش إلى البيت الأبيض، وهو وراء الحرب الصليبية الجديدة في العراق وأفغانستان، وفلسطين وأماكن أخرى، ولولا التعصُّب الديني ما أنفقت الولايات المتحدة على حربها في العراق ما تجاوز في بعض التقديرات ألفين وأربعمائة مليار دولار أمريكي.

والصليبية الجديدة هي التي اخترعت المنظمات التي باتت تسميها «بالإرهابية» وهي ما تزال ترعاها، ولربما تموِّلها لتمتلك المسوغ!

وأنا لا أريد الاسترسال في هذا الموضوع في مقدمة لكتاب حديث، يقول مؤلفه بأن صرف أربعين عاماً في تأليفه، وأعطاه اسم «أسرة يسوع الحاكمة» أو «سلالة يسوع الحاكمة» وقراءة هذا الكتاب تدلل على أن المؤلف استخدم أحدث المكتشفات الأثرية، وأنه متقن المعرفة بمادة الأناجيل، ومواد أسفار العهد القديم، ولذلك نجح نجاحاً منقطع النظير في تحليل أصول العقيدة المسيحية، وقدم مادة عن شاول اليهودي الطرسوسي الذي بات يعرف باسم بولص الرسول، جليلة وجديدة، لكنه أهمل الإشارة إلى أن شاول لا بد قد عرف محتويات سفر أخنوخ وأنه من هذا السفر استلهم فكره تأليه يسوع ومن ثم بناء عقيدة جديدة هي المسيحية، التي حلّت محل نصرانية النبي يحيى، وعيسى عليهما السلام.

واعتماد المؤلف على المكتشفات الأثرية مفيد كثيراً، ولكن المشكلة في اعتماده على المادة الإنجيلية على الرغم من تشكيكه بها، وأيضاً على مواد أسفار العهد القديم وتبنيه للمادة التاريخية الواردة في هذه الأسفار.

وسلف لي أن بينت في مقدمة كتابي «الأناجيل» أن العيب المنهجي في الكتابات الغربية هو في إهمالها للمادة الإسلامية، لا سيما ما ورد في القرآن الكريم، فقد ميّزت بين شخصيتي: يسوع بن يوسف، وبين عيسى النبي عليه

السلام، وهذا التمييز تبناه المؤلف تحت عناوين أخرى، ولو أنه رجع إلى القرآن الكريم لما وقع في هذا الخطأ المنهجي.

ليس بودي إعادة ما طرحته في مقدمة ذلك الكتاب، ولكنني أشعر بأن كتاب الأناجيل يتكامل معه هذا الكتاب، ومع إقراري أنه يمكن للنقاش أن يشمل كل شيء، وأنه لا يمكن أن يكون كاملاً، لأن الكمال لله وحده، والله جلّت قدرته قدَّم الحلّ للبشرية بالإسلام، فالإسلام هو السلام والهداية والعدالة والنقاء الروحي والمادي لجميع بني البشر، لا بل هو لجميع الكائنات، والله تبارك وتعالى هو «رب العالمين».

وتوصَّل المؤلف في آخر كتابه إلى هذه البديهية، إنّما تحت عنوان جديد هو «الدين الإبراهيمي»، وكنت قد تعرَّفت في الصيف الماضي إلى بعض الأقطاب الأمريكيين الذين يدعون إلى الدين الإبراهيمي، ومن المقرر أن الدين الإبراهيمي هو الإسلام، ولعلّ اسم أبينا إبراهيم عليه السلام قد ورد ذكره في القرآن الكريم أكثر من ذكر أي نبيٍّ آخر من ذلك قوله تعالى:

﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا ﴾ [آل عمران: 67].

﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ ﴾ [آل عمران: 68].

﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [آل عمران: 84].

﴿ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ [آل عمران: 95].

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ [البقرة: 130].

﴿ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ [النساء: 125].

﴿ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: 161].

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا ﴾ [النحل: 120].

﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾ [النحل: 123].

﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾ [الحج: 78].

وإبراهيم عليه السلام هو الذي رفع مع ابنه إسماعيل القواعد من البيت، وهو الذي أمرنا أن نتّخذ من مقامه مصلّى، وهو أول من قام ينادي في الناس للحج إلى بيت الله الحرام.

نعم الإسلام هو دين إبراهيم نزل على قلب محمد ﷺ، وحياً من عند الله، والنبي محمد ﷺ يرقى نسبه إلى أبيه إبراهيم بسلسلة من الأمّهات والآباء طاهرة نقيّة لا سفاح فيها[1].

وأعتقد أنه يقع على عاتق المسلمين واجب تبيان هذه الحقائق وسواها، وإقناع الغرب والبشرية جمعاء أن الحلَّ لجميع مشاكل الدين كان وما زال متوفراً في الإسلام، ولا يوجد في هذا الإعلان لا تعصُّب ولا كراهية، فالمسلم لا يعرف التعصُّب، بل يعرف معرفة إيمان ويقين: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: 256-257].

والمسلم لا يعرف الكراهية والضغينة، هدفه هداية بني البشر وإخراجهم من الظلمات إلى النور، فهو على هذا شفوق محبّ، كله إنسانية وعدل وطهارة، ينادي كل الناس: ﴿ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ [آل عمران: 64].

---

(1) عالج مؤلف كتابنا مسألة السفاح في نسب يسوع وأنساب غيره من أنبياء بني إسرائيل، اعتماداً على مادة الكتاب المقدس، مع أنني أنزه جميع الأنبياء عليهم السلام.

إننا الآن كعرب ومسلمين بحاجة إلى الالتزام بما جاء في القرآن الكريم والسنّة الشريفة، وأن ننهض علمياً وثقافياً، فالإسلام دين: الكتاب، والقراءة، والقلم، ودين الحوار والشورى، دين حاور فيه إبراهيم عليه السلام الله جلّت قدرته حين قال له: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ ؟ قال: ﴿بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾، ومثل هذا الالتزام يلغي التمزق الطائفي وسواه، ويزيل رواسب الماضي، ويمكّن من العيش مع الرسالة والعمل للمستقبل، وعلى كل مسلم الاقتداء بالمصطفى عليه السلام الذي كان خلقه القرآن، وفي القرآن الكريم تأكيد على عدم سفك الدماء، لأن من قتل نفساً كأنما قتل الناس جميعاً، ومن القرآن الكريم تعلمت مبادئ التعامل مع الديانات، ولقد كان هذا التعامل وما زال سبيلاً للهداية، وليس سبيلاً لإثارة الفتنة، سبيلاً لقرع الحجة بالحجة، لا بالسيف أو الصاروخ، وتبرهن لدي - كما ذكرت من قبل - أن هناك توتر دائم بين حقائق التاريخ الموثّقة وبين العقائد الرائجة الموروثة في جميع الديانات السماوية وغير السماوية، في حين هناك تواؤم كامل بين الإسلام وحقائق التاريخ، فالنبي محمّد عليه الصلاة والسلام هو وحده الذي يمكننا أن نؤرخ لكل جانب من جوانب حياته، وهو وحده جاء بالنظرية من عند الله وطبّقها بتوجيه من الله مع العصمة، والقرآن الكريم هو هو وكأنه أنزل الساعة، وبذلك امتلك الدين الإسلامي وحده الشرعية التاريخية، وبالمقابل قالوا بأن موسى عليه السلام وجد في حوالي العام 1300ق.م، وقد تبيّن لي في كتابي «التوراة» أنه عاش قبل 2300ق.م، وأما المسيح فهناك خلاف كبير حول تاريخ ميلاده في روايات الأناجيل[1]، ثم أين هو إنجيل عيسى عليه السلام؟ وقالت مؤسسة البابوية

---

(1) ليس من المعروف بشكل مؤكد من خلال روايات الأناجيل وسواها السنة التي ولد فيها عيسى عليه السلام، ولا الشهر الذي ولد فيه، وفي القرآن الكريم المكان الذي ولد فيه كان فيه نخيل وتمر، وينطبق هذا على منطقة بيسان فقط حسب روايات الرحالة الغربيين، وهي ليست بعيدة عن الصفورية والناصرة (الفرع = النسرة)، =

بأن شرعيتها مستمدة من بطرس الرسول، الذي مات في روما، ولكن عثر على قبره في خارج القدس، ولهذا السبب ولغيره من الأسباب: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: 18-20].

ومن باب البلاغ ما من أحد يعرف المكان الذي دفن فيه واحد من الأنبياء، إلّا قبره ﷺ في المدينة المنوّرة، هذا ومما لا شكَّ فيه أنه كان وما يزال موضع اهتمام جميع البشرية، وجميع الذين عملوا في هذه الأيام على الإساءة إليه، عبروا في الحقيقة عن مركب النقص لديهم أمام عظمته ﷺ، لأنه وحده مثل الكمال البشري.

وعندما يضع القارئ الكريم أمام ناظريه الصورة النقيّة الناصعة والموثّقة لسيرته ﷺ، والصور التي وردت في كتابنا هذا حول يسوع وسيرته وأعماله، سوف يفهم لماذا ختم الله جلَّت قدرته رسالات الأنبياء جميعاً بالإسلام، ولماذا كان هناك إسراء إلى المسجد الأقصى حيث صلّى بالأنبياء جميعاً، لأنّه ما من نبيٍّ كان يسعه فعل غير ذلك.

ومع كمال الدين انتهى التاريخ الإنساني ليبدأ مرحلة جديدة هي مرحلة

وكانت الصفورية هي عاصمة هيرود أنتباس ابن هيرود الأكبر، وقد تعرضت للهدم بعدما اقتحمها يهودي اسمه «يهوذا بن حزقيا» كما أبيد كثير من سكانها، والذين نجوا منهم أسسوا قرية الناصرة، وهنا يرجح أن السيدة العذراء نجت من الاضطرابات الدموية مع ابنها عيسى عليه السلام، والتجأت إلى دمشق، حيث آواهما الله جلت قدرته «إلى ربوة ذات قرار ومعين»، والربوة هنا عند كثير من المفسرين وسواهم هي ربوة دمشق، التي فيها حتى الآن مقام يزار موقف على هذه الذكرى.

ديـن الرحمـة والـسماحة والتحريـر، والعدالـة، والمساواة، وصـيانة الكرامـة، وهو ﷺ قد أوضح ذلك في خطبة حجّـة الـوداع، حـين بـيّن بـأن الزمـان قـد استدار كيوم خلق الله الدنيا.

إنَّ المستقبل للإسلام، وهذا مرهون بحسن الدعوة إليه ونشره ويساعده كثيراً نهضة المسلمين، ولكن الإسلام ينتشر الآن في كل مكان، ولا سيّما في الغرب بفضل قواه الذاتيَّة الممنوحة من الله القائل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ [الحجر: 9].

اللهمَّ احفظنا بحفظك، ويسِّر هداية جميع البشر، وأنقذهم من الظلمات إلى النور، اللهمَّ ولك الحمد، ومنك أستمد العون، وأرجو المغفرة، وصلّى الله على سيِّدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

دمشق 28/ 11/ 2007 سهيل زكّـــار

اكتشاف أسرة يسوع الحاكمة

إنه لكتاب نادر، الكتاب الذي احتاج إلى أربعين عاماً للتأليف، إن هذا من بعض الجوانب حال كتاب **«أسرة يسوع الحاكمة»** فمنذ أكثر من أربعين عاماً مضت، عندما كنت في سن المراهقة، قمت بزيارتي الأولى إلى الأرض المقدسة، مع والديّ وأختي، وقد كانت تجربة جعلتني طوال حياتي أبحث عن يسوع التاريخي، وهذه مرحلة اعتاد العلماء خلال المائتي عام التي انقضت، على صرف الجهود في البحث التاريخي حول يسوع، وحول أصول المسيحية المبكرة.

ما الذي نعرفه بالحقيقة حول يسوع، وما الذي لا نعرفه؟ فمنذ أربعين عاماً أنا لم أقم حتى بصياغة السؤال بخبرتي، فأنا لم أعرف شيئاً عن الآثار، ولا عن مخطوطات البحر الميت ولا عن النصوص القديمة الأخرى، ولا عن البحث التاريخي، ولكنني كنت قد بدأت بقراءة الكتاب المقدس، وبشكل خاص العهد الجديد منه، وأصبحت معجباً كثيراً بشخصية يسوع، وبدأ هذا الاهتمام، بالرحلة إلى الأرض المقدسة، يتطور إلى رغبة أكثر كثافة لمعرفة الذي من الممكن معرفته عنه، وملامسة ذلك الماضي بعض الملامسة.

فأنا أتذكر بوضوح السير حول مدينة القدس القديمة، فقد كانت المدينة مكتظة بالسواح فالجميع كانوا مسيحيين، لا يهود أو إسرائيليين، فلقد كان هذا قبل

حرب الأيام الستة في العام 1967، عندما كانت المدينة القديمة، أي القدس الشرقية، ما تزال تحكم من قبل الأردن، وتم تعريفنا على المدينة من قبل واحد من مئات الأدلاء السياحيين المقيمين، الذين كان من الممكن اكترائهم في أية بقعة من قبل أي واحد ظهر أنه سائح، وقد شاهدنا جميع المواقع التي جرت العادة بمشاهدتها من قبل الحجاج المسيحيين، مثل: كنيسة الضريح المقدس، وجبل الزيتون، وبستان جثيسياني، وعليّة العشاء الأخير، وقبة الصخرة، حيث قيل قام هناك الهيكل اليهودي القديم، ويدخل الإنسان خلال مثل هذه الرحلة إلى عشرات من الكنائس، وهي جميعاً بنيت بعد قرون من زمن يسوع، لكن من المفترض فوق مكان محدد وقعت فيه هذه الحادثة أو تلك.

وبعد الأيام الثلاثة التي أمضيناها هناك، بدأ يزداد لدي شعور بالإحباط، فلقد وجدت صعوبة بالربط حتى في خيالي فيما بين قدس القرن العشرين، وبين القدس في أيام يسوع حسبما جاء وصفها في العهد الجديد، حتى وإن كانت الأسماء والأماكن هي نفسها، وجرى تحديدها بشكل صحيح، كان الذي رأيته أمامي بقايا: تركية، وصليبية، وبيزنطية، ولا شيء تقريباً يرى من القرن الأول، حتى أنني علمت بأن مستوى الشوارع الحديثة كانت أعلى باثني عشر قدماً إلى خمسة عشر قدماً عن العصور الرومانية، وقد اشتريت كتاب دليل سياحي وعنوانه «السير حيث سار يسوع»، وقد أردت بسذاجتي أن أفعل ذلك تماماً، وقد أقمنا في فندق صغير على قمة جبل الزيتون، إلى الشرق من المدينة تماماً، ونهضت في حوالي منتصف الليل، وأنا لا أشعر بالراحة، وقررت والكتاب المقدس في يدي، أن أسر إلى بستان جثيسياني عند سفح الجبل، وكان الممر المنحدر الآن مرصوفاً، وكان باستطاعتي مشاهدة مواضع صخور جرى قطعها، أو أنها قد اهترأت على الجانبين، وفي ذلك إشارة إلى أن هذا كان طريقاً ضيقاً منذ عصور قديمة، وقد تخيلت يسوع وهو راكباً الحمار، نازلاً على هذا الطريق نفسه إلى المدينة القديمة،

وكان بإمكانك - ليس مثل هذه الأيام - الدخول إلى بستان جثيسيماني في أية ساعة تريد في النهار أو الليل، بحكم أن الباب كان دوماً، مفتوحاً، وكان مسموحاً أيضاً إلى الزوار بالسير بين أشجار الزيتون التي عمرها قرون، ولقد كان في تلك الليلة، وفي تلك الساعة فقط، أقنعتني قراءتي، بأن هذه كانت هي البقعة، حيث أمضى يسوع الليلة الأخيرة من حياته في الصلاة، وللمرة الأولى، في رحلتنا تلك، وفوق ذلك المر، وفي الحديقة، شعرت بأنني قادر على العودة إلى الوراء، والارتباط بالماضي الذي أنا أنشده وأبحث عنه، وأقمت هناك أطول مدة ممكنة، محاولاً أن أتخيل كل شيء، وبقيت أفكر بقرارة نفسي وأقول: هذا هو المكان، لقد كان الذي حدث هنا، وأخذت مشاعر «المؤرخ» تستيقظ فيّ، وفكرت بشيء من «الآثار» أيضاً، وبدأت من بعض الجوانب، بالذي أصبح بحثاً لطوال الحياة، لاكتشاف حياة يسوع كما عاشها، ولفهمها.

فهناك شيئاً ما فينا جميعاً ممتعاً ومثيراً، في أن يجرب الإنسان ملامسة الماضي، أو أن يلامس منه رسالة قديمة، أو سجل أنساب، أو ميدان قتال، أو مقبرة، أو شذرات من نص قديم، ويمكنك الآن في الأرض المحتلة أن تزور مزار الكتاب في المتحف الإسرائيلي، وأن تشاهد مخطوطات البحر الميت، التي يعود تاريخها إلى زمن يسوع تقريباً، وأنا أعتقد أن عدداً كبيراً من الزوار قد خامرته المشاعر نفسها التي خامرتني عندما رأيت العرض للمرة الأولى، فهناك تحت الزجاج، على بعد إنشات، الوثائق القديمة التي كتبت منذ ما يزيد على ألفي عام مضت، وإنني لأتذكر أنني وقفت لدقائق طوال، أمام كل معروض، محاولاً أن أستوعب حقيقة ما أشاهده، فهناك يشاهد الإنسان أوراق الرق أو البردي، التي تعود إلى زمن طويل مضى، مع كلمات بالعبرية والآرامية، من الممكن أنها نفسها قد قرئت من قبل يسوع أو من قبل أتباعه.

وهناك مواقع كثيرة أخرى في القدس، قد تم الكشف عنها الآن، وأنت

يمكنك أن تجلس على الدرجات نفسها، التي كانت تؤدي إلى الكنيس اليهودي الذي بني في أيام هيرود الكبير، فعندما زرت القدس للمرة الأولى في العام 1962، كانت هذه الدرجات على عمق خمسة وعشرين قدماً من سطح وجه الأرض الحالي، مغبية تماماً وغير مشاهدة من قبل الأعين الحديثة، وفي كثير من الأماكن جرى الكشف عن حجارة رصف الشوارع من العصر الروماني، فعلى عمق اثني عشر قدماً تحت مستوى الشارع الحالي، في حارة اليهود، يمكنك أن تسير بين خرائب بيت كبير ثري، وهو واحد من البيوت التي من المحتمل كثيراً أنه كان ملكاً لأسرة الكهنة الكبار الذين ترأسوا محاكمة يسوع، وفي العام 2004 جرى الكشف عن بركة سليمان، التي ورد ذكرها في العهد الجديد، وذلك بعدما اختفت، ولم تعد مشاهدة لمدة قرون، فعبر البلاد كلها جرى الكشف عن الماضي وعرضه للحاضر بوساطة معول الأثري، ومثل ذلك تماماً بتفسير النصوص القديمة وحل ألغازها من قبل المؤرخ.

وقد عدت منذ ذلك الحين عشرات المرات إلى فلسطين والأردن كباحث وكعالم، وكنت سواء وأنا أحفر في موقع أثري، أو وأنا أبحث في المكتبة، أو أقوم بدراسة أولية لمنطقة أو لموقع، قد بقيت اهتماماتي هي نفسها، فالأسرة الحاكمة ليسوع هي موضوع بحث تاريخي جديد عن يسوع وعن أسرته الملكية، وعن ولادته المسيحية، وهي بالوقت نفسه انعكاس لبحثي الشخصي، وتتضمن اكتشافاتي، ونفاذ رؤيتي في مسيرة سيرتي العلمية.

ويعرض كتاب الأسرة الحاكمة ليسوع، قصة يسوع في ظل أضواء جديدة تماماً، وهي تاريخ وليست حكاية، ومع ذلك تختلف كثيراً، وفي بعض الأحيان بشكل كبير عن صورة يسوع المروية من قبل العقيدة اللاهوتية، ويقدم كتاب الأسرة الحاكمة ليسوع رواية أصيلة حول المسيحية، وهي رواية ضاعت منذ زمن طويل ونسيت، ولكنها رواية من الممكن تعقبها بشكل فعلي إلى الوراء،

إلى المؤسس يسوع نفسه، ووقع هذا الكتاب وتأثيره بعيد المدى، وثوري عظيم، وهذا منطقي في أن يقوم الإنسان بدعوته «القصة الأعظم التي لم يرو مثلها قط»، وهي لسوف تدهش كثيرين وتثيرهم، وتغضب آخرين وتزعجهم، ولكنها تتحدى القارئ أيضاً، مهما كانت قناعاته، حتى يزن الدليل بأمانة، وأن يقدر الاحتمالات الجديدة.

ولا علاقة لكتاب الأسرة الحاكمة ليسوع بالأفكار الشائعة حالياً، بأن يسوع كان متزوجاً وكان أباً لأطفال من مريم المجدلانية، وحين نمسك بالحكاية، نجد فكرتها كانت موضوع توقعات طويلة، ولكن دليلها قصير، ولكن كما يحدث في الغالب، فإن الصدق أكثر غرابة من الحكاية، وكل جانب من جوانبه معقد ومزعج.

ولسوف تكتشف في كتاب الأسرة الحاكمة ليسوع، أن يسوع كان الابن الأول ولادة لأسرة ملكية، منحدرة من الملك داود، الملك القديم لإسرائيل، وهو حقاً أعلن عنه «ملك اليهود» وقد أعدم من قبل الرومان، بسبب هذا الادعاء، وليس بسبب كنيسة، أو ديانة جديدة، حسبما هو شائع ومفهوم بشكل عام، وقد أسس أسرة ملكية حاكمة، انحدرت من إخوته، ومن الأسرة مباشرة، وهو لم يكن المؤسس لكنيسة، فقد كان يسوع مطالباً بعرش يتولاه، فتبعاً للأنبياء العبرانيين، لقد كان المسيح من فرع داود، وهو الذي سوف يقود بني إسرائيل في الأيام الأخيرة، وهو ينبع من هذا النسب المحدد، وألقت الأقسام التي نشرت حديثاً من مخطوطات البحر الميت المزيد من الضوء حول الطبيعة الصلبة لهذا التوقع، وكان هذا النسب الملكي العضوي المشتهى، أي أسرة داود، مع ميولها الثورية المتطرفة القوية، معروفاً بشكل جيد من قبل أسرة هيرود، الأسرة الحاكمة المحلية لفلسطين في ذلك الوقت، وكانت معروفة أيضاً من قبل الرسميين الرومان الذين حكموا البلاد، لا بل حتماً من قبل الأباطرة أنفسهم، ولم يكن هؤلاء «الملكيون» تحت المراقبة فقط، بل كانوا في الأوقات الحرجة، تجري ملاحقتهم واعتقالهم، وإعدامهم.

وكان يسوع قبل أن يموت بوقت قصير قد أقام حكومة إقليمية، مع اثني عشر مسؤول إقليمي، كل واحد منهم رئيس لسبط من الأسباط الاثني عشر، أو مناطق بني إسرائيل، وترك أخاه جيمس على رأس هذه الحكومة الوليدة، وقد أصبح جيمس القائد غير المنافس للحركة المسيحية المبكرة، وقد نسيت هذه الحقيقة التاريخية بشكل واسع، أو أخفيت، فهذا الأكثر احتمالاً، وهي من المحتمل أن تغير كل شيء نحن نعتقد أننا نعرفه حول يسوع، ومهمته، ورسالته، فقد سمع كل إنسان ببطرس، وببولص، وبيوحنا، لكن المكان المحوري لجيمس التلميذ المحبوب، والأخ الأصغر ليسوع، قد اقتلع بشكل فعلي من الذاكرة المسيحية.

ويبين كتاب الأسرة الحاكمة ليسوع ويكشف كيف، ولماذا أضاع المسيحيون بشكل تدريجي الاعتراف بأن يسوع، كان جزءاً من أسرة كبيرة، مارس أفرادها القيادة الأسروية الملكية بين أتباعه، وهذه القصة الخطيرة والبديلة، والتي عاشت حتى في سجلات عهدنا الجديد، وعلى شكل نتف وشذرات وقطع في التقاليد المسيحية المتأخرة، من الممكن كشفها بفعالية، وقد أعطانا الجمع فيما بين المكتشفات الأثرية الحالية، وواجهات النصوص التي نسيت منذ زمن طويل أفقاً جديداً، يمكننا منه أن نرى ميلاد المسيحية، وفهم أصول هذه الديانة التي هي الأكبر عالمياً، وهو لا يمنحنا بصيرة نافذة حول الماضي، بل يفتح أمامنا طرقاً كاملة جديدة لرؤية مسيحية أيامنا الحالية، فنحن لدينا الآن الفهم الأكثر حدة، والتاريخ الأكثر اعتماداً حول يسوع، حسبما كان في زمانه وفي مكانه.

حكاية حول مدفنين

جاء الكثير من المكتشفات الأثرية الكبيرة لأيامنا بالصدفة، وكأن هناك بعض الأسرار المخبأة، تعمل بشكل مقرر، فمعظم ما أملنا باكتشافه، نادراً ما وجدناه، والأقل مما كنا نتوقعه، قد ظهر فجأة، ويظهر أن هذا صحيح بشكل خاص عندما يتعلق الأمر بالدراسة التاريخية حول يسوع، وحول الحركة التي أسسها، وهي الحركة التي عرفت فيما بعد باسم المسيحية، وليفكر الإنسان حول ظهور مخطوطات البحر الميت في العام 1947 من كهوف في الصحراء الفلسطينية، أو اكتشاف هيكل عظمي لرجل مصلوب من القرن الأول، وذلك من قبل فريق من العمال كانوا يرصفون طريقاً في القدس في العام 1968، أو الاكتشاف صدفة لقبر الكاهن الأعلى قيافا، وهو قبر عمره ألفا عام، وقيافا هو الذي ترأس على محاكمة يسوع[1]، وعندما تتعلق الأمور بالمكتشفات الأثرية، يظهر أن الوقت والحظ شريكين مساويين للتخطيط الدقيق، وللمذهب.

اكتشاف في القدس في وقت متأخر من الليل

سمعت بهذا للمرة الأولى في وقت متأخر من بعد ظهر يوم الأربعاء 14 حزيران العام 2000، عندما كنت أتنزه على قدمي مع خمسة من طلابي، في وادي هنوم إلى الجنوب من مدينة القدس القديمة، في منطقة عرفت باسم «حقل حق

الدم»[2]، وكان قد مضى على وجودنا في إسرائيل أسبوعان، ونحن نعمل في كهف جرى اكتشافه حديثاً، على بعد عدة أميال إلى الغرب من القدس في مكان عرف باسم «صوبا»، وهو المكان الذي عثر فيه على أقدم الرسوم المتعلقة بيوحنا المعمدان هذا وإن جامعة شمالي كارولينا في تشارلوتي Charlote، حيث أنا الأستاذ هناك، هي الراعي الأكاديمي للحفريات، والدكتور شمعون جبسون وأنا، نتولى معاً توجيه الحفريات وإدارتها، فلقد كانت رحلة مثيرة، فهي شكلت موسمنا الثاني في «كهف يوحنا المعمدان» حسبما بات يعرف من قبلنا، وكنا قد قررنا القيام برحلة مسح أثري، وذلك كفرصة بعد يوم صعب من الحفريات، في حرارة الصيف، ووادي هنوم هو منطقة كثيفة بمدافنها القديمة المنحوتة بالصخر، وذلك على بعد رمية حجر عن قرية سلوان العربية، وكثير من المدافن هي مفتوحة وهي فارغة منذ قرون مضت، لكن عدداً كبيراً ما يزال مختوماً وسليماً، مغطى بطمي من التراب وهو محفوظ منذ ألفي عام خلت، وفي تلك الأمسية، عرض جبسون الذي هو آثاري إسرائيلي أن يأخذنا إلى داخل بعض المدافن المفتوحة، حتى يعطينا فكرة عن طريقة الدفن اليهودية في أيام يسوع.

ولم يكن أي واحد منا لديه أدنى فكرة عن الاكتشاف الموجود أمامنا مباشرة، أو عن العملية الخلسة التي كانت على وشك أن تبدأ، وبكل تأكيد أنا لم يكن لدي أدنى فكرة بأننا سوف نعثر على شيء سوف يكون مرتبطاً ببحثي الذي امتد طوال حياتي فيما يتعلق بيسوع التاريخي، وبصورة أكثر تأكيداً بالأسرة الحاكمة ليسوع ذاتها، وقد انتهينا من جولتنا على حوالي ستة مدافن في حوالي الساعة السابعة مساء، وأخذ الظلام ينتشر، وبتنا بحاجة للعودة مباشرة إلى القدس، إلى المدرسة البريطانية للآثار، حيث كنا مقيمين، فبذلك كان يمكننا الحصول على بعض الراحة، لكن الذي حدث، أنه ولا واحد منا قد نام طوال تلك الليلة.

وعندما كنا عائدين، وفيما نحن في طريقنا إلى سيارتنا، أشار جف بوبلين

Jef Poplin الذي كان واحداً من تلاميذي، أشار إلى جانب الرابية في الأسفل، حيث كانت سياراتنا متوقفة، فقد كان شاهد مدخل مدفن قد فتح حديثاً، وذلك تحت ضوء الشمس المائلة للغروب، وقد كان هناك طين قد جرى تكويمه على المدخل، وكان باستطاعتنا أن نرى قطع نواويس مكسرة منتشرة هناك، وكانت هذه عبارة عن صناديق حجرية اعتاد يهود القرن الأول، على وضع عظام الموتى فيها، وعندما اقتربنا أكثر، كان المدخل المستطيل الشكل للمدفن واضحاً تمام الوضوح، وكان مقياسه حوالي المتر مربع، وأدخلنا رؤوسنا نحو الداخل، وكان شديد الظلام، وكانت رائحة الرطوبة المنتشرة في ذلك المكان طبيعية، لإغلاقه عن الهواء الخارجي منذ آلاف السنين، وملأت الرائحة أنوفنا، ولم تكن رائحة غير لطيفة، ولكنها اختلفت عن الروائح الأخرى وهي رائحة لا يمكن للإنسان أن ينساها قط.

وكان لصوص الآثار في هذه المنطقة نادرين نسبياً، ولعل السرقات التي وقعت لم تتجاوز سرقتين أو ثلاثة خلال أكثر من عقد من الزمان، ولدى الإسرائيليين وحدة مسلحة خاصة مسؤولة عن حماية الآثار، وانتهاك حرمة القبور القديمة جريمة خطيرة، وبالحكم من خلال النواويس المكسرة عند المدخل، والتراب الحديث المكوم من حوله، فإن المدفن الذي هو أمامنا قد تمت سرقته في الليلة الماضية تماماً.

وأخبر جبسون السلطات الإسرائيلية ونبهها بوساطة هاتفه النقال، وبناء على إذن هذه السلطات قام هو، ومساعده رافي لويس واثنان من تلاميذي بالولوج إلى الداخل لتقدير الأضرار، وذلك بينما كانت السلطات في طريقها، وانتظرت في الخارج مع الآخرين، واقفاً أراقب، وبسرعة ازداد الظلام، وامتلك المدفن أكثر من غرفة أو مستوى، واختفت الجماعة في الداخل، وبعد وقت قصير لم نعد نسمعهم، واستغرق الإسرائيليون وقتاً أطول للوصول، أكثر مما كان متوقعاً، ومرت الدقائق، وبعد مرور حوالي العشرين دقيقة، وبعدما لم نعد نرى أو نسمع شيئاً، أخذ الذين

كانوا في الخارج يتساءلون عما إذا كان علينا الدخول والبحث عن الآخرين.

وفجأة سمعنا صراخاً مثيراً صدر عن لي هتشنسن Lee Hutchinson وكان واحداً آخر من تلاميذي، وكان الصوت غير واضح في البداية، ثم أصبح أكثر وضوحاً، فهو قد زحف نحو الطابق الأعلى، وكان يصرخ: د. طابور، د.طابور، وجد الدكتور جبسون شيئاً مهماً جداً، وكان على درجة عالية من الإثارة، إلى حد صعب عليه فيه الكلام، وحيث كان رأسه خارج المدخل، وما يزال جسمه في الداخل، أخبرنا بأن في المدفن ثلاث قاعات، أو مستويات، وفي الطابق الأسفل كوة الدفن منحوتة في الجدار، وكان هناك بقايا هياكل عظمية وأجزاء من أقمشة أكفانها ما تزال سليمة.

وأخيراً ظهر جبسون وخرج، وشرح لنا الأهمية القصوى لهذا الاكتشاف، ولقد كان الدفن اليهودي في أيام يسوع ينفذ على مرحلتين متميزتين عن بعضهما: مرحلة أولى للدفن، ومرحلة ثانية للدفن، ففي المرحلة الأولى كان الجسد يغسل، ويدهن بالزيت والحنوط، ويلف بكفن دفن، ثم كان يوضع على رف حجري، أو في كوة عرفت باسم Loculus، كانت تنحت في الجدار الصخري للقبر، وكان يسمح للجسد بالتحلل والجفاف لمدة عام، وعندما يكون ما بقي هو العظام فقط، كانت البقايا يجري جمعها ووضعها في ناووس أو «صندوق عظام»، يكون بالعادة منحوتاً من حجر كلسي[3]، وغالباً ما كان يجري حفر اسم الميت، أو تتم خربشته على الجانب في الحجر، وحوت بعض النواويس عظام أكثر من فرد واحد، وقد حفر على بعضها أكثر من اسم، واختلفت هذه الصناديق المغطاة بأحجامها، إنما كانت بشكل عام عشرين في عشرة، في اثني عشر انشاً، حيث كانت طويلة ما فيه كفاية لأخذ عظام الحوض، وواسعة بما كان كافياً لاستيعاب الجمجمة.

واستخدمت النواويس بشكل عام في أعمال الدفن اليهودية في القدس وما حولها من حوالي 30 ق.م إلى 70 م، أي مائة عام، وهي المدة التي أحاطت بحياة

يسوع، واعتاد لصوص المقابر التفتيش عن القبور المنقوشة، أو كانوا يكتشفونها بالصدفة كنتيجة لمشاريع عمرانية، وعندما كان يجري اقتحام قبر ما، كان يجري استدعاء الآثاريين على شكل طوارئ، أو للإنقاذ، أو لتسجيل أساسي حسب المقدرة، وجرى تسجيل المكتشفات الغنية، بما في ذلك النواويس، وخزنت، ونقلت العظام بعناية، وجرى تحويلها إلى مقبرة اليهود المحافظين، من أجل إعادة الدفن وتم العثور على آلاف من النواويس في إسرائيل، ولا سيما في المقابر المنحوتة بالصخر خارج القدس، ولكن العثور على هيكل عظمي ما يزال ممدداً في موضع دفنه، وملفوفاً بكفن، كان هو الأول، فلسبب ما لم تعد أسرة الميت بعد المرحلة الأولى من الدفن، لوضع ميتها المحبوب في ناووس بشكل دائم.

وفي العادة، لم تكن المواد العضوية، مثل الأقمشة، يمكنها البقاء خارج منطقة صحراوية، وفي القدس، في الجبال ذات المناخ الرطب في الشتاء مع تساقط الأمطار، كان مثل هذا الاكتشاف أمراً لا يصدق، ويظهر أن القبر لم ينتهك منذ القرن الأول للميلاد، وترجع معظم مدافن منطقة حقل حق الدم إلى أيام يسوع، وقليل منها فقط قد فتحت أو سرقت عبر القرون، ولم يكن هناك دليل يجعلنا نعتقد بأن هذا المدفن اختلف عن المدافن الأخرى، وسمح جبسون بإمكانية أن يكون هذا المدفن اختلف عن المدافن الأخرى، وأن هذا الهيكل العظمي الخاص مع كفنه قد وضع هناك في عصر متأخر، لربما من عصر الحروب الصليبية، ولهذا السبب بقي محفوظاً، فهناك حالات جرى فيها إعادة استخدام بعض القبور في مدة متأخرة، ولكن جبسون كان يرى أنه لربما مررنا صدفة وعثرنا على المثال الأول لكفن من القرن الميلادي الأول، وهو الوحيد الذي تم كشفه حتى الآن، وكان يمكن لفحص للكربون / 14/ بعد تطبيقه على القماش، أن يخبرنا بالحقيقة، وذكرني المشهد بالفحص الأولي لمخطوطات البحر الميت، ففي ذلك الوقت وجد العلماء من الصعب الاعتقاد أنهم عاشوا لمدة ألفي عام، لكن المخطوطات قد

حفظت في الصحراء الفلسطينية الجافة وذات الحرارة المرتفعة، لكننا كنا في جبال القدس، حيث أنواء الشتاء ممطرة ورطبة، وبناء عليه كنا على استعداد لقبول تاريخ أواخر العصور الوسطى، أي أيام الحروب الصليبية كتاريخ محتمل للقماش.

ووصل الإسرائيليون مع مشرف من سلطات الآثار الإسرائيلية هو بوعز زيسو Boaz zissu وأمضينا بقية الليل في إزالة وإعادة ترتيب كل قطعة من بقايا القماش الهش، وأخبرنا بوعز بأن اللصوص حاولوا بداية من قبل فتح هذا القبر نفسه في العام 1998، لكنه كان هو وأمير غانور Ganor المسؤول عن حماية القبور في هذه المنطقة، قادرين على إعادة إغلاقه، ومنع نهبه كاملاً[4]، وما من واحد انتبه في ذلك الوقت إلى بقايا الكفن الخاص ببقايا الهيكل العظمي في القاعة السفلى.

وبما أن التلاميذ كانوا مدربين في علم الآثار، فقد سمح لهم بالمشاركة، وأمضى جبسون عدة ساعات جاثياً على يديه وركبتيه يحدق متفحصاً للكوى الضيقة، وتولى تلاميذ التصوير تسجيل وعنونة كل مرحلة من مراحل الكشف والترميم، وقد انتهينا مع الصباح تقريباً، وحملت بضاعتنا المعتنى بها إلى مخابر سلطات الآثار الإسرائيلية في متحف روكفلر، الواقع إلى الشمال من المدينة القديمة.

وعاد فريقنا إلى الولايات المتحدة بعد أيام، ومعه نموذج ثمين من القماش، قد جرى الترخيص له بسرعة بالشحن لأسباب علمية، وكانت وجهة الشحن مخبر Accele rator moss Spectrometry في جامعة أرزونا في تكسون، من أجل التأريخ بالكربون /14/، وكان هذا المخبر بالذات قد أرسل إليه من قبل في 1988 "كفن تورين" الذي تبين أن تاريخه هو العام 1300، وبذلك أظهر أنه كفن مزيف من العصور الوسطى، وحسبما كان مقدراً، اتصلت في تكسون بالدكتور دوغلاس دوناهيو Douglas Donahue، الذي كان هو الشخص الذي أشرف على فحص كفن تورين بوساطة الكربون / 14/ وأنا لم أخبر دوناهيو بأي شيء حول مصدر نموذجنا، وأخبرناه فقط بأننا نعلم أن هذا النموذج لم يكن حديثاً

وأننا نريد السرعة إذا كان ذلك ممكناً، ومع مرور الأيام وجدت أنه كان من الصعب التفكير حول أي شيء آخر، أو التركيز على أي عمل آخر.

وحدث بعد ظهر اليوم التاسع من آب، أن اتصل بي دوناهيو بوساطة الهاتف، في مكتبي في الجامعة، وقال بأن لديه نتائج الفحوص، ولقد كان لصوته وقعاً، وكان آمراً، وقد سألني عما إذا كنت جالساً، وبدأ يقرأ تقريره بصوت مرتفع، ولقد عشت لحظة الإثارة، عندما قال:"إن كفن حقل حق الدم يعود تاريخه بشكل علمي إلى النصف الأول من القرن الميلادي الأول"، أي هو من أيام يسوع بكل تأكيد.

وأرسل دوناهيو نسخة عن تقريره «بالفاكس»، وأرسلتها أنا على الفور إلى جبسون في القدس، وتضمنت رسالة دوناهيو المغلقة ملاحظة مهمة قوله: «سوف يكون أصدقاؤنا من أيام كفن تورين، مقدرين تماماً لنتيجة لمثل هذه، وسوف أكون مهتماً بمعرفة نتائج هذه النتيجة وما سوف ينجم عنها»، وكنا مع ذلك الوقت قد بدأنا بدراسة المدفن مع الذي بقي من محتوياته، وما من واحد منا كان يمكنه أن يتخيل النتائج البعيدة المدى التي سوف تأتي إلى النور.

وكان المدفن نفسه قد انتشرت فوق أرضه مئات القطع من النواويس المكسرة، والعظام المبعثرة، وكان ناووس واحد كبير وثقيل قد ترك سليماً، لكنه كان من دون كتابة عليه، وكان الذي فعله لصوص القبور بشكل اعتيادي هو نقل النواويس الجميلة، وكانوا يفضلون بعضها الذي عليه كتابة واضحة، فبذلك كانوا لا يغرقون سوق الآثار القديمة، حيث كانوا يخاطرون بالبيع غير القانوني للذين يجمعون الآثار، وكانوا عن قصد يدمرون البقية، لكي يحملوا القطع التي عليها كتابة، بما أن مثل هذه القطع كان بيعها سهلاً، وكانت تثير قليلاً من الانتباه.

وجمع جبسون فريقاً جيداً من الخبراء حتى يبدأ أعمال التحليل العلمي لبقايا،

دفن الكفن، وكان في فريقه مختصين بالطب الشرعي الإنساني، وخبراء بالنسيج، ومختصين بالحمض النووي، وعلم الأحياء، والخطوط، وقد توجب إعادة قطع النواويس، وتحليل قماش الكفن، وإجراء فحوص الحمض النووي، والفحوص الحيوية الأخرى، على بقايا الهياكل العظمية، وفي النهاية أعدنا عشرين ناووساً، ثلاثة منهم كانت عليهم كتابات، لم يستول اللصوص عليهم، وكان الاسم الأكثر وضوحاً هو اسم «ماريا» أو مريم، وقد كتب بالآرامية. ومن المحتمل أن الاسم الثاني هو «سالومي».

وكانت فحوص الحمض النووي على نماذج العظام ناجحة تماماً، على الرغم من مضي ألفي عام، وقد تمكنا من إنشاء شبكة حول القرابات، والروابط النسائية بين الأفراد المدفونين في القبر، وكان أمراً معتاداً قيام أسر عادية وأسر طويلة باستخدام القبر نفسه المنحوت بالصخر لعدة أجيال، وفيما يتعلق بالفرد صاحب كفننا، لقد استطعنا أن نؤكد أنه كان بالفعل ذكراً بالغاً، ومن المحتمل أنه كان ابن أسرة «ارستقراطية»، وقد عانى من الجذام «Hanson's disease»، ودللت الفحوص الحيوية الدقيقة وأشارت إلى احتمال كبير بأنه مات من سل درني.

وبدأت أنا وجبسون بالتفتيش في المصادر القديمة عن دليل له علاقة باستخدام أكفان الدفن والنواويس بين يهود الضفة الغربية والجليل خلال العصر الروماني، وقد تبين أن الإشارات في العهد الجديد أشارت إلى استخدام أكفان الدفن في أيام يسوع، وقد زودنا هذا بواحد من أكثر الأدلة قيمة المتعلقة بعادات اليهود في أوائل القرن الميلادي الأول في القدس، أي في الوقت نفسه لكفن رجلنا، وكان جسد يسوع بعد كل شيء قد غسل، وجرى لفه بقطعتين من الكتان شكلتا كفناً، ومدد مع حنوط فوق رف حجري، أو لوح حجري نحت في صخر مدفن أسرة، كان خارج أسوار مدينة القدس القديمة، ولابد أن رجلنا صاحب الكفن قد هيئ أو أعد مثل ذلك من أجل الدفن، ولم يكن لدينا سبب حتى نخمن بأن مدفننا، كانت له

أية علاقة من أية جهة من الجهات بالقبر الذي أخذه يسوع أولاً، ولكن كما قال جبسون لي: إن رجلنا «صاحب الكفن»، قد عاش ومات في القدس في أيام يسوع، وبحكم أنه كان من الطبقة العليا، من المحتمل تماماً أنه شاهد الحوادث المميتة لنهاية أسبوع عيد الفصح «عند اليهود» عندما جرى صلب يسوع.

وفي العام التالي، في صيف العام 2001، عدت إلى إسرائيل لمتابعة عملنا في كهف «يوحنا المعمدان» ومع ذلك كان مدفن الكفن، محتلاً حيزاً كبيراً من اهتماماتي، وقد شرعت في عمل بعض أعمال التقصي الحذرة في المدينة القديمة بين بعض الموثوقين الذين اتصلت بهم ممن كانوا يعملون في تجارة الآثار القديمة، وقد تمكنت من التأكد أن القطع المكتوبة المفقودة، والتي هي عائدة إلى نواويسنا، قد أخذت طريقها بشكل غير قانوني إلى السوق، ومن الممكن استردادها، وعند إحدى النقاط سألني الشخص الرئيسي الذي كنت أتعامل معه عما إذا ستكون هناك «علاوة» دفع إذا ما تم استرداد جميع النقوش المفقودة، ولقد حاولت أن أكون هادئاً، وفي الحقيقة، لقد كنت متحمساً لدى الكشف عن هذا السر، وشعرت بالإثارة لدى التفكير بأن المواد المفقودة من مدفن كفننا من الممكن استردادها، وكنت أعرف من جهة أخرى أن القيام بالدفع مقابل مواد مسروقة، كان شيئاً لا يمكننا القيام به، وقد رددت بكل بساطة، بأننا نستطيع أن نزيد القضية نقاشاً عندما يمكنني رؤية القطع، وشعرت أنه كان من المهم التأكيد على الجوانب العلمية لبحثنا، وبعد كل شيء كانت جامعتي ستصبح الآن مسؤولة عن نشر الدراسة الأكاديمية حول مدفن الكفن، ولم نكن نريد جمع بعض الأشياء الأثرية الجديدة، وتملكها، وكان لدي انطباع واضح أنه ينبغي أن يكون هناك من يستطيع القيام بعملية مقايضة من نوع ما، بسبب أن استرداد هذه القطع المكتوبة سيكون ثميناً من أجل دراستنا لمدفن الكفن، حيث سنتمكن من جمع أسماء الموتى، ونقارنهم بوساطة الحمض النووي مع البقايا البشرية القليلة التي ما تزال

موجودة داخل نواويسنا المستردة، وأخذت أنا وجبسون نبحث عن وسيلة نتمكن بوساطتها من التصرف قانونياً، وحدث هذا عندما وصلت انتفاضة الفلسطينين إلى مستوى شعرنا فيه بالخطر الكبير إذا ما تابعنا خطتنا، وعند إحدى النقاط في ذلك الصيف، وبعد سلسلة من تفجير ثلاث قنابل في نهاية أحد الأسابيع، أُخبرنا بعدم الذهاب حتى إلى داخل مدينة القدس على الإطلاق، وقد أقمنا أعمال كشفنا في كهف «يوحنا المعمدان» قرب مستوطنة صوبا على مقربة من الموقع،خارج المناطق الخطيرة.

واستأنفت في زيارتي التالية للقدس جهودي في البحث من أجل استرداد قطع نواويسنا المفقودة، من خلال اتصالات في سوق الآثار القديمة، وقد اكتشفت بسرعة أن كل شيء قد تغير، فحتى الذين كنت قد تحدثت إليهم من قبل، بدأوا يتصرفون وكأننا لم نتحادث من قبل، والذي كان قد تغير، هو الذي جرى الإعلان عنه في تشرين الأول لعام 2002، بأن ناووساً مكتوباً عليه «جيمس بن يوسف أخو يسوع» قد جرى اكتشافه فجأة، ذلك أن ظهوره والنقاش والخلاف الذي أعقب ذلك، وكان قد أثاره، دفع كل واحد يتعامل مع بيع الآثار في المدينة القديمة إلى التزام الهدوء الكامل.

صندوق دفن جيمس أخي يسوع

لقد كان بعد ظهر يوم الإثنين 21 تشرين الأول لعام 2002، عندما أعلن هيرشيل شانكس Hershel shanks محرر مجلة «الآثار التوراتية» في مؤتمر صحفي في واشنطن D.C بأن ناووساً مصنوعاً من الحجر الكلسي أو «صندوق عظام»، منقوش عليه بالآرامية القديمة عبارة «جيمس بن يوسف أخو يسوع» قد جرى الكشف عنه في القدس، ونشرت وكالة الأسوشيتيدبرس الخبر حول العالم بعد الظهيرة تلك، وفي الصباح التالي كانت هناك قصص حول ناووس جيمس على

الصفحات الأولى لصحيفة نيويورك تايمز، وصحيفة واشنطن بوست، وبشكل عملي في كل صحيفة أخرى في العالم، وفي ذلك المساء أذاعت جميع شبكات «التلفزيون» الكبرى الأخبار، وتبع ذلك قصص مبرزة في: التايم، والنيوزويك، وأخبار الولايات المتحدة والتقرير العالمي، ومع أن الناووس الذي حوى فيما مضى عظام جيمس، وليس يسوع، أكدت القصص وألحت على أن ذلك النقش، هو الأثر الغني الملموس الوحيد، الذي جرى الكشف عنه من القرن الأول للميلاد، وفيه ذكر ليسوع، وتزاحم الكتاب قليلاً للتعامل مع جانب «جيمس» من الحكاية، لأنه بات واضحاً بسرعة أن قليلاً من الناس سواء في الصحافة، أو بين الجمهور العام، كانوا على دراية بأن يسوع كان له أخ اسمه جيمس.

وقد أُخبرنا بأن جامعاً خاصاً للآثار مكتوم الاسم، ثم نشر اسمه فيما بعد، وكان إسرائيلياً اسمه عوديد جولان Ooded Glolan، كان قد اشترى الناووس قبل خمسين عاماً، من سمسار آثار قديمة في القدس، قد قال بأنه جلب من منطقة سلوان، إلى الجنوب من مدينة القدس، ولم يمنح جولان كبير اهتمام للنقش، كما أنه لم يدرك أهميته، وفي نيسان عام 2002، عرض صورة للناووس على أندريه ليماري Andre Lemaire أستاذ اللغات السامية في جامعة السوربون، الذي كان في زيارة للقدس، واضطرب ليماري على الفور، حيث أدرك أن مجموعة الأسماء والعلاقات، لا تشير إلى أي جيمس، بل إلى جيمس أخي يسوع المذكور في التقاليد المسيحية وكان من الصعب عليه أن يصدق ما تشاهده عيناه، وسمح له جولان بدراسة الناووس بشكل فعلي بعد ذلك، وبعد فحص دقيق اقتنع ليماري بناء على خبرته في النقوش القديمة، بأن النقش كان أصيلاً، وسئل جولان في مقابلة جرت معه فيما بعد، لماذا لم يدرك الأهمية الكبرى لمثل هذا الأثر، عندما اشتراه أولاً، فأوضح أنه كيهودي كان بالطبع معتاداً على ما جاء في التعليم المسيحي حول بتولة مريم، لكنه لم يتخيل قط بأن يسوع «ابن الرب»، كان من الممكن أن يكون له أخ،

وبالطبع هو لم يكن وحيداً في هذا التخمين.

وأخبر ليماري شانكس، وحدثه عن الناووس، عندما كان شانكس في زيارة للقدس في أيار عام 2002 وكان شانكس حذراً بشكل طبيعي، لأن هذا الناووس الخاص لم يأت من أية عملية حفر أثرية رسمية، وبالتالي يمكن أن تكون أصالته موضع سؤال. وقد طلب من ليماري أن يعد مقالاً مفصلاً حول الاكتشاف الجديد، من أجل أن ينشره في العدد المقبل من مجلة «الآثار التوراتية»، وقد أصر على فحص الناووس بشكل علمي، ووافق جولان، وعملت الترتيبات من أجل فحصه من قبل خبراء في المسح الجيولوجي لإسرائيل في القدس.

وطبعاً كان من الممكن للنقوش الكتابية فوق النواويس أن تزيف، ولكن عملية النحت في الحجر الكلسي القديم لن تحتوي على «الكمخة» الغشاء الأخضر القديم الذي يكسو وجه الحجر عبر الأيام، وفي الوقت نفسه أحضر شانكس عدداً آخر من خبراء دراسة النقوش والخطوط القديمة لتقديم آرائهم حول أصالة الكتابة نفسها، واجتاز الناووس جميع فحوص الأصالة براية مرفوعة، فقد توصل العلماء إلى أن الغشاء الأخضر «الكمخة» داخل الأحرف كان قديماً، وأنه مرتبط بقوة إلى الحجر، على الرغم من حقيقة أن واحداً قام بشيء من التنظيف للنقش، ولم تتوفر أية علامة على استخدام أية آلة حديثة أو جهاز، واتفق خبراء النقوش والخطوط القديمة مع تحاليل ليماري بأن النقش أصيل ومتوافق تماماً مع القرن الميلادي الأول، ولقد كان هناك قليل من الشك في أن الناووس قد حوى فيما مضى عظام «جيمس بن يوسف» مع أخ اسمه «يسوع»، كان قد مات ودفن في القرن الميلادي الأول.



نقش ناووس جيمس نسخ شمعون جبسون

وكـان شـانكس جـاهزاً للـذهاب إلى الـصحافة، وذهـب وهـو قـوي الاستعداد، بأن هذا الاكتشاف هـو الاكتـشاف الثـاني ولـربما هـو الاكتـشاف الأثري الأكثر إثارة في العصور الحديثة، واستأجر خدمات إيمي أوارد Emmy Award والمنتج الرابح سيمحا جاكوبوفيشي

من أجل إنتاج برنامج وثائقي لقناة الاكتشاف حول ناووس جيمس، يجري عرضه ويكون على الهواء في يوم أحد الفصح للعـام 2003، وعمـل أيـضاً صـفقة لنشر كتاب مشترك مع العالم التوراتي بن ويزرنغتون Ben witherington يتـزامن مع الفيلم المعروض[5]، وتم الاهتمام والإعلان في كـل مـن الكتـاب والفـيلم بـأن الاكتشاف، «هو الأول الذي فيه صلة أثرية مع يـسوع ومـع أسرتـه»، وبـإذن مـن جولان رتب شانكس لمعـرض خـاص للنـاووس في متحـف أونتـاريو Ontario الملكي في تورونتو Toronto، على أن يفتتح في تشرين الثاني لعـام 2002، ولم تكـن مدينة تورونتو ولم يكن شهر تشرين الثاني اختياراً جرى بالصدفة، فقد كان مقـرراً أن تسـتـضيف مدينـة تورونتـو الاجـتماع الـسنوي لآلاف العلـماء التـوراتيين، والآثاريين، والأكاديميين في دراسة الدين في نهاية أسـبوع مـا قبـل عيـد الـشكر، ورتبت جمعية الأدب التوراتي بسرعة من أجل عقـد جلسة خاصـة، توقـف عـلى البحث في أصالة ناووس جيمس، وأهميته الكبرى.

وتوجَّب على سلطات الآثار الإسرائيلية (IAA) أن توافق على إجازة شحن مؤقتة، ولكن عند تلك النقطة ما من واحد أدرك ضخامة الاهـتمام المتفجـر الـذي

سوف يتولد من الناووس، فعندما صار الناووس فجأة موضوع عناوين الأخبار، بعد المؤتمر الصحفي لشانكس في الحادي والعشرين من تشرين الأول في واشنطن D.C، كان الإسرائيليون غير متنبهين تماماً، وقد انزعجوا بما فيه الكفاية، لكن جميع الترتيبات من أجل معرض تورونتو كانت قد جهزت، وباشر الإسرائيليون على الفور البحث في الظروف التي أحاطت باستحواذ جولان على الناووس، لكنهم سمحوا للناووس بمغادرة البلاد، ووفقاً للقانون الإسرائيلي، إذا كان جولان قد حصل على الناووس بعد العام 1978، فإن بيعه كان غير قانوني، وكان خاضعاً للمصادرة من قبل الدولة.

وعندما وصل الناووس إلى تورونتو تصدع في المرور، وتولى فريق علمي في متحف أونتاريو الملكي مهمة ترميمه من أجل العرض، وجرى أحد الشقوق خلال جزء من الكتابة، وبذلك سمح للفريق العلمي في المتحف بمزيد من الفحص القريب، وخاصة الطريقة التي نحتت فيها الأحرف في الحجر الكلسي، واتفقوا مع العلماء الإسرائيليين بأن الغشاوة القديمة كانت موجودة في الأحرف، وكانت ثابتة الارتباط بالحجر، ومتساوقة مع بقية الناووس.

وكان حتى قبل اجتماع تورونتو، أثيرت أسئلة حول نتائج ليماري وشانكس، لكن ما من أحد شكك بأصالة الناووس نفسه، حيث كان واضحاً أنه قطعة فنية أصيلة من أيام يسوع، واعترض بعضهم على القيام بأية مناقشات حول الناووس، بما أنه جاء من «السوق السوداء»، ويفتقر إلى الإطار الأثري، وحاجج بعضهم وقال بأن عبارة «أخي يسوع» يبدو أنها كتبت بخط يد تختلف عن عبارة «جيمس بن يوسف» ومن المحتمل أنها أضيفت من قبل مزيف، وفضلاً عن هذا أصر بعضهم على القول بأنه حتى لو كان الناووس أصيلاً، نحن لا نستطيع أن نجزم أن «جيمس بن يوسف» صاحب الناووس، كان أخاً ليسوع الناصري، بحكم أن الأسماء الثلاثة كانت شائعة الاستعمال في ذلك الزمان.

وكنت قد رأيت الناووس للمرة الأولى في اجتماع تورونتو، في اجتماع خاص بعد ساعات اجتماع العلماء في متحف أونتاريو الملكي، وقد تمت دعوة حوالي الخمسة والعشرين منا، من مؤرخين، وآثاريين وخبراء بالخطوط والنقوش القديمة، وعلماء بالعهد الجديد، وقد وقفت إلى جانب شانكس، وسمعت أولاً ثلاثة هم أكبر خبراء العالم في الكتابات القديمة، وقد اتفقوا على أن النقش كان أصيلاً، وكانت المشاعر في الغرفة غير اعتيادية، متكهربة ولكن مهيبة بشكل غريب، وكابتة، وأنا أعتقد أن معظمنا كان مقتنعاً بأننا كنا واقفين أمام الصندوق الحجري الفعلي، الذي كان قد حوى عظام جيمس أخي يسوع الناصري.

وعندما عاد ناووس جيمس إلى إسرائيل في شباط عام 2003، صادرته سلطات الآثار الإسرائيلية وعينت فريقاً لتقرير فيما إذا كانت الأصالة تشمل النقش كله أو جزءاً منه، وكان الفريق مقسوماً إلى خبراء بالنقوش والخطوط القديمة، وعلماء طبيعيين كان عليهم فحص التركيب الجيلوجي الكيميائي للأثر، وفي حزيران لعام 2003، أعلن فريق سلطات الآثار الإسرائيلية، بأن الناووس كان أصيلاً، لكن جزئاً من النقش كان مزيفاً، وبعد مضي شهر جرى اعتقال جولان بتهمة تزييف الآثار، وأشير إليه بشكل رسمي، واتهم بأنه أضاف «عبارة أخو يسوع» إلى ناووس أصيل قد نقش عليه «جيمس بن يوسف»، وحاول أن يغلف الأحرف بمادة مغشوشة مشوية وأن يضعها فوق الغشاوة، وأنه كذب بشأن الساعة التي حصل فيها على الناووس، وكان ذلك كله بقصد إثارة اهتمام عالمي، والحصول على مرابح مالية، وتناولت أجهزة الإعلام بشكل واسع النتائج التي توصلت إليها لجنة سلطات الآثار الإسرائيلية، والتهم التي وجهت إلى عوديد جولان، وأعطت الصحافة ووسائل الإعلام إلى الجمهور الانطباع بأن الخبراء قد توصلوا الآن إلى أن ناووس جيمس كان مزيفاً[6]، لكن من الصعب القول بأن هذه كانت القضية، فقد ظلت مسألة الأصالة بعيدة عن التسوية النهائية[7].

واستمر اندريه ليماري خبير السوربون بالخطوط والنقوش القديمة يدافع بقوة عن أصالة النقش، وعرض أن يقدم ردوداً مفصلة على الذين شككوا في أصالة الناووس، ولم تكن آدا يارديني Ada Yardeni عضواً في لجنة السلطات الإسرائيلية للآثار، لكنها كانت واحدة من الخبراء القياديين في الكتابات القديمة، وقد وافقت على ما ذهب إليه ليماري، وأوضحت بعض السمات الأصيلة الفريدة حول العبارات الآرامية في النقش، وأن هذه العلامات لم يكن من الممكن لأي مزيف أن يعرفها، ثم إنها عرضت في النهاية قولها: «لو أنه مزيف فأنا أستقيل»[8]، فالتأريخ يظهر أن مامن حرف أو شكل قد جرى تزييفه، لانعدام الدليل، وفي الحقيقة كان هنالك واحد من أعضاء فريق سلطة الآثار الإسرائيلية، قد تراجع عن حكمه الماضي، بعدما ساير التصويت الأساسي، وقال الآن بأنه يعتقد بأن النقش كان أصيلاً، وقام خبراء آخرون مؤهلون بمراجعة فحوص الآثار الإسرائيلية الكيماوية حول الغشاوة، وتوجب على الجيولوجيين من هيئة الآثار الإسرائيلية التراجع عن نظرياتهم المقترحة حول كيفية لحاق التزييف بالغشاوة، وقال واحد من أعضاء لجنة هيئة الآثار الإسرائيلية، بأنه رأى غشاوة قديمة في الحرفين الأخيرين من النقش، أي في الجزء ذاته المفترض أنه مزيف، أما بالنسبة للجيولوجيين من هيئة المسح الجيولوجي لإسرائيل، الذين وجدوا في البداية أن النقش أصيل، فإنهم لم يغيروا موقفهم، ومثل ذلك لم يفعل الفريق العلمي في متحف أونتاريو، الذين كانوا قد فحصوا الناووس بعدما تصدع[9].

والظاهر أن نقش ناووس جيمس كان أصيلاً، وهناك دليل ظرفي معتمد، بأنه قد نهب من مدفن كفننا، إما عندما سرق للمرة الأولى في العام 1998، أو ربما قبل أن نكتشف بأنه نهب للمرة الثانية في حزيران لعام 2000، فهل كان من الممكن أننا من دون أن نعرف عثرنا صدفة على قبر أسرة يسوع؟

وعدم الاتساق في قصة عوديدجولان تتعلق بتاريخ حصوله على الناووس،

فعندما ظهرت الحكاية للمرة الأولى في تشرين أول عام 2001، كان قد أخبر شانكس، بأن الناووس كان لديه منذ حوالي الخمسة عشر عاماً، وقام فيها بعدة مقابلات، قال فيها بأنه قد حصل عليه في منتصف سبعينات القرن العشرين، أو قبل ذلك بحوالي خمسة وعشرين عاماً، فهذا يجعل التاريخ قبل العام 1978، عندما كان شراء مثل هذه الأشياء قانونياً، وقال مرة بأنه حصل عليه في العام 1967، بعد حرب الأيام الستة مباشرة، مما كان معناه أنه كان متملكاً منذ خمسة وثلاثين عاماً، لكن بقية قصته متّسق ومنسجم، حيث قال بأنه اشتراه من عربي بائع للآثار في مدينة القدس القديمة، وأن هذا البائع قال: بأنه جاء من منطقة سلوان، التي هي قرية عربية واقعة إلى الجنوب من المدينة القديمة حيث يلتقي واديا قدرون وهينوم.

وفي حديث غير رسمي توسع عوديد جولان حول موضوع سلوان، أمام رافي لويس وكان ذلك في شقة سكن جولان في تشرين أول عام 2003 «كان رافي لويس في حزيران عام 2002 مساعد شمعون جبسون، وكان معنا في الليلة التي عثرنا فيها على مدفننا المنهوب»، وكان رافي قد سأل جولان عما إذا كانت «سلوان» ضمن وادي هينوم، فرد بكلمة نعم، ثم أوضح: في الحقيقة جاء ناووس جيمس من وادي هينوم، وطبعاً حقل حق الدم، هو المكان المحدد لمدفن كفننا[10].

ووفقاً لما ذكره شمعون جبسون، كان هناك مدفنان فقط قد نهبا في منطقة وادي هينوم في تسعينات القرن العشرين، فالمدفن الأول جرى الكشف عنه ثم أعيد ختمه، وليس هناك دليل على أن نواويس قد أخذت من ذلك المدفن، وكان المدفن الثاني هو مدفن كفننا، ولنتذكر ما قمت به من بحث وتقصٍ في المدينة القديمة بعدما عثرنا على المدفن، فذلك أشار إلى أن السوق السوداء قد «غرقت» فجأة بمواد نواويس جديدة.

وكان هناك ناووس واحد من مدفن كفننا قد استرعى انتباه جبسون وانتباهي، حيث امتلك حافة محزوزة بسيطة سارت عبر طرف الأسيجة، وهي

مماثلة تماماً للنموذج الذي وجد على ناووس جيمس، فقد جاءت النواويس بأشكال كثيرة ومتنوعة الأنماط والتزيينات، وكثير منها لها حواف، لكنني لم أشاهد ناووساً آخر يمتلك حافة مماثلة ووفق النمط نفسه تماماً، وفي سبيل إلقاء نظرة أولية، قمت مؤخراً أنا وجبسون بزيارة المخزن في بيت شمس، حيث كانت نواويسنا مخزونة، وكان هذا الناووس الخاص أصغر من ناووس جيمس، ومن المحتمل أنه كان مخصصاً لطفل، ولكن يمكن الحكم من خلال التناظر والشبه الشديد، أنهما كما هو مرجح قد صنعا من قبل النحات نفسه، ولدى استعراضنا للصفوف الطويلة من الرفوف الحاوية لمجموعة هائلة من النواويس عائدة لدولة إسرائيل، لم نشاهد نماذج أخرى نظيرة لهذين، وبدا الأمر أمامنا وكأن هناك لغزاً آخر في الأمر، حيث من المعقول أن أسرة اشترت ناووسين من الحرفي نفسه، وبذلك صار النموذجان متشابهين.

وهناك طريقة واحدة يمكن أن تحل بها هذه المشكلة، هي أن ناووس جيمس كان ما تزال فيه كمية كبيرة من مواد العظام، عندما عرض للمرة الأولى على هيرشل شانكس، وعلى معد الفيلم سيمحاجاكوبوفيشي، وكان سيمحا يهودياً محافظاً، وقد نقل عنه قوله لواحد من نيويورك «لقد نظرت في الصندوق، فقد كان مايزال فيه بعض قطع من العظام، ففكرت وقلت: عجباً يا إلهي، إذا كان هذا حقيقياً، فإن الحمض النووي ليسوع موجود هنا[11]»، وقام عوديد جولان فيما بعد بإزالة القطع قبل شحن الناووس إلى تورونتو، وقام مرة بعرض وعاء بلاستيكي على مراسل لمجلة التايم، وقال بأن هذا الوعاء مليء بتلك العظام، وهنا من المفترض أن الإسرائيلين الذين أغاروا على شقته، يمتلكون هذه البقايا، وبما أننا قمنا بفحوص واسعة للحمض النووي على بقايا الهياكل العظمية لسكان مدفننا، مدفن الكفن، فلماذا لا نفحص العظام من ناووس جيمس، حتى نعرف إذا كان هناك أية تشابه ممكن في خلايا فحص الحمض النووي؟ فذلك سوف يخبرنا فيما إذا

كان الميت صاحب ناووس جيمس امتلك قرابات نسب في المدفن، أو ربما أن الناووس العائد لامرأة كان ناووس أمه، أو ربما لن نحصل على نظير على الإطلاق، ولسوف يكون مهماً بصورة خاصة معرفة نتيجة فحص الحمض النووي لبقايا ناووس جيمس وبقايا ناووس «ماريا» أو مريمنا، من مدفن الكفن.

وتقدمت في 17 تشرين الثاني أنا و جبسون بطلب رسمي من خلال رسالة بعثناها إلى شوكا دورفمان Shuka Dorfman، مدير سلطة الآثار الإسرائيلية، حتى يسمح لنا بالقيام بفحوص الحمض النووي على بقايا الهياكل العظمية من ناووس جيمس، وكان اعتقادنا أنه سواء أكان النقش على الناووس أصيلاً أو مزيفاً – وكان دورفمان يعتقد أنه مزيف – فهناك قيمة علمية في التأكد من معرفة المكان الذي جاء الناووس منه بالأصل، ومع تقدير الدليل الظرفي بأنه من الممكن قد جاء من مدفن الكفن، يمكن لفحص الحمض النووي بناء عليه أن يساعد على تقدم معرفتنا، بصرف النظر أوجد تناظر أم لم يوجد، وليس مهماً أيضاً الموقف الذي يتخذه أي واحد حول النقش نفسه.

وجرى رفض طلبنا على الفور، على أساس أن العظام التي كانت في الناووس قد أضافها جولان للتمويه على التزييف، ولا علاقة لها بالأصل، وهذا يجعل أية فحوص غير ضرورية، وكنا نعرف بأن تلك لم تكن القضية، بل إن إجراء فحوص الحمض النووي على عظام «جيمس» وعلى عظام «ماريا»، خاصة إذا كان جيمس ذاك الذي كان لديه أخ اسمه يسوع، فذلك كان معناه الانتقال من مملكة العلم إلى مملكة اللاهوت، وكان أملنا أنه عندما ستنتهي محاكمة جولان ومن ثم تخمد عناصر الإثارة والانفعالات، سوف نكون قادرين على متابعة هذه الفحوص العلمية، لكن كان هناك جانباً كيدياً آخر في هذه الحكاية التي لم تنته.

السر الخفي لمدفن تلبيوت

لم تكن قصة «ناووس جيمس» القصة الأولى التي تولدت عنها عناوين حول نواويس قديمة، واحتمال علاقتهم بيسوع، فقبل عيد الفصح لعام 1996 بوقت قصير تفجرت حكاية مثيرة حول «اكتشاف مدفن أسرة يسوع» فقد روي بأن مدفناً يعود زمن اكتشافه إلى العام 1980، لكن لم يعلن عنه أبداً لينال الاهتمام الشعبي، ويحتوي هذا المدفن على مجموعة مهمة من الأسماء التي لها مشاركة مع أسرة يسوع، بما في ذلك: مريم، ويوسف، ومريم أخرى، ويهوذا بن يسوع، ومتى، والأكثر أهمية يسوع بن يوسف، وقد عرضت صحيفة السندي تايمز اللندية القصة في صفحة أولى كاملة، واتسم المقال بأنه حمل العنوان التالي: «مدفن الذي لانجرؤ على ذكر اسمه»، وفي يوم 31 آذار، في صباح عيد الفصح، تحدثت محطة الإذاعة البريطانية عن السمة الوثائقية للمدفن تحت عنوان «الجسد موضع البحث»، وقامت وكالات الأخبار: الأسوشيتدبرس، وورويتر، وغانيت Gannett بنشر القصص من بداياتها، لكن بمعالجة عميقة، وأردفتهم بتقاريرهم التي بعثت من قبل مراسليهم الذين اندفعوا يتسابقون نحو موظفي سلطة الآثار الإسرائيلية غير المشكوك بهم في مدينة القدس القديمة، وطالبوا بصخب أن يعرفوا المزيد، أما بالنسبة لناووس جيمس، لقد جرى ضبط الإسرائيليين وإمساكهم في وسط الأشياء.

وكان السؤال الذي أثير بقوة هو: متى جرى الكشف عن المدفن؟ ولماذا لم ينشر الخبر للناس على الفور؟ وهل كان هناك نمط ما من التغطية، بسبب محتويات المدفن التي تسبب صدمة[12]؟.

ففي العام 1995، أي قبل عام من إعلان الخبر، كان هناك طاقم من BBC/CTVC للتصوير البريطانية تحت قيادة ري بروس Ray Bruce، وكرس مان Chris Mass، موجوداً في القدس، من أجل تصوير فيلم وثائقي حول قيامة

المسيح، مخصصاً من أجل عيد الفصح المقبل، وكان هدف رجال هذا الطاقم أن يقدموا إلى الجمهور البريطاني أفضل دليل تاريخي، وأثري مرتبطاً بتقارير قبر يسوع الفارغ وقيامته، وكان بنيتهم أن يكون برنامجهم كله إثارة وتحريضاً وتحدياً، لكنهم لم يكونوا يتصورون المفاجأة التي كانت بانتظارهم.

وقد وصلوا إلى مستودع آثار السلطات الأثرية الإسرائيلية في روميا Romemma، الموجود في ضاحية القدس، حيث كانوا قد أعدوا لبعض أعمال التصوير الاعتيادية «لنواويس» من القرن الأول للميلاد، وكان ري بروس، وكرس مان قد أعدا بعض الأعمال في المنزل، فقد علما من «دليل آثار» نشر في العام 1994 من قبل ل.هـ. رحماني[13] L.H.Rahmani أن هناك ناووساً، أو بالأحرى مجموعة نواويس مخزونة ومرتبة في مجموعات إسرائيلية مختلفة، وأن ستة منها كانت تحمل الاسم يسوع «يشو، يشوا، أو يوشوا في العبرية»، وأنه بين هؤلاء الستة، اثنان منهم قد نقش عليهما اسم «يسوع بن يوسف».

وكان الأول قد عثر عليه في العام 1926، وكان محفوراً بشكل جميل، وواضح القراءة[14]، وكان الثاني قد تم العثور عليه في العام 1980، والقراءة غير واضحة تقريباً، والنقش قد حفر فوق الحجر بوساطة مسمار، أو بوساطة آلة حادة الرأس ومدببة، ولحسن الحظ كانا محفوظين معاً في مستودع روميا، وكان أمين المتحف باروك برندل Baruk Brendel على استعداد لأن يري الطاقم البريطاني الناووسين[15]، وكان الطاقم بالطبع مسروراً لأن يكون قادراً على تصوير ناووس سليم، عليه مثل هذا النقش، ويعود إلى زمن حياة يسوع بالذات، وبقيت الأمور حتى هذه النقطة عادية إلى أبعد الحدود، بما أنه حتى الناووس مع اسم «يسوع بن يوسف» وإن كان مثيراً للناس، لم تعد له أهمية خاصة من قبل الاختصاصيين، لأن الاسم كان شائعاً كثيراً في ذلك الزمان، ثم بدأت الإثارة.

فقد سأل كرس وري باروك عما إذا كان أي واحد من النواويس في

المجموعة له علاقة بأي من نواويس «يسوع بن يوسف» وجرى فحص الدليل، والمعلقات، فتبين أن خمسة آخرين كانوا على الرفوف بالقرب، وأن الجميع قد عثر عليهم في المدفن نفسه، وهم نواويس يحملون اسم «يسوع بن يوسف، وكان المدفن موجوداً في تلبيوت الشرقية، إلى الجنوب من القدس تماماً، أي القدس القديمة، وجرى اكتشاف المدفن أثناء تفجير بمادة الـ TNT من قبل فريق كان يتولى إنشاء مجمع من الشقق السكنية، وقد قام الآثاري الإسرائيلي يوسف غاث Gath الذي هو ميت الآن بالحفرفية والكشف عنه بهدوء، حتى يمكن متابعة العمل في المنشأة.

ومن باب الفضول سأل ري وكرس حول الأسماء على النواويس الخمسة الأخرى، وعلق كرس فيما بعد أنه عندما كان برندل Brendel يكتب بطاقات الأسماء «كان هناك شعور وكأن كرة اليانصيب الوطني حققت الجائزة الكبرى»، ذلك أنه بالإضافة إلى ناووس «يسوع بن يوسف» كان هناك: يوسف، ومريم التي من المفترض أنها زوجته، ومريم أخرى، ويهوذا بن يسوع ومتى(16).

وبالنسبة إلى الطاقم كانت هذه لحظة صحفية صنعت في السماء، ذلك أن القبر التقليدي الذي دفن يسوع فيه كان خارج المدينة القديمة مباشرة إلى الشمال منها، والموقع هو في هذه الأيام حيث تقوم كنيسة الضريح المقدس، فقد وضع يسوع على عجل في قبر قرب موقع الصلب، من قبل أرستقراطي، ومتعاطف معه صاحب نفوذ، هو يوسف الرامي، ولم يوضع في مدفن أسرته، ويستخرج حتى من الأناجيل أنه وضع هناك بشكل مؤقت، بسبب اقتراب حلول عيد الفصح اليهودي، ومع أن الأسرة كانت من الناصرة، وهي بلدة إلى الشمال في الجليل، يشير العهد الجديد إلى أن مريم وكذلك أخوة يسوع وأخته، اتخذوا مقر إقامتهم وسكناهم في القدس، وذكرت التقاليد بأن مريم أم يسوع، ماتت في الحقيقة في القدس ودفنت فيها، وليس في الجليل، وليس هناك الآن أقل من موقعين يعرضان

هذه الأيام على السواح، مع الادعاء بأنها الموقع، وليس هناك من حاجة للقول بأن مدفن تلبيوت لم يوضع على أية خريطة سياحية.

هل كان من الممكن أن بقايا جسد يسوع الميت قد دفنت أخيراً، مع بقايا أبيه وأمه، وهل كانت مريم الأخرى هي أخت له، أو أنها كانت رفيقته المقربة مريم المجدلانية؟ وهل من الممكن أن «يهوذا بن يسوع» كان ابنه الجسدي؟ ولقد كانت الإمكانيات مثيرة جداً مثلما كانت تسبب الصدمة وهرطقية.

وعقد المخرجون مقابلات مع عدد متنوع من اليهود، والمسيحيين الأثريين والمؤرخين الذين كانوا على معرفة بالمدفن، وظهر وكأن كل واحد وافق على أنه وإن كانت الأسماء مهمة، إلا أنها كانت شائعة كثيراً في تلك المدة الزمانية، ولكن أن تقول إن اجتماعهم هكذا هو أمر نادر، فهذا غير محسوم، وقد أوضح عدد منهم بأن اسم مريم كان الاسم الأكثر شيوعاً بالنسبة للإناث في ذلك الزمان، وأن اسم يوسف كان الثاني من حيث الشيوع بين الذكور، وذلك بعد اسم سمعان، وأكد عاموس كلونر Kloner الذي نشر فيها بعد التقرير الرسمي حول حفرية تلبيوت على أن «إمكانية أن يكون الضريح عائد لأسرة يسوع هي قريبة جداً من الصفر[17]»، ووافق موتي نيغير Moti Neiger المتحدث باسم السلطات الإسرائيلية الأثرية «بأن فرصة أن تكون هذه هي أماكن الدفن الفعلية للأسرة المقدسة هي منعدمة تقريباً[18]».

لكن كانت كلمة «تقريباً» هي التي أثارت اهتمام المخرجين، وقد ظهر أن كل واحد قد اعترف بأن هذا «العنقود» من الأسماء، بين مئات النواويس المرقونة، لانظير له، حتى وإن كانت أسماء الأفراد - على كل حال - شائعة، ولقد ظهر بأن جو زياس Joe Zias الذي هو أمين في متحف روكيفيلر Rockefeller، والذي كان عارفاً بالمدافن اليهودية مثل أي واحد، ظهر بأنه الخبير الوحيد الذي اعتقد بأن الجمع لربما مهم بحد ذاته، ويستحق المزيد من

البحث، وعلق قائلاً: «لو أنه لم يتم العثور عليهم في الضريح لكنت قلت بأن ما نظر إليه هو مائة بالمائة مزيف، ولكن هذا جاء من محيط أثري جيد جداً، لم يتعرض للتشويش، وهو ليس شيئاً جرى اختراعه[19]».

وكان الطريق العلمي الوحيد الذي يمكن اتباعه هو إجراء فحوصات الحمض النووي على نماذج من العظام، من أجل التأكد على الأقل من مدى القرابة من جهة الأم بين الأفراد المدفونين هناك، ومهما تكن النتائج، ليس مهماً أن لاتبرهن على أن هذا اليسوع الخاص لم يكن الذي أصبح يعرف بالمسيح، لكن من الممكن لهذه أن تظهر أي واحد من الأفراد كان ابناً لواحدة من المريمتين، أو أنه كانت هناك علاقة نسب ربطت إحداهن بالأخرى.

وإذا ظهر أن ما من واحدة من المريمتين هي الأم «ليسوع» هذا، فإن ذلك سيزيل إمكانية أن هذه كانت الأم ومعها ابن العقيدة المسيحية، ولكن من الممكن أن تكون إحدى المريمتين أختاً أيضاً، وبما أن اسم يوسف كان اسم ذكر شائعاً كثيراً، ينبغي أن نفترض بأن الناووس الحامل لاسم يوسف كان بالضرورة لأب لواحد حمل اسم «يسوع بن يوسف»، وهو بذلك يكون بسهولة قريباً من الآخر وفق طريقة أخرى، أو لا يكون على الإطلاق.

ونقل نيل سيلبرمان Neil Sulberman عن داود فلوسر Flusser المتوفى، والذي كان استاذاً كبيراً حول اليهودية القديمة والمسيحية المبكرة، في الجامعة العبرية، قوله حول هذا الموضوع: «منذ سنوات كثيرة جاء إليّ رجل من هيئة الإذاعة البريطانية وسألني عما إذا كانت مخطوطات البحر الميت سوف تلحق الضرر بالمسيحية، فقلت له: ما من شيء يمكنه أن يضر بالمسيحية، والشيء الوحيد الذي يمكن أن يكون خطيراً بالنسبة للمسيحية هو العثور على مدفن فيه تابوت أو ناووس يسوع، وهو ما يزال يحوي عظامه، ولسوف أقول: أنا آمل بالتأكيد أن لا يتم العثور عليه في أراضي دولة إسرائيل[20]».

فلقد كانت هذه هي المادة التي صنعت منها الروايات، وهناك روايات كثيرة قد نشرت حول «العثور على عظام يسوع»، ولكن في عالم الآثار الحقيقي، تشكل مثل هذه الأشياء ضربة عنيفة للعواطف، فقد علق العالم التوراتي الأب جيروم مورفي أو-كونّور Jerome Murphy O,Connor في مدرسة القدس التوراتية، بقوله: مع أنه ليست هنالك طريقة للبرهنة على أن الناووس المنقوش عليه «يسوع بن يوسف» هو يحتوي على عظام المسيح، ولكن مثل هذا البرهان سيحدث نتائج مأساوية على العقيدة[21]».

ولدى الإسرائيليين حساسية كبيرة تجاه العالم المسيحي، وهم يحافظون على علاقات دبلوماسية مع الفاتيكان، ولسوف يكونون مسرورين بشغل دور الترحيب بالسياحة المسيحية إلى الأرض المقدسة، وآخر الأشياء التي يريدون التورط بها هي بعض المكتشفات الأثرية، التي سوف تلهب الخلافات أو تثير النقاشات المسيحية اللاهوتية، فمدفن «أسرة» يسوع سوف يكون مشكلة، ولكن مدفناً فيه ناووس كتب عليه «يسوع بن يوسف»، سوف يضعهم في موقف حساس يمكن تصوره.

ومع أنه من غير الممكن البرهنة على أن هذا المدفن بالذات كانت له علاقة بيسوع الناصري، إلا أن الذي يجعل المدفن بالغ الأهمية ليس فقط مجموعة الأسماء، بل حقيقة أن هذه النواويس جاءت من محيط موثق وتحت الإشراف الأثري، ولسوف تجري دراسة المدفن والبقايا التي فيه بشكل علمي، فلعل هناك المزيد سوف نعرفه من الفحص الدقيق لجميع الأدلة المتعلقة بالمدفن، أو من الممكن القيام بمزيد من الأبحاث في الموقع نفسه، وبعد كل شيء، فإن يوسف غات، المكتشف الأساسي هو ميت الآن، والتقرير الرسمي حول المدفن لم ينشر بعد.

وتحدثت وسائل الإعلام وروت كيف أن مبنى للشقق قد جرى تشييده فوق مكان المدفن بعد اكتشافه بوقت قصير في العام 1980، فطمس معالم الموقع، وأغلق بالقوة إمكانية أية أبحاث إضافية مباشرة، وإلى أن يجري نشر التقرير الرسمي حول

المدفن، ظهر أن هناك زيادة قليلة من المعرفة يمكن الحصول عليها.

وأنا لم يكن لدي أدنى فكرة على الإطلاق حتى العام 1996 بأن مدفن تلبيوت سوف يصبح جزءاً من أبحاثي المباشرة في السنين المستقبلية، ولا كيف يمكن أن يكون مرتبطاً ببحثي حول الأسرة الحاكمة ليسوع، ولم أكن أنا وشمعون جبسون قد التقينا بعد، فبعد حوالي العقد من الزمن، في أوائل العام 2004، علمت بأن جبسون قد ساعد غاث في حفريات عام 1980 لهذا المدفن، وأنه أعدّ الرسومات الرسمية من أجل النشر، ووقتاً تلو الآخر تبين لي أن جبسون هو الرجل الصحيح في الوقت الصحيح، ولحسن الحظ فإن ربط المكتشفات بهذا الاكتشاف لن يكون موضع شك في أن تربط على الإطلاق.

وكان ري بروس وفريقه قد أخبروا بأن النواويس كانت «فارغة» من العظام، مشيرين إلى احتمال أن المدفن قد تعرض للسرقة في وقت مضى، وأن العظام قد ضاعت أو تبعثرت ونحن نعلم الآن أن هذا لم يكن هو الواقع، فوفقاً للتقرير الرسمي حول مدفن تلبيوت، الذي نشر في العام 1996 من قبل عاموس كلونر، كانت هذه النواويس فيها عظام بشكل مؤكد[22]، وتبعاً للقانون الإسرائيلي، من المتوجب تحويل جميع البقايا الإنسانية من ضريح إلى السلطات اليهودية الأرثوذكسية من أجل إعادة الدفن، وفي هذا منع، كما هو واضح لإمكانية إجراء أي فحص على الحمض النووي، أو أية أنواع أخرى من الفحوص العلمية، ولقد قلت شخصياً: إنه كما «يظهر» طالما أن معظم النواويس، حتى النواويس الموجودة في أماكن تجميع آثار دولة إسرائيل، ما تزال تحتوي على بعض البقايا الإنسانية الطفيفة، وأجزاء من بقايا العظام، اللهم ما لم تكن النواويس قد كشطت من أجل التنظيف، وهذه ليست ممارسة معتادة، فإن بإمكان فحوص الحمض النووي الخبيرة أن تقدم أدلة من خلال أصغر النماذج.

وكنت قد سألت جبسون حول مدفن تلبيوت لدى زيارتي لإسرائيل في

العام 2004، فكان أن تذكر أمرين غير اعتياديين حول ذلك المدفن بشكل خاص، وذلك بالإضافة إلى عنقود أسماء الأسرة المهم، فقال بأن واجهة الضريح امتلكت تزيينات غريبة حفرت فوق الواجهة فوق المدخل، وكانت هذه التزيينات عبارة عن دائرة مع هرم مقلوب عليها، وما من أحد ظهر أنه كان يعرف ما معنى ذلك أو إلى أي شيء يرمز، وكان هناك أيضاً ثلاث جماجم وضعت بشكل غريب على أرض المدفن، كل جمجمة منها في واجهة غرفة صغيرة، أو عمود وضعت نواويس عليه، وأخرج جبسون من ملفاته صورة قديمة لمدخل الضريح، كما نشر أمامي تفاصيل تخطيطه ورسمه الأصيل لمخطط المدفن، حيث كانت الجماجم مشاهدة بكل وضوح، بما في ذلك مخططه حسبما كان قد رآهم تماماً.

ومن الغريب أن التقرير الرسمي الذي نشر حول المدفن من قبل عاموس كلونر في العام 1996، ورسوم جبسون ومخططاته قد ظهرت من دون الجماجم التي كنست بكل عناية، وقررت أنا وجبسون القيام بشيء من أعمال الشرطة السرية، وأعتقد أننا سوف نكون كما هو محتمل أول أثريين في التاريخ، نمضي للبحث عن مدفن قديم من دون أن نستأذن ونقرع الأبواب.

وقد ذهبنا إلى الجوار، إلى الشارع نفسه الذي كان فيه المدفن مشاهداً قبل قرابة خمسة وعشرين عاماً مضت، وكان جمعاً من الشقق قد بني فوق الموقع، وشرعنا بالبحث والتقصي هناك، وكان الذي أدهشنا أن السكان القدماء عرفوا «شقة المدفن»، وقد اعتقدوا بأن تلك الشقة منحوسة، وأنها أصبحت موضوعاً لقصص أشباح محلية، وقرعنا على الباب، فأكد لنا المالك الحالي، أنه كان هناك مدفن تحت أرض شقته، أمام المطبخ تماماً، حيث كانت هناك منطقة رواق مرفوعة، ودللت فتحات التهوية على البقعة، وأخبرنا الملاّك بأنه اشترى المكان مقابل ثمن جيد، على الرغم من الحكايات، وأنه لا يؤمن بمثل هذه الأوهام والخرافات.

وفي العام التالي جمعت أنا وجبسون قليلاً جداً من المعلومات المنشورة حول مدفن تلبيوت، وقمنا في العام 2005 بفحص الملفات الأصيلة حول الاكتشاف في الوثائق الإسرائيلية، لأن جبسون كان مشرفاً على الطاقم الأساسي، وقرأنا الملاحظات المكتوبة باليد من قبل غاث، المكتشف الميت، والتي هي غير منشورة، وفي أثناء فحص ملف تلبيوت، علمنا بأن مدفنين قد عثر عليهما في المنطقة، وهما على قرب كبير أحدهما من الآخر، وقد أغلق أول المدفنين وختم وترك من دون الكشف، وكان الآخر المدفن الذي تولى جبسون رسمه، يعني المدفن الحاوي لعنقود الأسماء غير الاعتيادي، ونحن لا نعرف ولا نمتلك أية فكرة عما إذا كان المدفنان لهما علاقة ببعضهما، لكن هذه الإمكانية قد خطرت لنا، ولم نكن متأكدين من معرفة أي المدفنين كان تحت الشقة، وكانت الطريقة الوحيدة، هي محاولة إنزال آلة تصوير آلية من خلال أنابيب فتحة التهوية، لمعرفة فيما إذا كان المدفن قد كشف أثرياً أم لا، ولم يكن واضحاً فيما إذا كنا سنجد أي شيء مهم إذا عدنا إلى المدفن المكشوف، أو أن اهتمامنا كان فضولياً، فالعلامة الغريبة على واجهة المدفن، والجماجم الثلاث الموضوعة بشكل طقوسي أمام النواويس، وعنقود الأسماء المهم، إن هذا كله كان يتوسل للحصول على إيضاح وشرح.

وقررنا الذهاب إلى بيت شمس خارج القدس مباشرة لإلقاء نظرة أولية على نواويس تلبيوت فهم الآن في المستودعات مع مئات من القطع الأثرية الأخرى، وقد شيد المستودع هناك من قبل سلطات الآثار الإسرائيلية، فهناك يشاهد الإنسان رفاً بعد رف، ومن الأرض حتى السقف قد ملئت بمواد مخزونة، وهي جميعاً مصنفة بشكل دقيق، ومعرّفة بكل دقة، ذلك أن معظم مجموعة نواويس إسرائيل مخزونة هناك، ولقد كانت هناك مفاجأة رئيسة.

الناووس المفقود

أظهر مخطط شمعون جبسون حول حفريات مدفن تلبيوت بوضوح عشرة نواويس كاملة، وفي النشرة الرسمية حول المكتشفات المعدة من قبل عاموس كلونر جرى أيضاً تأكيد أن عشرة نواويس جرى الكشف عنها، وأنها حفظت من قبل سلطات الآثار الإسرائيلية، ومرّ كلونر بحرص فيما بينهم واحد إثر آخر في تقريره، ووصفهم بالتفصيل بالنسبة للحجم، والزينة والنقوش المكتوبة، وعندما وصل إلى الأخير، وهو العاشر، قدم كلمة واحدة لوصفه وهي «ساذج» وليس شيئاً أكثر، وظهر أنه لم يكن لديه في ملفاته شيئاً آخر زيادة تعلقت بهذا الناووس العاشر، تجاوزت مساحة أبعاده، وهي: 20 في 26 في 30سم، ووضع مع كل وصف صورة للناووس موضوع البحث، لهم جميعاً باستثناء العاشر، وبما أن كلونر لم يكن الكاشف الأصيل، هو قام بكتابة تقريره الذي أسسه على ملاحظات غاث المتوفى الآن.

ولكن في الدليل الرسمي للنواويس المجموعة في دولة إسرائيل، والذي نشر من قبل رحماني في العام 1994، ذكر تسعة نواويس فقط من هذا المدفن، ونحن نعرف بكل تأكيد بأن العاشر قد أعطي من قبل سلطات الآثار الإسرائيلية رقم (80.509).

وعندما وصلنا إلى مستودع بيت شمس أخبرنا أمين المتحف، بأن هناك مشكلة صغيرة، وفعل ذلك حتى قبل أن يجري أخذنا إلى المنطقة التي وضعت فيها نواويس تلبيوت على الرفوف، وقال لنا: هناك ناووس مفقود، هو الناووس رقم (80.509) لدى سلطات الآثار الإسرائيلية، وهو الحامل لرقم عشرة في تقرير كلونر، حيث لم يتم العثور عليه في أي مكان، فهو قد اختفى.

ولم تتوفر لدي أدنى فكرة حول تعليل هذا، ففي المجموعة الضخمة من الآثار المحتفظ بها الآن من قبل دولة إسرائيل، تحدث أخطاء في ترتيب الأشياء، ولكن ما من واحد - كما يظهر - كانت لديه أية إيضاحات حول هذه القضية الخاصة، وفي حدود ما عرفته، لقد كنا نحن أول من لاحظ هذه المشكلة، وقام بالتقصي حولها، فبما أن مدفن تلبيوت احتوى على عشرة نواويس، ثلاثة منهم من دون نقوش كتابية، لكن ستة ملكت عنقود الأسماء المهم، يود الإنسان بكل موضوعية أن يكون متأكداً بشكل ما، عما إذا كانت كلمة الوصف الوحيدة «ساذج»، هي كل ما يمكن قوله حول الناووس العاشر المفقود، فلو أمكن العثور عليه، وكان عليه اسم منقوش، لكان ذلك له فائدة كبيرة، لمعرفة ما الذي هو ذلك الاسم.

ومؤخراً فقط أدركت أن مساحة أبعاد الناووس العاشر المفقود هي نفسها تماماً أبعاد ناووس جيمس بالسنتميتر الواحد، فهل بعيد الافتراض، بأن عوديد جولان لم يحصل على ناووسه منذ أعوام كثيرة مضت ليس في منتصف سبعينات القرن العشرين، حسبما يقول الآن، ولكن ليس بعد مدة طويلة بعد ذلك وذلك عندما ما جرى الكشف عن مدفن تلبيوت في العام 1980؟ وهل يا ترى جرت سرقة ذلك الناووس بعدما أُعطي رقماً في الدليل، لكن قبل اكتمال الكشف في المدفن؟ وتذكر جبسون أنه عندما وصل لوضع مخططه، بعد مضي عدة أيام على بداية الاكتشاف، كانت بعض النواويس، لكن ليس الجميع، في مكانها، فقد نقل بعضها من أجل المساعدة على أعمال الكشف، وهو قد رسم أماكنهم الأصيلة وحددها، وفق ما بينه له يوسف غاث التي كان مشرفاً على الحفريات، وأخبرني جبسون بأنه غير متأكد فيما إذا كان العشرة آنذاك موجودين في الموقع أم لا.

ونحن الآن بانتظار دليل آخر، سواء من خلال فحوص الحمض النووي، أو من خلال استعادة الناووس المفقود، فهنا ينبغي أن تنتهي حكاية المدفنين، لكن هنا

تبدأ قصتنا حول أسرة يسوع الحاكمة، فهذان المدفنان العائليان المنحوتان بالصخر، والموجودان فقط خارج مدينة القدس القديمة يكشفان معلومات أكثر حيوية من أي من مصادر الكتابات المقدسة حول مكان الدفن العائلي في أيام يسوع، ولقد كان هنا أن بدأنا نتعلم حول حياة يسوع، والأسرة الحاكمة التي أسسها قبل موته، لأن موته لم يكن بكل تأكيد نهاية مهمته بل بداية عطائه التراثي، وليست القصة المثيرة حول الأسرة الحاكمة ليسوع، القادمة فيما يلي، معتمدة على أصالة النقش المكتوب على ناووس جيمس، كما أنها ليست معتمدة أيضاً على أن هذين المدفنين كانا بالفعل مكان دفن أسرة يسوع، إن الذي يمكننا قوله هو أن مريم أم يسوع، يرجح أنها دفنت مع أسرتها في مدفن قرب المدينة القديمة للقدس، وأن المدفن كما هو مرجح كان واحداً من هذين، وهناك شيئاً ما حول مدافن من هذا النوع، مع نواويس حافظة للعظام، وأسماء معروفة كثيراً لدينا قد نقشت عليها، من بعد ألفي عام، فهذا يسبب رعشة للعمود الفقري، عندما نحاول أن نتخيل، وأن نرتبط مع الماضي، والذي هو أكثر إثارة هو أننا لا نعرف مطلقاً ما هي الأدلة الجديدة التي يمكن أن تظهر في أية نقطة، لتسمح لنا بتجميع أفضل لأجزاء قصتنا مع بعضها بعضاً، ولقد رأينا بعد كل شيء أشياء كانت الأقل توقعاً بالظهور في الغالب، ومن ثم أدهشتنا جميعاً.

القسم الأول

في البداية كانت الأسرة

عذراء سوف تحمل

عندما أفكر حول مريم أم يسوع، أفكر حول مدينة الصفورية المنسية، فوفقاً للتقاليد كانت مريم الابنة المولودة الأولى لعجوزين اسمهما: واكيم وحنة، قد عاشا هناك[1]، وقليلون في هذه الأيام الذين سمعوا عن الصفورية، فهي لم يرد ذكرها في العهد الجديد، لا بل إنه حتى مدة قريبة جداً لم تكن موضوعة على خرائط الأرض المقدسة الموجودة داخل كثير من كتب التوراة، فهي قد أصبحت مدينة مفقودة بالنسبة لنا، حتى مدة قريبة جداً.

أنا أخذت تلاميذي للمرة الأولى لإجراء تنقيبات في الصفورية في صيف عام 1996، وعدنا في العام 1999 والعام 2000 للمشاركة في موسمين إضافيين من التنقيبات، والتحقنا بواحد من الطواقم تحت قيادة الأستاذ جيمس سترينج James Strange من جامعة جنوبي فلوريدا، الذي كان قد بدأ بالتنقيب هناك في العام 1983، وبعد مدة تنقيبات استمرت أكثر من عقدين زمانيين، من قبل عدة طواقم من الآثاريين، لم يكن عشر واحد من المدينة الرومانية قد جرى كشفه، ومع ذلك أنجز ما كان فيه كفاية لمنحنا نظرة حول فخامة المكان في أيام مريم و ابنها يسوع.

فعندما كان يسوع يعيش ناشئاً في الناصرة، كانت الصفورية المدينة المتحكمة بالمنطقة كلها، حيث بنيت فوق رابية ترتفع أربعمائة قدم فوق سهل منبسط تحتها،

وهي ما تزال مشاهدة عن بعد أميال من حولها، ومن المعروف تماماً أن يسوع قد قال: «إن مدينة مبنية فوق رابية لا يمكن إخفاؤها»، ومن المؤكد أن هذه الفكرة جاءته أثناء نشوئه في الناصرة، وهو ينظر شمالاً نحو مدينة الصفورية المشرقة على بعد أربعة أميال، فهذا مالا يمكن فقدانه، فقد كانت الناصرة في الحقيقة أي شيء سوى أنها كانت متموضعة مستكنة في التلال، تماماً إلى الجنوب الشرقي من نبع ماء، ومن المحتمل أن مجمل سكانها لم يكن يتجاوز المائتين، فقد كانت واحدة من بين عدد كبير من القرى المتبعثرة في السهل حول المدينة الحاضرة الكبيرة.

ولقد تغيرت الأشياء في هذه الأيام وانقلبت، فالناصرة هي أكبر مدينة في إسرائيل، مع سكان تعدادهم أكثر من ستين ألفاً، نصفهم من المسلمين، وهي تغطي تماماً الروابي والوديان من حول المركز مع ضواحي كبيرة وكنائس فخمة، وقد وضعها الرحالة المسيحيون وجعلوها على أنها محطة رئيسة في رحلتهم، والصفورية هي مجرد رابية جرداء عليها بقع من الخرائب القديمة مشاهدة من على بعد، وكنا في كل يوم من أيام أعمال تنقيباتنا نجلس على السفوح الجنوبية لخرائب الصفورية، ونتناول غداءنا، ونتطلع عبر الوادي نحو مدينة الناصرة الصاخبة وهي تلمع تحت شمس الصباح المتأخر، ولقد حاولنا أن نتخيل كم لا بد أن الأشياء كانت مختلفة في أيام يسوع، مع انقلاب أهمية المكانين وتبدلها، ومع أن يسوع قد عاش في قرية صغيرة، إنه قد نشأ وترعرع خارج الحاضرة المدنية للجليل، وتطبيق هذه الحقيقة الجغرافية وتقديرها هو عظيم جداً، ونحن نسعى إلى إعادة تملك المشاهد الخفية أو المنسية لحياته المبكرة.

وعندما ولدت مريم في حوالي العام 18 ق.م، كان الرومان قد احتلوا المنطقة الشمالية من فلسطين التي عرفت باسم الجليل، وقتها كانت الصفورية مدينة يهودية، لكن الرومان جعلوها المركز الإداري للمنطقة كلها، وقد حكم هيرود الكبير المنطقة، وقد كان صديقاً حميماً لأنطونيوس وكليوباترا، وقد ثبته القائد

الروماني أوكتافيان الذي حكم فيما بعد كأغسطس قيصر «ملكاً على اليهود»، و مع هذا افتقر هيرود إلى النسب الداودي الحيوي، الذي كان يؤهله لمثل ذلك العرش[2]، وامتلك هيرود أماً يهودية، ولكن أباه كان أدومياً، وكان شديد الحساسية تجاه أصله نصف اليهودي، الذي ربما عدّه اليهود أنه لا يؤهله ليكون حاكماً شرعياً على اليهود، وصدوراً عن الغيرة والحسد والخوف أمر بتدمير سجلات النسب العامة التي كانت عائدة إلى الأسر الإسرائيلية القيادية، كما أنه تزوج من مريم التي كانت أميرة من بيت الكهنة الهشمونيين، وعبثاً ذهبت جهوده لتهدئة المعارضة اليهودية لأصوله المتدينة، وكان الخط الهشموني هو الذي أنتج المكابيين، الذين حكموا المنطقة لمدة قرن قبل غزو الرومان لفلسطين، وقام هيرود وهو في نوبة غضب بقتلها فيما بعد مع ولديها، وأخبرنا يوسفيوس المؤرخ اليهودي للقرن الأول، أن هيرود تطرف كثيراً إلى حد أنه جهز قلعة مسعدة الصحراوية لتكون مكاناً له يهرب إليه، إذا قام الناس بخلعه وإعادة حكم خط أسرة داود الملكية[3]، وقام الامبراطوران الرومانيان فسبسيان ودوميشان بالبحث عن أفراد من البيت الملكي لداود وإعدامهم في العقود الزمانية الأخيرة من القرن الأول[4]، وكانت السلطة في تلك الأيام شيئاً، والنسب، خاصة نسب الأسرة الملكية المحلية شيئاً آخر تماماً، وتأخذنا مسألة النسب هذه، وتعيدنا مباشرة إلى الناصرة.

وفي العام الرابع قبل الميلاد، عندما توجب أن تكون مريم في حوالي الرابعة عشرة من عمرها مات هيرود الكبير، وبعد موته بوقت قصير شق واحد اسمه يهوذا بن حزقياس طريقه إلى داخل القصر الملكي في الصفورية، وبعدما استولى على جميع الأسلحة التي كانت مخزنة هناك، شرع هو وأتباعه بأعمال هياج وتمرد في جميع أرجاء الجليل، وتفجرت جيوب من الثورات والمعارضة لروما في جميع أرجاء البلاد[5]، وكتب يوسفيوس أنه كان في تلك الأيام «أي واحد يريد أن يجعل نفسه ملكاً يفعل إذا كان رئيس عصابة من اللصوص، وقد ذكر أسماء عدد

آخرين حاولوا ذلك[6]، وجاءت ردة فعل الرومان سريعة وبوساطة قوة قاهرة، حيث قاد الحاكم الروماني غير المشهور لسورية فوبليوس قوينتليوس فاروس Publius Quintilius varus ثلاث فرق من سورية ليقمع بوحشية المعارضة للحكم الروماني[7]، وكان ضمن ذلك قوات رديفة تدفقت من الشمال على البلاد، ويلغ تعدادها حوالي العشرين ألفاً، وجرى إحراق الصفورية وتسويتها بالأرض، وأرسل سكانها إلى العبودية كعقوبة على مشاركتهم في الثورات، وطارد فاروس الثوار في جميع أجزاء البلاد، وصلب ألفي رجل شاركوا في الثورة[8]، ولا بد أن الصدمة التي ألمت بالجليل كانت مرعبة، مع رجال يموتون وهم شدوا بالمسامير إلى صلبان على مسافات على أعلى وأسفل الطرق فوق أطراف الرابية، وهم مشاهدون من قبل جميع العابرين.

وبعد الثورة قسّم الرومان فلسطين إلى ثلاث مناطق، حكم كل منطقة واحد من أبناء هيرود الكبير، حيث تسلم أرخالوس اليهودية، التي كانت في الجنوب، بما في ذلك المنطقة الجبلية إلى الشمال، والتي عرفت باسم السامرة، وكان فيليب قد منح المسؤولية على المنطقة الواقعة إلى الشرق من الأردن حول بحر الجليل (بحيرة طبرية)، وتسلم هيرود أنتباس منطقة الجليل شمالي اليهودية، وكذلك بيرايا Perea إلى الشرق من نهر الأردن، وكان هذا هيرود هو نفسه الذي قطع فيما بعد رأس يوحنا المعمدان، وشارك في محاكمة يسوع، واختار هيرود أنتباس تحصين مدينة الصفورية وإعادة عمارتها، جاعلاً منها عاصمته الملكية، وقد أنشأها وفقاً لنمط روماني إغريقي وقد احتلت موقعاً استراتيجياً، حيث أشرفت على وادي بيت نطوف مع تقاطع لطرق رئيسة، ومع أنها بقيت مدينة يهودية، كان فيها مسرح فيه أربعة آلاف مقعد «كان هائلاً مثل الذي بناه والده في مدينة قيسارية على شاطئ البحر المتوسط»، وشوارع معمدة وأسواق، وأبنية مدنية محكمة، ونظام مائي محكم، وحمامات عامة، وقد كتب يوسفيوس، الذي كان شاهد عيان على عظمتها بأن الصفورية قد أصبحت زينة

الجليل كله[9]، ولكن مع تمتين هيرود أنتباس قبضته على المناطق التي منحت إليه، كانت شرعيته للعرش موضع شك، فمن الذي كان الملك الشرعي لإسرائيل؟

وقبل بعض الوقت من إحراق الصفورية، انتقلت مريم مع أسرتها إلى قرية الناصرة الصغيرة، على مسافة أربعة أميال إلى الجنوب الشرقي، وليس لدينا سجل عما حدث لأبويها، واكيم وحنة، ولا نعرف فيما إذا كانا ما يزالان على قيد الحياة في ذلك الوقت، غير أننا نعرف الذي حدث لابنتهما[10].

وفي وقت الثورة والقمع الوحشي لها، كانت مريم في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمرها، وقد عدّت امرأة، وقد وعدت بأن تكون زوجة إلى حرفي محلي اسمه يوسف، ولقد حدث هناك في الناصرة أثناء ذلك الوقت أن عانت من اضطراباتها، فقد أصبحت حاملاً، ولم يكن يوسف هو الأب، ويقول لوقا بأنهما عندما ذهبا إلى بيت لحم، من أجل ولادة يسوع كانت مريم ما تزال «مخطوبة» (لوقا:2/ 5)، وكانت الكلمة الإغريقية التي استخدمت واضحة تماماً[11]،لقد كان معناها أنهما كانا ما يزالان مخطوبين، ومع ذلك كانت هي جاهزة لتنجب ولداً، وبعد ولادة ولدها في بيت لحم، عاد الزوجان إلى الناصرة، مباشرة بعد الكارثة، وكان دخان الصفورية لم يخمد بعد[12].

ومع فهم تاريخ الصفورية، أضيفت مجموعة جديدة من الصور إلى «القصة المسيحية» الأجساد المصلوبة المتعفنة على الصلبان، والعاصمة المدينة القريبة تحترق، وسكانها من الآل إما قد قتلوا، أو نُفوا إلى حياة العبودية، ومستقبل هذه الأسرة والطفل الذي حملوه كان صعب التأكيد.

المصادر الإنجيلية

عندما نبدأ بإعادة بناء ولادة يسوع، وحياته، وتعليمه، نجد أن المصادر وأقدمها هي الأناجيل الأربعة: متى، ومرقص، ولوقا، ويوحنا، أي محتويات

العهد الجديد، وفي المائتي عام التي مضت قام العلماء بتحليل هذه النصوص ومقارنتها وبينوا علاقة كل نص بالآخر، وسمحت لنا نتائج هذه الفحوص الدقيقة بقراءتهم بحذر أكبر، وأن نستخدمهم بمسؤولية مثلما نفعل مع المصادر التاريخية الأخرى القديمة، مع أنهم أدخلوا ضمن العهد القديم الشرعي كنصوص كتابات مقدسة.

ولقد كتبت جميع الأناجيل الأربعة بالإغريقية، مع أن لدينا أثراً قديماً بأن إنجيل متى قد صنف بالأصل بالعبرية أو الآرامية، والأسماء المترافقة مع هذه الأناجيل هي تقليدية، والكتّاب مهما كانت هوياتهم، لم يعرفوا بأنفسهم بالاسم أبداً، ومرقص هو إنجيلنا الأقدم، مع أنه يأتي من حيث الترتيب، الثاني في العهد الجديد، وقد كتب إنجيل مرقص في حوالي العام سبعين م، وهو الذي يزودنا بالإطار الأساسي لحكاية يسوع وسيرة حياته، وقد كتب إنجيل متى من بعده، ومن المرجح أن ذلك كان في حوالي عام ثمانين للميلاد، ومع أن مصنفه قد استخدم إنجيل مرقص مصدراً أساسياً له، غير أنه حرره كما أراد، كما سوف نرى، وحسبما سأوضح بشكل كامل فيما بعد، تمكن مصنف متى من الوصول إلى مجموعة مما علمه يسوع، نحن ندعوها «ق»، وهي مجموعة لم تتوفر لمرقص، وقد دمج تلك المواد في إنجيله كذلك أيضاً، وتمت كتابة إنجيل لوقا في حوالي عام تسعين للميلاد، وقد استخدم المصنف كلاً من إنجيل مرقص والمصدر «ق»، ولكنه امتلك كمية كبيرة من مواد خاصة به أردف بها قصته، ويطلق على هذه الأناجيل الثلاثة: مرقص، ومتى، ولوقا اسم الأناجيل المتشابهة، بسبب الروابط الأدبية القوية فيما بينهم، وبطريقة أكثر بساطة يمكننا أن نوضح هذا بأن مرقص قدم خط الرواية الأساسية، وقام كل من متى ولوقا باستخدام مرقص ولكنهما دمجا المصدر «ق»، وبعض المواد الخاصة بهما، وإنجيل يوحنا هو إنجيلنا الأخير، وقد كتب في حوالي نهاية القرن الأول، ولا علاقة أدبية له بالأناجيل المتشابهة،

ويقدم لنا مصنف إنجيل يوحنا تقاليد مستقلة تماماً تسلط الضوء على يسوع كرباني وابن ممجد للرب، وفي هذا المعنى: إن يوحنا صاحب توجهات لاهوتية أكبر، لكن هذا لا يعني القول بأن مادته خالية من المعلومات التاريخية المهمة، وكما سوف نرى أنه من دون رواية يوحنا المستقلة كنا سوف نفقد كثيراً من التفاصيل الجغرافية والإخبارية التاريخية المهمة.

وهناك أناجيل أخرى غير هذه الأربعة، مثل إنجيل القديس توما، الذي كتب بالقبطية واكتشف في مصر في العام 1945، وتنقلت رواية عبرية لإنجيل متى بين أوساط الحاخامات، كما هناك مجموعة من الأناجيل المعروفة باسم «الأبوغرفاوية» قد صنفت في القرنين الثاني والثالث الميلاديين، ولسوف يجري تقديم هؤلاء ومناقشتهم عندما نتصدى لهم في بحثنا، لكن تبقى قضية أن معظم مصادرنا المعتمدة والموثوقة من أجل إعادة بناء ما نعرفه عن يسوع، هي أناجيل العهد الجديد أنفسهم، وكما سوف نرى، عندما تجري قراءتهم بعناية وبشكل نقدي، فإن كثيراً من الرؤى المدهشة سوف تظهر، ولسوف نبدأ بحثنا الآن بالذي نعرفه حول حمل مريم، وحول ولادة ابنها الأول يسوع.

اضطراب في الناصرة

يمكن للإنسان أن يتخيل الذي لابدّ قد أثاره حمل مريم في قرية بحجم الناصرة، وأن تقول بأن الألسن كانت تتحرك، فهذا كان أمراً مفهوماً، فالأسرتان كانتا معروفتان بشكل جيد[13]، وكانت البيوت قريبة من بعضها بعضاً، مع وجود الأبناء المتزوجين وعيشهم في أقسام من البيت نفسه التابع لأبويهم، مع المشاركة في الساحة العامة، وكانت حياة القرية متداخلة ومعتمدة على بعضها بشكل كثيف في الجانبين الاقتصادي والاجتماعي، وهي حقيقة دارت بخلدي عندما زرت للمرة الأولى «قرية الناصرة» حيث هناك موقع في مدينة الناصرة الحديثة، فيه أعاد

الأثريون إنشاء نسخة أصيلة لقرية يهودية من القرن الأول[14]، فالإنسان يمكنه أن يدخل إلى الغرف الصغيرة للبيوت، وأن يسير في الساحات والشوارع الضيقة، وأن يشعر بالتداخل الذي لا بد من أنه كان يشمل كل وجه من أوجه الحياة، ففي الناصرة لم تكن هنالك أسرار.

لقد تواجه يوسف مع مشكلة حقيقية، ما من خطيب يريد حتى أن يتخيلها، فهو كان مخطوباً إلى مريم، وكانت أسرتاهما قد وافقتا على الزواج، غير أنه وجد خطيبته مع ولد قبل الزواج (متى: 1/ 18)، وتبعاً لما رواه إنجيل متى، لقد كان يوسف هو الذي اكتشف الحمل، وقرر أن يوقف خطط الزواج ويقطعها، وأن يبقي كل شيء في الوقت نفسه هادئاً حتى لا يجلب العار إليها، ومن المحتمل أنه خطط أن يساعدها على مغادرة البلدة، وأن تحمل بابنها بصورة سرية، ونحن لم يرو لنا ذلك، وهناك شيء واحد نحن نعرفه متأكدين، بأنه لم يكن والد الطفل الذي لم يولد بعد، وبمساعدته، أو من دون مساعدته، غادرت مريم البلدة بسرعة، ووفقاً للتقاليد هي ذهبت جنوباً إلى قرية عين كارم الصغيرة، على بعد أربعة أميال إلى الغرب من القدس، في منطقة التلال في اليهودية، ومكثت مريم هناك لمدة ثلاثة أشهر مع أسرة قريبة جداً منها، هي أسرة العجوزين إيزابيل وزكريا «لوقا: 1/ 39»، وكانت إيزابيل نفسها حاملة في ذلك الوقت، وقد مضى على حملها ستة أشهر، بولد سوف يعرف باسم يوحنا المعمدان، أو بصورة أدق، وبشكل حرفي «يوحنا المعمّد»، ونحن لا نعرف مدى القرابة بين مريم وإيزابيل، فيما إذا كانتا ابنتا خالة، أو ربما خالة وابنة أخت، والمهم أنه في ظل هذه الأحوال كانت الأسرتان قريبتان كثيراً، ومعنى هذا أن يسوع ويوحنا المعمدان كانا قريبين أيضاً.

وتبعاً لما رواه لوقا، حدثت الولادة في بيت لحم، أثناء الاستجابة لعملية إحصاء رومانية، وبيت لحم واقعة خارج القدس، في اليهودية، وهي موجودة في جنوب البلاد، بينما الناصرة موجودة في الشمال في الجليل، على مسافة مسير ثلاثة

أيام، وأخبرنا لوقا بأن الزوجين وجدا المدينة مكتظة كثيراً، وجميع غرف الضيوف محجوزة، فناما في اسطبل، وهناك ولد يسوع، وكان من المعتاد وجود ما يشبه بناء كهف، كان محفوراً منذ تلك الأيام داخل الصخر، ومرتبطاً بأماكن الإقامة، حيث كان يستخدم كمأوى للحيوانات الأليفة، وتبعاً لما رواه لوقا، لم يكن يوسف وخطيبته مريم قد تزوجا بعد، ونحن لا نعرف متى حدث الزواج، أي العرس، لكن لا بد أن ذلك قد وقع بعد ولادة الطفل «لوقا: 2/ 5»، وأشار لوقا فيما بعد إلى يسوع على أنه «ابن يوسف» وهذا من الواضح أنه لم يؤمن بأن يوسف كان والده، ويستدل من كلامه، ويستخرج من لغته، بأن الإثنين قد تزوجا، وأن يوسف صار شرعياً الأب المتبني ليسوع «لوقا: 4/ 22»، وقال متى بأن يوسف «أخذ زوجته» لكنه لم يقل متى، وأضاف ملاحظة مدهشة بأن الزوجين قد عرفا العلاقات الجنسية فقط بعد ولادة الطفل «متى: 1/ 25»[15]، ويتواءم هذا مع الذي أومأ لوقا إليه بأن الزواج وقع بعد الولادة. وفي الثقافة اليهودية: العمل الجنسي هو «معرفة» المرأة، وهو الذي يتم الزواج[16].

وهذه هي الخطوط العريضة المجردة، التي جرى تقديمها في الفصول الأولى من إنجيلي: متى ولوقا[17]، ولقد بدأ الإنجيلان الآخران: مرقص ويوحنا رواياتهما مع يسوع كرجل بالغ، ولا يخبرانا بشيء حول ولادته[18].

ومتى ولوقا متفقان على مصدر حمل مريم، وجاء في رواية متى بأن يوسف رأى مناما بعد وقت قصير من اكتشافه ومعرفته حول الحمل، ففي هذا المنام أخبره ملاك بأن حملها كان «بوساطة الروح القدس»، وأن عليه أن يمضي قدماً بإجراءات الزواج دون أن يعبأ[19]، وأن عليه تسمية ابنها بيسوع، وقد كان بزواجه بامرأة حامل، حملت بطفل ليس طفله، ثم بتسميته ذلك الطفل بشكل قانوني، صار هو بالفعل الأب المتبني بشكل شرعي ليسوع، وصار يسوع بمثابة ابنه، ويستدل من عبارة «بوساطة الروح القدس» بأن الحمل بموجب وكالة عن روح الرب، ولكنها

عبارة جاءت مقصرة، ولم تذكر بشكل مباشر بأن الرب كان والد يسوع، وفقاً لمنطق القول: كان زيوس Zeus أباً لهرقل بوساطة إغوائه لأمه، الكمني Alkmene، وفي هذا المنطق، الرواية مختلفة عن حكايات الولادة الإعجازية الشائعة الانتشار في الميثولوجيا الإغريقية- الرومانية.

وأومأ متى أيضاً إلى قول قديم نسب إلى النبي العبري إشعيا بأن «فتاة سوف تحمل وتنجب ولداً سوف نسميه عمانويل»، وكأنه أراد بهذا بأن حمل مريم كان تحقيقاً لنبوءة «إشعيا: 7/ 14»[20]، لكن إشعيا كان يتحدث عن طفل سوف يلد في أيامه، في القرن الثامن قبل الميلاد، وأن ولادته سوف تكون علامة من أجل الملك حزقيا، الذي حكم في تلك الأيام، وكلمة «a'lmah» العبرية هي الكلمة التي وضعها متى مثل كلمة «عذراء» في ترجمته الإغريقية، ومعناها «امرأة شابة» أو «فتاة»، وليس في هذه الكلمة أي تطبيق إعجازي مهما كان نوعه[21] على الإطلاق، وإعطاء الطفل الاسم غير المعتاد «عما نويل»، معناه «الرب معنا، وقد أكد إشعيا للملك حزقيا، أنه قبل أن يصبح هذا الطفل متقدماً بالسن بما فيه كفاية لمعرفة «الصواب» من «الخطأ» إن الآشوريين الذين هددوا القدس واليهودية سوف تجري إزالتهم من البلاد، وليس على حزقيا الانتظار طويلاً، ولقد أومأ متى بأن نبوءة إشعيا قد «تحققت» بالولادة الإعجازية ليسوع من قبل عذراء، لكن من الواضح أن النص الأصيل لا يحمل مثل هذا المعنى.

وفي رواية لوقا كانت مريم هي التي رأت المنام، فقد أخبرها الملاك جبرائيل بأنها سوف تصبح حاملاً، وتنجب ولداً ذكراً، وتسميه يسوع، واسم يسوع بالعبرية هو اسم «يوشع» نفسه، وقد كان شائعاً كثيراً بين اليهود في ذلك الوقت، وأخبرها أيضاً بأن هذا الطفل سوف يكون عظيماً، ولسوف يدعى باسم «ابن الأعظم علواً»، ولسوف يجلس على عرش أبيه داود، ولسوف يحكم بني إسرائيل إلى الأبد، وردت مريم عليه قائلة: «كيف سيحدث هذا وأنا لم أعرف رجلاً»؟

ومن المؤكد أن هذا التعبير التوراتي كان معناه الاتصال الجنسي، فأجابها الملاك قائلاً: «الروح القدس يحل عليك، وقوة العلي تظللك، فلذلك أيضاً القدوس المولود منك يدعى ابن الله»، (لوقا:1/ 35).

وأكدت العقائد المسيحية المبكرة، وهي معتمدة على هذه النصوص، بأن يسوع قد حملت أمه به «بوساطة الروح القدس، وأنه ولد من العذراء مريم»[22]، وإنه لمن السهل مزج «الحمل النقي الطاهر» مع «ولادة العذراء»، وأشار مفهوم الحمل النقي الطاهر، حسبما جرى تعليمه من قبل الكنيسة الكاثوليكية الرومانية إلى الحمل بمريم من قبل أمها حنة، وليس إلى الحمل بيسوع، ويصر هذا التعليم على أن مريم قد ولدت من دون «ذنب أصيل»، الذنب الذي ورثه كل كائن بشري منذ آدم، وقد سمح هذا لها بأن تلد بيسوع في وضع خاص من النقاء الأخلاقي، وأصبحت مسألة «ولادة العذراء» في التعليم الإضافي، أن مريم أصبحت من دون رجل حاملة من خلال وكالة الروح القدس، ويشير هذا أكثر إلى مصدر الحمل وليس إلى «الولادة» نفسها[23]، ويمكن للإنسان على هذا أن يشير إلى العقيدة على أنها عقيدة «حمل العذراء»، بما أن الأضواء قد سلطت على سبب الحمل.

وهناك عقيدة كاثوليكية إضافية أخرى تتمسك بالقول بأن مريم بقيت عذراء بشكل دائم «عذراء أبداً- semper virgin» طوال حياتها[24]، وشارك بهذا الرأي حتى زعماء البروتستانت وقادتهم مثل: لوثر، وكالفن، وزونغلي، وجون ويسلي، مع أنه أقل شيوعاً في هذه الأيام بين البروتستانت[25]، وتمت «أدلجة» مريم عبر العصور، وصارت لاهوتيه مثل «أم الرب» ونقلت من ثقافتها وزمانها، يعني من عين فكرة أنها امتلكت علاقات جنسية، وحملت بأطفال إضافيين، وعاشت حياة عادية كامرأة يهودية متزوجة، ولم يظن بها غير ذلك لمدة قرون، فغدت تماماً وبشكل حرفي «ممجدة من قبل السماء»، وقد ضاعت إنسانيتها الفعلية، ومثل ذلك أهمية آبائها الأوائل.

ابن لداود؟

دعا متى يسوع باسم «ابن داود»، في السطر الأول الذي افتتح به إنجيله، وفي إنجيل لوقا أعلن الملاك إلى مريم بأن ابنها يسوع سوف «يجلس على عرش أبيه داود» (لوقا: 1/ 22)[1]، والمفهومان متداخلان متضافران، فليس كل واحد منحدر من داود قد احتل عرش داود، ولكن ما من أحد احتل العرش لم يكن من أبناء داود، والملك داود مبنية سمعته على أنه كان مؤلفاً لكثير من المزامير، وأنه كان والد الملك سليمان، الذي كان أشهر ملوك إسرائيل القديمة، فقبل موت داود بوقت قصير وعده الرب بأن «عرشه» سوف يبقى إلى الأبد، وفقط الذين هم من «ذريته» سوف يشغلونه كحكام على بني إسرائيل «2-صموئيل: 7/ 12-16»، وتناول الأنبياء العبرانيون هذا الوعد، وجعلوه قاعدة من أجل توقعاتهم بأنه في «الأيام الأخيرة» سوف يجلس مسيح على عرش داود، كحاكم مثالي على بني إسرائيل، وبناء عليه، احتاج هو، صدوراً عن الضرورة، أن يمتلك النسب الصحيح.

ونظر إلى هذا الوعد على أنه ميثاق جرى التعهد به، وجاء في سفر إرميا بأن الرب قد أعلن أنه إذا كان باستطاعتك أن تحطم النظام الثابت للسموات، «فإني أيضاً أرفض نسل يعقوب وداود عبدي فلا آخذ من نسله حكاماً لنسل إبراهيم: إسحاق ويعقوب» «إرميا: 33/ 25-26»، وهذا الوعد إلى داود بنسل ملكي يحكم

على بني إسرائيل، قد ربط إلى قانون ثابت للطبيعة.

ومن الممكن لآخرين أن يحكموا أرض إسرائيل، سواء أكانوا من الإغريق أو من الرومان، ولكنهم عدّوا كأجانب، ومحتلين غير شرعيين، سوف يزيلهم الرب إزالة شاملة عندما يأتي المسيح الحقيقي، ولقد كانت هناك مدة قصيرة من الاستقلال اليهودي من العام 165 حتى العام 63 ق.م، تماماً قبل استيلاء الرومان على البلاد، فقد تمكنت أسرة يهودية عرفت باسم المكابيين أو الهشمونيين من حكم البلاد، وأسست أسرة كهنة، ولكن لم يمكنها ادعاء النسب الداودي[2]، وحسبما كنا قد لاحظنا كان هيرود الكبير، على الرغم من لقبه «ملك اليهود» كان يخشى من إمكانية قيام واحد من نسل داود، حتى يهدد سلطته.

وعلى هذا هناك سؤال بديهي هو: إلى أي مدى كان يسوع «ابناً لداود»؟ فما الذي نعرفه عن نسبه حتى يمكنه أن يؤيد دعواه بأنه كان فرداً من الأسرة الملكية لداود ؟

فلوقا ومتى لم يعطيا يسوع أباً بشرياً، ومع ذلك قدما روايتين نسبيتين مختلفتين حول أجداده، وسلاسل الأنساب، أو الذي يمكن لقراء التوراة أن يتذكروه كقائمة «بالمنجبين»، لا يمكنها أن تستولي على القارئ، لكن سلسلة نسب يسوع مليئة بالمفاجآت.

النسب الشرعي ليسوع واللعنة القديمة

بدأ متى كتابه بسلسلة النسب التالية: «إبراهيم ولد إسحاق، وإسحاق ولد يعقوب، ويعقوب ولد يهوذا»، وهكذا دواليك، وبما أن إنجيل متى هو الكتاب الأول في العهد الجديد، كان هناك أكثر من قلة من القراء المتشوقين للتوراة قد أصيبت نواياهم الطيبة بالكآبة بوساطة هذه البداية التقنية، ولكن دعونا ننظر مرة أخرى، تحتوي قائمة متى على أسماء أربعين ذكراً، شروعاً من إبراهيم الذي عاش

قبل ألف سنة من داود ونزولاً حتى يوسف زوج مريم.

وكانت أية سلسلة نسب قياسية مؤسسة على أب ذكر وحيد، هي التي تمتعت بالأهمية الأولى في ذلك الوقت، وكان أبا واحداً هو الحقيقة المهمة في ثقافة العالم الذي ولد فيه يسوع، ومع ذلك نجد عند متى ذكراً لأربع نساء، ارتبطوا بالأربعة الذكور الذين ورد ذكرهم في القائمة، وكان هذا غير معتاد تماماً وغير متوقع، فقد دوّن متى أن:

يهوذا ولد فارص وزارح من ثامار (ق3)

سلمون ولد بوعز من راحاب (ق5)

بوعز ولد عوبيد من راعوث (ق5)

داود الملك ولد سليمان من التي لأوريا (ق5)

وهذه جميعها أسماء نساء، أما بالنسبة لقضية الزوجة التي هي لأوريا، فهي امرأة لم يذكر اسمها، ولكن حتى المدهش أكثر هو أن كل واحدة من هؤلاء النسوة الأربع كانت أجنبية، امتلكت سمعة جنسية سيئة في العهد القديم[3]، فقد كانت ثامار أرملة يائسة متشوقة للحصول على ولد، فأصبحت عن قصد حاملة، بوساطة ارتدائها لثياب عاهرة تقف على الطريق، فأثارت والد زوجها وجامعته، وكانت راحاب صاحبة حانة، أو عاهرة، وكانت راعوث امرأة مآبية، وكانت سيئة بما فيه الكفاية، إلى حد أن الإسرائيليين منعوا عن أن تكون لهم أية علاقة مع المآبيات بسبب سمعتهن كمغويات في ميدان الجنس، ولكن راعوث أخذت طريقها إلى فراش بوعز، الذي سيكون زوجها المستقبلي، وكان ذلك بعدما جعلته يشرب طوال الليل، حتى تجعله يتزوج منها، وكانت زوجة أوريا، التي لم يذكر اسمها هنا، بسبب عارها للجميع، هي بشثيبع السيئة السمعة، وقد كانت لها علاقات زنى مع الملك داود، انتهت بأن أصبحت حاملة منه، وقد لوثت شهرته

بالعار إلى الأبد، ومع هذا كان الذي أعطانا متى إياه هو سلسلة نسب ملكية محترمة للملك داود نفسه، حيث كان شيئاً ما مهماً جداً يجري هاهنا، فصوت الطبل المتناغم هنا قد تصادم بنشاذ ذكر هذه النسوة، التي كانت كل واحدة منهن معروفة بشكل جيد من قبل القراء اليهود، ذلك أنهن كن غير عائدات إلى النسب الرسمي للأسرة المالكة، وقصص هذه النسوة لها مكانة متميزة في التوراة بسبب التفاصيل الجنسية المرعبة المتعلقة بهن، ومن الواضح أن متى كان يحاول أن يضع ميلاد عيسى المخزي بشدة في الإطار العائد لآبائه الأوائل، ولأمهاته أيضاً، وكان يعد القارئ للذي سوف يأتي، وفي نهاية قائمته، ولدى ذكره للاسم الأخير، في السطر الأخير بالذات، أسقط متى فردة الحذاء الأخرى، وقد عزم من دون شك على أن يرعب القارئ، وأن يمسكه غير مدرك حيث كتب: «يعقوب وَلَدَ يوسف رجل مريم، التي وُلد منها يسوع الذي يُدعى المسيح».

فماذا يمكن للإنسان أن يتوقع في سلسلة نسب معيارية لأي ذكر سوف تكون:

«يعقوب ولد يوسف، يوسف ولد يسوع، الذي دعي المسيح»

وقد استخدم متى فعل «ولد» أو «أنجب» «في الإغريقية gennao» تسعاً وثلاثين مرة، بصوت فعال، مع موضوع ذكوري، ولكنه عندما وصل إلى يوسف قام بتبديل مهم، فهو قد استخدم الفعل نفسه بالصوت المنفعل المؤثر مع هدف أنثوي: «منها ولد يسوع»، وهكذا نجد أن امرأة خامسة انزلقت من دون توقع في القائمة، أي مريم نفسها.

ومع هذا من المؤكد أن هذا لم يكن نسب مريم، بل كان هذا نسب يوسف، وبناء عليه لماذا جرى ضمها؟ لقد كان متى يعد القارئ للحكاية التي سوف تأتي على الفور، فيها مريم، كانت امرأة مخطوبة، وقد أصبحت حاملاً من قبل رجل لم يكن زوجها، وكأن متى هنا كان يحذر بصمت أي واحد شديد التقوى من القراء،

أو واحد قادر على إصدار الأحكام، بعدم القفز إلى النتائج، ففي سلسلة النسب الأكثر تبجيلاً لتلك الثقافة، وهي سلسلة نسب الملك داود نفسه، كانت هناك حكايات جنسية لا أخلاقية، قد تورط فيها كل من الرجال والنساء، الذين كانوا مع ذلك مبجلين في الذاكرة ومحترمين.

ولكن ما يزال هناك سمة أخرى مدهشة في سلسلة نسب يوسف هذه، وهي حيوية بالنسبة للقصة، وينبغي عدم إهمالها، وهذه السمة هي أن فرع يوسف من أسرة داود - مع أنه قدم جميع الملوك القدماء ليهوذا - كان موضوعاً تحت الحظر، أو اللعنة من قبل النبي إرميا، ففي الأيام المظلمة الأخيرة، قبل قيام البابليين بتدمير القدس في العام 586ق.م، عمل إرميا إعلاناً فظيعاً حول كنياهو، آخر ملك حاكم من سلسلة نسب داود حيث قال: «اكتبوا هذا الرجل عقيماً... لأنه لا ينجح من نسله أحد جالساً على كرسي داود، وحاكماً بعد في يهوذا» (إرميا/ 22/ 30)[4]، فلقد كان يوسف منحدراً بشكل مباشر من كنياهو هذا سيئ السمعة، (متى: 1/ 11-12)[5].

ولقد كان إرميا يعلن بالفعل أن الميثاق الذي عمله الرب مع داود لاغ وفارغ، ويظهر على الأقل أن هذا قد ظهر وفق الطريقة التالية، حيث نجد في المزمور / 89/ الذي كتب بعد هذه التطورات صاحبه نادباً وباكياً قوله: «نقضت عهد عبدك، نجست تاجه في التراب» (المزمور:89/ 39)، أو أن الأمور هكذا بدت وظهرت، فقد كان كنياهو - بعد كل شيء- آخر ملك يهودي من الأسرة المالكة لداود، قد قام باحتلال العرش في أرض إسرائيل، وقد كان يوسف من النسب نفسه، لكن كأب شرعي ليسوع، وليس أباً جسدياً، ولم يحرم نسب أجداد يوسف يسوع من أن يكون أهلاً للمطالبة بقوة بالعرش، لو كان بإمكان يسوع ادعاء نسب من داود من خلال فرع آخر من سلسلة النسب الداودية، ولكن كم فرعاً من الأسرة الداودية كان هناك؟

فرع خفي من الأسرة الملكية

لقد زودتنا سلسلة نسب لوقا بالمفتاح المفقود لفهم كيف كان يسوع يستطيع ادعاء نسب داودي من دون ارتباط عضوي بأبيه بالتبني يوسف، فقد قام لوقا بتدوين سلسلة نسب يسوع في إصحاحه الثالث، فقد كان يسوع في الثلاثين من عمره، وكان للتو قد جرى تعميده من قبل يوحنا، ففي الوقت الذي بدأ فيه متى بإبراهيم، وتابع سلسلة النسب نزولاً حتى يوسف، أبي يسوع بالتبني، نجد لوقا قد بدأ بيسوع، وعاد نحو الوراء، وأخذ الطريق كله عائداً حتى آدم، وهو لم يذكر أربعين اسماً، مثلما فعل متى، بل نحن لدينا ستة وسبعين اسماً، وهناك ثلاث سمات مدهشة في سلسلة النسب هذه:

فهو قد بدأ أولاً بتأهيل مدهش، وإذا ترجمناه حرفياً نجده يقول: «ولما ابتدأ يسوع كان له نحو ثلاثين سنة، وهو على ما كان يظن ابن يوسف بن هالي» [لوقا: 3/ 23] فالإغريقي هنا مصقول تماماً، ولكن الذي يقفز من الصفحة هي عبارة «على ما كان يظن»[6]، فقد كان لوقا يخبر قراءه بشيئين: هما أن يوسف كان فقط الأب «المفترض» أو «الشرعي» ليسوع، وأن يسوع كان لديه جد اسمه «هالي»، وتبعاً لمتى كان اسم والد يوسف «يعقوب»، وبناء عليه من كان هالي؟ والحل الأكثر بداهة أنه كان والد مريم[7]، والإنسان نادراً ما يسمع أي شيء حول أجداد يسوع، ولكن يسوع امتلك جدين، الأول من جهة يوسف، والآخر من جهة مريم، ووجود جدين كان معناه وجود شجرتي نسب أسرتين منفصلتين، والذي هو موجود لدينا في لوقا [3/ 23-38] هو الجانب الآخر من أسرة يسوع، قد جرى تتبعه من خلال نسبه العضوي الفعلي من خلال أمه مريم، وسبب عدم ذكر اسم مريم هو أن لوقا كان ملتزماً بميثاق، وقد أورد أسماء الذكور فقط في قائمته، وبما أن لوقا لم يعترف بأب عضوي ليسوع، هو بدأ مع يوسف «كمرتكز»، ولكن الأمور تأهلت مع عبارة «على ما كان يظن»، ولدى التصرف في توزيع عبارات

الترجمة يمكن أن تصبح كما يلي: «وكان يسوع في حوالي الثلاثين من عمره عندما بدأ عمله، وهو كان من المفترض ابناً ليوسف، لكنه كان بالفعل من ذرية هالي»، وإذا صح وكان والدا مريم اسمها بالفعل: واكيم وحنه، حسبما جاء في المصادر المسيحية المبكرة، من المحتمل أن اسم هالي هو تصغير لاسم إلياقيم Eliakim الذي هو بدوره شكل لاسم واكيم التقليدي.

ومن المستبعد أن يكون لوقا قد لفق مثل هذا السجل المفصل، فقد كانت الأسر اليهودية شديدة الغيرة حول سجلات أنسابها، وكان هذا أكثر بكثير إذا كان الإنسان منحدراً من ذرية داود، وقد تعقب يوسفيوس المؤرخ اليهودي لتلك المدة الزمانية نسبه الكهنوتي مع فخار بديهي، وذكر سجلات وثائقية قد عاد إليها وأخذ عنها[8]، وذكر يوليوس أفريكا نوس، الذي كان كاتباً مسيحياً يهودياً، من أوائل القرن الثالث للميلاد، كان قد عاش في فلسطين، ذكر بأن الأسر القيادية اليهودية قد احتفظت بسجلات نسب خاصة، وبما أن هيرود وخلفاءه قد سعوا إلى تدمير سجلات الأنساب التي كانت عامة بين الناس، نجد أن أفريكا نوس ذكر بشكل محدد، وتحدث عن ممارسة الاحتفاظ بشكل سري بأنساب الأسرة، وذلك بمثابة سمة حول نسب يسوع[9]، وبما أن النسب الداودي في أيام يسوع كان بالغ الأهمية بالنسبة للمسيحيين الأوائل، من المرجح أن لوقا كان متوفراً لديه واحد من هذه السجلات.

وتكشف سلسلة نسب لوقا أيضاً بعضاً آخر من المعلومات المهمة، لقد كانت مريم، مثل زوجها يوسف من ذرية الملك داود، لكن مع فارق حيوي، فقد كان ارتباطها بداود ليس عبر سلسلة النسب الملعونة العائدة إلى كنياهو إلى سليمان بن داود، بل كانت تستطيع أن تعود بنسبها إلى ابن آخر لداود هو: ناثان [لوقا: 3/ 31]، وكان ناثان مثله مثل سليمان بن داود من زوجته المفضلة بتشبيع، ولكن ناثان لم يحتل العرش أبداً، وتبعاً لذلك صارت سلسلة نسبه محجوبة مبهمة،

وهو قد ورد ذكره في السجل التوراتي، لكن لم يرد ذكر أي من ذريته، وذلك بالمقارنة مع أخيه سليمان «أخبار الأيام الأول: 3/ 5-10»، وبناء عليه، لقد كان باستطاعة يسوع الادعاء بنسب مباشر يعود إلى الملك داود، من خلال أمه مريم أيضاً، وهو لم يمتلك ادعاء «التبني» فقط من خلال أبيه الشرعي يوسف لوحده، بل أيضاً النسب الداودي العضوي الفعلي.

فرعا الأسرة الملكية لداود

إن سلسلة النسب الموجودة على اليسار هي التي قدمها متى، على أنها سلسلة نسب يوسف، الأب القانوني ليسوع، وهي سلسلة أقصر، جاءت مختصرة بعد كنياهو، والأسماء المكتوبة بالحرف الأسود هي أسماء الذين حكموا كملوك لإسرائيل ويهوذا، وسلسلة النسب الموجودة على اليمين هي السلسلة التي قدمها لوقا على أنها سلسلة أنساب الآباء العضويين لمريم أم يسوع:

داود

ناثان	سليمان
متاثا	رحبعام
مينان	أبيا
مليا	آسا
ألياقيم	يهوشافاط
يونان	يورام
يوسف	عزيا
يهوذا	يوثام
شمعون	آحاز
لاوي	حزقيا

متثات	منس
يوريم	آمون
أليعازر	يوشيا
يوسي	يكنيا
عير	
ألمودام	
قصم	
أدي	
ملكي	
شألتيئل	
زربابل	
ريسا	
يوحنا	
يهوذا	
يوسف	
شمعي	
متاثيا	
مآث	
نجاي	شألتئيل
حسلي	زربابل
ناحوم	أبيهود
عاموص	ألياقيم
متاثيا	عازور
يوسف	صادوق

ينا	أخيم
ملكي	أليود
لاوي	أليعازر
متثات	متان
هالي (ألياقيم)	يعقوب
مريم	يوسف

وجاء اسم ناصرة - البلدة التي عاشت فيها مريم - واشتق من الكلمة العبرية «نتزر Netzer» التي معناها «فرع» أو «برعم(**)»(10)، ويمكن للإنسان أن يترجم كلمة ناصرة -من دون تكلف- «البلدة الفرع»، ولكن لماذا حملت بلدة مثل هذا الاسم الغريب؟، فهي قد كانت -كما رأينا- في أيام المسيح، قرية صغيرة، وقد حققت الشهرة ليس بوساطة الحجم، أو الأهمية الاقتصادية، بل بوساطة شيء أكثر عظمة، لا بل حتى أكثر أهمية، وفي مخطوطات البحر الميت، التي كتبت قبل أيام حياة يسوع، نجد بشكل منتظم المسيح المستقبلي أو ملك إسرائيل، الذي وصف على أنه «فرع من داود»(11)، وقد أخذ هذا الاصطلاح من إشعيا (12) حيث دعي المسيح من ذرية داود باسم «فرع»، وهذا الاصطلاح مدهش حقاً، فقد أطلق -فيما بعد- على أتباع يسوع اسم «ناصريين» أو «فرعيين»(13) ومن المحتمل كثيراً أن تكون قرية الناصرة الصغيرة قد نالت اسمها، أو ربما لقبها، بسبب أنها كانت معروفة، على أنها المكان الذي عاش فيه أفراد من الأسرة الملكية، فهناك استقروا وتمركزوا، ولذلك ليس مدهشاً أن كلاً من مريم ويوسف عاشا هناك، بحكم أن كل واحد منهما قد مثل «فرعين» مختلفين من «فرع داود، وذكرت الأناجيل «أقرباء» آخرين للأسرة قد عاشوا هناك [مرقص:6/ 4]، ومن المحتمل تماماً أن كان معظم سكان «بلدة الفرع» أفراداً من «فرع» الأسرة الممتد نفسه، واستمرت

(*) بالعربية «نسره».

هذه القرابات الأسروية تسكن هذه المنطقة من الجليل لمدة قرون، فإلى الشمال مـن الصفورية، وعلى مسافة حوالي الاثني عشر ميلاً من النـاصرة، كانـت هنـاك بلـدة اسمها كوكبه «بلدة كوكب»، واصطلاح «كوكب» هو مثل اصطلاح «فرع» شيفرة رمز إلى المسيح الذي هو موجود أيضاً في مخطوطات البحر الميت[14]، وكانـت كـل من الناصرة وكوكبة معروفتان بشكل جيد، ومذكورتان في القرن الثـاني للمـيلاد، على أنهما بلدتان فيهما أسر لها قرابـة بيـسوع، وكـل هـذا كـان جـزءاً مـن «الأسرة الملكية» متمركزاً بكثافة[15].

وأخيراً تقدم الأسماء في لوقا، والتي تتسلسل من الملك داود نزولاً إلى هـالي والد مريم بعض المعطيات المهمة كثيراً، حيث تزيد من شرح لماذا كانـت سلـسلة النسب الداودية الخاصة هذه مهمة بصورة فريدة، فقد جرى هناك تسجيل اسـم ليس لأقل من ست مرات، وهذا الاسم هو الذي نعرفـه بـصيغة «متـى» حيـث جاء كما يلي: متثات (مرتين) متاثيـا (مـرتين) مـآث، ومتاثـا، والأمـر الـذي هـو مدهش أن اسم «متى» كان مرتبطاً دومـاً مـع سلـسلة نـسب كهنـة، ولـيس مـع سلسلة نسب ملوك، أو سلسلة نسب ملكية، فقد كان واحداً من الرسـل الاثنـي عشر اسمه «متى»، لكنه عرف أيضاً باسم «لاوي»[16]، واثنان مـن الـستة الـذين حملوا اسم «متى» في سلسلة نسب يـسوع كانـا ابنـين لأبـوين اسـمهما «لاوي»، ودوّن يوسفيوس أن والده، وجده، وجده الأعلى، وأخاه، كانوا جميعاً اسـم كـل واحد منهم «متى» وكانوا جميعاً كهنة من سـبط لاوي، مـن أسرة الهـشمونيين أو المكابيين، التي كانت أسرة كهنة متميزة، وكانت إسرائيل القديمة مقسمة إلى اثني عشر سبطاً، انحدروا جميعاً من أبناء يعقوب الاثني عشر، يعقوب حفيد إبراهيم، وقد توجب أن يكون الكهنة في بني إسرائيل من ذرية هرون، أخي موسى، الذي كان من سبط لاوي، أما الملوك فقد توجب أن يكونوا من سلسلة النسب الملكيـة للملك داود، الذي كان من سبط يهوذا، وهذان المنصبان: ملك، وكاهن، أعطيـا

سبطي يهوذا، ولاوي مكانة سامية خاصة، ولكن لماذا كان هناك مثل هذا العدد الكبير من أسماء الكهنة في أسرة داودية؟

ولنتذكر أنه عندما أصبحت مريم حاملاً، وتركت الناصرة ذهبت لتقيم مع إليزابيث، أم يوحنا المعمدان، وقد ذكر لوقا أنهم كانوا أقرباء، غير أنه لم يبين كيف وإلى أي مدى [لوقا: 1/ 36]، لكنه روى أيضاً أن إليزابيث وزوجها زكريا كانا من ذرية ذات نسب كهنوتي [لوقا: 1/ 5]، وهذا تأكيد إضافي على الصلة بين أسرة مريم الداودية، وسبط لاوي الكهنوتي.

ولا يمكن فهم هذا الوجود الكثيف للأسماء اللاوية أو الكهنوتية كجزء من سلسلة نسب مريم، ما لم يكن هناك نفوذ مهم من سبط لاوي قد اندمج في سلسلة النسب الملكية هذه بالذات، التي هي من ذرية سبط يهوذا، والذي هو محتمل كثيراً أن مريم امتلكت نسباً مزدوجاً، وقد ذكر لوقا سلسلة أسماء الذكور فقط من داود إلى مريم، ولكن وجود العدد الكبير من الأسماء الكهنوتية يومئ إلى احتمال كبير بوجود نساء لاويات مهمات كن متزوجات في هذه السلسلة الداودية على طول الخط، وهي قاعدة تعود إلى الخلف كل الطريق حتى هرون أخي موسى، الذي كان أول كاهن إسرائيلي، وقد كان هرون من سبط لاوي، وقد تزوج من أميرة من سبط يهوذا كان اسمها أليشايع أو إليزابيث [الخروج: 6/ 23].

والمدهش أكثر فأكثر هو أن هذا المزج لهذين السبطين في أسرة واحدة، كان قد تأكد في مدفن تلبيوت الذي تناولته بالبحث في المدخل، فهو يحتوي على خمسة أسماء كانت شائعة في أسرة يسوع: مريمتان، ويوسف، ويهوذا، ويسوع، ومتى أيضاً، فهؤلاء كانوا جميعاً في مدفن الأسرة نفسها، ومن المؤكد أن يهوذا الذي كان مدفوناً هناك، كان من سبط يهوذا، ومن المؤكد أيضاً أن متى كان من سبط لاوي، ومع ذلك لقد تمددوا جنباً إلى جنب لمدة ألفي عام، ينتظرون لكي يخبرونا بشيء ما مهم، وسواء أكان هذا مدفن أسرة يسوع أم لم يكن، إن اجتماع هذه الأسماء يوضح

أن سلسلة نسب لوقا، مع مزجها لهذين السبطين هي تاريخياً صحيحة في داخل أسرة يهودية واحدة عبر العصور.

وعندما كنت قادراً على استعراض نواويس تلبيوت، أخيراً، في مخزن الآثار الإسرائيلية في بيت شمس، كنت مسروراً برؤية ناووس «متى» صاحبنا، وهو موضوع على الرف، مع أفراد العائلة الآخرين من حوله، وكأنهم يقدمون شهادة صامتة لسلسلة نسب لوقا، وقد مررت بيدي المرتدية للقفاز بلطف على نقش «متى»، ثم على النقوش الأخرى، محاولاً بشكل ما، من خلال اللمس، أن أرتبط بالماضي الذي تمثله هذه الأسماء، لكن هل هناك أية أهمية خاصة مرتبطة بهذا المزيج من الذرية الداودية، وسلسلة النسب اللاوية؟

تزودنا مخطوطات البحر الميت بجواب مدهش.

مسيح واحد أم مسيحان أم ثلاثة: كشف جديد مفاجئ

توصل أخيراً مسيحيون ويهود نحو التركيز حول المسيح، الذي هو فرد واحد من ذرية داود، سوف يحكم في آخر الزمان، ومع ذلك نحن نواجه في مخطوطات البحر الميت، طائفة دينية، شخصت بالعادة، وربطت مع الإيسينيين، الذين توقعوا قدوم ثلاث شخصيات هم: نبي مثل موسى، ومسيحيان من هرون ومن إسرائيل[16]، ومن الواضح أن «مسيح إسرائيل» هو الملك الداودي، ولكن «مسيح هرون» هو يشير إلى شخصية كهنوتية، قد دعي أيضاً باسم «مسيح»، وتغلق هذه الرؤية الفراغ في فهمنا حول أسرة يسوع، وقد بدأت نصوص متنوعة تصبح معقولة أكثر، ومتوائمة مع بعضها بطريقة كانت من قبل مغفلة.

وجاءت الكلمة الانكليزية messiah من الكلمة العبرية mashiach التي تعني بكل بساطة «الرجل المسوح»، والكلمة الإغريقية المعادلة هي Christos، التي تعني «الممسوح» أيضاً، ومن ذلك استخرجنا الاصطلاح الأكثر شيوعاً وهو

«Christ» الذي معناه المسيح، وتشير الكلمة إلى طقس مقدس، فيه يجري صب الزيت على رأس الفرد المختار لتثبيته ككاهن أو كملك، وفي العادة كان يجري اختيار النبي وتنصيبه من قبل الرب، ولكن في كلتا الحالتين سواء أكان ملكاً أو كاهناً، توجب أن يمتلك المرشح نسباً وأصلاً مناسباً لتأهيله، وقد يصاب كثير من الناس بالدهشة حين يعلمون أن أول مسيح في التوراة كان هرون، فهو قد «مسح» كاهناً من قبل أخيه موسى، وقد أشير إليه في النص العبري كـ «moshiach» أو «messiah» «الخروج: 40/ 12-15»، وكان هذا قد حدث منذ مئات السنين قبل أن يقوم النبي صموئيل بمسح داود كملك لإسرائيل «1-صموئيل: 16/ 13»، وتوجب أن يكون الكاهن المسوح من ذرية هرون، وأن يكون الملك الممسوح من ذرية الملك داود، ولقد كانت مريم أم يسوع منحدرة بشكل مباشر من الملك داود، ولكنها امتلكت أيضاً روابط نسبية وقرابات مع اللاويين، أو سلسلة الكهنة المنحدر أفرادها من هرون، وكان هذا واضحاً في كل من نسبها وفي قرابتها مع أسرة إليزابيث، أم يوحنا المعمدان، وفي قرون متأخرة، بعد العصر التوراتي، صار الأب هو الذي يقرر مسألة النسب إلى السبط، في حين صارت الأم ينظر إليها على أنها الضامن «ليهودية» الطفل المولود، ولم تكن الأمور تقرر هكذا في العصور التوراتية، فقد تحدث كتاب التوراة عن أنها الحاملة «للبذر»، وقد استخدمت الكلمة العبرية «زرع» نفسها للإشارة إلى المولود لكل من الرجل أو المرأة[17]، وبناء عليه، كان باستطاعة يسوع أن يدعي أنه من «زرع» داود من خلال سلسلة نسب أمه[18]، لكن ما الذي نعرفه حول والد يسوع؟ فإذا كان يوسف أبوه بالتبني فقط، وقتها من الذي كان والده العضوي؟ وبالنسبة إلى الذين اعتادوا على الإيمان بروايات «الولادة العذرائية» في متى ولوقا، السؤال لا أهمية عملية له، لأن يسوع لم يكن له أب بشري، ولكن هل هناك أي دليل في مدوناتنا يمكنه أن يقدم لنا بديلاً مؤسساً على قاعدة تاريخية أمتن؟

أب غير مسمى ليسوع؟

مع أن متى ولوقا فقط أكدا على ولادة يسوع من عذراء، وأن هذا التعليم ليس موجوداً في أي مكان آخر من العهد الجديد، لقد تطور الاعتقاد بأن حمل مريم قد نتج عن عمل رباني من دون أي تورط ذكري، إلى عقيدة لاهوتية أساسية، في المسيحية المبكرة، وإنه بالنسبة إلى ملايين من المسيحيين، إن أي اقتراح بأن يسوع قد جرى الحمل به خلال الإجراءات المعتادة للتكاثر الجنسي البشري، حتى وإن كان ذلك مقدساً من الرب، قد نظر إليه على أنه افتراء، إن لم يكن هرطقة مكشوفة كلياً، ولكن التاريخ، بحكم طبيعته الذاتية نفسها، هو مسيرة إجراءات مفتوحة للبحث، لا يمكن أن تربط بعقائد الإيمان، والمؤرخون مجبرون على فحص أي دليل موجود لدينا، حتى وإن كان من الممكن أن تعد مثل هذه الاكتشافات مرعبة بالنسبة لبعضهم أو مدنسة للمقدسات لبعض آخر، وفرضية المؤرخ هي أن جميع الكائنات البشرية امتلك كل واحد منها أباً عضوياً وأماً عضوية، وأن يسوع لم يكن استثناء، ويترك هذا احتمالين هما: إما أن يوسف أو رجلاً آخر لم يذكر اسمه كان الأب ليسوع، فهل من الممكن لمزيد من القراءة التاريخية لقصتي الولادة هذه، في ضوء جميع أدلتنا المتوفرة والتي ما تزال حية، أن تكشف لنا يسوع كان من البشر بكل عمق، تولت عقائد الإيمان حجبه؟ وهل يمكن لمثل هذا الكشف أن ينتهي وهو

مليء بالمعنى الروحي مثل الاعتقاد «بالولادة العذرائية»، الذي هو تعليم وجد كثير من المسيحيين المخلصين مصاعب ومشاكل في قبوله حرفياً[1].

ودلل العلماء الذين أعادوا النظر في المصداقية الحرفية لحكايتي متى ولوقا حول الولادة، على أنهما - وقد أرادا تأكيد الطبيعة اللاهوتية ليسوع كـ «ابن للرب»- فعلاً ذلك بإعطائه ولادة غير اعتيادية وفائقة بطبيعتها، وفكرة وجود كائنات بشرية أنجبوا من قبل آباء أرباب، هي شائعة تماماً في الأدب الإغريقي[2] الروماني، فهناك حشد كامل من الأبطال الذين قيل بأن كل واحد منهم كان نتاج اتحاد أمه برب، مثل: أفلاطون، وإمبيدوكلس Empedocles، وهرقل، وفيثاغورس، والإسكندر الكبير، لابل حتى أغسطس قيصر ونجد في نص بعد نص فكرة «الإنسان اللاهوتي» «Theiosaner» الذي فصله ميلاده المتفوق على الطبيعة، وقدرته على صنع الخوارق، وموته غير الاعتيادي، عن العالم العادي للفانين، ولم يكن هؤلاء الأبطال أرباباً «مخلدين» مثل زيوس وجوبتير، لقد كانوا مخلوقات بشرية فانية، جرى تمجيدهم برفعهم إلى وضع سماوي ذي حياة سرمدية، وفي أيام يسوع ملأت معابدهم ومزاراتهم كل مدينة وكل مقاطعة في الإمبراطورية الرومانية[3]، ومن السهل تصور أن المسيحيين الأوائل الذين آمنوا بأن يسوع قد كان من كل جانب ممجداً وسماوياً مثل أي من الأبطال الإغريق والرومان والأرباب، سوف يوائم هذه الطريقة المتعلقة بقصة ميلاده، وقد كانت طريقة للتأكيد على أن يسوع كان إنساناً ورباً معاً، وبالعادة يرى المفسرون المعاصرون الذين ينظرون إلى القصص وفق هذه الطريقة، بأن يوسف كان من المحتمل كثيراً، أنه هو الأب، وأن هذه الروايات غير الاعتيادية، قد اخترعت فيما بعد من قبل أتباع يسوع لتشريف يسوع، وللرفع من شأن وضعه الممجد، وفق مذهب كان شائعاً في تلك الثقافة.

ولكن هناك إمكانية أخرى، تتمثل في شرح بديل حول ما يمكن أنه وجد

خلف هذه الروايات حول «الولادة العذرائية»، وهي تملك بعض الأدلة القوية كثيراً لصالحها، فعندما أنت تقرأ الروايات حول حمل مريم غير المشكوك فيه، أن الملاحظ بصورة خاصة في كلا النصين هو نغمة واضحة من الواقعية، تسير خلال الروايتين، ويظهر هؤلاء على أنهم ناس حقيقيون كانوا يعيشون أوقاتاً حقيقية وأماكن، وبالمقابل كانت قصص الولادة الشائعة في الأدب الإغريقي الروماني، قد وفرت بصورة مؤكدة نكهة أسطورية لهم، فعلى سبيل المثال، في رواية بلوتارخ حول ميلاد الإسكندر الكبير، غدت الأم أولمبياس Olmpios حاملاً من ثعبان، وجرى الإعلان بوساطة صاعقة برق، ختمت رحمها، وبذلك لم يعد بإمكان زوجها فيليب ممارسة الجنس معها[4]، ومُسَلَّمٌ أن كل من متى ولوقا قد أدخلا أحلاماً ورؤى لملائكة، لكن جوهر الحكاية هو نفسه يعني حول رجل قد اكتشف أن التي ستكون زوجته حامل، وهو يعرف أنه ليس الأب فيها يمتلك سمة واقعية وبشرية كاملة، والحكاية على الرغم من عناصرها الإعجازية «نبرتها صحيحة».

ماذا لو أن قصص ولادة العذراء قد أبدعت، لا لتقدم يسوع إلهياً وفق نمط البطل الإغريقي الروماني، بل لتعالج حالة الصدمة الحقيقية، وهي حالة حمل مريم قبل زواجها من يوسف؟ فجميع النسوة الأربع اللائي ذكرهن «متى» في سلسلة نسبه، كانت لهن علاقات جنسية خارج إطار الزوجية، واثنتان منهن على الأقل أصبحتا حاملتين، ويظهر أن «متى» حين أقدم على تسمية هؤلاء النسوة بشكل خاص، كان يقدم ضمنياً علاجاً لوضع مريم.

وهناك بعض الإشارات في أناجيلنا بأن تهمة عدم الشرعية، كانت تدور خلف المشاهد، وإنجيل مرقص الذي هو أقدم أناجيلنا، حيث كتب في حوالي العام سبعين للميلاد، قد أورد مشهداً مهماً، فيه كان يسوع عائداً إلى البيت في الناصرة كرجل بالغ، وقتها كانت هنالك غمغمة حوله بين سكان البلدة، لاحظ بحرص لغتهم قولهم:

«أليس هذا هو النجار ابن مريم، وأخو يعقوب، ويوسي، ويهوذا، وسمعان؟ أو ليست أخواته ههنا عندنا؟».[مرقص:6/ 3].

وقد استخدم «متى» مرقص مصدراً له، وأورد الحكاية نفسها، ولكن لاحظ كم كان بارعاً في إعادة صياغة الأمور في قوله:

«أليس هذا ابن النجار؟ أليست أمه تدعى مريم؟ وإخوته: يعقوب، ويوسي، وسمعان، ويهوذا؟ أو ليست أخواته جميعهن عندنا؟» [متى:13/ 55].

والبراعة لكن مع التحول النقدي في عرض الكلمات منبىء تماماً:

«أليس هذا هو النجار ابن مريم؟» [مرقص].

«أليس هذا ابن النجار؟ أليست أمه تدعى مريم؟» [متى].

وفي دعوة يسوع «ابن مريم» إشارة إلى أب غير مسمى، ففي اليهودية يشار بكل تأكيد إلى الأولاد كأبناء أو بنات للأب، وليس للأم، ولم يشر مرقص إلى يوسف أبداً وعلى الإطلاق، لا بالاسم ولا بأي شكل آخر، فهو قد تجنب القضية الأبوية كلياً، وهناك بعض السبب الجيد لهذا الصمت، وبالمقابل سارع «متى» إلى إعادة صياغة كلام مرقص، وبذلك نجد أن مسألة عدم الشرعية، لم يشر حتى إليها، لا بل يمكننا حتى أن نجد بأن مخطوطات إغريقية متأخرة من إنجيل مرقص حاولت أن «تثبت» الفضيحة بوساطة تغيير النص حتى يصبح «ابن مريم ويوسف»، ونجد هنا حركة متطورة هدفت إلى إلغاء الفضيحة أو التلاعب حولها، وهي فضيحة كانت معروفة تماماً في أوساط سكان قرية الناصرة في عقود زمانية ماضية، وفي العادة نادراً ما تموت الإشاعات، والأقاويل، ومن الصعب أن تختفي تمام الاختفاء.

ويوجد في إنجيل يوحنا أشياء حتى أكثر دقة وتحديداً؛ ففي إحدى النقاط كان يسوع في القدس يتجادل مع ناقديه اليهود، وقد أصبح الحديث حامياً

كثيراً، وتحول تقريباً إلى العنف، وكان واحد من أجوبتهم ليسوع تأكيداً مدهشاً في قولهم: «إننا لم نولد من زنا»، وكأنهم غمزوا بقناته وأرادوا القول «مثلك أنت» [يوحنا: 8/ 41]، ومن الواضح أن شيئاً ما كان يحدث هنا، وكانت هذه ضربة خفية شديدة، ومحاولة بديهية لنسف موقف يسوع بالإشارة إلى إشاعة حول ولادته غير الشرعية، ويوجد من القرن الرابع للميلاد نص مسيحي يدعى «أعمال فيلاطس» من المحتمل أنه يعود بأصوله إلى أواخر القرن الثاني للميلاد، وقد جاء في هذا النص رواية عن محاكمة يسوع أمام فيلاطس، حيث نجد أن إحدى التهم التي وجهت إليه من أعدائه قولهم: «أنت ولدت من زنا»، وما من أحد نظر إلى النص على أنه رواية تاريخية حول المحاكمة، ولكنه يقدم شهادة على استمرار تهمة اللاشرعية، فالذي كتب النص -مهما كان- قد وجد من الضروري تشييد مشهد للمحاكمة، عالج به التهمة التي واجهناها في إنجيل يوحنا، الذي هو من القرن الأول.

وقد أتى يوحنا على ذكر يوسف مرتين فقط، وهو لم يقدم رواية عن الميلاد على الإطلاق [يوحنا:1/ 45، 6/ 42]، فلماذا هذه الكراهية للإشارة بشكل مكشوف إلى أب واحد من الناس؟ ونقرأ في نص معادل إلى حد ما لنص مرقص قوله:

«أليس هذا هو يسوع بن يوسف؟ الذي نحن عارفون بأبيه وأمه؟» [يوحنا: 6/ 42].

وظهرت هنا مرة أخرى إشارة خفيفة جداً إلى شيء غير منتظم، فلماذا اسم يوسف، ثم أضاف بشكل فائض عن الحاجة قوله: «الذي نحن عارفون بأبيه وأمه»، وإذا ما أضفنا إلى هذا النص الآخر بأنه «ولد من زنا»، فإن تهمة عدم الشرعية واضحة أكثر منها مبطنة لتستخرج.

ومن المؤكد أنه ليس حادثاً عرضياً أن مرقص ويوحنا، والإنجيلين لم يقولا شيئاً حول ميلاد يسوع، وقليلاً أو لا شيء حول أبيه، ويظهر أن هذا قد حفظ لنا إشارات ذكية إلى تهمة اللاشرعية، وقد حاول كل من «متى» و«لوقا» تلطيف القضية بوساطة الادعاء بأن يسوع كان قد تم الحمل به بوساطة «الروح القدس»، لكن كلاهما قد أقرا عن طواعية بأن يوسف لم يكن الأب، وأن هذه هي القضية، ففكرة انعدام الشرعية هي عنصر دائم وملازم موجود في الأناجيل الأربعة للعهد الجديد، وظاهر أن كل واحد منهم موافق على أن يوسف لم يكن الأب ليسوع.

وتهمة اللاشرعية هذه ليست وقفاً على الأناجيل الأربعة، فقد جرى الكشف عن إنجيل توما في صعيد مصر، في مكان يدعى نجع جمادي، من قبل فلاح عربي، كان يحفر في المنطقة من أجل تخصيبها وكانت نسخة الإنجيل موجودة في جرة من الآجر مختومة، وكانت مدفونة في حقل هناك، موجودة هي وعدد كبير من النصوص المسيحية المفقودة، كلها كانت مكتوبة على ورق البردي بالقبطية القديمة، ويرجح أنها أخفيت في أواخر القرن الرابع من أجل حمايتها من المسيحيين الأرثوذكس، الذين سيدمرونها على أنها «هرطقة»، وجعل كثير من العلماء تاريخها بأنه أوائل القرن الميلادي الثاني، ومن الواضح أنها أعلى الوثائق المسيحية المفقودة قيمة، والتي جرى اكتشافها في المائتي عام الأخيرة، ويتضمن إنجيل توما مائة وأربعة عشر من أقوال يسوع، وقد دعاه بعضهم باسم «الإنجيل الخامس»، لأنه يقدم قطعاً كثيرة جداً من «تعليم» يسوع المفقود، وقد كان هذا كله لولا ذلك ضائعاً ومنسياً، وكان يسوع قد أخبر تلاميذه قبيل نهاية المجموع قوله:

«المرء الذي يعرف أباه وأمه سوف يدعى ابناً لمومس[5]».

وقد وجد عدد كبير من العلماء في هذا القول الخفي صدى للنعت القبيح الذي توجب على يسوع مواجهته خلال حياته، أي أن أمه مريم قد أصبحت حاملة خارج نطاق الزوجية، ولا يوجد في إنجيل توما قصص ميلاد، أو

إشارات إلى يوسف أو إلى الولادة العذرائية» ولكن هناك في هذا النص نطلع على بعض منعكسات قصة عدم الشرعية، مع المفهوم الضمني بأن هذه التهمة لم تكن عادلة، وأن يسوع قد عرف ظروف ولادته، كما عرف أيضاً هوية أبيه غير المسمى والغائب.

وعلى هذا، إذا لم يكن يوسف هو والد يسوع، فمن من الممكن كان هو؟ وما هي الظروف التي اقتادت مريم لأن تتهم بالزنى، وأن تنعت «بالمومس»؟ وبالنسبة إلى أي تأكيد تاريخي نحن ربما لن يكون بإمكاننا أن نعرف على الإطلاق، وإذا كنا نملأ شهادة ميلاد ليسوع فإننا سوف نكتب «أب غير معروف»، بيد أن القضية لم تنغلق تمام الانغلاق، ذلك أن هناك أقاصيص وإشاعات قد انتشرت منذ زمن مبكر تماماً، وهناك اسماً هو اسم فنتيرا pantera الذي يبدو أنه ظهر هنا وهناك بشكل غير متوقع لكن مع بعض الاستمرارية والإصرار.

حل لغز فنتيرا

جاء أقدم نص عن قصة فنتيرا من عند فيلسوف إغريقي اسمه سيلسيوس Celsus حيث روى في كتاب ضد المسيحية عنوانه «حول العقيدة الصحيحة» جرت كتابته في حوالي العام 178م بأن مريم «كانت قد أصبحت حاملة من قبل جندي روماني اسمه فانثيرا panthera» وأنها قد طردت من قبل زوجها كزانية[6]، ومن المستبعد أن يكون سيلسيوس قد اخترع هذا الاسم، أو مهنة الرجل، الذي أصر على أنه كان الأب العضوي ليسوع، فهو كان يردد ما كان يدور في أوساط يهودية، وقد ظهر الاسم حتى قبل ذلك، فقد روى الحاخام اليهودي المشهور اليعازر بن هيركانوس، الذي عاش في حوالي نهاية القرن الأول للميلاد خبر تعليم Teaching حدثه عنه رجل جليلي من أتباع يسوع اسمه يعقوب السخنين sikknin في مدينة صفورية[7] وحدد بعضهم هوية يعقوب هذا على أنه

كان حفيد يهوذا، الأخ الأصغر ليسوع ساق التعليم وعرضه «باسم يسوع بن فنتيرا»[8]، وكان هناك خلاف بين هؤلاء الحاخامات المبكرين، تعلقت أيضاً بهذا الذي اسمه يعقوب نفسه وكان من أتباع يسوع، عما إذا كان مسموحاً أو غير مسموح معالجة عضة أفعى «باسم يسوع بن فانتر panter»[9]، ولم تقل هذه المصادر القديمة أي شيء عن سبب دعوة يسوع «بابن فنتيرا»، كما أنها لم تعرف فنتيرا كجندي روماني، لكنها أظهرت بأن يسوع قد جرى تعريفه بوساطة هذا الاسم منذ تاريخ مبكر تماماً في الجليل، وأنه كان من الممكن استخدام ذلك الاسم من دون شرح أو تأهيل[10]، وقد اقترح عدد مختلف من العلماء المسيحيين أن فنتيرا كان اصطلاح إساءة وشتيمة، وهو تحريف متعمد للكلمة الإغريقية parthenos التي تعني «عذراء»، ولكن الكلمتين لا تتشابهان عن قرب كثيراً، واقترح آخرون بأن يسوع قد دعي من باب الإهانة والتسفيه باسم «ابن النمر panther» في إشارة إلى الطبيعة الوحشية لأبيه الحقيقي وإلى «شبقه»، والمشكلة مع هذه المقترحات أن الإشارات المبكرة إلى يسوع كـ «ابن فنتيرا» لم تكن ردوداً دينية، وفي اليهودية عندما تريد التعريف بشخص تقوم بربط اسم الأب، وهذا منطق واضح في هذه الإشارات المبكرة، فهي قد عزمت على التعريف وليس التشهير.

وتظهر الأدلة أن المسيحيين الأوائل قد نظروا إلى هذا الأثر الإخباري بشكل جاد، وهكذا عدّوه، ولذلك لم يكونوا قادرين على رفضه بسهولة على أنه إشاعة كان غرضها التشهير، وذهب في القرن الرابع للميلاد الأرثوذكسي المسيحي ايفانيوس Epiphanius إلى الافتراض أن هناك درجة من الصحة والصدق في خبر «يسوع بن فنتيرا» لكنه شرحه بالادعاء بأن والد يوسف كان معروفاً باسم «يعقوب فنتيرا»، وبذلك جعل الاسم جزءاً من الأسرة[11]، ومن المدهش أنه حتى تاريخ متأخر هو القرن الثامن للميلاد، جرت محاولات مماثلة «لتدجين» خبر فنتيرا، وأخذت تظهر بشكل غير متوقع، ومرّ يوحنا الدمشقي بالخبر فقال بأن الجد

الأعلى لمريم كان اسمه «فنتيرا»، وتظهر هذه المحاولات البعيدة المدى لمنح الشرعية لاسم «فنتيرا» وإظهاره كجز من أجداد يسوع، أن تصميم «يسوع بن فنتيرا» لم يكن بالإمكان رفضه بسهولة على أنه اختراع للتشهير من قبل أعداء يهود[12].

ونحن نعرف الآن أن اسم فنتيرا panthera كان اسماً إغريقياً، قد ظهر في عدد من النقوش اللاتينية من تلك المدة الزمانية، وبشكل خاص ككنية للجنود الرومان، وهناك شيء واحد نحن متأكدون منه هو أن فنتيرا كان اسماً حقيقياً، ولم يكن اصطلاحاً ملفقاً للتشهير والفضيحة.

وكان في العام 1906 قد نشر المؤرخ الألماني الكبير آدولف ديسمان Adolf Deismann مقالاً قصيراً عنوانه الاسم فنتيرا «Der Name Panthera»، وعرض ديسمان في دراسته تفاصيل مختلف النقوش القديمة التي استخدمت «فنتيرا/ Panthera» في جميع القرن الميلادي الأول وما حوله[13]، وقد عرض بشكل حاسم بأن الاسم كان مستخدماً خلال تلك الأيام، وكان مفضلاً بشكل خاص من قبل الجنود الرومان، ويحتل واحد من الأمثلة التي ساقها مكاناً خاصاً، وهو النقش الذي كتب على شاهد قبروا حد اسمه «تايبيريوس يوليوس أبديس عبد فنتيرا «Tiberius Juliues Abdes Pantera» في مقبرة رومانية في العام 1859 في بنغر بروك Bingerbruck على بعد اثني عشر ميلاً إلى الشمال من بادكروزناخ Badkreatnach حيث يلتقي نهر ناهي Nahe بنهر الراين، وأصحب ديسمان مقاله صورة أظهرت صورة محفورة لجندي روماني مع رقبة ورأس مبتور، وهناك نقش لاتيني محفوظ بوضوح تحت قدميه نصه كما يلي:

تايبيروس يوليوس أبديس فنتيرا

من صيدا، عمره اثنان وستون عاماً

جندي له أربعون عاماً خدمة

من الكتيبة الأولى للرماة يرقد هنا[14]».

وبيّن ديسهان أن «فنتيرا» هذا بالذات قد مات في منتصف القرن الأول للميلاد، وأنه جاء إلى ألمانيا من فلسطين، وقد أثار فضولي هذا التقارب غير المحتمل في الاسم، والتاريخ، والمكان، وقررت أن أحاول تتبع آثار شاهد القبر هذا، للحصول على تفاصيل اكتشافه، وعلى أية معلومات أخرى يمكنني تعلمها، فوجدت إشارات متفرقة لشاهد قبر فنتيرا هذا بشكل خاص، في عدد من الكتب المتنوعة، ولكن بقدر ما يمكنني القول: ما من واحد امتلك دراسة حقيقية في كتابه، وكان كل واحد ينقل ببساطة عن مقال ديسهان الأصيل للعام 1906، ومن المؤكد أنه كان هناك المزيد الكثير لتتعلمه، وبالطبع لم يكن لدي دليل بأن شاهد القبر من الممكن تحديد مكانه، وكنت أتساءل حول غرابة أن يكون قد بقي خلال حربين عالميتين، وعما إذا كان المتحف الذي ذكره ديسهان في العام 1906 في بادكروزناخ مازال موجوداً في حوالي العام 2005.

وقد حددت متخيلاً المكان الذي تقوم فيه بلدة بادكروزناخ، وارتفعت آمالي عندما وجدت أن المدينة تفتخر بمتحف للآثار الرومانية القديمة يدعى باسم «الرومرهول Romer holle» وخفق قلبي بقوة عندما قرأت أن بين كنوزه كانت مجموعة من شواهد قبور جنود رومان اكتشفت على مقربة من بنغربروك، ومن المؤكد أن تايبيروس يوليوس أبديس فنتيرا سوف يكون بينهم.

وقد اتصلت بأمينة المتحف، وكنت مسروراً في أن أعرف أنه ليس شاهد قبر تايبيروس يولبوس أبديس لوحده سليماً ومعروضاً، بل إن المجموعة كلها لتسعة شواهد قبور لجنود رومان، اكتشفت في الموقع نفسه، هي محفوظة، وهم قد جرى اكتشافهم بالصدفة تماماً أثناء بناء محطة قطار في بنغربروك فيما بين العام 1859 والعام 1861، وقد جمعوا أولاً من قبل الجمعية التاريخية المحلية، ثم وضعوا للعرض في العام 1933 في متحف المدينة القديمة، وهم الآن في متحف

الرومرهول المبني حديثاً، ولحسن الحظ لم تقصف بادكروزناخ أثناء الحرب العالمية الثانية، وأخبرتني أمينة المتحف أيضاً، أن لديها ملفاً سميكاً من الوثائق سوف تفتحه من أجل فحصي لتفاصيل الاكتشاف الأصيل بما في ذلك أوعية الدفن والنقود، وبعد ذلك بوقت قصير ازدادت تساؤلاتي وقويت، فهي قد ذكرت لي خبر اكتشاف آخر لم يكن معروفاً من قبل إلى أي واحد كان في المتحف، فقد كانت مخبأة بين عدد كبير من أقمشة اللوحات القديمة الموجودة في مخزن الغرفة الخلفية للمتحف نسخة من لوحة زيتية أصيلة رسمت في العام 1860، تعرض اكتشاف المقبرة الرومانية بتفاصيل تكاد تكون حية، فقررت السفر إلى ألمانيا حتى أتولى فحص هذه المواد مباشرة.

ولقد كان هناك شيء مثير لا يصدق حول مدفن قديم أو ناووس أو نقش مدفن من أيام يسوع، فهذا بكل تأكيد قد نلت حصتي منه في إسرائيل، لكنني لم أتخيل قط أن بحثي عن يسوع التاريخي سوف يأخذني إلى ألمانيا، من بين جميع الأماكن، فهل سيكون من المستبعد إمكانية وقوفي حالاً أمام ما يمكن أن يكون أثراً أصيلاً بصحته من آثار أسرة يسوع؟ وأقر بأن ذلك بدا مجرد توقع، لابد أنه حتى بعيد التحقيق، لكن أشياء غريبة تظهر بشكل غير متوقع في عالم الآثار، وسواء أكان فنتيرا هذا له أية علاقة مع الأثر المروي بأن يسوع كان «ابن فنتيرا»، أو لم تكن، من المؤكد أن الأمر يستحق التقصي والبحث.

وكانت هذه الأسئلة في ذهني في صيف عام 2005، عندما طرت إلى فرانكفورت في ألمانيا، وأخذت قطار الصباح الباكر إلى بلدة بادكروزناخ الصغيرة، التي كانت على بعد مسافة ساعة إلى الجنوب، على نهر ناهي، وقد كانت بادكروزناخ ثغراً مهماً في العصور الرومانية، والمنطقة الريفية المحيطة بها مكتظة بالخرائب الرومانية القديمة[15]، وإنه لمن السهل معرفة كم كانت هذه الحدود الألمانية مهمة بالنسبة إلى الرومان في أيام يسوع، فلقد كانت فيتنام أو عراق أيامه،

فقد جرى نقل أعداد لا تحصى من الجنود الرومان إلى الثغور النائية في ألمانيا، وهناك مات آلاف ودفنوا، ولكن ما علاقة هذا كله بوالد يسوع؟

وكان لدي في متحف رومرهول وقت وفير، حتى أصور، وأقيس، وأفحص عن قرب شواهد القبور هذه، وبشكل خاص شاهد قبر تابيروس يوليوس أبديس فنتيرا، وبدأت بالقراءة أيضاً خلال التقارير الأساسية لاكتشافهم في العام 1859، وببطء بدأت أجمع قطع الأدلة مع بعضها، فبدأت صورة مدهشة حقاً بالظهور، وأصبحت مقتنعاً بإمكانية وجود ترابط بين هذا الجندي الروماني الخاص وبين الأثر المروي المتعلق بوالد يسوع، وأنه ينبغي عدم التخلي عن هذه الإمكانية، فقط بسبب أن فيها عدوانية نحو التقوى والإيمان، فكل الحقائق ذات العلاقة ينبغي تقديمها وفحصها بكل دقة وعناية.

ولقد علمت أن ثلاثة شواهد قبور، بما فيها شاهد قبر فنتيرا، قد اكتشفت أولاً في العشرين من تشرين الأول للعام 1859، على بعد حوالي الثلاثمائة ياردة عن نهر ناهي، وجرى تقديم اسم فنتيرا، كاملاً وبشكل رسمي في النقش كما يلي: تابيروس يوليوس أبديس فنتيرا، وكانت «فنتيرا» كنيته، وكان تابيروس يوليوس هو اسم الأسرة أو الاسمين المكتسبين، وهما يشيران إلى أن فنتيرا لم يكن اسماً لروماني مولود محلياً، بل اسماً لعبد سالف أصبح رجلاً حراً وتسلم حقوق المواطنة الرومانية من تابيروس قيصر من أجل خدماته في الجيش، وكانت أعمال التجنيد الأولية هي لمدة خمسة وعشرين عاماً، لكن فنتيرا اتخذ الخدمة العسكرية حرفة له، وقد خدم لمدة أربعين عاماً، حتى وفاته وهو في الثانية والستين من عمره، وبما أن الامبراطور تابيروس وصل إلى الحكم في العام 14م، يمكننا أن نفترض أن موت فنتيرا وهو في الثانية والستين من عمره قد كان بعد بضعة أعوام من ذلك، ومن المحتمل أنه مات نتيجة لأسباب طبيعية، بما أنه تجند في الجيش عندما كان في الثانية والعشرين من عمره.

واسم أبديس هو اسم قد منح إلى فنتيرا أو هـو اسـم أول، وهـو اسـم بـالغ الأهمية وهو صيغة للاسم الآرامي «عبـد» «أي عبـد للـرب»، وهـذا يـشير إلى أن فنتيرا كان «سامياً» أو ربما امتلـك خلفيـة يهوديـة، سـواء أكـان مولـوداً محليـاً، أو متحولاً، أو كان من أسرة متعاطفة مع اليهودية، ومن المحتمـل أنـه كـان يهوديـاً، واسم «فنتيرا» هو اسم إغريقي، حتى وإن ظهر هنا في نقش لاتيني، وكان في العام 1891 عمل الآثاري الفرنـسي شـارل كليرمونـت- غـانيو Charles Clermont-Ganneau اكتشافاً أثرياً مدهشاً، تمثل بقبر من القـرن المـيلادي الأول، كـان قـبراً يهودياً، على طريق نابلس، إلى الشمال من مدينة القدس القديمة، وكان فيه ناووس مع اسم pentheros بالإغريقية، مع ناووس واحد اسمه Josepos أو يوسف بـن فنتيرا هذا، ونحن نعرف من الدفن أنهما كانا يهوديين، مما يعطينـا دلـيلاً محـدداً بـأن الاسم فنتيرا كان مستخدماً في أيام يسوع من قبـل اليهـود ومثـل ذلـك مـن قبـل الرومان أيضاً[16].

وكان عبد فنتيرا من صيدا، وهي بلدة على الساحل السوري الفلسطيني إلى الشمال من صور، وهي تبعد الآن أقل من أربعـين مـيلاً عـن الـصفورية، ونحـن نعرف أن كتيبة الرماة الخاصـة هـذه قـد وصـلت إلى دلماشـيا «كرواتيـا» في العـام السادس للميلاد من فلسطين ونقلت إلى منطقة نهر الراين/ ناهي في العام التاسـع للميلاد، وليس مدهشاً بالنسبة لنا أن يكون فنتيرا قد مـات ودفـن في ألمانيـا، مـثلما حدث لآلاف آخرين من الجنود الرومان الذين قاتلوا في حروب الحدود المرعبة في زمان قريب من أيام يسوع، لا بل نجد أن أغسطس قد قام بنقل فـاروس Varus، النائب الامبراطوري في سورية، حتى يتولى إمرة الفرق الرومانية والتـي كانـت في الشمال من هذه المنطقة من ألمانيا، وقد احتفظ الرومان بمراكز ثغرية دائمة في ألمانيا، وتزودنا مقبرة برنغربروك بأدلة بأن جنوداً محنكين أمضوا حياتهم على الحدود، وقد ظهر أن شواهد القبور التسعة الأخرى ترقى إلى المدة الزمانية نفسها تقريباً، أي من

منتصف القرن الأول للميلاد إلى أواخره، وتأسس هذا على دليل النقود التي تم العثور عليها في المقبرة، ومن نمط حجارة القبور، ومن محتوى نقوشهم، وتظهر اللوحة المرسومة للعام 1860 حول اكتشاف مقبرة برنغر بروك، بوضوح أوعية الدفن الفخارية التي كان فيها رماد وعظام الموتى، وهي لم تكتشف بعد، وتشير أقدم الوثائق إلى أن معظم هذه الأوعية الفخارية قد تحطمت أثناء إجراءات الحفريات، باستثناء وعاء واحد قد تمّ الاحتفاظ به، وليس معروفاً الآن من أين جاء مع أن هناك بعض المفاتيح، وأنا لم أتمكن عن الامتناع عن التساؤل لو أن القدر قد حفظ لنا بشكل ما بقايا تايبيروس يوليوس أبديس فنتيرا، من المحتمل أن الوقت سوف يخبر.

وعلى هذا ما الذي يمكننا أن نخلص به حول أبديس فنتيرا من المستبعد كثيراً التصور بشكل معقول، أن يكون بين جميع آلاف النقوش العائدة لتلك الحقبة، أن يكون هذا شاهد قبر والد يسوع، وفي ألمانيا بالذات من بين هذه الأماكن، ويظهر أن الفرص غير محدودة، ولكن الأدلة ينبغي عدم التخلي عنها، فلقد كان فنتيرا جندياً رومانياً، ومن المحتمل أنه كان يهودياً، من أهل سورية- فلسطين من المنطقة الواقعة إلى الشمال من الجليل، وكان معاصراً لمريم، أم يسوع، وبناء عليه، نحن نمتلك الاسم الصحيح، والاختصاص الصحيح، والمكان الصحيح، والوقت الصحيح، وليست هناك من طريقة للبرهنة على وجود خلل بين هذا النوع من الأدلة، وباختصار؛ إن الذي بقي هو إجراء فحوص الحمض النووي على البقايا المحددة التعريف.

ومهم أيضاً عدم الافتراض أن يكون المرء ابناً لجندي روماني كان يدلل بالضرورة على شيء ما سلبي، فقد كان يوحنا المعمدان يعتني بالجنود الرومان، الذين كانوا يأتون إليه لسماع وعظه، وتشير أقدم الأوصاف التي نمتلكها إلى أن يوحنا قد قام حتى بتعميد جنود رومان، وأنهم كانوا جزءاً من الحركة المسائحية

التي أشعلها يوحنا وقريبه يسوع [لوقا: 3/ 14]، وهناك عدة ضباط رومان قد جرى الثناء عليهم في العهد الجديد من أجل روحانيتهم وتقواهم، وكان بعضهم جزءاً من أتباع يسوع المبكرين(17)، وفي الحقيقة أثنى يسوع على قائد مائة روماني في كفرنا حوم، التي كانت مدينة موجودة على بحر الجليل «طبرية»، على أنه امتلك إيماناً أكثر من أي واحد قد قابله قط، بما في ذلك أتباعه اليهود [لوقا: 7/ 9]، ولقد كان أيضاً قائد مائة روماني هو الذي أعلن عن يسوع عند موته قائلاً: «حقاً كان هذا الإنسان ابن الرب» [مرقص:15/ 39].

وقد اقترح بعض الذين أعطوا قيمة إلى حديث «يسوع بن فنتيرا»، بأن الجندي الروماني كان قد اغتصب مريم، حيث أعطوا ظروف الأوقات والاضطرابات التي أحاطت بميلاد يسوع، وجود مثل هذه الإمكانية، وبقدر ما تسبب مثل هذه الفكرة في البداية ضربة عنيفة جداً، قد وجد بعضهم في هذا «السيناريو» تعبيراً عن القبول الإرغامي، وحباً غير مشروط، من المؤكد من قبل مريم كأم، ولكن أيضاً من قبل يوسف كزوج على استعداد لتبني الطفل وكأنه ابنه، وهناك بديل ممكن، وهو أن مريم قد أصبحت حاملة من خلال علاقة هي اختارتها، وبما أننا لا نعرف شيئاً عن احتمالات ظروف حمل مريم، ولا عن علاقتها بأبي يسوع، سواء أكان جندياً رومانياً أم لا، ليس هناك من سبب لافتراض وجود شيء قبيح أو آثم، فنحن لا نعرف أية تفاصيل عن ظروف خطبة مريم إلى يوسف، فهل كانت هي مشاركة راغبة في ترتيبات الزواج من رجل عجوز؟

فهل كانت من قبل قد أقامت علاقة مع رجل آخر؟ وهل من الممكن أن الحمل كان قد حدث قبل الخطبة إلى يوسف؟ ومن المحتمل تماماً أن يكون الذي كانت لها علاقة به قد غادر المنطقة، ولم يعلم قط شيئاً حول الحمل، فصاحبنا فنتيرا قد دفن في ألمانيا، ولا بد أنه كان شاباً، قريباً في السن من سن مريم في أيام ولادة يسوع، ومن وجهة النظر التاريخية، ينبغي أن يبقى هذا السؤال بشكل خاص

ويترك مفتوحاً، ومع أن «متى» و«لوقا» يقدمان مريم كامرأة حامل بعد خطبتها، لأن ما من واحد منهما آمن بأن يسوع قد امتلك أباً بشرياً، ينبغي عدم أخذ عرضهما وما قدماه على أنه الكلمة الأخيرة، فمن المحتمل أن مريم قد أصبحت حاملاً أولاً، وبعد ذلك جرت الترتيبات لخطبتها من قبل أسرتها، وقد قبلت من قبل يوسف مع المعرفة بالوضع، ووجهة نظري هي أننا ببساطة لا نعرف، لذلك ينبغي عدم إصدار الأحكام، وأن نضع افتراضات سلبية فور وضع عبارة «جندي روماني أمامنا»، فأعداء يسوع قد أقدموا على صنع أسوأ الأشياء، واستخدموا من دون رادع وصُمَتَي «زانية» و «عاهرة» ليطلقوهما على أمه، وليس هنالك من سبب للتصديق على افتراضاتهم، وعندما تصل الأمور إلى فضيحة أسرة، وحمل خارج أطر الزوجية، وفسخ خطوبات فإن غمغمات الزقاق في قرية ريفية في الجليل، هو آخر مكان يريد الإنسان أن ينصرف نحوه من أجل الحصول على أية إيجابية.

وهناك قطعة أخرى من هذا اللغز، من الممكن أن تكون مهمة، وهي واحدة من أكثر القصص غرابة في مرقص، الذي هو أقدم الأناجيل لدينا، ولنتذكر أن مرقص كان واحداً ممن دعا يسوع «ابن مريم»، وهو لم يذكر يوسف قط، أو قصة ميلاد يسوع على الإطلاق، وتحدث مرقص بشكل مفاجئ عن رحلة ذات جوانب خفية قام بها يسوع عندما كان يعمل حول بحيرة طبرية حيث قال:

«ثم قام من هناك ومضى إلى تخوم صور وصيداء، ودخل بيتاً وهو يريد أن لا يعلم أحد، فلم يقدر أن يختفي» [مرقص:7/ 24].

وفي أثناء عودته، لقد أخبرنا بأن ذهب من خلال صيدا عائداً إلى بحيرة طبريا، ولم يأخذ الطريق الأكثر مباشرة [مرقص:7/ 31]، وما من أحد في الحقيقة تولى إيضاح هذا، فليس لدى لوقا ما يفعله بهذه القصة، ولهذا تولى إسقاطها بكل بساطة، وأورد «متى» الحكاية، لكنه حذف بحرص وعناية الجزء المتعلق بدخول يسوع إلى بيت محدد حيث كان معروفاً، وأزال التفاصيل

المتعلقة بطريق عودته من خلال صيدا [متى:15/ 21، 29]، ومن المحتمل أن المعلومات لم تكن مهمة بالنسبة إليه، أو لربما أراد تجنب قيام قرائه بطرح السؤال البديهي: لماذا أقدم يسوع بشكل مفاجئ على مغادرة أراضي هيرود أنتباس في الجليل، وسافر إلى سورية إلى المنطقتين الساحليتين لكل من صيدا وصور؟ وبيت من كان هو يعرفه ودخله بشكل سري؟ ولنتذكر أن هاتين لم تكونا مدينتين يهوديتين، وجدير بالذكر أيضاً أن يسوع أقدم بشكل متواصل على مدح مدينتي صور وصيدا، على أنهما بشكل كبير أكثر انفتاحاً لرسالته من مدن الجليل، حيث وعظ وبشر أكثر، [لوقا: 10/ 14]، ولم تكن صور وصيدا مناطق نائية عن الجليل، ولقد روي لنا بأن حشوداً من الناس من كل من صور وصيدا، قدموا إلى الجانب الشمالي لبحيرة طبرية للاستماع إلى وعظ يسوع [لوقا: 6/ 17]، وتماماً مثلما هناك معاملة إيجابية للجنود الرومان في الأناجيل، هناك بصورة مدهشة وجهة نظر مادحة مؤثرة لهاتين المدينتين الساحليتين غير اليهوديتين، فمن المحتمل، لا بل حتى من المرجح كانت هنالك بعض العلاقات؟ ويظهر أن الطبيعة المفاجئة للقصة، التي عبرت بشكل غريب إلى مرقص، تومئ إلى شيء ما أكثر.

وأنا مقتنع أن أفضل أدلتنا يشير إلى أن يوسف الذي تزوج من مريم الحامل لم يكن الأب ليسوع، ويبقى أبو يسوع غير معروف، لكن من المحتمل أن اسمه كان فنتيرا، وإذا كان الأمر كذلك، من المحتمل تماماً أنه كان جندياً رومانياً، وفيما يتعلق بشاهد القبر في ألمانيا، سواء أكان لأبي يسوع أم لم يكن، هو مثل النواويس والمدافن في القدس التي قمنا بدراستها، إنه يذكرنا بأن هذه الأسماء متعايشة مع أسرة يسوع، وهي تشكل أرضية داخل مادة الأدلة التي تستمر الآثار في الكشف عنها، ولقد كان هؤلاء مخلوقات بشرية حقيقية، قد عاشوا وماتوا في الماضي، الماضي الذي أصبح بازدياد أقرب وصولاً إلينا وإذا لم

يكن يسوع ابن يوسف، لكن مريم قد تزوجت منه، وأنجبت له أولاداً آخرين بعد يسوع، يمكن للإنسان أن يفترض بأن يوسف كان والد بقية الأسرة، ولكن كما يحدث في الغالب، عندما تصل القضية إلى أسرة ملكية، إن الأمور لن تكون سهلة على الإطلاق.

أبناء أب مختلف

إن مرقص هو أقدم من ذكر بأنه كان ليسوع أربعة إخوة وأختان على الأقل، وإنجيل مرقص هو أقدم سجل إنجيلي، وقد أتى على ذكرهم وحدد أسماءهم كمسألة حقيقية وهم: جيمس ويوسي، ويهوذا، وسمعان، وذكر مرقص الأختين من دون تسميتهما، غير أن التقاليد المسيحية القديمة تقول: لقد كانتا اثنتين هما: مريم، وسالومي [مرقص: 6/ 3][1] واحتوى إنجيل متى، الذي اعتمد على مرقص كمصدر له، قائمة الأسماء نفسها مع أنه لفظ اسم يوسيس الذي هو لقب قريب من كلمة يوسي بصيغته الكاملة، وهي «يوسف»، وهو أيضاً أورد اسم سمعان «شمعون» قبل يهوذا «متى: 13/ 55»، وفي المقابل أسقط لوقا قائمة الأسماء كلياً، فهو مدافع غير خجول عن الرسول بولص، وقد بدأ بإجراء طويل هدف إلى تهميش إخوة يسوع والتعتيم عليهم، وهو ما نواجهه في هذه الأيام، ففي غالب الأحيان، وأكثر من مرة عندما كنت أعلم أو أحاضر حول إخوة يسوع، والوضع المهم والمكانة العالية لجيمس الأكبر، الذي تركه يسوع مسؤولاً عن أتباعه، كانت الأيدي ترتفع في الغرفة، وكانت الملاحظة دوماً هي نفسها: «أنا لم أعرف قط أن يسوع قد كان له أية إخوة».

وهناك عدداً من الحقائق خلف هذه الثغرة في معلوماتنا حول المسيحية

المبكرة، وتقوم العقيدة المسيحية المتأخرة على أن مريم كانت عذراء دائماً، وأنها لم تنجب أولاداً أبداً غير يسوع، وأنها لم يكن لها قط علاقة جنسية مع أي رجل، في قلب هذه القضية، لكن ما من واحد في الكنيسة المبكرة قد تصور حتى هذه الفكرة، بحكم أن أسرة يسوع قد أسهمت في دور مشاهد وفعال في حياته، وفي حياة أتباعه المبكرين، وكان كل ما تم عمله مع مريم هو إزاحتها كلياً من وسط ثقافتها اليهودية للقرن الأول، ووضعها ضمن إطار اهتمام رأي ظهر مع الأيام، بأن الممارسة الجنسية البشرية هي عمل منحط وغير مقدس بالحدود القصوى، وشر ضروري ينبغي الصراع ضده في أحسن الأحوال، وهكذا نظر إلى أي شيء يتعلق بالجسد على أنه منحط، وأدنى قيمة من العالم الروحاني السماوي، وأشار العلماء إلى هذا الرأي، على أنه كان شائعاً تماماً في الثقافة الإغريقية الرومانية، وأنه ثنويه تقشفية، فقد وقعت البشرية في فخين في عالمين هما العالم المادي والعالم الروحاني، مع طريقتين للوجود هما طريقا الجسد والروح «الثنوية»، فقد نظر إلى الذين ينكرون الجسد، ويعيشون حياة عزوبية، ويضعون تأكيدا على الأشياء الروحانية العليا، ويرونها هي الأعلى، وفوق كل شيء، نظر إليهم على أنهم مقدسون، ومحررون من وصمة العالم المادي المنحط «زهد وتقشف»، وبشكل عام لم تجد هذه النظرة مكاناً موائماً داخل اليهودية، بسبب التأكيد في الكتاب المقدس على صلاح الخلق المادي الرباني «التكوين»، ولكن هناك استثناء، فقد مجد فيلون الإسكندراني، وهو فيلسوف يهودي من القرن الأول لما قبل الميلاد، مجد إفلاطون، لأنه كان مدافعاً عظيماً عن التقشف الثنوي، وعدّه الثاني بعد موسى نفسه، وكان تأثير فيلون - بصرف النظر عن أفلاطون - هائل التأثير على كل من المفكرين اليهود والمسيحيين، وكان الرسول بولص كما سنرى قد بنى لاهوته حول وجهة نظر تقول بضرورة ثنويه الكون، وفي وجهة النظر هذه انحطت الأرض لصالح العالم السماوي، وقد دافع عن العزوبية ودعا إليها، على أنها السبيل الروحاني

الأسمى، مع أنه لم يحرم العمل الجنسي تحريماً كاملاً، وتبعاً لما رآه بولص كان الزواج ترياقاً للضعيف الروح الذي من الممكن غوايته نحو العمل الجنسي اللاأخلاقي[2]، ومن السهل رؤية هذه الميول لمواءمة الحياة الروحانية مع الحياة التي لا جنس فيها، وقد جرى تحويلها ونقلها إلى مريم وأسرتها.

وما أن يصر إنسان على أن «العذراء مريم المباركة» كانت «دوماً عذراء» من دون أية خبرة جنسية مهما كان نوعها، عندها ينبغي إبعاد الإخوة والأخوات والتخلص منهم، وأنا أقول هذا ليس مع عدم احترام للذين لديهم مثل هذه الآراء حول مريم، ومع ذلك إنه لمن المهم أن نفهم: متى، وكيف، ولماذا تطورت هذه الآراء، فالتاريخ الجيد لم يكن محتاجاً قط لأن يكون معادياً للإيمان والتقوى، فلقد قام الصراع عندما جرى فرض الأشكال المتأخرة من التقوى التقشفية، والفرضيات حول «القداسة» على الثقافة من أجل أسباب عقائدية أو سياسية، وكان الذي ضاع هو الحقيقة التاريخية حول من كانت مريم بالفعل، مريم التي كانت امرأة يهودية متزوجة مثل نساء أيامها، فالذي أضعناه كان مريم نفسها، وبكل بساطة: إن مذهب «البتولة الأبدية» ليس موجوداً في العهد الجديد، وهو ليس جزءاً من العقائد المسيحية المبكرة، ولم يظهر الذكر الرسمي الأول للفكرة، ولم يأت إلى الوجود حتى العام 374م، من عند اللاهوتي المسيحي ابيفانيوس[3] Epiphanius، فقد كان معظم كتّابنا المسيحيين المبكرين قبل أواخر القرن الرابع للميلاد، كانوا مسَلِّمين من دون نقاش أن إخوة يسوع وأخواته كانوا أولاداً قد ولدوا بشكل طبيعي من خلال زواج يوسف ومريم[4].

ومع أواخر القرن الرابع للميلاد بدأت الكنيسة بمعالجة الحياة الجنسية لمريم بوساطة شرحين بديلين، كان الأول بينهما هو أن «الأخوة» لا تعني «الأخوة» بشكل حرفي، يعني أنهم ولدوا للأم نفسها، بل هو اصطلاح عام يشير إلى «أبناء عمومة أو خؤولة»، وقد أصبح هذا الشرح هو الشرح القياسي في الغرب، وقد

أيدته الكنيسة الكاثوليكية ودافعت عنه[5]، وفي الشرق آثر المتحدثون باللغة الإغريقية من المسيحيين وجهة نظر مختلفة، بأن قالوا: كان الإخوة أبناء يوسف، ولكن من زواج سالف، وبذلك لم يمتلكوا قرابة عضوية بيسوع، أو بأمه[6]، ومن الواضح أن مشكلة وجهة النظر الشرقية كانت بالنسبة إلى اللاهوتيين الغربيين، قد تمثلت بظهور الميل الغربي الذي ترافق مع ولادة التقشفية التي جعلت يوسف يعيش حياة بتولة طوال عمره أيضاً، وبهذه الوسيلة بات يمكن للأسرة المقدسة بما فيها يسوع بالطبع، أن تكون «مقدسة» تماماً وبشكل موائم، وأصبح عبر العصور أكثر فأكثر من الصعب بالنسبة للمسيحيين، لاسيما في الغرب، أن يتصوروا أن مريم ويوسف كانا مخلوقين، لديهما غرائز جنسية، أو أنهما بسبب هذه المسألة قد عاشا حياة «جسدية» على الإطلاق، وكان ما أن أصبحا قديسين في السماء، حتى أصبح الإلحاح على مثل هذا الماضي الأرضي المنحط يشكل معضلة.

وإذا ما أعدنا اسم مريم أو ماريا، الذي كان الاسم الأنثوي الأكثر انتشاراً في أيامه، وأعدنا وضعها في قريتها اليهودية للقرن الأول، أي قرية الناصرة، كامرأة يهودية عادية متزوجة، فإن جميع هذه المحرضات والبواعث اللاهوتية تختفي وتزول، ونصبح متحررين حتى نسترد تاريخاً أكثر تصديقاً، وأعظم ثراء وإدهاشاً من أي عقيدة لاهوتية، فقد بدأت مدونات نصوص أناجيلنا بالعودة إلى الحياة من أجلنا، وكما اعتاد واحد من أساتذة جامعتنا أن يقول حول البحث التاريخي: «عندما تصبح قريباً من الحقيقة، فإن كل شيء يصبح موائماً».

وبناء عليه من كان إخوة يسوع وأخواته؟ والجواب الأكثر بداهة هو أنهم أبناء مريم ويوسف وقد ولدوا فيما بعد أثناء زواجهما، فقد أصبحت مريم حاملة عندما كانت مخطوبة، ومع أن الأب غير معروف، لقد تزوجها يوسف، على كل حال، وتبنى يسوع وكأنه ابنه الخاص به، واستأنف الزوجان ومارسا حياة زوجية معتادة، فأنجبا أربعة أولاد، وابنتين، ومع أن هذه قد تكون الحالة فعلياً، ولكن

هناك مشكلة يتوجب علينا عدم تجاوزها، وهي من جديد تتعلق بفهم الإطار الثقافي والديني اليهودي لذلك الزمان.

فهناك سبب جيد للافتراض بأن يوسف قد مات مبكراً إما بسبب أن ذلك كان نتيجة تقدمه بالسن على مريم، أو لسبب آخر غير معروف، فبعد قصص الولادة قد ظهر بأنه اختفى[7]، وقد دعي يسوع باسم «ابن يوسف»، أو أشير إليه بمثابة «ابن النجار»، وحدث هذا عدة مرات، ولكن يوسف نفسه لم يظهر ثانية في أية حكاية، ولايوجد المزيد مما حكي حوله، ونقل يسوع «أمه وإخوته» إلى كفرناحوم، وكان ذلك في إحدى المراحل، ولكن لا ذكر ليوسف [يوحنا:2/ 12]، وفي إحدى القصص جاءت «أمه وإخوته» يبحثون عنه، ولكن من جديد لا ذكر ليوسف [مرقص:3/ 31] حتى أثناء صلب يسوع، ففي تلك الأثناء ورد ذكر مريم، وربما مع واحدة من أخواته، ولكن كان يوسف غائباً بشكل غريب، وبعد وفاة يسوع اجتمع أتباعه في القدس و «مريم أم يسوع وإخوته» كانوا جزءاً من الجماعة، لكن لم يكن يوسف موجوداً [أعمال:1/ 14]، وظاهر أن هذا الصمت يملي أن شيئاً ما حدث ليوسف.

ومن المؤكد لو أن يوسف قد مات، ونشأ يسوع وإخوته وأخناه من دون «أب» فإن ذلك قد ترك تأثيراً كبيراً ومهماً، نفسياً واجتماعياً على الأسرة، ولكن لو أن يوسف قد مات من دون أولاد، لكانت هناك نتائج أبعد من أجل العقيدة اللاهوتية التقليدية حول مريم، فتبعاً للتوراة، أو شريعة موسى، كان الأخ الأكبر الباقي بين الأحياء، وغير المتزوج، مجبراً على الزواج من أرملة أخيه المتوفى، حتى تحمل طفلاً باسمه، حتى لا يصبح «اسم» الأخ المتوفى أو نسبه منقطعاً، وكان هذا يعرف باسم «زواج البدل» أو Yibbum بالعبرية، وكان ذلك مطلوباً في التوراة [التثنية: 25/ 5-10][8]، وكان واحداً من أوامر الوصايا التي أعطيت من الرب لإسرائيل، وتعامل معها اليهود الأتقياء بشكل جدي، وقد وردت في مناقشات الأناجيل، حينما سئل

يسوع حول مسألة خلافية، فيها ترملت امرأة ليس أقل من سبع مرات، وكانت في كل مرة تتزوج بالتوالي واحداً من إخوة زوجها الأول [مرقص:12/ 19-22].

وفجأة أخذت قضية أبي يسوع بعداً جديداً، فلو أن يوسف لم يكن والد يسوع، وكان يوسف قد مات من دون أولاد، فهل توجب على الأرملة مريم أن تتزوج أخا يوسف؟ وهل نحن نعرف شيئاً حول أخي يوسف؟ من المدهش أننا نعرف، مع أن ذلك نادراً ما لوحظ، فهو قد ورد ذكره في العهد الجديد.

فنحن نريد أن نلحق الدليل ونسايره إلى حيثما يقود، ولكن الاستنتاج أن مريم كانت أماً لسبعة أولاد من خلال ثلاثة رجال مختلفين شائن جداً ومفرط في الخيال، ولكن ماذا ومثل هذا كان ممارسة لم تكن عادية فقط، بل كانت في الحقيقة مطلوبة ومشرفة في الثقافة اليهودية لتلك الأيام؟ ومن دون شك هكذا كانت القضية، من أجل تشريف رجل مات من دون وريث، وهكذا كان ضمان ازدهاره كان العمل الأكثر قداسة، والأشياء المقدسة التي يمكن لأسرة أن تفعلها، ولتتذكر النساء الأربعة اللائي ذكرهن «متى» في قائمة نسبه؟ فقد كانت اثنتان من الأربع: تمارا وراعوث أرملتان تورطتا في زيجات بدل، ومن المحتمل أن «متى» قد عرف أكثر مما أخبرنا به بالتحديد، ولسوف يكون من الخطأ الحكم على أية بينة تتعلق بمريم وبوالد أولادها بوساطة معاييرنا اللاهوتية والثقافية، والذي ينبغي علينا القيام به هو النظر نحو الدليل، وفي هذه الحالة لدينا مجموعة من التعقيدات؛ ولكن قد بقيت بعض الأدلة النصية، متروكة دون أن يشعر بها أحد في داخل العهد الجديد نفسه.

لغز مريم الأخرى

لقد ذكرت الأناجيل الأربعة جميعاً أن النساء اللائي لحقن بيسوع من الجليل كن موجودات أثناء الصلب، وحضرن دفنه، وذكر مرقص أسماء ثلاث من هؤلاء النسوة وهن:

1. مريم المجدلانية

2. مريم أم جيمس الأصغر ويوسي.

3. سالومي [مرقص:15/ 40].

وعند «متى»، الذي استخدم مرقص مصدراً له، القائمة نفسها مع تغييرات طفيفة:

1. مريم المجدلانية

2. مريم أم جيمس ويوسف

3. أم ولدي زبدي [متى: 27/ 56].

وكانت مريم المجدلانية رفيقة معروفة كثيراً ليسوع، والتي سنتحدث عنها أكثر في الفصول المقبلة، وذكرت سالومي عند مرقص فقط، ومن المحتمل كثيراً أنها كانت أخت يسوع، أو كانت ربما – تبعاً لمتى – أم صيادي السمك، الأخوين: جيمس ويوحنا، اللذين كانا جزءاً من الإثني عشر [لوقا: 5/ 10]، وفي رواية لوقا جرى إسقاط الأسماء، وقال بكل بساطة: «النساء»، وذلك مثلما فعل من قبل بالنسبة إلى أسماء إخوة يسوع [لوقا: 23/ 49، 55]، وكما سوف نرى، لم يكن لوقا حريصاً على الإلحاح على أسرة يسوع.

ولننتبه أنه لدينا امرأتان، اسم كل واحدة منهما مريم، كانتا حاضرتين، وفيما بعد لدى الحديث عن الدفن، أخبرنا «متى» مرة أخرى أن مريم المجدلانية كانت هناك، ومثل ذلك كانت «مريم الأخرى» [متى: 27/ 61]، وعندما عادت النساء إلى المدفن في الصباح الباكر من يوم الأحد، وجدنه فارغاً، ومرة أخرى أخبرنا «متى» أنهما كانتا: «مريم المجدلانية، ومريم الأخرى» [متى:28/ 1]، وبناء عليه، إن السؤال البديهي هو هذا، من كانت «مريم الأخرى» هذه تماماً، و ما هو لغزها؟

وقد عرفها مرقص بشكل محدد مرتين أكثر، حيث عرفها مرة عند الدفن على أنها «مريم أم يوسي»، ثم لدى الحديث عن القبر الفارغ على أنها «مريم أم جيمس» [مرقص: 15/ 47، 16/ 1]، كما وذكر مرة أخرى أن سالومي كانت حاضرة.

وبهذا نحن نعرف أن مريم الثانية هذه كانت أم «جيمس ويوسي»، ولكن هل من وسيلة أخرى لتعريفها أكثر؟ فنحن نعرف «مريم أخرى»، كان ولداها اسمهما «جيمس ويوسي» وهذه لم تكن غير مريم أم يسوع، فهذان هما الاسمان نفساهما بما في ذلك لقب «يوسيس» [الذي حرره هكذا متى باستمرار] وكان جيمس ويوسي ولديها اللذين ولدا أولاً بعد يسوع [مرقص:6/ 3] فهل من الممكن، لا بل من المحتمل أن تكون هذه اللغز «مريم الأخرى» هي مريم أم يسوع؟ ومن المؤكد علينا أن لا نتفاجأ أن تكون أم يسوع شاهدة لموته، وأن تشارك في أعمال الدفن وممارساته لأسرة يهودية، وإذا كان الأمر كذلك، لماذا لم يقم مرقص بتعريفها بشكل مكشوف على أنها مريم أم يسوع؟

وفيما عدا هذه الرواية الأولى التي كتبها مرقص، والتي اتبعها عن قرب محررو إنجيلي لوقا ومتى، لدينا رواية أخرى مستقلة من أجل تحديد هوية هذه المرأة، والمقصود هنا إنجيل يوحنا، وانتبه بدقة إلى قائمة أسمائه الحاوية للنساء الثلاث عند الصليب، لقد كن:

1. مريم أم يسوع
2. أخت أمه مريم زوجة قيلوفا.
3. مريم المجدلانية [يوحنا:19/ 25].

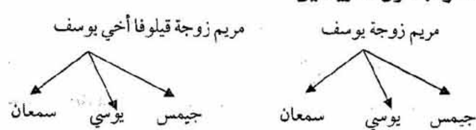
وانتبه أنه ما يزال لدينا ثلاث نساء، ولكن اسم سالومي قد أسقط، والآن أسماء كل واحدة من الثلاث المتبقيات هو مريم، وهنا مهما كان شأن شيوع اسم مريم في ذلك الحين، من المؤكد أن وجود مريمات ثلاث يقتضي منا وقفة، حيث

يظهر أن شيئاً ما كان يحدث هنا، فقد عرف يوحنا شيئاً ما، اختار هو أو الذين حرروا إنجيله تغطيته.

وتضمين اسم مريم المجدلانية لا يدهشنا، بما أنها موجودة في جميع القوائم، لكن يوحنا يخبرنا بكل وضوح ودقة أن مريم أم يسوع كانت حاضرة، وسوف يسمح هذا لنا بأن نعرف «مريم أم جيمس ويوسي» الذي ذكرها مرقص، بكل ثقة وسلامة على أنها مريم أم يسوع، ولكن هنا من هي مريم الثالثة الجديدة زوجة قيلوفا؟ وجرى تعريف مريم هذه على أنها كانت «أخت» مريم أم يسوع، ولكن ما هو السبب بوجود أختين في الأسرة نفسها، حملت كل واحدة منهما الاسم نفسه؟

ودعونا نبدأ مع قيلوفا، بما أننا نعرف بعض الشيء حوله، كما سوف أوضح ذلك بالتفصيل في المستقبل، فعندما مات يسوع ترك أخاه مسؤولاً عن أتباعه، وجرى قتل جيمس في العام 62م، وتحدثنا أقدم رواياتنا على أن رجلاً مسناً كان معروفاً باسم «سمعان بن قيلوفا» هو الذي خلفه، وعلاوة على ذلك، لقد جرى إخبارنا بأن قيلوفا هذا كان أخاً ليوسف زوج مريم [9]، وإذا كان الحال هكذا من الممكن تماماً أن مريم اللغز لدينا، كانت زوجة قيلوفا وأم «جيمس ويوسي»، وهي كانت أيضاً عديلة مريم، متزوجة من أخي زوجها يوسف، ولقد كان هذا هو الحل الذي أقرته الكنيسة لمدة قرون، ولكن انتبه! إذا كانت القضية هكذا، إن الذي لدينا غريباً أكثر مما نقدر.

مقارنة حول المريمتين



وفي الحقيقة إنها حالة نادرة في أن هاتين المرأتين، واسم كل واحدة منهما

مريم، سواء أكانتا أختين أو عديلتين، قد تزوجتا من أخوين، وامتلكت كل واحدة منهما ثلاثة أولاد، يحملون الأسماء نفسها، وقد ولدوا بالتسلسل نفسه: جيمس، يوسي، وسمعان؟

والذي يظهر أنه مقبول ومعقول أكثر هو أن «مريم أم جيمس ويوسي» لدى مرقص كانت هي مريم نفسها أم يسوع، وأن إنجيل يوحنا «أو الذين حرروه فيما بعد» أبدعوا مريم ثالثة، هي زوجة قيلوفا، التي كانت في الحقيقة هي المرأة نفسها، وفي سبيل تمويه حقيقة أن مريم أم يسوع قد تزوجت بعد وفاة يوسف من أخيه قيلوفا، فإن نصاً شاحباً ليوحنا سوف يقرأ كالتالي:

كان واقفاً إلى جانب صليب يسوع أمه مريم زوجة قيلوفا، ومريم المجدلانية.

وسيتوافق هذا تماماً مع مرقص، ولن يحدث تناقض عديلتين حملتا الاسم نفسه، وامتلكن الأولاد الذين جرى تحديدهم أنفسهم، وتبعاً لهذا، إن إعادة بناء نسائنا الثلاث اللائي كن عند الصليب من المحتمل كثيراً أنهن كن:

1. مريم المجدلانية.
2. مريم أرملة يوسف، التي تزوجت من قيلوفا، أخي يوسف.
3. سالومي، إما أخت يسوع، أو أم ولدي زبدي.

وهناك نقطة إضافية حول قيلوفا تؤيد هذا التفسير، فقد جاء اسمه من الجذر العبري «خلف Chalaph» الذي يعني «بديل» أو «يحل محل»، وهو جد للاصطلاح الإنكليزي «خليفة» إشارة إلى تعاقب الحكام داخل أسرة حاكمة، ولذلك من المحتمل كثيراً أن هذا لم يكن اسمه، بل كان نوعاً من أنواع الألقاب، وقد ورد ذكر قيلوفا في أماكن كثيرة بالشكل الإغريقي للاسم نفسه وهو «ألفايوس Alphaeus»، وكان ابنه الأول ولادة معروفاً بشكل منتظم بصيغة «جيمس بن ألفايوس» أو «جيمس الأصغر» حتى يجري تمييزه عن

جيمس بن زبدي صياد السمك، أخي الرسول يوحنا [10].

والأخذ بهذه المعلومات، سوف يعطينا صورة مختلفة، لكن صورة تاريخية متماسكة ومنسجمة قد بدأت بالظهور مفادها: كان يسوع قد ولد لأب غير معروف، لكنه لم يكن ابن يوسف، ومات يوسف من دون أولاد، وبناء عليه، وتبعاً للشريعة اليهودية حل «قيلوفا» أو «ألفايوس» محله وتزوج من أرملته مريم، أم يسوع، وكان ابنه الأول جيمس، هو الأخ الذي خلف، يسوع، الذي أصبح يدعى قانونياً «ابن يوسف» حيث نال اسمه من اسم أخيه المتوفى من أجل أن يحمل اسمه، ومعنى هذا أن يسوع كان له أربعة إخوة غير أشقاء، وعلى الأقل أختان غير شقيقتين، ولدوا جميعاً من أمه، لكن من أب مختلف.

وهذه هي إعادة بناء منطقية للدليل، ولكن هناك أشياء، لا يمكننا معرفتها بشكل مؤكد، ذلك أن قيلوفا قد ورد ذكره مرة واحدة فقط في جميع العهد الجديد (يوحنا: 19/ 25) ولسوف أعرض فيما بعد دليلاً بأنه من المرجح كثيراً، أن يكون جيمس هو أخاه، وهو الشخص الثاني من حيث السن في الأسرة، ولكن مهما كان هو، لقد عهد يسوع بأمه إليه، وهذا مؤشر آخر، يدلل على أنها كانت أرملة، وعلينا أن نتذكر أن الأناجيل هي بالدرجة الأولى روايات لاهوتية لقصة يسوع، كتبت بعد جيل أو أكثر من موته، وعندما كان يتعلق الأمر بأسرة يسوع فإن لديهم أشياء كثيرة لم يكشفوها، وهناك أشياء أخرى طمسوها كما يبدو عن عمد، ولقد رأينا أن مرقص قد احتفظ بمواد، تولى «متى» تحريرها أو إزالتها ومثله فعل لوقا، وقد عرف يوحنا أكثر بكثير مما كان راغباً في قوله بالتحديد، ولسوف تصبح أسباب هذه الميول أكثر وضوحاً، عندما نتعقب حكايتنا حتى النهاية، وعلى الرغم من أنها حكاية متمازجة مع مؤامرات سياسية، وقوى سياسية فأنها أسهمت في تقرير شكل مستقبل الديانة الأكبر عالمياً.

والذي يمكننا قوله مع شيء من التأكيد هو التالي: لم يكن يوسف والد يسوع، وقد حملت مريم من رجل غير مسمى، وكان حملها «غير شرعي» وفقاً للمعايير الاجتماعية، وامتلك يسوع أربعة أخوة غير أشقاء، وأختين غير شقيقتين، وكانوا جميعاً أبناء مريم، ولكن من أب مختلف، سواء أكان يوسف أو قيلوفا، ونشط يسوع عندما بات في سن الثلاثين كرأس للأسرة، وصاغ دوراً حيوياً من أجل إخوته، الذين خلفوه في تأسيس أسرة حاكمة مسائحية، قدّر لها أن تغيّر العالم، وهذا الامتداد لأسرة يسوع، هو أساس معظم ما هو منسي ومهمش حول أسرة يسوع، وهو يستحق منذ زمن بعيد البعث، وباستعادتنا لمختلف الاحتمالات التاريخية المتعلقة بالأسرة، نكون مستعدين للحصول على فهم أصح ليسوع، وحول، ربما، كيف فهم ما اعتقده أنه رسالة قدرها الرب له وكلفه بها كمسيح وكملك يتولى إعادة بني إسرائيل، فلنتحول الآن إلى حياة يسوع الخاصة وإلى ما يعرف باسم «السنوات الضائعة».

القسم الثاني

النشوء يهودياً في الجليل

الفصل الخامس

السنوات الضائعة

إن من غير الممكن كتابة سيرة حياة ليسوع، فوفقاً إلى أكثر أعمال إعادة البناء المنطقية للمصادر التاريخية، مات يسوع، وهو في سن الثالثة والثلاثين[1]، ونحن ليس لدينا أي سجل تاريخي عن السنوات الثلاثين الأولى من حياته، وإذا كان الوضع هكذا مع أية شخصية تاريخية، من المؤكد أن ما من واحد سوف يحاول القيام بهذا العمل، فكيف والأمر هكذا، وقد كتب عن يسوع كتبٌ أكثر مما كتب حول أية شخصية في التاريخ الإنساني؟ ومن الواضح أنه في قضيته توجد رغبة لا سابق لها لاختلاس النظر من خلال الحجاب، ولحل اللغز بطريقة ما، فقد كان تأثيره عميقاً بلا حدود، والتآمر المحيط بما نعرفه من تاريخه مغلق بإحكام شديد، إلى حد أننا لا نستطيع فصله وإعادته إلى ماضي مظلل، ويبقى بالنسبة إلى الملايين السؤال الساحر مفتوحاً.

ولدى كثيرين انطباع خاطئ بأن أناجيل العهد الجديد تقدم لنا أربع تراجم شبه كاملة لحياته، ولكن الحقائق شيء آخر، فقد بدأ مرقص حكايته مع يسوع وهو في سن الثلاثين، ووصل مع الإصحاح الثامن إلى أكثر من منتصف الطريق خلال إصحاحاته الستة عشر، إلى الأسابيع الأخيرة من حياة يسوع، وأضاف لوقا قصص الميلاد، وهي تتضمن تعاليم أكثر حول يسوع، ولكن هم يتبعون بشكل

أساسي قيادة مرقص، الذي أوقف أكثر من نصف مادته الإخبارية على رحلة يسوع الأخيرة إلى القدس، حيث جرى صلبه، وقد بدأ يوحنا مع يسوع وهو في الثلاثين من عمره، ومثل ذلك أوقف نصف كتابه على أيامه الأخيرة في القدس.

وأشار العلماء بشكل صحيح وموائم إلى الثلاثين سنة الأولى من حياة يسوع تحت عنوان «السنون الضائعة»، ولدى كتابات أخرى قد بقيت حية خارج العهد الجديد، غالباً ما عرفت باسم «أناجيل الطفولة»، ومع هذه الكتابات بعض القطع الصغيرة الطافية من التقاليد، حيث تقدم لنا قليلاً من قصص الطفولة، ولكن هذه القصص متأخرة وأسطورية «من القرن الثاني إلى القرن الرابع للميلاد»، وهي تصلح أكثر لخدمة التسلية ولمنح السمة الميثولوجية، ولا تقدم المعلومات إلى القارئ الناقد.

من ذلك على سبيل المثال نجد في إنجيل توما للطفولة، الذي هو ليس أصيلاً وصحيحاً مثل إنجيل توما، الذي اقتبست منه من قبل، ونقرأ أنه عندما كان يسوع في الخامسة من عمره صنع اثني عشر عصفوراً من الطين في يوم سبت، ووجه أبوه يوسف الملامة له من أجل «لعبه» على هذه الشاكلة في يوم الراحة المقدس، فصفق يسوع بيديه، فتحولت على الفور هذه العصافير من الطين، ودبت فيها الحياة وطارت بعيداً، مما أدهش كل واحد سمع الحكاية، وفي مناسبة أخرى عندما كان يسوع يسير خلال طريق مكتظ في قريته، قام طفل آخر فصدمه بكتفه، فأعلن يسوع بسخط «إنك لن تسير أبعد»، فوقع الطفل المعتدي ميتاً على الفور، ومرة أخرى عندما وقع طفل من فوق سقف ومات، اتهم يسوع بأنه قد دفعه وبذلك قفز نحو الأسفل، فقام على الفور ببعثه وإقامته من الموت، وعندما كبر قليلاً عمل مع يوسف كنجار، وكان إذا صدف وكانت قطعة من الخشب قد قطعت قصيرة جداً، كان يتولى مدها حتى تصل إلى الطول المناسب، وكان يقوم بعملية الشد بيده.

وكانت فكرة سفر يسوع إلى مصر، وهو شاب، من أجل أن يتعلم القدرات

السحرية، هي فكرة موضوع عام استخدمه اليهود في حملاتهم الدينية الناقدة ضد المسيحية، وفي الحقيقة ذكرت هذه الأسطورة من قبل الفيلسوف الإغريقي سيلسيوس، الذي روى حكاية الجندي الروماني فنتيرا، على أنه كان الأب العضوي ليسوع[2]، وهناك أساطير تحدثت بأن يسوع قد ذهب إلى الهند وهو طفل ليدرس لدى المعلمين الهنود، حيث أدهشهم بمعلوماته الغريبة[3]، ولعل الأعظم إثارة وإدهاشاً الحكايات التي تحدثت عن سفر يسوع وهو طفل مع يوسف الذي كان من الرامة، إلى بريطانيا العظمى، وتبعاً لهذه الحكايات، لقد قيل بأن يوسف كان خال (عم) مريم، وأنه كان تاجر قصدير، وقد قام برحلات تجارية منتظمة إلى كورنوول Cornwoll، وما تزال بلدة غلاستونبري Glastonbary في جنوبي غربي إنكلترا، على جزيرة أفالون Avalon السالفة، حيث كان الملك آرثر قد دفن، ما تزال تحتفل بهذا التقليد في هذا اليوم، حتى أنها قد غدت مركزاً شعبياً للحج[4].

وقد أعطى المؤرخون مثل هذه الأساطير قليلاً من الموثوقية، وإن علينا أن نواجه حقيقة أن ثلاثين عاماً من حياة يسوع هي مفقودة بكل بساطة، والمحاولات لملء هذه الأعوام بأساطير وحكايات مخترعة لا تساعد مطلقاً على تقدم بحثنا عن يسوع التاريخي، ومن المدهش - على كل حال - أن هناك الكثير مما يمكن أن نقرره بمسؤولية حول هذه «السنوات الضائعة»، ونحن في هذه الحالة تركنا مع شيء قريب وشبيه بعمل رجل المباحث، فنحن سوف يكون بإمكاننا بوساطة دمج الأدلة الأثرية، مع ما نعرفه من المدونات التاريخية المعاصرة، وأدلة بعض الإشارات شبه المطموسة في الأناجيل نفسها، ملء بعض الفراغات.

حمامتان صغيرتان

نحن نعرف بأن يسوع وأسرته قد نشأوا فقراء، حيث يعطينا لوقا إشارة مثيرة للصدمة تبين مدى فقرهم الكبير، فتبعاً للقانون اليهودي، وحسبما ورد الأمر في التوراة أو شريعة موسى، كان كل أول ولد ذكر يجري قبوله طقوسياً في داخل الجماعة اليهودية من خلال احتفال قديم كان يدعى «فداء الولد» «Pidyonho - ben» ذلك أن الرب قد أعلن «لأن لي كل بكر في بني إسرائيل من الناس ومن البهائم» [العدد: 8/ 17] فعوضاً عن تضحية الطفل إلى الآلهة حسبما كان ممارساً في بعض الثقافات القديمة، دفع الأبوان إلى الكهنة خمسة مثاقيل من فضة كجزء من احتفال طقوسي «يحرر» الطفل من الموت، وكان هذا الاحتفال الطقوسي يجري العمل به لمدة ثلاثين يوماً بعد ولادة الطفل، وفي يوم الأربعين كان هناك واجب آخر من أجل أم أي ولد ذكر، سواء أكان المولود هو الأول ولادة أو لم يكن، وكان الطفل يجلب إلى المعبد المقدس، وكان يطلب من الأم تقديم قربان؛ خروف محرقة، وحمامة كتقدمة ذنب إلى الكهنة الرسميين، وفي حالات الفقر الشديد، رسم التوراة وقرر: «وإن لم تنل يدها كفاية لشاة تأخذ يمامتين أو فرخي حمام، الواحد محرقة، والآخر ذبيحة خطية، فيكفر عنها الكاهن فتطهر» [لاويون:12/ 8]، ولقد كان لوقا هو الذي أخبرنا أن مريم ويوسف، قاما كيهوديين متمسكين بالدين، فأخذا يسوع إلى المعبد لأداء هذه الواجبات الطقوسية، وقدمت هناك أضحية «ذبيحة كما قيل في ناموس الرب، زوج يمام أو فرخا حمام» [لوقا: 2/ 24]، وليس هناك ذكر لشاة، حيث من الواضح أنه لم يكن باستطاعتهما دفع ثمن حتى مثل هذه التقدمة المتواضعة.

وبالمقابل أخبرنا بقصة مختلفة تماماً، هي جعل مريم ويوسف يعيشان في بيت لحم، وهناك زارهما حكماء من الشرق، تولوا إتحاف الطفل المولود حديثاً بهدايا

عالية الثمن، وقدموا له الولاء «كملك لليهود»، فامتلكت مريم ويوسف الإمكانات للسفر إلى مصر، حيث بقيا هناك لبعض الوقت، لأنهما هربا من غضب هيرود الكبير، الذي كان قد ذبح كل طفل في اليهودية كان سنه دون العامين، وفقط بعد وفاة هيرود سافرا عائدين إلى الجليل ليستقرا في بلدة اسمها الناصرة، ويظهر أن «متى» لم يدرك حتى أن الزوجين كانا من الناصرة في المقام الأول، ونحن لدينا سجلاً تاريخياً وروايات فائقة الأهمية حول حكم هيرود الكبير، ومن غير المعقول أن تكون مثل تلك «المذبحة للأطفال الرضع»، قد وقعت وأن لا يقوم بتدوين أخبارها المؤرخ اليهودي يوسيفيوس، أو المؤرخون الرومان الآخرون المعاصرون، ومن الواضح أن رواية «متى» هي رواية لاهوتية قد كتبت لتسويغ الآراء المتأخرة التي استهدفت تمجيد مكانة يسوع، ولكن من المؤكد أنه حام بشكل صحيح حول نقطة واحدة، هي أن هيرود قد خشي بالفعل من ولادة طفل يمكن أن ينمو بقوة ومن ثم يصبح مطالباً بالعرش الملكي لداود، أي أن يكون «الملك الشرعي لليهود».

ورواية لوقا مجردة من العناصر اللاهوتية الصريحة، لذلك يبدو أنها صحيحة، فقد كانت مريم مراهقة حاملة من خارج فراش الزوجية، بطفل غير شرعي، وحدثت الولادة في إسطبل يشبه الكهف مرتبط بنزل، حيث كانت الحيوانات تجد المأوى ويقدم لها العلف، وجرى تقميط الطفل المولود حديثاً ووضع في مزود تقديم العلف، وكان يوسف خطيبها معها، ويظهر أنه بعد مضي ثمانية أيام من الولادة، في وقت الختان، منح الطفل الاسم القانوني «إيشع بار يوسف» أو يسوع بن يوسف، ولكن الزواج لم يكن قد بدأ إلا بعد العودة إلى الناصرة، ولا توجد إشارة إلى أن الزوجين امتلكا أصدقاء أو مصادر من أي نوع، وتبعاً للقانون اليهودي كانا قد أرغما على البقاء في منطقة بيت لحم المقدسية لمدة أربعين يوماً، من أجل أداء الطقوس اليهودية المتعلقة بولادة الطفل الذكر الأول،

ومن المحتمل أن الإسطبل المشابه للكهف كان مقر إقامتهما خلال تلك المدة كلها، ومع أن شراء شاة من أجل التقدمة النهائية كان لا يكلف كثيراً، ولكن من المؤكد أنهما لو استطاعا شراءها لفعلا وقدّماها.

ويخبرنا تقديم الحمامتين بشيء حيوي مهم حول بداية أسرة يسوع، فقد كان الإمبراطور الروماني أغسطس قد منح اللقب المشتهى كثيراً «ملك اليهود» بشكل رسمي إلى هيرود الكبير، فهو قد كان الملك التابع الأغنى والأكثر نفوذاً في شرقي البحر المتوسط من الإمبراطورية، فقد كانت برامج أبنيته، في كل من داخل البلاد وخارجها، لا نظير لها حتى في روما، فعندما أخذ يوسف ومريم طريقهما إلى المعبد، لابد قد شاهدا قصر هيرود الفخم، الذي كان بمحاذاة السور الغربي للمدينة مع أبراجه المذهلة، والذي ما تزال أساساته مشاهدة في هذا اليوم، وكان هيرود قد بدأ في إعادة تكوين المعبد نفسه في 20ق.م، مع النية في جعله أعجوبة العالم القديم، وهذه الدراسة للمقارنة فقط، فقد كان يسوع قد ولد فقيراً، ومن دون بيت فعلياً، وذلك على الرغم من النسب الداودي العضوي الذي ورثه من أمه، ومع ذلك لقد كان النسب العضوي لهذه الأسرة هو الذي اشتهاه هيرود وأولاده بشكل يائس وخافوا منه، على الرغم من ثروتهم غير الاعتيادية، وسلطتهم السياسية.

هل كان يسوع نجاراً؟

سيكون سؤالاً تافهاً جداً هو «ما الذي كانته حرفة يسوع؟»، فكل واحد يعرف أنه كان نجاراً، أو على الأقل ابناً لنجار، وكان الإنسان يتوقع أن يجد في أناجيل العهد الجديد فقرات كثيرة، تؤكد هذه الحقيقة المعروفة بشكل جيد، لكن هذه الفكرة الواسعة الانتشار قد تأسست على عبارة واحدة، وردت في جملة واحدة في إنجيل مرقص فيها تساءل أهالي الناصرة قائلين: «أليس هو النجار؟»

[مرقص:6/ 3] وقد بدلها «متى» إلى «أليس هو ابن النجار»[متى:13/ 55]، والترجمة الإنكليزية التقليدية لكلمة «نجار» تعود بتاريخها المبكر إلى طبعة وليم تايندالي William Tyndale للعام 1526، للعهد الجديد، وهي مضللة.

فالكلمة الإغريقية Tekton هي اصطلاح فضفاض أكثر، يشير إلى «بناء»، ومن الممكن أن يشمل الإنسان الذي يعمل في الخشب، ولكن في إطار الجليل في القرن الميلادي الأول، الاحتمال الأكبر أن الكلمة كانت تشير إلى عامل بالحجارة «حجار»[5]، فقد بنيت البيوت والعمارات بالحجارة واستخدمت الأخشاب استخداماً قليلاً جداً، وكان ذلك في غالب الأحيان كعوارض للأسقف والأبواب، وبما أن الخشب كان مادة بنائية نادرة في الأراضي الصخرية الوعرة لفلسطين، غالباً ما استمد يسوع أفكاراً من صورة البناء بالحجارة حتى يوضح أمثلته التعليمية، ففي واحدة من قصصه المعروفة كثيراً، تحدث عن الرجل العاقل الذي أراد أن يبني بيتاً، فحفر عميقاً من أجل الأساسات، وأرسى أساسات المبنى من حجارة متينة فوق الصخر [لوقا: 6/ 48]، وقد ظهر أنه كان متوجهاً نحو حرف البناء، وأن أعمال الحجارة من بعض الأنماط، كانت كما يرجح حرفته.

وإنها لصورة جذابة ليسوع وهو يعمل سعيداً مع أبيه في «حانوت النجارة» العائد للأسرة، وقد ظلت هذه الصورة شائعة لقرون في اللوحات الموقرة، وإنها لصرخة بعيدة المدى صدرت عن عملية الجرش القاسية للحقيقة الاجتماعية، في أن ما نعرفه كان جزءاً من الحياة من يوم إلى يوم في الجليل، حيث أصبح الغني أغنى، وكان واضحاً ازدياد جموع الفقراء، فقد كان البنّاء في ذلك الوضع مشابهاً لا بل قريباً للعامل في هذه الأيام، ولم تكن هناك اتحادات، أو رواتب «الياقات الزرقاء»، وأن يكون الإنسان «بنّاء» كان معناه في المقام الأول، وفي الغالب، أن هذا الإنسان لم يمتلك أرضاً، وأنه كان عليه أن يعمل حيثما وجد عملاً، من دون ضمانات أو أمن، فقد ترك هؤلاء الفلاحون المتجولون وعليهم أن يتدبروا الإنفاق

يومياً من أجل البقاء فلسين «سيسترسين Sesterles – عملة رومانية» أو ثلاثة، وهو مبلغ كان بالكاد كافياً للعبد أن يعيش به[6]، ولكن حياة العامل «الحر» المأجور يومياً، قد كانت بالتأكيد أقسى من حياة العبد المديني، الذي كانت متطلباته المحتاجة أساساً من طعام ومأوى، متوفرة، وفي الثقافة الرومانية عدّ الحرفيون الفنيون مثل العمال الأرقاء، وقد نظر إليهم كعمال يقومون بالأعمال الشاقة وبما يقصم الظهر، ولأنهم من الطبقات الدنيا، وكان سوفوكلس sophocles الشاعر الإغريقي قد اعترض بانفعال على واحد كتب بأن والده كان «بنّاء»، وكأن ذلك كان يعني طبقته الاجتماعية المنحطة، وقد كتب أن والده كان مثل العمال الذين كانوا مثل العبيد، ولكن من المؤكد أنه هو نفسه لم يكن من أهل تلك الحرفة[7].

وربما انعكس الحرج المتعلق بالمكانة الاجتماعية ليسوع في الإشارة التي في مرقص، والتي صدرت عن أهل البلدة حيث نشأ، مثل أن تقول: «أليس هذا هو العامل اليومي الذي نعرفه جميعاً بصورة جيدة، أو لستم تعرفون أنه الابن غير الشرعي لمريم؟»، وقد تعامل «متى» مع هذا بردة فعل ذكية بارعة، فحرر العبارة قائلاً: «أليس هذا ابن البناء؟، أو ليس الذي أمه تدعى مريم؟»، فبالنسبة إلى «متى» أن تكون ابن «بناء» فذلك يحمل وصمة أدنى، وفي «متى» جرى تصوير يسوع «ملكاً» منذ ولادته على الرغم من حرفة أبيه، وكان مرقص يعرف أكثر حول الأصل التقليدي، ومرة أخرى نرى كيف أن «متى» حرر بإصرار مادة مرقص، الذي كان مصدره الأساسي وذلك وفق طريقة عكست الآراء اللاهوتية المتأخرة حول مكانة يسوع الممجدة.

أب من دون أب

كنت قد ذكرت بأن يوسف زوج مريم قد اختفى من على مسرح الأحداث في جميع مدوناتنا، وأن ذلك يشكل لغزاً، ومن الناحية التقليدية هو عدّ بأنه كان أسن من مريم كثيراً، ومن المرجح أنه مات عندما كان يسوع مراهقاً، ومن المحتمل أنه كان والد الإخوة الأربعة والأختين، الذين أنجبتهم مريم بعد إنجابها لابنها الأول يسوع، ومن المحتمل أيضاً أنه مات من دون أولاد، وأن أخاه قيلوفا، كان والد هؤلاء الأبناء الستة، وإذا صح وكان الوضع هكذا، من المحتمل أن قيلوفا كان أسن كثيراً من مريم، وأنه هو أيضاً قد مات عندما ما كان الأطفال ناشئين، فنحن بكل بساطة لا سبيل لدينا لمعرفة التفاصيل حول هذا الشأن.

والذي هو ظاهر بوضوح في جميع مدوناتنا كما تقدم وذكرت هو أنه عندما بدأ يسوع عمله كواعظ وواحد يتولى شفاء الناس كان في سن الثلاثين، وهنا نحن نجد بصورة متواصلة «أمه وإخوته» يذكرون ولكن لم يرد قط أي ذكر لأبيه، فهو قد أخذ أمه وإخوته إلى كفرناحوم، ولم يكن ذلك بعد مدة طويلة من تعميده [يوحنا:2/ 12]، وفيما بعد قدمت «أمه وإخوته» يبحثون عنه عندما كان خارجاً على الطريق [مرقص:3/ 32]، وعندما عاد في إحدى المرات إلى موطنه إلى الناصرة، رأينا أهل البلدة يتحدثون عن أمه مريم، وإخوته، وأختيه، ولكن مرة أخرى لا ذكر لأبيه [مرقص: 6/ 3] وقام يسوع قبل موته بوقت قصير بتحويل أمه ووضعها تحت عناية «تلميذ محبوب» لغزه مجهول، ونحن قمنا بتحديد هويته على أنه كان جيمس، أخاه الذي كان يليه بالسن [يوحنا: 19/ 26-27]، وبعد مقتله اجتمعت «مريم أم يسوع ومع إخوته» [أعمال:1/ 14]. خلف أبواب مغلقة، وكان ذلك مع بقية أتباعه، حيث تخفوا حفاظاً على حياتهم.

والذي يمكننا أن نفترضه باطمئنان من خلال هذا الصمت، هو أن يسوع

نفسه تولى دور «أب من دون أب» لهؤلاء الصغار الستة، ولكن متى تماماً وقعت عليه هذه المسؤولية؟ هذا ما لا يمكننا قوله، إنما إذا أردنا أن نخمن العمل الذي مارسه يسوع خلال عشرينات سنه، قبل أن يقوم بالظهور العام الأول، يمكننا أن نصوره وهو يعمل بمثابة أب ومسؤول عن العناية بأمه وعن إخوته الصغار.

ومن المؤكد أن ذلك لم يكن عبئاً سهلاً، فالأسرة لم يكن لديها لا أرض موروثة أو ثروة، وأورد سيلسيوس الكاتب الروماني من القرن الثاني رواية بأن مريم كسبت بعملها بالغزل، وسواء أكان هذا صحيحاً أم لا، نحن لا نمتلك سبيلاً للمعرفة، ولكن من المؤكد أنه وقع على يسوع وهو الابن الأكبر لأسرة يهودية من دون أب، العمل بالدرجة الأولى في سبيل كسب العيش، وكان أن ينفق الإنسان على نفسه كفلاح صاحب حرفة في قرية صغيرة في الجليل تحت الاحتلال الروماني، كان ذلك عبئاً كبيراً، ولكن أن ينفق على أسرة كبيرة من خلال إيجار يومي، كان ذلك واجباً غير ممكن تماماً، وقد تحدث يسوع فيما بعد وروى حكاية حول مثل أولئك العمال الذين كانوا يكترون يومياً، حيث اكتريوا للعمل في كرم عائد لملاك أرض، مقابل «ديناريوس denarius» «أربعة sesterces» في اليوم، وكان العمال يجتمعون عند الفجر في سوق القرية ويجري استئجارهم هناك للعمل حتى الغسق، وكان يدفع لهم المبلغ المتفق عليه في المساء، وقد ذكر يسوع بشكل محدد وأشار إلى تحمل عبء «ثقل النهار والحرّ» [متى: 20/ 12]، وقد ظهر بأنه كان معتاداً عن قرب وعارفاً بجماعة العمال الفقراء، ويحصل الإنسان على انطباع أنه كان يتحدث صدوراً عن تجربة، لا عن مجرد مراقبة عن بعد.

واستخدم هيرود أنتباس، ابن هيرود الكبير، مثل هؤلاء العمال الفلاحين، عندما بدأ في إعادة بناء الصفورية، التي كانت عاصمته اللامعة، وجاء ذلك بعد تدميرها الوحشي في العام الرابع قبل الميلاد، وذلك كعقوبة للذين شاركوا في الثورة التي تفجرت بعد وفاة أبيه هيرود الكبير، وقد كانت مدينة يهودية، ولكن

أعيد تشكيلها تماماً خلال العقود التالية، وفق النمط الروماني حتى تصبح «زينة الجليل»، ومن المؤكد أن حرفة البناء قد أصبحت مزدهرة، وسريعاً أصبحت الصفورية المحور الاقتصادي لعدد كبير من الفلاحين القرويين الذين احتشدوا من وادي بيت نطوف في الجليل الأدنى، بما في ذلك الناصرة، وفي الحقيقة كانت الجليل واحدة من أكثر المناطق كثافة في السكان في جميع الامبراطورية الرومانية، وكانت تشكل عقدة مواصلات للطرق الرئيسة، واتسمت باقتصاد مزدهر، وقد أمضى يسوع «سنواته الضائعة» ناشئاً خارج هذه العاصمة الرومانية المدينية للجليل، التي وقعت فوق الروابي المنخفضة، وكانت محاطة بقرية الناصرة الصغيرة، وكانت القرية نفسها منتشرة حول نبع طبيعي، عند قاعدة هذه الروابي، ويعرف هذا النبع في هذه الأيام باسم «بئر مريم».

ومن المؤكد أنه من المنطقي الافتراض أن يوسف قد انجذب نحو مشاريع البناء الضخمة في الصفورية، حيث كان بإمكانه إظهار براعته في أعمال الحجارة، وأن يسوع كان قد تعلم الحرفة نفسها عندما وصل نحو سن الرجولة، وكان بعضنا الذين تأثروا بهذا التفكير قد قرروا في واحد من الأيام قبيل الظهر، أن يحاول السير من موقع حفرياتنا في الصفورية إلى الناصرة، وقد استغرقت الرحلة حوالي الساعة ونصف الساعة بخطوات معتدلة وسط حرارة النهار، ونحن لا نعرف بالتحديد المدة الزمنية التي احتاجها عادة بناء الصفورية، ولكن يمكننا أن نفترض أن هذا المشروع الضخم، ربما قد استغرق عشر سنوات أو خمس عشرة سنة، وإذا كان يسوع قد ولد في العام الخامس قبل الميلاد، من المحتمل كثيراً أنه كان كبيراً بما فيه الكفاية لأن يعمل مع يوسف خلال سنوات الازدهار، وهناك كل سبب للافتراض بأن مشاريع البناء في المدينة استمرت بعد ذلك، ونحن لا نعرف متى مات يوسف، ولكننا نستطيع أن نتصور أن يسوع ربما عمل كحّجار في الصفورية في عشرينياته، ولاسيما إذا كان قد توجبت عليه مسؤولية العناية بأسرته.

وفي الموسم الثاني حفرت مع فريقي في الصفورية، ونزلنا عميقاً في الأرض حوالي المترين عن سطح الأرض الحالية، فبدأنا نكتشف جداراً حجرياً وأرضية تمكننا من تأريخهما بأنهما كانا من أوائل القرن الأول للميلاد، وكان الدافع الأساسي لي ولتلاميذي للحفر في الصفورية، هو قربها الكبير من الناصرة، وإمكانية أن يكون يسوع قد عمل هناك في حرف البناء خلال أواخر عشريته وعشرينيته، وعندما أخبرنا بأن الحجارة التي كشفت بتاريخها إلى تلك الزمنية، سأل واحد من تلاميذي، وهو شبه مازح: «هل تعتقد يا دكتور طابور، بأن من الممكن أن يكون يسوع قد مدد هذه الحجارة بالذات؟»، وقد ضحك كل واحد حول استبعاد مثل هذه الإمكانية، مقدرين المساحة الكبيرة التي شغلتها المدينة، ومع ذلك ليس هناك من شك أن كشف طبقات من البقايا من أيام يسوع، ومحاولة تصور الحياة القاسية للفقير الجليلي، الذي كان بكراء يومي، قد أعطانا تقديراً جديداً «للسنوات الضائعة» من حياة يسوع، ولا يمكن للإنسان إلاّ أن يتساءل: ما هي الأفكار التي ربما دارت في خلد واحد قدّر له أن يعلن عن نفسه أنه «ملك اليهود»، وهو يجهد نفسه في قطع الحجارة وتمديدها في مكان في المدينة التي كانت عاصمة هيرود الفخمة، ويأخذنا هذا إلى السؤال التالي:

ما الذي نعرفه عن ميول يسوع نحو الاحتلال الروماني العسكري لبلاده، ونحو سلطة أسرة هيرود الكبير ونحو عائلته؟ فهل كان هو عسكرياً، أم مسالماً، أم عدّ مثل هذه المسائل ونظر إليها من دون اهتمام؟ وإلى أية درجة كان قد بدأ ينظر إلى رهانه لأن يكون ملك بني إسرائيل كتهديد حقيقي لسلطات روما؟

الفصل السادس

مملكة لهذا العالم

احتل الرومان البلاد التي دعاها اليهود باسم «أرض إسرائيل» في العام 63 ق.م، فقد قاد القائد الروماني الكبير بومبي، الذي كان في وقت ما متحالفاً مع يوليوس قيصر جيوشه إلى شرقي البحر المتوسط، فاستولى على آسيا الصغرى، وعلى سورية وفلسطين، واستولى على القدس بعد حصار استمر لمدة ثلاثة أشهر، وذبح اثني عشر ألفاً من اليهود[1]، وقد استغل يوم السبت، فهاجم المدينة بشدة عندما علم بأن اليهود المتمسكين بالسبت سوف يكونون أقل ميلاً إلى القتال، وتجرأت قواته على الدخول إلى المعبد الداخلي في معبد اليهود، أي إلى «قدس الأقداس»، الذي كان غرفة صغيرة ذات ستائر، كان موضوع فيها تابوت العهد للعصور القديمة، وتبعاً للتوراة كان مسموحاً فقط للكاهن الأعلى بالدخول إلى هذه الغرفة مرة واحدة في السنة هو يوم التكفير «يوم كيبور»، وفي عملية تحريف بغيضة للتاريخ، قال يوسيفيوس بأن خرق بومبي لحرمة المعبد كان في «يوم الصيام» أو «يوم كيبور»، ولعل هذا كان أكثر من أي عمل آخر مثّل رعونة الرومان وقوتهم، فكيف أمكن لرب إسرائيل، الذي عبده اليهود يومياً بمثابة «سيد للعالم» كان غير قادر على حماية معبده في أعظم الأيام قداسة في السنة اليهودية؟، فالسياسة والقوة العسكرية شيء، لكن الإذلال الديني شيء آخر مختلف تماماً،

حيث لم تظهر الرؤيا النبوية اليهودية حول مسيح ملك سوف يحكم أرض إسرائيل، وفي النهاية جميع أمم الأرض، من دون أمل مثلها الآن.

وجلب استيلاء بومبي على الشرق ثروة لا تقدر إلى روما، على شكل غنائم حرب وضرائب جديدة، فقد جرى ضم سورية، وجعلت مقاطعة رومانية، وقسم حاكمها فلسطين إلى عدة مناطق محكومة ذاتياً مع حكام محليين تحت الإشراف العسكري الروماني، وكان الأكثر طموحاً بين هؤلاء الحكام الموالي أنتباتر أبو هيرود الكبير، وكان الوقت وقت عدم استقرار وحرب أهلية في روما، وفي خلال العقدين التاليين تمكن يوليوس قيصر من هزيمة بومبي، الذي كان قد أصبح عدوه، لكنه اغتيل فيما بعد من قبل بروتوس وكاسيوس، اللذين قتلهما فيما بعد مارك أنطوني، وكان أوكتافيان حفيد قيصر، الذي بات يعرف باسم أغسطس، هو الإمبراطور الروماني الأول، وقد تمكن عقب ذلك من قهر خصميه أنطوني وكليوباترا في العام 31 ق.م، وكان أغسطس بحاجة بشكل ملح إلى حدود شرقية مستقرة، وقد أدرك أن الرجل الذي يمكنه القيام بهذا العمل، كان هيرود.

الرجل الذي سيصبح ملكاً

برهن هيرود على أنه أشد قسوة من أبيه، ونحن نعرفه باسم «هيرود الكبير» بسبب أنه كان الأول في أسرة حاكمة خاصة به وبذريته، تولت حكم فلسطين الرومانية حتى العام 100 للميلاد، ومن الممكن تسميته بشكل موائم باسم هيرود المخيف نظراً للقسوة والقمع اللذين اتسم بهما حكمه الطويل.

وكان هيرود قد قرر أن يكون ملكاً على اليهود، والحاكم الوحيد لأرض إسرائيل، وكان قد سافر في العام 40 ق.م إلى روما، وتمكن من إقناع أنطوني وأوكتافيان، اللذين كانا ما يزالان متحالفين في ذلك الوقت، لأن يعلنا عنه «ملكاً على اليهودية»، وقد أدركا أن هيرود كان هو الرجل الوحيد القادر على تمتين الحكم

في فلسطين، وأن يقف معها ضد الفرثيين، الذين غزوا من الشرق، وقدم هيرود أضحية إلى جوبتير على تلة الكابتول، وكان على جناحيه أوكتافيان وأنطوني، وقد عاد إلى فلسطين وبدأ بإخضاع الجليل في الشمال، وتحرك جنوباً في السامرة وألقى أخيراً، وهو مدعوم بفيلق روماني الحصار على القدس، وقد ذبح من دون رحمة جميع الذين وقفوا ضده، وفي العام 37 ق.م متن هيرود حكمه أخيراً، واحتل بشكل رسمي عرشه الدموي كـ «ملك لليهود»، وكانت أم هيرود يهودية، ولكن والده أنتيباتر كان أجنبياً من أدوم في الشرق، وقد تزوج هيرود من مريم، التي كانت منحدرة من سلالة كهنة عرفوا باسم الهسمونيين أو المكابيين، ومع أنه لم يكن باستطاعة أسرتها الادعاء بنسب داودي، لقد حكموا البلاد من خلال نافذة للاستقلال صغيرة جداً، منذ حوالي العام 165 ق.م، حتى وصول الرومان في العام 63 ق.م، وقد شكلوا أسرة ملكية حاكمة، ووضعوا لقب ملك على نقودهم، ولقد كانت هنالك أسطورة خاصة مرتبطة بهذه الأسرة الكهنوتية، في أنها تمكنت بنجاح من طرد السوريين من أرض إسرائيل قبل مائة سنة مضت، واعتقد هيرود «نصف اليهودي» أنه قد يستطيع تحقيق القليل من الشرعية بالنسبة إلى اللقب الذي اشتهاه مع مريم الجميلة إلى جانبه.

وفي العام 31 ق.م كان هناك زلزال مدمر في اليهودية ترك ثلاثين ألفاً من الأموات، ورأى جميع الذين كرهوا هيرود وجميع من مثّله في الزلزال بداية لحكم الرب على اليهود، من أجل تكييف أنفسهم مع الحكم الروماني، وكان أوكتافيان قد هزم أنطوني في العام نفسه، وكان واحداً من أول أعماله كإمبراطور جديد وأغسطس هو تثبيت لقب هيرود «ملك اليهود» وقد وضع تاجاً على رأسه في احتفال رسمي في رودس، إلى حيث أبحر هيرود لمقابلته ولتقديم التهاني له.

وكانت أول أعمال هيرود إعدام خمسة وأربعين من الأعضاء السبعين للسنهدرين اليهود، وهو المجلس الذي كان مسؤولاً عن الشؤون القانونية لليهود،

وقام في أوائل حكمه بتوسعة وتحصين مختلف قلاع الصحراء، التي كان الهسمونيون قد أسسوها، بما في ذلك مسعدة، والإسكندريوم، ومخاريوس، وهيركانيا، وقد زودهم بالسلاح، والأطعمة والماء، وذلك كأماكن قوية للالتجاء لأسرته في وقت الأزمة، والذي كان يخشاه كثيراً هو قيام ثورة محلية، يمكن أن تحصل على التأييد الشعبي من الناس الذين كانوا يتطلعون إلى حاكم شرعي من أسرة داود.

ويتم ذكر هيرود الكبير من أجل شهوته الوحشية للسلطة، ومن أجل برامجه في إنشاء أبنية ضخمة، فقد بنى في السامرة سبسطية كقلعة دفاعية، وأكملها مع معبد من أجل الإمبراطور أغسطس، وعلى الرغم من تظاهره اليهودي، والمطالب في أنه كيّف نفسه مع بعض الحساسيات الدينية اليهودية، كان هيرود رومانياً في الصميم، ففي جهوده لرعاية الثقافة الإغريقية التي تبناها الرومان، أقدم على بناء مسرح ومدرج في القدس، هذا من دون أن نذكر قصره الباذخ في الجزء الأعلى من المدينة، ولم يوقف هيرود توسعته لأراضيه، فقد أسس مشاريع أبنية عامة في جميع مدن شرقي الإمبراطورية، ونشأ ولدا هيرود: أنتباس، وأرخاليوس في روما، وتثقفا تحت توجيه الإمبراطور نفسه، وهكذا لم تكن هناك أسرة أكثر قوة من هذه الأسرة في شرقي البحر المتوسط.

وفي العام 22 ق.م بدأ هيرود ببناء ميناء جديد في مدينة قيسارية، التي نالت اسمها من الإمبراطور أغسطس، وكان مشروعاً كبيراً وفخماً استغرق اثني عشر عاماً، وقد ضم ميناء اصطناعياً جميلاً، ومسرحاً مشرفاً على البحر المتوسط، وهيبود روماً واسعاً ومدرجاً، وقصره الملكي، ومعبداً كبيراً جداً جرى تكريسه للربة روما، وعلى شرف الإمبراطور أغسطس، وكان مشرفاً على الميناء، الميناء الذي كان نافذته على العالم الروماني وكان فخوراً في استقبال ضيوف من روما ومن المقاطعات وفق طريقة بهية أجمل من أي مكان آخر كانوا

يتوقعون رؤيته في الإمبراطورية.

وبدأ مشروع هيرود الأكبر في حوالي الوقت نفسه، أي في 20 ق.م، وشمل إعادة تصميم كاملة للمعبد في القدس مع توسعات كبيرة جداً لبلاطه، وتبعاً ليوسيفيوس لقد استخدم عشرة آلاف عامل لتنفيذ العمل، وهو لم يعش ليراه وقد انتهى، وهو لم يوفر نفقة حتى يضمن جماله الفائق، وقد جمله بالرخام، والذهب، واللازورد، والأعمدة الكورنثية، وصار ينافس أي معبد آخر في العالم الروماني، ولكن الأكثر أهمية، لقد أراد هيرود أن يذكر كثاني بعد الملك سليمان بن داود، الذي شيد حسب رواية التوراة المعبد الأول في القرن العاشر قبل الميلاد، وفق نمط صار محسوداً من قبل المنطقة.

وما يزال السواح تتولاهم الدهشة تجاه جمال وفخامة الحجارة المرصوفة على حدود ما كان يعرف باسم جبل الهيكل، حيث هناك ساحة مغلقة بلغ اتساعها إلى /144/ ألف متر مربع، وكانت الحجارة قد قطعت بكل دقة من حجارة كلسية محلية، ووضعت في مكانها من دون ملاط، ومنذ حرب الأيام الستة للعام 1967 بين العرب والإسرائيليين، عرض الأثريون كامل الجدارين الجنوبي والغربي لهذا المجمع المعماري الهائل، وقد بقيت المداميك السفلى من الحجارة، التي تغطت منذ زمن طويل بالتراب والأوساخ، في مكانها حتى هذا اليوم، وأكبر حجرة اكتشفت حتى الآن هي 12م طولاً في ثلاثة أمتار ارتفاعاً، وهي تزن مئات الأطنان، ولكن من أين جاءت جميع هذه الأموال؟ وهل كان هيرود الكبير قادراً على تمويل جميع هذه المشاريع؟ فقد كانت الأرض والزراعة القاعدة المهمة للاقتصاد الفلسطيني، وقد جاءت ثروة هيرود بشكل أساسي من أعمال الفلاحين، ومن الضرائب المفروضة، والتي تضخمت بوساطة اقتصاد تحول من مزارع الأسرة إلى عقارات أوسع، وكانت هناك أيضاً «ضرائب سوق» فرضت على جميع ما بيع وشري في الحرف والتجارة، وكان

هذا أساس لنمط تردد صداه في جميع أرجاء الامبراطورية بحكم أن الثروات المدنية قد تجمعت وازدادت ووقعت الأرياف بالفقر بشكل متزايد.

وكان لدى هيرود تسع زوجات، وعشرات من الأولاد، ولذلك كانت الغيرة والخصومات الداخلية، وما كان مناسباً، للقتل سمات حكمه، ففي العام السابع قبل الميلاد أمر بخنق ولديه الكبيرين، وبقتل ثلاثمائة من مؤيديهم، لأنه خاف من مؤامرات ضده، وكان الولدان الوريثان الملكيان للعرش، وولدا مريم زوجته المحبوبة، وبعد مدة أمر بإعدام مريم بتهمة اقتراف الزنى مع زوج أخته، وقبل خمسة أيام من موته أمر بقتل واحد آخر من أولاده هو أنتيباتر، وكانت هنالك نكتة إغريقية منتشرة في روما أيام هيرود هدفت إلى القول: أن تكون خنزير هيرود أفضل من أن تكون ابنه. وكان آخر أعماله المجنونة قبل موته أن سجن مئات من الموظفين القياديين لديه مع أسرهم في الهيبودروم مع أوامر بوجوب قتلهم عند موته، وبذلك تكون كل أسرة في القدس لديها شيئاً لتنوح عليه وتندبه عندما يعبر[2]، ولم تنفذ هذه الأوامر على الإطلاق، لكنها تظهر درجة تجرد هيرود من العقل عند نهاية حياته.

وكان هيرود يشرب الخمرة بشكل ثقيل، وتسبب هذا في تطور أمراض كثيرة، و شملت هذه، حسبما ذكر يوسيفيوس آلاماً معوية وأوراماً، وربواً، و «غنغرينا» في عضو التناسل، «وديدانا»[3]، ومع اقترابه من نهايته لم يعد بإمكانه حتى أن يقف منتصباً، وأقام في قصره قرب البحر الميت في أريحا، وتفجرت في القدس الاضطرابات، وأمر اثنان من الحاخامات الأكثر شعبية، ووعظاً هناك، وكان اسماهما: يهوذا، ومتياس، وأثارا أتباعهما حتى يقوموا بتمزيق النسر الذهبي، الذي كان هيرود قد نصبه فوق بوابة المعبد، كرمز للحكم الروماني، وقد اعتقلا مع أربعين من أتباعهما، وأخذوا جميعاً إلى أريحا حيث أمر هيرود بحرقهم وهم أحياء، بعد محاكمة صورية ترأسها من فراشه[4].

وسافر قبل أن يموت مباشرة إلى ينابيع Callirrhoe الحارة، على الشاطئ الأردني من البحر الميت، وذلك في محاولة للحصول على بعض التفريج، وهذه الينابيع ما تزال موجودة حتى مع مياهها الحارة المتدفقة إلى برك صخرية قديمة، وقبل سنوات مضت أخذت طلابي إلى البقعة نفسها، ودخل بعضنا إلى الماء، وفي الجروف الصخرية فوق رؤوسنا كان باستطاعتنا رؤية خرائب مخاريوس، القلعة التي بناها أنتباس بن هيرود، وذلك حيث أعدم يوحنا المعمدان، وبالنسبة لنا حدث أن القصتين قد خرجتا من النص، وأخذتا شكلاً جديداً من الحياة ظهر أمامنا، وكأن الوقت قد علق نفسه في الصحراء التي تغيرت قليلاً خلال الألفي عام.

وعندما مات هيرود في آذار العام الرابع قبل الميلاد، كان عمر يسوع ستة أشهر، وكان طفلاً رضيعاً يعيش في الجليل، وقسمت وصية هيرود مملكته بين ثلاثة من أبنائه: فقد أصبح هيرود أنتباس حاكم الجليل وبيريا، المنطقة التي هي عبر الأردن مباشرة، وصار أخوه الأكبر والشقيق أرخاليوس «ايثنارخ ethnarch » لليهودية، وكان هذا اصطلاحاً معناه «حاكم الشعب»، وأعطى فيليب، الذي كان أخاً من زوجة أخرى، الأراضي التي وقعت إلى الشمال الشرقي من بحيرة طبريا، وصادق الإمبراطور أغسطس على الوصية، وكان الأبناء الثلاثة في روما من أجل المناسبة، وآثر أغسطس أرخاليوس، ووعده بأنه سوف يجعل منه ملكاً إذا برهن بذاته أنه جدير بذلك، وأقام أرخاليوس لوالده جنازة محكمة، ومدد جسده ليرتاح في قاعة سرية داخل الهيروديوم، وهو قصر واسع محصن وقع على بعد ستة أميال إلى الجنوب من القدس، وكان هيرود قد بناه لاستخدامه كضريح له، وحتى الآن لم يكتشف القبر نفسه [اكتشف مؤخراً] مع أن الحصن تناولته الحفريات الأثرية.

وكانت هناك اضطرابات في القدس في هذه الآونة، وكان عيد الفصح قد

اقترب موعده وجاءت ردة فعل أرخاليوس باستخدام القوة، فقتلت جيوشه ثلاثة آلاف من الناس، وعلى الفور ثارت البلاد كلها وحملت السلاح، وكان ذلك عندما زحف فاروس مع فرقه إلى الجليل من سورية، فدمر الصفورية، وزحف نحو القدس، فأحرق المدن والقرى على طريقه، وصلب الذين كانوا يقاومون الحكم الروماني، فبعد ميلاد يسوع بوقت قصير، صعد نجم واحد اسمه يهوذا بن حزقيا في أثناء الثورة، واقتحم القصر الملكي في الصفورية، واستولى على الأسلحة، وقال يوسيفيوس بأن يهوذا هذا كان يتطلع إلى الترقية والتشريف ليكون ملكاً، وقام في الجنوب واحد اسمه شمعون، وكان عبداً لدى هيرود، فجمع مجموعة من الأتباع وأعلن عن نفسه ملكاً، وأحرق ونهب القصر الملكي في أريحا، واصطدم الرومان معه واعتقلوه وأعدموه بقطع رأسه، وأعلن راع اسمه أثرونجيس Athronges مؤيداً بأخوة أربعة، أعلن عن نفسه ملكاً، وشكل عصابة مسلحة كبيرة، ونهب المنطقة الريفية لمدة أربعة أشهر، وتبعاً ليوسيفيوس ارتدى هؤلاء القادة الثلاثة جميعاً التيجان كدليل على مطالبتهم بالتشريف كملوك[5]، وفي التقاليد اليهودية الملك هو «مسيح» ولذلك ليس غير صحيح فَهْمُ هؤلاء القادة وهم يتطلعون لأن يكونوا «ممسوحين» من شكل واحد.

وظهر أرخاليوس أنه أكثر رعونة ووحشية من أبيه، ولذلك أصبح لا يتمتع بالشعبية لدى السكان المحليين في اليهودية، مما دفع أغسطس إلى عزله من السلطة ونفاه إلى غاليا، وضمت روما اليهودية مع عاصمتها القدس، ووضعت المنطقة تحت حكم عسكري روماني مباشر، وقد تولى إدارتها حاكم، وأرسل أغسطس قورنيوس Quirinius الذي كان من أعلى أعضاء مجلس الشيوخ مرتبة حتى يتولى الأشياء في سورية، وجرت مرافقته من قبل فارس روماني اسمه كوبونيوس Coponius، كان من المقرر أن يتسلم حكم اليهودية، ومنح كوبونيوس سلطة خاصة، بإنزال عقوبة الإعدام إذا اقتضى الأمر، وكان على

كوبونيوس أن يتولى تسجيل عقارات أرخاليوس الواسعة، وأن يقوم بإحصاء للسكان من أجل غايات ضرائبية.

وكانت اليهودية بعيدة عن الهدوء، فقد أثار واحد متحمس متعصب اسمه يهوذا الجليلي ثورة واسعة النطاق، حيث استفاد من التغيير الذي لحق بالإدارة، وحرض أتباعه من أهل الريف على رفض دفع الضرائب الرومانية، التي نتجت عن عملية الضم، وأعلن يهوذا بأن الرب كان هو السيد الوحيد، وأن عليهم خلع نير الحكم الروماني، وتبعاً ليوسيفيوس كان يهوذا هو الذي أسس حزباً من اليهود حمل اسم القنائيين «الزيلوت»، ونحن بكل بساطة لا نعرف فيها إذا كان يهوذا امتلك نسباً داودياً، أو اعتقد بنفسه أنه كان مسيحاً أو ملكاً، ولم يتحدث يوسفيوس عن مصيره، لكن لوقا صاحب إنجيلنا كتب يقول في جزئه الثاني من أعمال الرسل: «هلك يهوذا، وتشتت أتباعه» [أعمال: 5/ 37]، ومن المفترض أنهم عادوا إلى الجليل حيث امتلكوا مؤيدين متعاطفين معهم، تولوا تخبئتهم.

وكانت ثورة يهوذا الجليلي هذه أكثر أهمية من المحاولات الأبكر التي تلت وفاة هيرود، لأنه كان لها هدف سياسي وديني أوسع، وقد كان سيئاً مثله مثلما كان هيرود الكبير، حيث كان على الأقل يهودياً بالاسم، وبذلك كان ملكاً محلياً، وعندما مات انتقلت أراضيه إلى أولاده، وعزم أغسطس على ضم اليهودية ووضعها مباشرة تحت الإدارة الرومانية والضرائب، ولم يكن يهوذا مجرد شخصية تسعى إلى السلطة، بل كان الذي أسس حركة هي حركة القنائيين «الزيلوت»، وكان لدى أفراد هذه الحركة برنامجهم في تأسيس دولة يهودية مستقلة، ولم يكن برنامجهم سياسياً فقط، بل كان دينياً أيضاً، فقد كان بنو اسرائيل شعب الرب المختار، يعيشون في أرض الميعاد، ويحكمون بوساطة قانون موسى أو التوراة، أما بالنسبة إلى الرومان فقد كان أن تكون مسؤولاً عن

أرض إسرائيل، هو عمل زائف، ومعادٍ للرب وإهانة.

ويظهر أن يهوذا وافق بعض الشروط «الأسروية الحاكمة» حتى أن ولديه: جيمس وشمعون قد تبعا خطواته، وقد حوكما وصلبا من قبل الوالي الروماني، بعد عقد من الزمان من وفاة يهوذا[6].

والأسماء كانت مهمة، أي اسم يهوذا مع ولديه المسميين: جيمس وشمعون، فقد كانت هذه أسماء عامة بين اليهود، لكن كانت شعبية بشكل خاص في الجليل بين أسر ميزت نفسها بالارتباط مع الجهود من أجل إعلان استقلال يهودي عن الحكم الأجنبي، وجاءت هذه الأسماء من الأسرة المكابية، التي نجحت في طرد الإغريق في القرن الثاني قبل الميلاد، وهكذا يرجح أنه لم يكن خياراً عشوائياً، أن اختارت مريم أم يسوع هذه الأسماء الثلاثة بالذات، أي: جيمس، وشمعون، ويهوذا، لأولادها، وأن شمعون نال لقب «القنائي» «الزيلوت»، وكان يسوع في العاشرة من عمره أيام ثورة يهوذا، ويمكن للإنسان فقط أن يفترض أن سكان الجليل تتبعوا بنشاط الأخبار حول الثورة، ويرجح أن مريم قد اختارت هذه الأسماء كطريقة لتشريف يهوذا، ولإظهار التأييد للقضية التي تبناها ذلك الجليلي، وهي القضية التي قدر لثلاثة من أولادها الخمسة أن يموتوا في سبيلها ميتة وحشية، فيسوع وشمعون قد صلبا، ورجم جيمس حتى الموت.

الرجل الذي رفض يسوع أن يتكلم إليه

كان هيرود أنتيباس، حاكم الجليل، في السادسة عشرة فقط من عمره، عندما وصل إلى السلطة عند وفاة أبيه، وكان هذا الحاكم الهيرودي هو الذي أعدم يوحنا المعمدان، وهو الذي ظهر يسوع أمامه صباح صلبه، ولقد كان مثل أبيه، فقد كانت رغبته طوال حياته أن يكون ملك اليهود، فعندما كان ما يزال في روما التمس من

الإمبراطور أغسطس أن يجعله الوريث الأول لأبيه، والمقدم بين أخوته، وأن يعطيه لقب «ملك»، وكان الأكثر طموحاً بين الثلاثة، وإن كان حين أعطي الجليل وليس اليهودية مع عاصمتها القدس شكل ذلك خيبة أمل بالنسبة إليه.

وكان هيرود الكبير قد أهمل الجليل، وركز مشاريعه العمرانية الكبيرة في القدس، وفي قيسارية على الساحل، وفي السامرة، وكانت الجليل مسكونة بشكل أساسي بوساطة شبكة من البلدات الصغيرة، والقرى القائمة على رؤوس التلال، مثل: الناصرة، وقانا، ونين، وهؤلاء جميعاً ورد ذكرهم في أناجيل العهد الجديد، وكان أساس الاقتصاد قائم على الزراعة، مع صناعة لصيد الأسماء مزدهرة على بحيرة طبرية، وعدّ الجليليون متخلفين وفق المعيار الروماني وكانوا معروفين بروحهم الحماسية للاستقلال، وكان هيرود أنتيباس قد نشأ في روما، وكان كما يقول المثل أميراً مدللاً، ومن المحتمل تماماً أنه لم يزر الجليل قبلما بدأ بحكمها.

وكانت المهمة الأولى أمام هيرود أنتيباس هي إيجاد عاصمته الفخمة في مدينة الصفورية، وكان حلمه أن يبني مركزاً رومانياً مدنياً حديثاً، يكون كاملاً مع فوريوم، وأسواق، ومسرح، وأبنية عامة، ومصنع سلاح، وطبعاً قصره الخاص في المركز الريفي للجليل، الذي لم يشاهد مثله قط بالفخامة، وتكون وظيفته العمل كمركز للحكم، وللتسوق، وأن يكون المركز العسكري لمملكته، وقد ركز انتباهه على شيئين هما: التجارة والضرائب، وتبعاً لما ذكره يوسيفيوس لقد كان قادراً على استخراج ما يساوي بقيمته مائتي طالين Talents من الذهب «تسعة طونات» سنوياً من رعيته[7]، وقد كان هذا في بداية حكمه الطويل الذي استمر اثنتين وأربعين سنة، وقدر المؤرخون أن هيرود جبى ما يساوي ثلث إنتاج أراضيه، ولذلك لا عجب بقيام أناجيل العهد الجديد بذكر جباية الضرائب وجباة الضرائب مراراً وتكراراً ومع كثير من القدح والذم.

ومات الإمبراطور الروماني أغسطس في عام 14 ق.م، وقد خلفه ابنه بالتبني تايبيروس، وتوجب أن يكون يسوع آنذاك في العشرين من عمره، ورأى هيرود أنتيباس توفر فرصته لتمتين سلطته وزيادة قوته، وقد بدأ بضرب نقوده، حيث طبع سعفة نخلة على الوجه الأول، وتاج الغار الروماني على الوجه الثاني، وبدأ في العام التاسع عشر للميلاد ببناء عاصمته الجديدة حسب النمط الروماني على الشواطئ الغربية لبحر الجليل، وأعلن أن عام تأسيسها بداية لحقبة جديدة، وسماها بشكل موائم باسم طبرية تشريفاً للإمبراطور الجديد، فهو كان يسير على خطى أبيه، وكان يأمل بوضع عاصمته في وسط منطقة تجارية كثيفة حول بحر الجليل، وبذلك صاغ روابط وشيجة مع الأراضي الشرقية للبتراء، وكان يأمل في تحسين سمعته وزيادة نفوذه.

وطبرية الآن مدينة يهودية مزدهرة في إسرائيل هذه الأيام، هذا و جرى الكشف حالياً عن جزء من العاصمة القديمة، والذي ظهر هو بالحقيقة مدهشاً، حيث جرى الكشف عن بوابة عملاقة عند الطرف الجنوبي من المدينة، وتم الكشف أيضاً عن بقايا المسرح، الذي كل جزء منه له وقعه وتأثيره مثل المسرحين الموجودين في قيسارية وصفورية، وبدأت بقايا من الأسواق والشوارع بالظهور، ولقد عرفنا أنه كان هناك قصر واسع مستكن في جانب الرابية في الغرب، مشرف على بحيرة طبرية الجميلة، وقد صارت المدينة متحكمة بالمنطقة إلى حد غدت الإشارة بشكل عام إلى بحر الجليل هي «بحيرة طبريا»[8]، وفي الحقيقة أراد هيرود أنتيباس عاصمته الجديدة على البحر، أن تكون بمثابة قيسارية «صغرى»، وكان مرد ما لم يكن موجوداً في كل من الصفورية وطبرية الجديدة، إلى المشاعر اليهودية التي أعطاها أنتيباس وزناً، أي عدم وجود معابد أو مزارات للأرباب الرومان أو للإمبراطور، فبعد كل شيء، كان لدى أنتيباس تطلعات مسائحية، فهو قد أراد أن يكون ملكاً على اليهود.

وكان هيرود أنتيباس مثل والده، قد أراد الزواج من أميرة مكابية، في محاولة لزيادة حظوته لدى الناس، بامتلاكه نوعاً من أنواع الارتباط «الملكي»، وكانت أمه مالثاسي Malthace سامرية، وبما أن اليهودية الآن تحت الحكم الروماني العسكري، ولأن أخاه غير الشقيق فيليب كان مسلّماً بضعفه في الأراضي وفي التطلعات، قرر أن يعمل، وكانت هيروديا س زوجة أخيه فيليب من السلالة الهمسونية الملكية، فاقترح هيرود بجرأة الزواج منها في القصر في قيسارية، لدى شروعه في رحلة نحو روما لزيارة الامبراطور تايبيروس، وقبلت هيرودياس على الفور، حيث أدركت فرصتها في أن تكون متحررة من الابن الأضعف لهيرود، وأن تتحالف بنفسها مع أنتيباس، ولدى عودته من روما تزوجا، ونحن لا نعرف السنة التي وقعت فيها هذه الواقعة بالتحديد، لكن لا بد أن علاقة الزنى هذه كانت موضوع الحديث في منطقة الجليل كلها، ولقد قرر لهذا الزواج أن يشغل دوراً حاسماً في سيرة حياة يوحنا المعمدان، وابن خالته يسوع.

ولا بد أن الضغط الاقتصادي لانتقال هيرود إلى طبرية، كان كبيراً، فقد كان بحر الجليل محوراً مزدهراً للنشاط الحرفي والتجاري، فقد تولت بلدة المجدل الساحلية الواقعة إلى الشمال، والتي هي بلدة مريم المجدلانية تصدير «سمكها المملح» المشهور إلى جميع أرجاء العالم الروماني، وعلى بعد إلى الشمال كانت هناك بلدة كفرنا حوم، التي اتخذ منها يسوع فيما بعد مقر قيادة عملياته.

وراقب يسوع قيام مدينة الصفورية ونهوضها إلى عظمتها، عندما كان في سني مراهقته، وشاهد تأسيس مدينة طبرية الكبيرة عندما كان في عشريناته، فهو قد نشأ في ظل المدينة الأولى، وأقام مقر قيادته على بعد أميال إلى الشمال من الأخرى، ولم يرد ذكر أي من المدينتين في أناجيل العهد الجديد، وليس فيهما ولا قصة واحدة حول أي شيء قد عمله يسوع في أي منهما، وبالنسبة لروايات العهد الجديد، لا وجود لهاتين المدينتين، فما الذي يمكننا عمله تجاه هذا

الصمت؟ وكما سوف نرى، نظر يسوع إلى هيرود أنتيباس وإلى جميع الذين وقفوا معه نظرة ازدراء كاملة، وقد تحدث بتهكم واستخفاف عن أولئك الذين ارتدوا ثياباً ناعمة، وعاشوا حياة رفاهية في قصورهم الملكية، وقد أشار مرة بشكل مباشر إلى هيرود بقوله: «ذلك الثعلب»، وعندما استجوبه هيرود في الصباح ذاته الذي حكم عليه فيه بالصلب، رفض أن يفتح فمه حتى بإعطاء جواب، فقد كان هيرود هو الذي ذبح بشكل وحشي قريبه وأستاذه يوحنا المعمدان، وشهد يسوع مباشرة تطلعات هيرود إلى الثروة والسلطة، وكيف أنه في سبيل ذلك ضغط ظلماً على حياة أبناء منطقته.

ولا أعتقد بوجود شك كبير حول أن يسوع سار في شوارع وأسواق كل من الصفورية وطبرية عدة مرات، وكان في مواجهة عميقة مع الثقافة الرومانية المدينية التي استوردها هيرود إلى الجليل، ومن المؤكد أنه رآها جميعاً، ومع وصوله إلى سن الثلاثين بدأ بصياغة خطة اعتقد أنها سوف تقود إلى الإطاحة الكاملة بكل ما مثلته روما واليهود المتعاطفون معها ومؤيدوها، بما في ذلك المؤسسة الدينية الفاسدة التي كانت تدير المعبد في القدس، وقد وجد كل ما تصوره وتنبأ به مكتوباً في النصوص المقدسة العائدة للأنبياء العبرانيين، فقد آن الأوان وجاء الوقت الذي باتت فيه ممالك العالم على وشك أن تصبح ملكوت الرب ومسيحه.

الفصل السابع

دين يسوع اليهودي

لقد كان يسوع يهودياً ولم يكن مسيحياً، وتفتح هذه الحقيقة بمفردها الباب لفهم يسوع كما كان حقيقة في زمانه ومكانه، وهو باب لم يفكر كثيرون بدخوله أبداً، فقد كان يسوع مختوناً، يراعي الفصح اليهودي، ويقرأ التوراة بالعبرية، ويحافظ على يوم السبت على أنه يوم الاستراحة، ومالت مدة ألفي عام من العداء النسبي والانفصال والانسلاخ بين اليهودية والمسيحية، نحو طمس حقيقة أن يسوع نشأ في عالم ديني وثقافي، قد ضاع تقريباً كلياً لصالح التطورات اللاحقة للمسيحية.

ويتوجب علينا من أجل فهم يسوع في زمانه ومكانه، أن نفهم التزامه العميق بدين أجداده وآبائه، فهو نظر إلى نفسه على أنه لم يكن يقوم بأي شيء أكثر من تنفيذ كلمات موسى والأنبياء، والأمل المسائحي الذي وجّه حياته، واقتاده إلى موته، وكان جوهر وجوده الأساسي وكينونته.

وفي المقام الأول، إن هذا الكتاب حول دين يسوع اليهودي يعني: ما الذي آمن به واعتقده، وكيف عاش، وكيف تصور إرادة الرب في العالم، وما الذي قاد إلى إعدامه من قبل الرومان، لكنني أريد في هذا الفصل إلقاء الضوء على ما يمكن أن نعرفه حول نشوء يسوع كيهودي في جليل القرن الميلادي الأول.

وبناء عليه؛ إن السؤال الذي ينبغي طرحه هو: إلى أي مدى كان يسوع يهودياً، ومع تقدير وجود أنواع من اليهودية في أيامه، فأي نوع من اليهود كان هو؟ وكان أحد الميول بين علماء القرن الماضي، ولكن تم التخلي عنه الآن إلى حد كبير، هو تجريده مع رسالته من أطره اليهودية، وكان قوام الفكرة هو أنه صحيح أن يسوع ولد يهودياً، غير أنه أدرك معائب إيمان أجداده الميت والمهمل، وأنه تحرك متجاوزاً ذلك نحو إيجاد نمط «عالمي»، وبالنسبة لوجهة نظر يسوع لقد أعلن عن أبوة الرب لبني البشر وكذلك إخوتهم مع مجموعة من المبادئ الأخلاقية العالمية تفوقت على الطرق القانونية لليهودية، فقد نظر إلى اليهودية على أنها المستحاث المبشر بالوحي الأخير الذي جلبه يسوع إلى العالم، ونحن نفهم الآن أن مثل وجهات النظر هذه ليس لها قاعدة تاريخية، وهي عرض ذكي للمسيحية المعادية للسامية، ومع ذلك انطبعت بعمق في وعينا الثقافي الغربي.

فأن تكون يهودياً في فلسطين القرن الأول المحتلة من قبل الرومان، كان لذلك علاقة كبيرة مع الهوية القومية والأثنية، ومثل ذلك مع خلاصة عن العقائد الدينية، أو لنعرض الفكرة بطريقة أخرى: لقد كان من غير الممكن بالنسبة إلى كثير من اليهود فصل الحقائق السياسية والاجتماعية للاحتلال الروماني والظلم الاقتصادي عن التقوى اليهودية والإيمان اليهودي، فقد كان الإيمان اليهودي بأن شعب إسرائيل قد أُختير من قبل الرب ليكون «أمة نموذجية» سوف تبسط العدالة والاستقامة وتقدمها للعالم كله، كان أساسياً،فقد تنبأ الأنبياء العبرانيون أنه في الأيام الأخيرة، سوف تصعد جميع الأمم إلى القدس، لتتعلم حول الرب الخالق الحقيقي، وقد جذب هذا من دون مقاومة من قبل الأمثلة الإسرائيلية الأخلاقية حول السلام والعدالة، ولم يتقبل جميع اليهود مثل هذه المثاليات الرؤية، لكن فعل ذلك بما فيه الكفاية: يوحنا المعمدان،ويسوع، وأخوه جيمس، حيث كانوا قادرين على إضاءة شرارة حركة

هددت المستويات العليا العائدة للمؤسسة السياسية والدينية.

ولا بد أن أسرة يسوع، مثلها مثل جميع يهود الجليل قامت برحلة للحج جماعية جنوباً إلى القدس حسبما جاء مطلوباً في التوراة ثلاث مرات في العام، في كل سنة في الربيع في عيد الفصح اليهودي، وفي أوائل الصيف من أجل عيد الحصاد، وفي الخريف من أجل عيد خيمة العهد، وفي عيد الفصح اليهودي، بشكل خاص، ادعى يوسيفيوس، أن ما بلغ عدده مليونين ونصف المليون يهودي، من فلسطين، ومن جميع أرجاء العالم، كانوا يحتشدون في القدس[1]،وواجه يسوع هناك رموز السلطة الرومانية الأكثر حدة وتأثيراً، وقد تداخلت مع خلاصة ماعدّه الفساد الديني، ومن المحتمل أن القدس الهيرودية مع قصورها، ومسرحها، والهيبودروم فيها، وبيوتها الفخمة، ومعبدها الرائع، قد نظر إليها كأعجوبة للعالم من قبل كثيرين، لكن يسوع مع آلاف من الآخرين نظر إليها كـ«وكر لصوص» سوف ينزل بها قضاء الرب سريعاً، ولم يكن من باب الصدفة أن قام يسوع عن عمد وهو في الثالثة والثلاثين من عمره باختيار القدس في عيد الفصح اليهودي كمنطلق لما عدّه المواجهة الأكثر إثارة مع ما دعاه باسم «قوى الظلام»، وعلينا أن نتصور أن مفاهيمه كانت متجذرة بعمق من خلال تجارب نشأته في الصفورية والقدس، اللتين كانتا الممثلين الرئيسين للظلم الروماني وللفساد الديني، وكان ذلك أساسياً بشكل تام لكيفية تصوره لدعوته ومصيره النهائي.

النشأة يهودياً في قرية الناصرة

نشأ يسوع وترعرع في بلدة ريفية يهودية فقيرة في الجليل، وكانت المنطقة قد انتشرت فيها مئات من مثل هذه البلدات والقرى التي كانت مقطونة من قبل عشائر ممتدة وأسر متجمعة تولت زراعة الأراضي المجاورة، وأظهرت الحفريات الأثرية أن البيوت كانت متواضعة معمولة من حجارة الحقول المغطاة بالطين

والتبن، وكانت أراضي الغرف عبارة عن أوساخ مداسة، «مدحولة» وكانت النوافذ قليلة، وكانت الأسقف عبارة عن قش قصبي مدد فوق عوارض خشبية وجرت تغطيته بالطين ليشكل مساحة سقف مستو، كانت تستخدم طوال السنة تقريباً من أجل النوم، وتناول الطعام، وأعمال منزلية معتادة، وغالباً ما امتلكت البيوت غرفاً تحت الأرض استخدمت من أجل التخزين، وكان الأثاث خفيفاً، وكان الفخار محلياً وعملياً، وغالباً غير مزين على الإطلاق، وغير مزخرف، ولم يكن الفسيفساء موجوداً، ولا الخزف المستورد، ولا الأدوات الزجاجية، وكذلك النقود الذهبية والفضية، وأدوات التجميل، والجواهر، والأوعية البرونزية، وهذه كلها كانت شائعة في المناطق الريفية للصفورية والقدس، وكان أوسع البيوت، ما كان ربما فيه ساحة وعدة غرف، حيث كانت أسراً ممتدة تعيش مع بعضها، وغالباً ما اتسعت هذه البيوت وامتدت على شكل شبكة فوضوية ذات أبنية مشتركة، وكانت الحيوانات الداجنة تعيش في أماكن مغلقة مرتبطة بالبيوت، أو في داخل مناطق محفورة أو كهوف، وكانت هنالك بساتين صغيرة مزروعة حيثما توفر مكان للزراعة، وكانت السلع الرئيسة المنتجة هي الزيتون، والخبز والعدس، والبيض، والحليب والجبنة والسمك المملح، والخضار، وهذه كانت إضافات مرحب بها، وأظهرت بقايا الهياكل العظمية أدلة على سوء التغذية، ولم يكن الموت من مرض قبل الأربعين أمراً غير اعتيادي.

ويمكن للإنسان أن يحصل على شعور حول الأشياء حسبما كانت عليه في ذلك الوقت، بوساطة زيارة المشروع الأثري لقرية الناصرة، في مدينة الناصرة الحديثة، وهي تشبه كثيراً مستوطنة وليمزبورغ Coloniol Williamsburg وليس قرية يهودية في أيام يسوع، والأثاريون والمؤرخون هم الآن في سبيل إكمال صنع نسخة دقيقة جداً تمثل ناصرة القرن الأول، وقد بنيت كلياً وفق الطرائق والمواد التي استخدمت في ذلك الوقت، وهم أيضاً يحاولون إعادة إخراج الطرائق

القديمة للزراعة، ولتربية الماشية، وللحرف المنزلية بشكل أصيل بقدر الإمكان، ولدى زيارة الناصرة لا يمكن للإنسان إلاّ وأن يتأثر بالخبرات التي استخدمت والجهود التي بذلت، ولكن شيئاً كثيراً ما يزال مفقوداً: الضجة، والروائح الكريهة، والازدحام والسخام، والرمل، والحياة الفلاحية اليومية.

والشعور بالحياة تحت الاحتلال العسكري، وطبعاً جيش هيرود المكون من مفتشين يتولون المراقبة بشكل دائم، وعملاء، وجباة للضرائب.

وتشير جميع الأدلة الأثرية من ريف الجليل إلى نمط من الحياة الفلاحية، ولكنها كانت حياة فلاحية يهودية، فلقد كانت الأوعية الحجرية المطلوبة من أجل غايات طقوسية للطهارة موجودة بشكل اعتيادي ونمطي، وكذلك البرك الجصية أو Mikvahs التي استخدمت من أجل التعميد الطقوسي، وعادت العظام التي كشفت إلى الماعز، والأغنام، والدجاج، وبعض الماشية، لكن ليس هناك خنازير، وكانت القبور خارج منطقة العيش، وامتدت من الكهوف الطبيعية، إلى كهوف قطعت من الصخر، وحسبما وصفنا في المدخل كانت جثث الموتى تمدد فوق عمود أو سارية أو Loculus حتى تتحلل، وبعد عام كانت العظام تجمع وتوضع داخل ناووس، أو في تجويف كوة منفصلة، وجرى تجنب المحرقة الرومانية، ربما بسبب الاعتقاد بالبعث بعد الموت.

وكان مركز الحياة المدنية والدينية في القرية اليهودية هو الكنيس، ولقد تم العثور على اثنين على الأقل من كنس القرن الأول، الأول في غملاGamla، على الجانب الشرقي من بحر الجليل، والثاني في قلعة مسعدة الصحراوية، وهكذا بتنا نمتلك فكرة ما عن أشكالهم، وكان الاجتماع يعقد في يوم السبت، عندما تتوقف الأعمال العادية في البلدة كلها منذ غياب الشمس في يوم الجمعة حتى غسق يوم السبت، وكانت تجري القراءة في نسخ خطية ثمينة من التوراة، أو الشريعة اليهودية، ومن كتب الأنبياء، بصوت مرتفع، وكان يبحث فيها، وكانت الآرامية

هي لغة الحديث، ولكن من مخطوطات البحر الميت نحكم بأن الكتب المقدسة قد كتبت بعبرية قديمة، وروى لوقا بأن يسوع عندما كان في الثلاثين من عمره عاد إلى بلدة الناصرة، ودخل إلى الكنيس «حسبما جرت عادته»، ووقف ليقرأ بصوت مرتفع من مدرج سفر إشعيا [لوقا: 4/ 16]، ثم إنه جلس وبدأ بمخاطبة الذين اجتمعوا مقدماً تفسيره للنص الذي قرأه، ويمكن للإنسان أن يفترض، أنه كانت هناك صلوات وترانيم، وقداسات ارتبطت بالمناسبات الخاصة، لكن النشاط الأساسي كان كما يظهر، قراءة النصوص المقدسة والتباحث حولها.

وكان بين مخطوطات البحر الميت نسخة كاملة من سفر إشعيا، قدر العلماء تاريخها بأنه مائة قبل الميلاد، وبهذا نعرف بالتحديد ما الذي كان عليه شكل المخطوطات التوراتية في أيام يسوع، فقد ظل هذا السفر مخبأً لمدة ألفي عام، داخل جرة من الطين مختومة، في داخل كهف على مقربة من مستوطنة قمران، ويوجد في مخطوط سفر إشعيا أربعة وخمسين عموداً لنص عبري، وطول المخطط أربعة وعشرين قدماً، وقد صنع من سبع عشرة قطعة من جلد الماعز، بارتفاع عشرة إنشات، وكانت مخاطة مع بعضها، وقد لفت المخطوطة من اليمين إلى اليسار، ويحتاج الإنسان لأن يضعها فوق منضدة أو منصة، حتى يمكن إمساكها بثبات، وفتحها وبسطها أو قراءتها، ويعد ما بات يعرف باسم المخطوط الكبير لإشعيا، بعد المناقشة الاكتشاف الأعظم تميزاً في تاريخ المكتشفات الأثرية التوراتية، وعندما تم العثور عليه، وجد كل واحد بما في ذلك العلماء من الصعب تصديق أنه يمكن أن يكون بهذا القدم، فقبل اكتشاف مخطوطات البحر الميت، كانت أقدم النسخ من التوراة العبرية ترقى بتاريخها إلى القرن التاسع الميلادي.

وكم تكلم يسوع، وكم أصغى في اجتماعات البالغين المترعرعين هذه؟ ليس لدينا طريقة لأن نعرف، ولكن لابد أنه قد بدأ منذ الصغر باستيعاب الأفكار المتنوعة، والآراء والمواقف المتصارعة التي جرى التعبير عنها، وإذا حكمنا من

خلال الروايات الشفوية اليهودية، التي جرى تدوينها أخيراً في المشنا، وكذلك من نصوص مخطوطات البحر الميت، ومن أدلة موجودة في الأناجيل، كانت سلسلة الموضوعات بلا نهاية[2] مثل: ما هي النشاطات المحظورة وما هي النشاطات المسموحة في يوم السبت؟ وهل ينبغي أن يدفع الإنسان الضرائب؟ وكيف ينبغي التحكم بالتقويم اليهودي، وفقاً لدورات القمر، أو الشمس، أو كلاهما؟ وإلى من ينبغي أن تدفع العشور؟ وهل لن يبعث أحداً، أو سوف يبعث بعض الموتى، أم كلهم في نهاية الحياة؟ ولأي سبب يمكن لإنسان أن يطلق زوجته؟ وكيف كان يمكن تنفيذ طقوس التطهير، وما الذي كان مطلوباً من أجل التطهير؟ ومتى وكيف سوف يظهر الأشخاص المتنوعون الذين كل واحد منهم هو مسيح؟ وهل كان الزواج من ابنة الأخ أو الأخت مسموحاً؟ وأي تعامل يمكن للإنسان أن يتعامله مع من ليس يهوديا؟ وهل كان مسموحاً أخذ الفائدة على القروض؟ وهل مملكة الرب سوف تتجلى بذاتها بشكل حرفي على الأرض، أو أن ذلك سيكون فقط بعد الموت في العالم السماوي؟ وهل ستعود أسباط بني إسرائيل المتشتتة أو الضائعة إلى البلاد في أيام المسيح؟ وكان بعد ذلك حكايات، وهي الحكايات التي بلا نهاية حول إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، وموسى، والملك داود، وجميع الأنبياء، والتي حكيت ثم أعيدت حكايتها، من الكتابات المقدسة، والأساطير من أجل التسلية، والتذكير، والتثقيف.

ويمكننا أن نحكم من خلال مصادرنا أنه كانت هنالك معالجة نظامية لهذه الموضوعات ولمئات من الموضوعات الأخرى المتعلقة بقلب عقائد اليهودية، وكان ما اتسمت به الحياة اليهودية، حتى الحياة الفلاحية اليهودية، هو استمرار هذه الأبحاث التي لا نهاية لها، والمناقشات حول معاني وحول تطبيقات القصص، والوصايا، وتعاليم التوراة، والأنبياء، ويمكن للإنسان أن يفترض مستوى من الاهتمامات الأدبية والثقافية، ربما لم تكن موجودة بصورة اعتيادية بين الطبقات

الدنيا والفقراء، فلقد كانوا أهل «الكتاب» وكما توجب على الرومان أن يعرفوا، قد جعلهم هذا يختلفون عن أي شعب آخر، امتلكوا سلطة عليه.

ومن الممكن جمع اليهودية ووضعها تحت أربعة عناوين هي: الرب، والتوراة، والأرض، والشعب المختار، ولا بد أن يسوع اليهودي قد متن إيمانه برب خالق واحد هو يهوه، الذي هو فوق جميع الأرباب أو الكائنات الروحانية، والإيمان بالوحي الرباني للتوراة، وأنها دليل للحياة الاجتماعية، والأخلاقية، والدينية، وكذلك بقداسة أرض إسرائيل، وأنها امتياز دائم منذ الولادة إلى الأمة، وبفكرة أن شعب إسرائيل، هو ذرية إبراهيم، وإسحاق ويعقوب، وأن هذا الشعب قد اختير من قبل الرب لتنوير جميع الأمم، وكانت المهمة التاريخية لهذا الشعب هي جذب البشرية، إلى الرب الواحد، وإلى توراته التي أوحى بها، وبحكم أن يسوع كان يهودياً، فقد ختن في المعبد اليهودي في القدس، في اليوم الثامن لميلاده، وكان يرعى يوم السبت على أنه يوم الراحة الأسبوعي، وقد تجنب أكل بعض الأنواع المحظورة من الحيوانات، أو استهلاك الدم، وقد احتفل بأعياد الحج المطلوبة، ومارس الطهارة الطقوسية حسبما هي الأوامر في التوراة، وكيهودي ارتدى يسوع على رأسه قلنسوة لها حواف «Tzitzit» وذلك فوق ردائه الخارجي، فذلك كان يشير إلى الالتزام الحرفي بالوصايا Mitzvoth التي وردت في التوراة، أو الشريعة اليهودية[3]، وفي هذا المعنى لم يكن «متحرراً» فيما يتعلق بالتمسك اليهودي وفق أي معنى حديث للاصطلاح، والذي لم يقبله كما سوف نرى بعض التقاليد المروية شفوياً والتفاسير التي أضافها بعض المعلمين الحاخاميين إلى الوصايا التوراتية.

وكان هناك منطق في القول بأن اليهودية كانت منغلقة وعالمية أيضاً، وكانت «علامات» أن تكون يهودياً من رؤيتها في «الفصل» الاجتماعي، وكانت معروفة بشكل جيد في المجتمع الروماني، فنحن نجد كتاباً روماناً هاجموا اليهود، ونظروا

إليهم نظرة ازدراء، ولكن كان هناك كتاب قد أعجبوا بهم، لا بل إنهم تبنوا بعض طرائقهم[4]، وهناك أدلة كبيرة على أن أعداداً كبيرة من غير اليهود قد انجذبوا إلى اليهودية، حتى أنهم كانوا يحضرون إلى الكنس في جميع أرجاء العالم الروماني، وكان أن يفعل الإنسان ذلك، لم يكن يتطلب التحول الرسمي، وأن يصبح يهودياً، مع أن ذلك كان من الممكن فعله، فقد عدّ غير اليهود الذين تحولوا من عبادة الأصنام إلى عبادة «الرب الحقيقي والحي» والتزموا بتطبيق المحرمات ضد السرقة، والقتل، والاتصالات الجنسية اللا أخلاقية، «غير يهود مستقيمين» أو «يخافون الرب»، واختلفت مجموعات يهودية بشكل كبير في ميولها نحو غير اليهود، وتسلسلوا من الانغلاق والعزلة، إلى الترحيب و التكيف.

وأعتقد من المعقول الافتراض أنه كان في قرية الناصرة الصغيرة، عدد صغير من السكان غير اليهود، مع أنه كان في الصفورية القريبة يمكن للإنسان أن يلتقي يومياً بكثير من غير اليهود، ويظهر أن يسوع كان متكيفاً نحو الغرباء وغير اليهود، ويمكن للإنسان أن يفترض أن هذا جاء من خبرة نشأته، فهو في ميوله لم يكن إقليمياً ولا انعزالياً، وهو كما يظهر كان يمقت المؤسسة الرومانية، ويهودها المتعاونين معها، وكان بالوقت نفسه يرحب بالأفراد الذين حكم بأنهم جديرون روحياً، وإذا كان والده العضوي رومانياً، أو أصبح رومانياً، فهذا قد يزيد من إيضاح انفتاحه.

وإذا صح حقيقة وكانت الناصرة قرية حصلت على اسمها، لتمركز عشائر أو أسر كان بإمكانها الادعاء بالانحدار من الذرية الملكية للملك داود، يحق للإنسان أن يتساءل ما الذي يمكن استنتاجه حول نشوء يسوع هناك، فعندما عاد إلى منزله وهو بالغ، وبعدما حقق الحصول على بعض الاحترام من خلال أعماله في التبشير والوعظ وشفاء المرضى، سخر كما يظهر سكان البلدة بشكل عام تجاه فكرة أن يسوع امتلك دوراً نبوياً ما، ويمكن لعبارته المشهورة: «الأنبياء لا يشرفون

في أوطانهم، وبين بني جلدتهم، وفي بيوتهم»، أن تشير تماماً إلى بعض العزلة الاجتماعية التي عانى منها، حتى أثناء نشأته وترعرعه، ويظهر أن نسبه الداودي المشرف، قد استخف به وازدري بسبب أمه من قبل السكان المحليين، الذين عرفوا الحكايات حول ولادتها غير الشرعية، مع افتقاره إلى مكانة اقتصادية لأنه كان عاملاً مياوماً، ويظهر أن يسوع قد انشد داخل بيته ودفع إلى ردات فعل شكوكية، عندما بات يعتقد أنه اختير من قبل الرب، ليكون مصيره تسلم عرش إسرائيل، وكان النسب الداودي شيئاً، ولكن كان الشروع بتطبيق برنامج محدد شيئاً آخر تماماً، حيث كان من بعض الجوانب برنامجاً جنونياً، مثلما كان خطيراً.

وبعد هذه الملاحظات العامة فيما يتعلق بالحياة القروية في بلدة مثل الناصرة، هل هناك أي شيء آخر يمكننا أن نقوله في محاولتنا توجيه سؤال حول: من أي نوع من اليهود كان يسوع؟ وهل كان عضواً نظامياً في أي من الجماعات اليهودية لأيامه؟

وكر يسوع

أخبرنا يوسيفيوس شاهدنا اليهودي المعاصر للقرن الأول أنه كانت هنالك ثلاث فرق يهودية رئيسة أو «فلسفات» هم: الفريسيون، والصدوقيون، والإيسينيون[5]، وأوضح في إحدى المرات أنه كانت هنالك «فلسفة رابعة»، تأسست من قبل يهوذا الجليلي، الذي اتبعه الذين عرفوا باسم القنائيين «الزيلوت»، غير أنه قال بأنه بالنسبة لآرائهم الدينية كانوا أكثر شبهاً بالفريسيين، وقد كتب بأنه كان ينتمي إلى الفريسيين، مع أنه لربما أمضى وقتاً من سنين شبابه مع الإسينيين.

وكان يوسيفيوس قد كتب إلى جمهور روماني مصقول، وكان يريد أن يقدم أبناء بلاده في أفضل صورة ممكنة، فعندما تفجرت الثورة اليهودية الكبيرة ضد الرومان في العام 66 م كان يوسيفيوس في حوالي الثلاثين من عمره، وقد خدم

كقائد عسكر للقوات اليهودية في الجليل، ثم إنه ما لبث أن أدرك انعدام الأمل في الصراع، واستسلم إلى الرومان، واتخذه القائد الروماني فسبسيان وابنه تيتوس، الذي كان يقود الحملة في فلسطين، صديقاً له، وقد أصبح فسبسيان إمبراطوراً في العام 069 م، وانتهى الأمر بيوسيفيوس بالعيش في روما، وأصبح مواطناً رومانياً، وتسلم عطاءً امبراطورياً، وكتب مذكراته في القصر الرسمي لفسبسيان، وفي ذلك الوقت كانت القدس مدمرة، والقوات اليهودية قد أبيدت تماماً، وقد أراد يوسيفيوس إعادة الاعتبار لسمعة شعبه، فقدم اليهود على أنهم أمة قديمة مع تقاليد مشرفة وشرائع، ووجه الملامة إلى الثورة لأنها ضُللت بالتعصب الشديد، والتحاسد المسعور والبغيض بين أقلية من الناس، وعندما وصف الفرق الدينية اليهودية الأربع، سماهم عن قصد «فلسفات»، وأراد يوسيفيوس أن يقول بأن فرقه اليهودية، لهم قرابة وشيجة مع «المدارس» الفلسفية للعالم الإغريقي، سواء الأفلاطونية، أو الرواقية، أو الفيثاغورثية، أو الأبيقورية، وكان الانطباع الذي أراد يوسيفيوس تقديمه هو أن الشعب اليهودي، كان بعيداً عن التخلف، أو هو عنصر متمرد في المجتمع الروماني، بل كان جنساً قديماً مع تقاليد مبجلة، ومدارس محترمة للتفكير الديني، لابل إنه وصف عقائد الفرق الأساسية الثلاث بما يجعل قارئه المثقف يعادل الصدوقيين بالأبيقوريين، والفريسيين بالرواقيين، والإبسينيين بالأفلاطونيين، أو ربما بالفيثاغورثيين، ومع تقديرنا لغاياته الدفاعية الكلامية يتوجب التعامل مع ما قاله بحذر شديد.

ووصف باختصار الفريسيين والصدوقيين بأسطر قليلة، وركز بشكل أساسي على آرائهم حول «المصير» وحول «حياة الآخرة»، وقد قال بأن الفريسيين قد أكدوا على أن الرب مشرف على جميع الأشياء، وأنهم آمنوا بحياة بعد الموت، وبقضاء سرمدي على النفوس المغادرة، وقد أنكر الصدوقيون من جهة أخرى «حياة الآخرة» وأكدوا كل التأكيد على الحياة في هذا العالم، وهم لم يؤمنوا بأن الرب

مشرف على كل شيء بل آمنوا بأن البشر يمتلكون حرية الاختيار، إما أن يختاروا الخير أو الشر، وأن المكافأة تأتي تبعاً لـذلك، وادعى يوسيفيوس بـأن الفريسيين كانوا أكثر شعبية بين الناس، وأنهم كانوا مندمجين داخـل الجماعـات المحليـة، بيـنما كان الصدوقيون نخبة وأرستقراطيين.

ويتواءم الوصف الأساسي ليوسيفيوس مع ما نعرفه من العهد الجديد، ومن المصادر اليهودية المتأخرة، فقد جاء الصدوقيين بشكل رئيس من طبقـات الكهنـة، فالكاهن الأعلى الذي كانت تجري المصادقة على تعيينه الهيئة الرومانيـة الـسياسية، كان يجري اختياره من بين صفوفهم، وبنـاء عليـه مـارس الـصدوقيون الإشراف الأساسي على معبد القدس، الذي كان مركز استقطاب اليهوديـة في العـالم أجمع، وامتلكوا السلطة على السنهدرين – مجلس شيوخ اليهود – الذي سمح له الرومان ببعض السلطات المحدودة بالحكم، ومال التفسير الـصدوقي للـشريعة اليهوديـة نحو الدقة والتشدد أكثر من الفريسيين، وركزوا على «هذا العالم» أكثر من تركيزهم على «العـالم الـذي سـيأتي»، وقـدموا شـكوكهم حـول مواضـيع مرتبطـة بالعـالم بالسماوي سواء: الملائكة، أو الشياطين، أو القيامة من الموت، أو الحوادث المتعلقـة بنهاية الحياة، وقام الفريسيون من جانب آخر بالانشغال كثـيراً في توقعـات حـول مثل هذه القضايا، وجاء تفسيرهم للـشريعة اليهوديـة أكثـر تحـرراً، ومتكيفـاً مـع التغيير، ومع أنه كان هناك جناح أكثر تشدداً ومحافظة بين الفريسيين، قاده في القرن الأول الحاخام شماي Shammai، كان منافسه الحاخام هيليـل، قـد امتلـك كـما يظهر نفوذاً أكبر، ومن الشائع التفكير حول يسوع على أنه كان العدو الأكثر مرارة لجميع الفريسيين، عندما نجد في الحقيقة أن كثيراً من آرائه حول الشريعة اليهوديـة قد عكست المواقف الأكثر مواءمة وتكيفاً للحاخام هيليل، فقد أكد هيليل ويسوع «على حب الجار»، كما جاء منقولاً بشكل رئـيس «للقـانون الـذهبي»، الـذي هـو تلخيص مركّز للتـوراة وأسـفار الأنبيـاء، ولكـن في النهايـة كـان تحـالف الكهنـة

الصدوقيين ومؤيديهم بين الفريسيين هو الذي سلم يسوع إلى الحاكم الروماني بونطيوس فيلاطس، ومقابل عرض يوسيفيوس المختصر حول الفريسيين والصدوقيين، أوقف صفحات كثيرة لتقديم وصف مفصل ومحكم حول الإيسينيين، الذين من الواضح أنه كان متعاطفاً معهم، ويظهر أنه قام على كل حال عن قصد بترك كل شيء تعلق بتوقعاتهم التنبؤية المتطرفة، التي كانت بالتأكيد لن تحظى بالإعجاب من قبل الرومان، بعد الثورة اليهودية، وكما كنا قد رأينا من قبل، كان الإيسينيون الذين كتبوا مخطوطات البحر الميت يتوقعون نهاية العالم، وكانوا ينتظرون مجيء مسيحيين اثنين: مسيح كاهن، وملك داودي، وكانوا ضد الرومان بشدة وحدّة، وقد هجروا المؤسسة اليهودية في القدس، حيث كان الفريسيون والصدوقيون قد أخذوا بمنطق التسويات بشكل لا أمل فيه، وفسدوا، وأطلق الإيسينيون على أنفسهم اسم شعب «الميثاق الجديد»، وكانوا يؤمنون بأنهم كانوا يمثلون إسرائيل طاهرة جديدة، عند نهاية الدنيا، وكانوا يمارسون حياة جماعية، ويبدأون بطقوس فيها اغتسال أو تعميد، ووجبات مقدسة، ومن الغريب أن الإيسنيين لم يرد ذكرهم في العهد الجديد أبداً، في حين ظهر الفريسيون والصديقيون بشكل متواصل في معارضة يسوع، وتشارك يسوع ببعض العقائد المهمة والممارسات مع الإيسينيين، ولكن استناداً إلى مخطوطات البحر الميت، لا بد وأنه كان سيُدان كلياً وسيُزدرى من قبل قلب قيادتهم من أجل ميوله المنفتحة نحو غير اليهود، ونحو النساء، ولموقفه من مسألة مراعاة السبت والطهارة الطقوسية، التي كانت أقل تشدداً بشكل كبير من مواقفهم، ولكن الذي ينبغي ألا نفترضه، هو أن يكون جميع الإيسينيين، أو حتى الذين كانوا أقل التزاماً بطرائقهم في التفكير، كانوا يشاركونهم في تفسيرهم القاسي للشريعة اليهودية.

وكانت يهودية فلسطين الرومانية للقرن الأول متباينة وممزقة بشكل غير معقول، والمشكلة مع تقسيمات يوسيفيوس هي أنها تعطي الإنسان الانطباع

بأن معظم اليهود كانوا بشكل ما منتسبين بشكل رسمي إلى واحدة من هذه المجموعات الأساسية، ومن السهل بالنسبة إلينا أن نظن أنهم قريبون من المسميات الدينية الحديثة، مثل المعمدانيين، أو الكاثوليكيين، أو الإصلاحيين اليهود، فنحن نعرف أن الحال لم يكن هكذا أبداً، ويختلف تقدير عدد السكان اليهود في فلسطين، اختلافاً كبيراً بين الخبراء، لكنهم تراوحوا ما بين المليون والثلاثة ملايين، وأخبرنا يوسيفيوس أنه كان هناك ستة آلاف فريسي فقط وثلاثة آلاف إيسيني، وأوصل فيلون، الذي كان كاتباً يهودياً آخر من القرن الأول، عدد الإيسينيين إلى أربعة آلاف، وقد مثلوا مجموعات عريضة من التفكير الديني أو الفلسفي وأنه فقط حفنة من النخبة أو المتعلمين، يمكن عدهم منتسبين رسميين، وامتلكت كل مجموعة حسبما هو متوقع واستحوذت على تاريخ معقد، وطيف واسع من الآراء، من التحرر إلى المحافظة، ومع ذلك حاول كثيرون أن يضعوا يسوع في واحدة أو أخرى من هذه المدارس اليهودية، لكن هذا التصنيف والتوزيع موضع تساؤل، فلقد نشأ يسوع وترعرع وهو على معرفة بكل واحدة من هذه المدارس، ومن المستبعد أن يكون عدد كبير من الصدوقيين قد عاشوا في الناصرة، لكن من المحتمل أنه كان في ذلك الجوار كل من الفريسيين والإيسينيين، فقد قال يوسيفيوس بأن الإيسينيين قد استقروا في كل بلدة، وأن الفريسيين كانوا الأكثر نفوذاً بين السكان المحليين، وتشير الأناجيل كما هو ظاهر إلى أن الفريسيين قد عاشوا محلياً في الجليل، وكانوا موزعين، وغالباً ما كانت هنالك مواجهات بينهم وبين يسوع.

وأخيراً امتلكت الحركة التي شكلها يسوع عامل جذب بالنسبة إلى الذين ارتبطوا مع أي واحدة من هذه الفلسفات اليهودية، فقد كان الأخ الأصغر ليسوع يعرف باسم شمعون القنائي، وقد أصبح عضواً في المجلس الداخلي للرسل الاثني عشر، وفي النهاية صلب الرومان يسوع من أجل العصيان، حين ادعى أنه الملك

الشرعي لليهود، وهو بهذه الوضعية قد انتمى إلى طبقة من أنماط القنائيين، شروعاً من يهوذا الجليلي إلى ابن كوكب، الذي كان «المسيح» الأخير الذي قمعه الرومان في العام 135 م، وامتلك يسوع حصة من التعاطف، حتى بين الفريسيين، وفي الحقيقة كان اثنان من أعضاء المجلس قد امتلكا ما يكفي من نفوذ وتأثير على بونطيوس فيلاطس الحاكم اليهودي لليهودية، إلى حد أن جسد يسوع قد أعطي إليهما للاعتناء بدفنه، وأخيراً وتحت حكم الأسرة الحاكمة لجيمس أخي يسوع، الذي كان في الثالثة والثلاثين من عمره، باتت أعداد كبيرة من الفريسيين مرتبطة بالانتماء إلى الحركة التي افتتحها يوحنا المعمدان ويسوع[6]، ولقد كان هناك في الحقيقة في الناصرة «مسيحيون فريسيون»، وهذا قد يكون وقعه مدهشاً بالنسبة للآذان المعاصرة، خاصة إذا عرفنا أنه كان هناك الكثيرون منهم، ونعرف أيضاً من لوقا بأن «أعداداً كبيرة» من الكهنة الصدوقيين في القدس، قد أصبحوا جزءاً من الحركة، وذلك على الرغم من أن يسوع كان لديه القليل مما شارك به الصدوقيين [أعمال: 6/ 7]، وكان جيمس أخو يسوع قد بدأ بإذنهم وتأييدهم ببعض النشاطات المسائحية الكهنوتية، ومع أن الإيسينيين قد امتلكوا تفسيراً أكثر شدة للتوراة من تفسير يسوع، لا بد بكل تأكيد أنه كان هناك من ارتبط بالإشارة التنبؤية التي بدأ كل من يوحنا المعمدان ويسوع بإشعالها في كل المنطقة.

ووفق الاصطلاحات العامة، من الممكن تشخيص يسوع والتعريف به، مع ما يمكن وصفه بالحركة المسائحية في فلسطين القرن الأول، فقد كانت تنبؤية رؤية بشكل مكثف، ومع أنها تشاركت ببعض الأفكار مع الإيسينيين، امتلكت قبولاً أوسع وجذباً إلى المراتب العليا والدنيا بين اليهود، وذلك بالنسبة إلى جميع قوى الإقناع، التي اتحدت في آمالها بالحصول على الخلاص الرباني، وعندما نمسك بالتاريخ وبقلب القيم والعالم الميثولوجي لهذه الحركة سوف نكون قادرين على وضع يسوع بشكل موائم داخل الانقسامات التي لا يمكن تصديقها في قدس

فلسطين القرن الأول، فلقد كان هناك يهود معظمهم داخل الوطن يعيشون بشكل واقعي في عالمهم السياسي والاجتماعي، وكانوا قابلين بالأمر الواقع، حتى وأن أُملي من قبل روما، وكانوا يصنعون الأفضل من هذا الواقع، ولكن كان هناك آخرون سواء: الفريسيون أو الصديقيون، أو الإيسينيون، أو الذين كانوا غير منتمين على الإطلاق، الذين توقعوا تغييراً كبيراً مؤسساً على النبوءات والتوقعات المسائحية للأنبياء العبرانيين، وما كان مهماً ليس كثرة العناوين، بل رؤية ما حقيقية، هي الإيمان بأن الرب سوف يتدخل من أجل تحقيق هذه التوقعات المسائحية، ولم يكن يسوع هو الذي وضع أصول هذه الحركة، فهي في الحقيقة كانت قد بدأت تأخذ شكلها قبل مائتي عام حتى من قبل ميلاده، ولكن كان يسوع، وقريبه يوحنا المعمدان، وأخوه جيمس هم الذين أعطوها شكلها المحدد، الذي غير مسيرة التاريخ، وكان يسوع قد قام في إحدى المراحل، قبل أن يبلغ الثلاثين من عمره في صياغة خطته، وكانت هنالك محطات بلا شك على طوال الطريق، ولكن في خريف العام 26م كان يسوع جاهزاً للخروج العلني، وبذلك بدأت أسرة يسوع الحاكمة بالظهور.

القسم الثالث

انبعاث كبير واحتشاد عاصفة



الفصل الثامن

سماع الصوت

في وقت ما في ربيع أو أوائل صيف عام 26 م، استجاب يوحنا المعمدان إلى «الصوت»، وكان قد دخل للتو في الثلاثين من عمره[1]، وقد كان راهباً منحدراً من هرون أخي موسى من سبط لاوي، ووفقاً للتوراة كان على الكهنة الخدمة في المعبد من سن الثلاثين إلى سن الخمسين [العدد: 4/ 3]، ولم تكن هناك دعوة أكثر تشريفاً بالنسبة لإسرائيلي، وأدار يوحنا ظهره إلى هذا كله، ولم يكن بقدر ما نعرف مثل أبيه زكريا، فهو لم يخدم ولا يوماً واحداً في المعبد، وعوضاً عن ذلك، انسحب وهو في الثلاثين من عمره إلى الصحراء الأردنية، إلى الشرق من القدس، إلى منطقة كان نهر الأردن يصب فيها في البحر الميت.

وكان يوحنا مأسوراً من قبل نص من النبي إشعيا هو صوت صارخ «أعدوا طريق يهوه في الصحراء» [إشعيا: 40/ 3]، وترافق هذا مع نص آخر، فقد كتب النبي العبري الأخير ملاخي يقول: «أنا مرسل رسولي لإعداد الطريق أمامي» [ملاخي: 3/ 1]، وكان يوحنا قد بدأ في إحدى نقاط حياته يفهم دوره، على أنه ذلك الرسول، يعني الرسول الذي سوف يستجيب إلى «الصوت»، وحرفيا يخرج إلى الصحراء الأردنية «لإعداد الطريق»، وفي الحقيقة كانت إحدى الكلمات العبرية التي استخدمها إشعيا لـ «صحراء» كانت كلمة «عربة» Aravah، هو اصطلاح

جغرافي ما يزال يستخدم في إسرائيل حتى اليوم من أجل المنطقة المجاورة للبحر الميت، في وادي الأردن، وكانت هذه أرض محطة من أجل النبوءة، ومركز يوحنا نفسه قصد في تلك المنطقة تحديداً حتى يفتتح ما اعتقده بأنهما كانا الدور والواجب اللذين أرسلهما ربه للقيام بهما.

وقرأ المسيحيون المتأخرون هذا النص: «أعدوا الطريق من أجل المسيح» ولكن النصوص لا تقول شيئاً حول مسيح، وفهم يوحنا، مثله مثل اليهود الآخرين لأيامه، هذه الدعوة بأنها كانت لإعداد شعب إسرائيل، بتحويلهم عن ذنوبهم نحو الطريق المستقيم للرب، وقد أشار الأتباع الأوائل لكل من يوحنا ويسوع، إلى أنفسهم باسم «شعب الطريق» وكان هذا حتى قبل استخدام اصطلاحي «ناذريين» أو «مسيحيين»[2].

وأعلن يوحنا إلى الحشود التي جاءت للاستماع إليه بأن «الفأس كان حتى الآن عند جذر الشجرة»، مما يفيد قرب إنزال قضاء الرب المتنبأ به على جميع غير المستقيمين من أعلى مستويات المجتمع إلى أدناها، ووعظ بوجوب أن يتوب الناس من ذنوبهم، وأن «يتعمدوا» أو يغتسلوا بالماء، من أجل محو ذنوبهم، ففي هذه الاستجابة سوف يصبحون «شعب الطريق».

ولدى يوسيفيوس معالجة قصيرة، ولكن مهمة لـ«يوحنا الذي لقبه المعمدان»[3]، فقد كتب بأن يوحنا حث الناس على سلوك حياة مستقيمة، وأن يمارسوا العدل نحو الرجال من أتباعهم، وأن يكونوا أتقياء لله، ملحاً على ذلك بالاغتسال أو التعمد بالماء، وقد قال بأن الحشود كانت في غاية السرور» لدى ظهور يوحنا، وأن تأثيره على الناس وصل إلى حد أن مجموعات هائلة من الحشود كان قد جذبها، بدأت تتطلع إليه للقيادة، وأن تلك الحشود كانت جاهزة إن فعل أي شيء يقوله.

ولم يكن يوحنا الأول في سماع هذا الصوت، والاستجابة له وفق هذه الطريقة، فقبل مائة سنة مضت، قرأ اليهود الذين عرفوا باسم الايسينيين تلك العبارة نفسها في أشعيا، وانتقلوا حرفياً للعيش قرب البحر الميت، في مستوطنة صغيرة، عرفت باسم قمران، حيث كتبوا مخطوطات البحر الميت، فقد كتبوا في وثيقتهم التي تمّ العثور عليها، والتي عرفت باسم «قانون الجماعة» وسجلوا بأنهم «انفصلوا عن مساكنة الناس غير العادلين، وذهبوا إلى الصحراء ليعدوا هناك الطريق من أجلهن وذلك حسبما كتب «أعدوا في البراري الطريق»، وعلاوة على ذلك أعلنوا: «إن هذا هو الوقت من أجل إعداد الطريق في البراري»(4)، كما أنهم أشاروا إلى أنفسهم بمثابة «شعب الطريق» وفي العام 26م، عندما بدأ يوحنا دعوته العامة، كانت مستوطنة الإيسينيين هذه ما تزال مزدهرة، ومن المحتمل كثيراً أن يكون يوحنا قد أمضى بعض الوقت معهم، حيث هناك الكثير من الأشياء المشتركة فيما بين يوحنا والإيسينيين، ولكن كان هناك فارقاً بين حركتهم، والحركة التي استهدف يوحنا افتتاحها، فهم نظروا إلى أنفسهم على أنهم جماعة منعزلة، سوف تتوصل إلى الاستقامة والعدل، بوساطة الانفصال الكامل والعزلة عن المجتمع، وبالمقابل، وبدلاً عن الانفصال عن المجتمع، خاطب يوحنا شعب بني إسرائيل كله بصوت مرتفع ودعاه من أجل التوبة، مع إنذار تنبؤي حول وشوك وقوع حكم الرب، وقد بدأ ينظر إلى نفسه في دور إيليا النبي القديم، الذي انتقد حتى ملك وملكة إسرائيل آخاب وايزابل في وجهيهما.

وأصبح هيرود أنتيباس مرعوباً تماماً، من إمكانات الثورة القوية التي مثلها يوحنا، ومن الصعب المغالاة في تقدير الضغط الكبير والفعال الذي أحدثه يوحنا في وعظه، وفي البداية هو مركز نفسه في الجنوب في براري اليهودية، على امتداد نهر الأردن، إلى الشمال من البحر الميت، وأخبرنا مرقص بأن جميع شعب اليهودية وشعب القدس تدفقوا على الصحراء لسماع وعظه،

وأخبرنا يوسيفيوس بأنه كان شعبياً، وجريئاً، وفصيحاً، فهذا ما كان كثيرون ينتظرونه، فلقد كانت رسالة يوحنا رسالة متطرفة، مثلها مثل رسائل الآخرين الذين استهدفوا إلهاب روح الثورة بين السكان اليهود، ولكن كان هناك شيء مختلف حوله، شيء مضى أبعد من السياسة، فقد امتلك يوحنا مظهر نبي توراتي قديم مع نمطه، وانشحنت الجماهير تجاه فكرة: هل قام الرب أخيراً بإرسال رسول حقيقي، سوف يفتتح عصراً جديداً من عصور مملكة إسرائيل؟

ومع عبور الصيف، ووصول الخريف، انتقل يوحنا شمالاً، على محاذاة نهر الأردن، وركز أخيراً نفسه إلى الجنوب من بحر الجليل، في مكان كان يدعى عين نوب، قرب مستوطنة ساليم، ونحن نجد قطعة المعلومات المهمة هذه في إنجيل يوحنا فقط، يوحنا الذي غالباً ما سجل تفاصيل لها قيمة تاريخية وجغرافية، أصبحت القطع المفقودة الحيوية بالنسبة لقصتنا(5)، وكان الموقع مكاناً استراتيجياً لسببين، كان السبب الأول هو أن هذه المنطقة كانت لها علاقة بالنبي إيليا، تشبي Tishbe، مكان ميلاد إيليا، قد وقعت على بعد أميال قليلة عبر نهر الأردن إلى الشرق، على طول جدول كريث، ففي وادي كريث المشهور هذا «يدعى الآن وادي اليابس» اختبأ إيليا من أخاب وايزابل، حيث أطعم من قبل الغربان، ومثل هذا كانت مهمة البقعة التي اختارها يوحنا، لأنها وقعت عند نقطة لقاء وادي زرعين ونهر الأردن، فقد كان هذا هو الطريق الذي استخدمته بلاد الجليل كلها، في السفر جنوباً إلى اليهودية من أجل الاحتفال بأعياد الخريف وهي: رأس السنة، ويوم التكفير، وعيد سكوث sukkoth أو خيمة العهد، وبالتحديد وقف يوحنا على مفرق طرقات الازدهار الوطني.

وعندما كان يسوع في حوالي عيد ميلاده الثلاثين التحق بالحشود التي كانت تتدفق لسماع يوحنا، فهو قد سافر من الناصرة نزولاً إلى الأردن، على طول هذا الطريق نفسه، حتى يجري تعميده في نهر الأردن [مرقص: 1/ 19]ن وكان بمثل

هذه الاستجابة قد التحق بشكل معلن بحركة الانبعاث التي أضاء يوحنا شعلتها، وصادق عليها، وعندما كان هو خارجاً من الماء سمع أيضاً الصوت، الصوت أيضاً من إشعيا، لكن بنص مختلف حول شخصية مختلفة، فنص إشعيا كان: «هو ذا عبدي الذي أعضده، مختاري الذي سرّت به نفسي» [إشعيا:42/ 1]، وقد بدل «متى» هذا «الصوت» فجعله إعلاناً عاماً من السماء فصار «هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت»، في حين نجد مرقص، الذي احتفظ برواية أبكر، وأكثر أصالة، قد عرف بأن هذا الصوت قد سمع يسوع، وليس أحداً من الحشود [متى: 3/ 17، مرقص:1/ 11]، ومن المهم أن الرواية السريانية القديمة ما تزال محتفظة بالقراءة الأصيلة: «أنت ابني، الذي أحب، وفيه أنا سررت»، وهذا فحص إضافي لأصالة مرقص[6]، ونحن لا يمكننا أن نكون متأكدين حول الطبيعة الدقيقة لنص الوحي هذا، وفيما إذا كان شيئاً جاء فجأة ليسوع في تلك اللحظة، أو كان شيئاً كان قد أعد نفسه له منذ وقت طويل، والذي يمكننا قوله هو أنه منذ وقت تعميد يسوع، صار هو مستعداً لأن يحتل مكانه المقدر له مع يوحنا كشريك كامل في حركة التعميد، وقد استعدا معاً لمواجهة الذي كان موجوداً أمامهما في الدورين النبويين، اللذين آمن كل واحد منهما أنهما إليهما قد دعيا.

سنوات يوحنا الضائعة

لم يكن يوحنا غريباً على حياة العزلة، فهو كان قد ولد في السنة الخامسة الميلادية في قرية عين كارم الصغيرة، على بعد أميال قليلة إلى الغرب من القدس، وقدم لوقا جملة واحدة أجمل فيها السنوات الثلاثين الأولى من حياة يوحنا حيث قال: «أما الصبي فكان ينمو ويتقوى بالروح، وكان في البراري إلى يوم ظهوره لإسرائيل»، [لوقا: 1/ 80]، وأشار لوقا إلى هذه المنطقة على أنها «المنطقة الهضبية» لليهودية، فقد كانت وعرة، وجبلية، ومنعزلة مع قرى متفرقة، وأراض مقفرة،

حتى في هذه الأيام إن السواقة في غربي القدس على الطرق الحديثة ذات المنعطفات يمكن أن تجعل الإنسان مصاباً بالدوار.

وكما كنت قد ذكرت في المدخل، اكتشف في كانون أول للعام 1999 الآثاري شمعون جبسون كهفاً على أميال قليلة إلى الغرب من عين كارم، في مكان اسمه صوبا، فيه صوراً بدائية ليوحنا المعمدان محفورة على جدرانه[7]، ولقد تبين أنه كان صهريجاً مجصصاً ضخماً جداً للماء، وأنه قد قطع في الصخر في أيام إشعيا [القرن الثامن قبل الميلاد]، وطول هذا الكهف سبعة وثمانون قدماً، وعرضه ثلاثون قدماً، وعمقه ستة عشر قدما، مع ممر، واثنتي عشرة درجة من الجص تقود إلى داخله، وعندما اكتشف كان مملوءاً تقريباً بالتراب والصخور، ولذلك توجب على الإنسان أن يزحف على يديه وركبتيه حتى يستطيع أن يتحرك في الداخل، وكانت الدرجات مختفية تماماً، وكانت الرسوم قرب السقف على جانبي الجدارين، مشاهدة تقريباً، فقد كانت مغطاة جزئياً بالركام.

ودعاني جبسون إلى الالتحاق به في أعمال كشف الموقع في آذار العام 2000، وقد احتجنا إلى حوالي الخمسة أعوام حتى أكملنا عملنا الأولي، وكنا نشعر بالإثارة نحو الذي يمكن أن نجده، لأننا علمنا بأن هذه هي المنطقة الصحراوية التي نشأ فيها يوحنا، وبقدر ما يمكننا قوله إن هذه الرسوم هي أقدم الأعمال الفنية المتعلقة بحياته، وتظهر الصورة الأولى شخصاً واقفاً مع يد يمنى مرفوعة بحالة إعلان، وأما اليد اليسرى فكانت حاملة لعصا، وكان مرتديا لثوب من الجلد، وتظهر الثانية رأساً من دون جسد، وتظهر الثالثة طبقاً كبيراً مع سيف عبره، وأخيراً كان هناك ثلاثة صلبان، وقد كنا حتى قبل أعمال الكشف الأثري مقتنعين بأن الحجاج المسيحيين الأوائل قد جاءوا إلى هذا الكهف للتذكر ولإحياء ذكرى حياة وموت يوحنا ويسوع، ويظهر أن الرسوم تدلل على رواية القصة، وما من شيء مثل هذا قد وجد في أي مكان آخر في

العالم، وهذا قد عثر عليه في المنطقة التي نشأ فيها يوحنا.



صورة يوحنا المعمدان محفورة على جدار كهف صوبا

وكنا قد بدأنا بكشف واجهة ثلث الكهف طبقة طبقة، ولدهشتنا بالكامل وجدنا أننا لم نكن نحفر خلال ركام قد تجمع بشكل فوضوي، فملأ المكان، بل خلال طبقات أثرية بنيت بعناية، واحدة بعد الأخرى، وكانت مثل فطيرة مكونة من طبقات، تأخذ الإنسان إلى الخلف إلى العصور الإسلامية، والصليبية، والبيزنطية، والرومانية، وكان ما اكتشفناه أن واجهة هذا الكهف لم تعد قيد الاستخدام لتقديم المياه، في وقت ما في أوائل العصر الروماني «القرن الأول الميلادي»، وقد بنيت الأرضيات خلال قرون، وكان الناس يأتون إلى واجهته الكهف على أرض جافة، لكنهم استخدموا فيها بعد الخلف، المنحدر نحو الأسفل، وما يزال مملوءاً بالماء من ممر في السقف، من أجل الاغتسال الطقوسي، كما هو معتقد، وكانت الطبقات من العصر الروماني هي الأعمق، بلغ عمقها حتى المترين، في حين كانت الطبقات المتأخرة أقل عمقاً نسبياً، ويشير هذا إلى أن النشاط

الأساسي في الكهف، كان مسؤولاً عن بناء هذه الأرضيات، وأن ذلك قد حدث خلال القرنين الأول والثاني للميلاد.

وأنا سوف لن أنسى إثارة اليوم الذي وصلنا فيه إلى طبقات أوائل العصر الروماني، أي حقبة كل من يوحنا ويسوع، وقد وجدنا آلافاً من قطع آنية صغيرة للماء لها أيد، قد تراكمت فوق الأرضيات، وقد جرى تكسيرهم عن قصد، وقد لاحظت أن هذا أمر غريب، وفي الغالب يجد الإنسان في مكان آنية كاملة، أو كاملة جزئياً، ومن الممكن أن ذلك كان بقصد الإخبار، أنه بنوع تكسير تلك الجرار، والطريقة التي كسرت بها، أن ذلك التراكم لم يكن ناتجاً عن تكسير اعتيادي.

وقد وجدنا صخرة محفورة مع سطح مقعر شُكّل بعناية من أجل القدم اليمنى مع حوض صغير وبركة فوقه، ومن الواضح أن ذلك كان من أجل صب سائل ما من أجل دهن القدم، وما من أحد قد عاش في هذا الكهف، حيث ليس هناك دليل على وجود مساحات للطبخ، ولا قطع زيتون، أو عظام، أو فخار من النوع الذي يستخدم في المنازل، فقد كان الناس يأتون إلى هنا، وينفذون طقوساً فيها ما تعلق بصب الماء، ودهن القدم، والاغتسال والتعميد في البركة نحو الخلف، واعتماداً على تاريخ الفخار، فقد كان هذا يحدث في الأعوام الأولى من القرن الميلادي الأول، أما الرسوم فقد عملت فيما بعد، ربما في القرن الخامس للميلاد، فمع ذلك الوقت كان المسيحيون يقومون بالحج إلى الكهف حتى يتذكروا يوحنا، ومع عصر الحروب الصليبية كان الكهف قد نسي، وبدأ الركام المختلف الأنواع بالتجمع.

والسؤال الذي يؤرقنا هو: ما الذي كان يجري في أوائل القرن الأول للميلاد؟ هل يا ترى عثرنا صدفة على «كهف يوحنا المعمدان»؟ فهو قد نشأ في هذه المنطقة، وتجول في هذه التلال المنعزلة والموجودة من حولنا



مشهد معاد تصويره لطقس المسح في كهف صوبا

وكان ذلك بكل دقة في الوقت الذي يتساوق مع دليلنا، وتشير الأدلة كلها إلى طقوس وقداسات تعلقت بالتطهير بالماء، والماء نادر في المنطقة، وهو محصور فقط بالينابيع الطبيعية، وليس هناك لا أنهار ولا بحيرات، وكان من الواضح أن هذا كان أوسع خزان للماء في المنطقة كلها، فهل يا ترى خدم كهف صوبا كمركز طقوسي لجماعات من اليهود، مثل الإيسينيين الذين مارسوا طقوس القبول والتطهير الروحي، الذي تعلق به الغطس بالماء؟..

وكنت مذ اكتشاف هذا الموقع المدهش أتساءل بشكل طبيعي، فيما إذا كان يوحنا المعمدان نفسه قد جاء إلى هذا الكهف، ومن الواضح أن عدم وجود نقوش

كتابية، حيث لم نعثر على أي منها، لن يمكننا من البرهنة على ذلك، فقد نشأ يوحنا وترعرع في هذه المنطقة بالذات، وهو قد عاش حياة عزلة وتنسك في «أماكن منعزلة»، وانتهى يوحنا بافتتاح دعوته العامة لشعب إسرائيل من أجل «التوبة والاغتسال التعميدي» في نهر الأردن، ولكن من المعقول الاعتقاد، أنه خلال سنيه الثلاثين الأولى، وهو يعيش في هذه المنطقة بالذات، قد امتلك تلاميذه ومارس طقوساً، كان فيها التطهر بالماء، فمن غير المعقول أن يكون قد بدأ بعمل حياته كلها من دون خلفية، أو إطار من أي نوع، وقد ذكر يوسيفوس أن الإيسينيين قد مارسوا الاغتسال بالماء على أسس يومية، كما أنهم عمدوا المرشحين بالماء، وذلك للقبول في جماعتهم، وبركهم الجماعية ذوات الأدراج كانت من أهم سمات مستوطنتهم في قمران، وأنا مقتنع بأن صوبا هو أقدم دليل أثري متعلق بيوحنا المعمدان، ومن المحتمل كثيراً متعلق بيسوع نفسه، كما سوف نرى[8].

ولا توجد إشارة إلى أن يوحنا قد تزوج أو مارس حرفة فقد كان «ناذريا» أي «منعزلاً»، أطلق شعره، وترك لحيته تنمو طويلاً، ولم يشرب الخمرة مطلقاً، وارتدى ثوباً خشناً مصنعاً من وبر الجمال مع حزام من الجلد، وتأسس هذا النمط من الحياة على تعاليم التوراة المتعلقة بنذر خاص وتعهد بالانفصال عن المجتمع [العدد: 6]، وغالباً ما تمازج اصطلاح «ناذري» مع كلمة مشابهة هي «ناصرين»، وهاتان الكلمتان مختلفتان بالعبرية مع أنهما متقاربتان بالإنكليزية، فقد أشارت الأولى إلى نذر الانفصال الذي يمكن للإنسان القيام به من أجل غايات روحانية، أما الثانية فتشير إلى بلدة الناصرة، ويعني بلدة «الفرع»، وهو اصطلاح كنا قد رأيناه، وأنه قد أشار إلى النسب الملكي للملك داود، ومبكراً أشير إلى حركة يسوع تحت اسم «الناذرين» التي ترجمت إلى كلمة «مسيحين» ولكن بصورة تقريبية، أو إلى شعب «الفرع»، وجاء الاصطلاح من أشعيا[2]، حيث أشير إلى المسيح الداودي كـ «فرع» من ذرية داود التي ظهرت إلى الوجود.

وقالت أناجيل العهد الجديد الإغريقية بأن طعام يوحنا قد تألف من «جراد وعسل بري»، ولكن نصاً عبرانياً قديماً لإنجيل متى أصر على أن كلمة «جراد» هي خطأ بالإغريقية، وأنها قريبة لكلمة بالعبرانية معناها فطيرة من نوع ما، قد صنعت من نباتات الصحراء، مشابهة «للمن» الذي أكله الإسرائيليون القدماء في الصحراء في أيام موسى[9]، وقد وصف يسوع يوحنا على أنه كان «لا يأكل ولا يشرب»، أو أنه «لم يأكل خبزاً ولم يشرب خمرة»، وتشير مثل هذه العبارات إلى واحد كان نباتياً بكل دقة، كان يتجنب حتى الخبز لأنه يأتي من القمح، وينأى بنفسه عن جميع أنواع الخمرة[10]، والفكرة هي أن ذلك الإنسان كان يأكل ما ينمو بشكل طبيعي فقط[11]، وكانت هذه وسيلة لتجنب جميع فنون الحضارة، وبإعطاء يوحنا مظهر الطعام، وحياة النسك الانعزالية، لا يمكن للإنسان أن يتصور شخصية معادية للثقافة أكثر منه، وكانت ثقافة يوحنا معادية لثقافة هيرود أنتيباس، الذي تولى أخيراً اعتقاله وقطع رأسه، وعارض يسوع نمط حياة يوحنا، في أنه ارتدى ثياباً ناعمة، مثل الثياب الفخمة الناعمة التي كان يرتديها الذين يعيشون في قصور الملوك [لوقا: 7/ 25]، والإشارة هنا واضحة تماماً إلى هيرود وطبقته.

ما من أحد أعظم من يوحنا

وبما أن يسوع كان على رأس أسرة كبيرة، فقد اتبع أسلوب حياة كان أقل عزلة، ولكن بما أنه كان هو ويوحنا قريبين من ناحية الأمّين، وفارق السن بينهما ستة أشهر فقط، من المعقول الافتراض أنهما عرفا بعضهما أثناء النشأة، ولابد أن الأسرتين قد وُجدتا في القدس معاً في أوقات كثيرة، من السنة، من أجل الأعياد اليهودية الرئيسة، ومن المحتمل تماماً أن يكون يسوع قد زار يوحنا في اليهودية، أو أن يوحنا قد زار يسوع وهو يترعرع في الجليل، فيسوع ويوحنا لم يكونا غريبين عن بعضهما، لا بل في الحقيقة هنالك بعض الأدلة التي أشارت إلى أنهما قد شرعا معاً في صياغة

خطة، وكانت خطة دراماتيكية وجريئة، اعتقدا أنها سوف تتسبب في إسقاط الحكم الروماني في فلسطين، وسوف تقود إلى تدشين عالمي الاتساع لملكوت الرب.

وعندما نصل إلى فهم يوحنا المعمدان ويسوع، حسبما فهم أحدهما الآخر، وحسبما كان قد نظر إليهما في مجتمعهما اليهودي المعاصر لهما، نجد أن أناجيل العهد الجديد هي في وقت واحد أفضل مصادر، وأكبر معيق لنا، فمع الوقت الذي كتبت فيه أناجيل: مرقص ومتى، ولوقا، ويوحنا [70–100م] كانت هناك محاولة صريحة من قبل المسيحيين لخفض مكانة يوحنا المعمدان وتهميشه، في حين كانت هناك مبالغة كبيرة لتمجيد الدور الفردي ليسوع، حيث لم يتوفر مكان لمسيحيين، وللسبب نفسه، نجد أن جيمس، أخا يسوع الذي خلفه قد حذف ذكره إلى حد بعيد من التاريخ المكتوب، فقد بدأ المسيحيون ينظرون إلى يسوع على أنه الرب الوحيد، والمسيح، مع الأدوار المختلطة المتمازجة، للنبوة، والكهانة، والملكية، وقد نظروا إلى يوحنا بشكل إيجابي، لكن كرائد له فقط، قدم يسوع إلى العالم، ثم ما لبث أن اختفى من المشهد، وبهت لونه.

ومن المعروف بشكل جيد، أن يوحنا قد تولى تعميد يسوع، وليس العكس، فقد جاء يسوع إلى عند يوحنا، والتحق بحركته، الأمر الذي كان معناه في إطار اليهودية القديمة، أن يسوع كان من تلاميذ يوحنا، وكان يوحنا حاخام أو أستاذ يسوع، وبالنسبة إلى المسيحيين المتأخرين، الذين مجدوا يسوع، كانت هذه الفكرة غير متصورة ولا مفهومة، ويمكننا أن نوثق في الأناجيل الأربعة للعهد الجديد، ميلاً متطوراً للتعامل مع هذه الحقيقة التاريخية الصامدة، وتطبيقاتها، بالحط من أهمية يوحنا، من دون إنكار دوره كرائد ليسوع.

وفي إنجيل مرقص الذي هو أقدم رواياتنا، جاء يسوع إلى الأردن حتى يجري تعميده من قبل يوحنا، لكن يوحنا أخبر الناس، بأن ذلك الواحد القادم أعظم قوة ومقدرة منه، حتى أنه غير لائق بحل أربطة حذائه [مرقص: 1/ 7]،

وفي «متى» حاول يوحنا منع يسوع من التعميد، مصراً على أن يسوع هو الذي ينبغي أن يعمده [متى: 3/ 13]، وذكر لوقا بأن هيرود قد أمر بإيداع يوحنا في السجن، ثم كتب في الفقرة التالية يقول: «ولما اعتمد جميع الشعب اعتمد يسوع أيضاً»، وهنا كأنه أراد أن يستدل بأن يوحنا لم يعمد حتى يسوع، بسبب أنه كان مسجوناً [لوقا: 3/ 19-21]، ونجد أخيراً في إنجيل يوحنا، الذي هو الرواية الأخيرة، لم يعمد يوحنا المعمدان يسوع مع أنه من الممكن أن يستشف وقوع ذلك، ولكنه لم يذكر ذلك بوضوح، وعوضاً عن ذلك عندما رأى يوحنا يسوع أعلن «هوذا حمل الرب الذي يرفع خطية العالم»، [يوحنا: 1/ 29]، وفيما بعد أخبر يوحنا تلاميذه أثناء حديثه عن يسوع «ينبغي أن ذلك يزيد وأنا أنقص» [يوحنا: 3/ 30]، ومع أن هذه الروايات قد تأثرت بشكل ثقيل باللاهوت المسيحي المتأخر، إلا أنها تقدم شهادة أساسية حول حقيقة أن يسوع قد جرى تعميده من قبل يوحنا، ولحسن الحظ أن مصادر أخرى قد بقيت، مما سمح لنا بالعودة إلى الوراء من خلال طبقات العقيدة حتى نكتشف الصورة الضائعة، وحقاً إن هذا جهد مثير.

فقبل أكثر من مائة وخمسين سنة مضت عرف علماء في ألمانيا الإنجيل المفقود بحرف «ق»[12]، وكان اكتشافهم مدهشاً بعض الشيء، حول وجود نص سري، وأطلق على هذا «الإنجيل» السري اسم إنجيل «ق» من الكلمة الألمانية Quelle، أو «مصدر»، وهو لم يتم العثور عليه في الكهف ولم يكن مدفوناً في باطن الأرض، بل كان مطموراً ضمنياً في إنجيلي العهد الجديد لمتى ولوقا، فهو كان موجوداً هناك طوال الوقت، ومخفياً منذ قرون، لكن ما من أحد لاحظه، فقد كتب مرقص أولاً، وقد استخدم متى ولوقا مرقص بمثابة مصدرهما الأساسي لمروياتهما، ولكنهما استخدما مصدراً آخر أيضاً، وهو وثيقة ندعوها باسم «ق»، لم تعد موجودة في حوذتنا، وباستخراج المادة الموجودة عند متى ولوقا، والمتوفرة لديهما بشكل

مشترك، وليست متوفرة عند مرقص، سوف نكون قادرين على إعادة بناء هذا المصدر الضائع[13]، حيث إنها مجموعة مبكرة لأقوال يسوع وأفعاله، هي أقدم بتاريخها من مرقص، وهي قد سمحت لنا بالنفاذ إلى ما وراء الأناجيل، حسبما هم قائمون الآن، والتحديق خلالهم نحو وقت أبكر.

وكما يمكن للإنسان أن يتوقع لدى مصدر «ق» كثيراً من المواد حول يوحنا المعمدان، فقد سأل يسوع الحشود حول يوحنا: «ماذا خرجتم إلى البرية لتنظروا»، وأجابهم بلهجة خطابية «أنبياً؟ نعم أقول لكم وأفضل من نبي» [لوقا: 7/ 26]، ثم أعلن تصريحاً مدهشاً قائلاً: «لأني أقول لكم أنه بين المولودين من النساء ليس نبي أعظم من يوحنا المعمدان»، [لوقا: 7/ 28]، وبما أن يسوع كان واحداً بكل وضوح قد ولد من امرأة» فمن الواضح أن يسوع قد أعلن في مصدر «ق» أن يوحنا كان أعظم منه، وقد تسبب هذا التصريح بمشكلة كبيرة جداً للمسيحيين المتأخرين، مما استدعى إضافة عبارة المساواة التالية: «ولكن الأصغر في ملكوت الله أعظم منه»، وإشارة منه هنا إلى يوحنا، ولكن من الواضح أن هذه الإضافة مدسوسة، لأن النص يتابع القول بأنه «احتج كثيراً جداً»، وقد تأكد هذا الآن بنشر النص العبري من «متى»، فهو يقدم قول «ق» هذا دون أن يتعرض للتغيير من قبل ناسخ إغريقي أو محرر[14]، فهناك تقف شهادة يسوع المدهشة حول عظمة يوحنا دون أن تتعرض للتعديل، أو لإضافة عبارة تعادل، فقد بقيت على حالها: «بين المولودين من النساء ليس نبي أعظم من يوحنا»، وبما أن «متى» كتب بالأصل بالعبرية، من المحتمل أن تكون هذه المخطوطة المهمة أقرب من بعض الجوانب إلى النص الأساسي الأصيل، وفي هذا النص العبري من إنجيل متى، قال يسوع أيضاً عن يوحنا: «لأن جميع الأنبياء والناموس تحدثوا حول شأنه» [متى: 11/ 13]، وظهرت هذه العبارة في الترجمة الإغريقية كما يلي: «لأن جميع الأنبياء حتى يوحنا»، وكان هذا تغييراً بالعبارة صغيراً، لكن مع فوارق كبيرة جداً، ورأى المسيحيون فيما بعد ونظروا إلى

يسوع على أنه الواحد الذي عنه تكلمت جميع الكتابات المقدسة، ولم يكـن يوحنـا، ولكن العبارة العبرانية في «متى»، كما هو واضح أكثر أصـالة، في أن جميـع الأنبيـاء تحدثوا عن قدوم يوحنا، وهذه شهادة كاملة على مكانته، وأخيراً، قال يسوع في هذا النص العبري بأن يوحنا قد أرسل «لإنقاذ العالم» في حين جاء في النص الإغريقـي من «متى»: «ويرد كل شيء» [متى: 17/ 11]، واهتم المسيحيون فيما بعد وانـشغلوا بكل عبارة قالها يسوع يستشف منها أن يوحنا كان هو «المخلص» وليس يسوع.

وقد حفظ لنا إعادة بناء المصدر «ق» أيضاً نموذجـاً قـصيراً ولكـن مهـماً، مـن مواعظ يوحنا، حيث أخبر الناس «وقال لهم: من له ثوبان فليعط من ليس له، ومـن له طعام فليفعل هكذا»، [لوقا: 3/ 11]، وقـد أصـبحت مثـل هـذه الأقـوال صـفة ملازمة لتبشير يسوع و مرتبطة به، إلى حد أن قلة قد لاحظوا بأنها تأصلت مع يوحنا، وفي مصدر «ق» سأل أتباع يسوع مرة وقالوا له: «علمنا أن نصلي كما علم يوحنا أيضاً تلاميذه»، وردد لهم يسوع الصلاة التي كان قد تعلمها من معلمه يوحنا:

«أبانا، ليتقدس اسمك

ليأت ملكوتك

خبزنا كفافنا أعطنا كل يوم

واغفر لنا خطايانا

لأننا نحن أيضاً نغفر لكل من يذنب إلينا

ولا تدخلنا في تجربة» [لوقا: 11/ 1-4]

ويحفظ المسيحيون طبعاً عن ظهر قلب «الصلاة الربانية» في نص أوسع قدمه «متى»، لكن هذه الصلاة التي جاءت من مصدر «ق» لإنجيل لوقـا، هـي أقـصر، ونصها أكثر أصالة، ويرجح أنها جاءت إلى يسوع من أستاذه يوحنا.

وتظهر رسالة يسوع المعروفـة بـشكل جيـد لـدى المـسيحيين في موعظـة

الجبل، دليلاً على أنها كانت جزءاً من رسالة تشارك بها يوحنا ويسوع، وبها وعظا، فقد أصبح يسوع ويوحنا شريكين كاملين في العمل الذي اعتقد أنهما دعيا إليه بشكل مشترك، ثم إن إذعان يسوع إلى يوحنا واضح تماماً في مصادرنا، بمجرد إزاحة الحجاب اللاهوتي المسيحي، فتبعاً ليسوع كان يوحنا «أعظم من نبي»، وليس هناك «بين المولود من النساء من هو أعظم منه» وكان هو أيضاً الإنسان «الذي تحدثت عنه التوراة كلها والأنبياء»، لأنه هو الذي جاء «لإنقاذ العالم»، وليس أمراً عرضياً أن الأعوام التي أعقبت العام 27م، فارغة إلى حد كبير بيضاء في مدوناتنا، فذلك كان عام العمل المشترك للمسيحيين، وهو الآن قد ضاع بالنسبة للتاريخ المسيحي، وللذاكرة.

الفصل التاسع

سنة حاسمة مفقودة

قام يوحنا بتعميد يسوع في خريف عام 26م، وفي أناجيل: مرقص، ومتى، ولوقا، أخبار السنة التالية، أي سنة 27م مفقودة تماماً، ومن الصعب أن نقول: إن هذا كان وليد صدفة، ذلك أن تعميد يوحنا ليسوع، قد شكل دوماً معضلة للمسيحيين المتأخرين، لأنه يمكن أن يرى من ذلك وضع يسوع بدور ثانٍ بعد معلمه يوحنا، الذي عنه تكلم بلغة تمجيد كبيرة جداً، ولقد كان تعميد يسوع حقيقة تاريخية لا يمكن نكرانها، ولا يمكن إزالتها من المدونات، ولكن الذي أعقب ذلك كان معضلة أكبر.

وروى مرقص أنه بعد ما جرى تعميد يسوع، انسحب يسوع نفسه ليعيش لمدة أربعين يوماً في الصحراء، حيث تعرض للإغواء من قبل الشيطان [مرقص: 1/ 12-13]، وأضاف متى ولوقا بأنه كان صائماً خلال ذلك الوقت، وقدما تفاصيل حول إغوائه، ثم قال مرقص في الفقرة التالية بالذات: «وبعدما أسلم يوحنا جاء يسوع إلى الجليل يكرز ببشارة ملكوت الله» [مرقص: 1/ 14]، وترك مرقص الانطباع، أنه لم يكن هناك ضياع للوقت: فقد جرى تعميد يسوع، وانسحب هو إلى الصحراء لمدة أربعين يوماً، وجرى اعتقال يوحنا، فبدأ يسوع عمله المعلن، فبضربة واحدة من قلمه أزاح يوحنا عن مشهد الأحداث، ليذكره

فقط مرة أخرى عندما تحدث عن وفاته، فقد صار الآن باستطاعته منح انتباهه الكامل إلى يسوع، في الواجهة، وفي مرحلة الوسط، تاركاً يوحنا في الخلف كمجرد رائد للعمل الأساسي، واتبع متى ولوقا سبيله، ونحن لا نعرف بأن ذلك كان كل ما عرفوه، أو أنهم اختاروا جميعاً ما قالوه، فهذا مالا يمكننا بالفعل قوله، ولكن نحن نعرف أنه من الصعب، لقد كانت هذه القصة كاملة، والمفقود هنا هو مشاهد لم تتضمنها سيرة حياة يسوع قط، ولم يذكرها المسيحيون أبداً في قداساتهم، وإن إنجيل يوحنا هو الذي يزودنا ببعض المفاتيح.

يسوع المعمدان

إن إنجيل يوحنا هو آخر أناجيل العهد الجديد، وهو يحتوي على وجهة نظر حول يسوع أكثر تمجيداً مما لدى مرقص ومتى، أو حتى مما قدمه لوقا، فيسوع يوحنا هو ابن الرب الممجد، والذي هو موجود من قبل، وقد أرسل من السماء كمخلص للجنس البشري، فيوحنا لم يقدم لا قصة ميلاد، ولا إغواء، ولا آلاماً في بستان جيشماني، ولا صراخاً في النهاية فيه سؤال لماذا تخلى الرب؟ عنه بل يسوع هو المنتصر خلال ذلك كله، فهو لم يكن بشراً، وظهر فقط وكأنه قد لمس الأرض، وذلك قبل أن يتحدث عن عودته إلى السماء ليكون مع أبيه، وكما كنا قد رأينا لم يتحدث يوحنا حتى عن تعميد يسوع من قبل يوحنا المعمدان، وعوضاً عن ذلك، في اللحظة التي وصل فيها يسوع إلى نهر الأردن، صرخ يوحنا المعمدان قائلاً: «هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم»، وأعلن بأن يسوع هو ابن الرب [يوحنا: 1/ 29-33]، وعلى هذا إن إنجيل يوحنا هو إنجيل اللاهوت المسيحي من دون منازع، وفي الحقيقة حط إنجيل يوحنا من أهمية يوحنا المعمدان، لصالح تمجيد يسوع أكثر من أي واحد آخر من الأناجيل الثلاثة للعهد الجديد، وهكذا الأمر، ولكن المدهش أكثر هو أننا

عندما نتحول إلى إنجيل يوحنا، فنبحث في جميع الأماكن، نجد المعلومات التاريخية المفقودة، وكانت المسألة هي التالية: في أثناء قيام الكاتب بعرض وجهة نظره حول كم كان يسوع أكثر أهمية من يوحنا المعمدان، أخبرنا بما فيه كفاية ليسمح بإعادة بناء تاريخية لمدة زمنية، لولا أنه فعل ذلك لضاعت تماماً بالنسبة إلينا.

فعلى الرغم من تمجيد إنجيل يوحنا ليسوع، إن هذا الإنجيل قد بني على إطار روائي، مع اهتمام بتفاصيل جغرافية وتأريخية، هي غير موجودة عند: مرقص، ومتى، ولوقا، وقبل مائة عام مضت درجت العادة على رفض إنجيل يوحنا كلياً، عندما يأتي الأمر بتزويدنا بأي شيء له علاقة بالبحث عن «يسوع التاريخي»، ولكن الآن تغير هذا، فكثير من العلماء يعتقدون بأن يوحنا قد زودنا بقطع مهمة من القصة المفقودة[1]، وفي الحقيقة بات من الممكن الإعلان بأن إنجيل يوحنا هو شهادة «التلميذ» المجهول الاسم، الذي كان بشكل صادق شاهد عيان على حوادث حياة يسوع، وأن هذه هي الروايات حول بعض التفاصيل المفقودة، وهذا هو بالحقيقة الادعاء الذي عمل في نهاية الكتاب [يوحنا: 21/ 24]، وإذا كان لدينا مطمور في يوحنا مثل شهادة شاهد العيان هذه، فنحن بالفعل محظوظون.

وادعى لوقا بأنه تشاور مع شهود عيان لدى كتابته كتابيه: الإنجيل، وأعمال الرسل، ولكنه هو شخصياً لم يشهد شيئاً من حياة يسوع بشكل مباشر، [لوقا: 1/ 2] وإنما استخدم مرقص و «ق» كمصدرين أساسيين له، وجمع أيضاً بعض المادة الخاصة به، ومع أن إنجيل «متى» يحمل اسم الرسول «متى»، الذي كان واحداً من الاثني عشر، الكتاب نفسه لم يحمل مثل هذا الادعاء على الإطلاق، والتعايش مع اسم «متى» هو من التقاليد المتأخرة، وفي الحقيقة نحن لا نعرف من كتب إنجيل متى، لكننا متأكدون بشكل منطقي، بأن المصنف لم يكن شاهد عيان، وأنه كتابه هو نص محرر لمرقص وللمصدر «ق»، مع قليل من مواده الخاصة،

ومرقص هو إنجيلنا الأقدم، ولكن مرة أخرى، إن تعايشه مع مرقص، الذي قيل بأنه كان مرافقاً لبولص، وفيما بعد لبطرس، هو أيضاً من التقاليد المروية بشكل متأخر، فنحن ليس لدينا أدنى فكرة حول الذي كتب مرقص، والشيء نفسه يندرج على إنجيل يوحنا، فجميع هذه الأسماء قد تأسست على تقاليد مسيحية متأخرة، ومع أن أناجيل عهدنا الجديد تحتوي على مادة تاريخية، إن التحرير اللاهوتي هو حقيقة يتوجب على القارئ الفطن أن يحملها دوماً في ذهنه.

وإذا ما أودع الإنسان جانباً رأي يوحنا اللاهوتي حول أن يسوع كان «رباً متجسداً»، وركز على تفاصيله الإخبارية، تبدأ الصورة المهملة بالظهور، فعندما تواجه يسوع مع يوحنا المعمدان عند نهر الأردن، أخبرنا بأن أربعة أفراد ممن سيكونون في النهاية جزءاً من المجلس الداخلي ليسوع الذي تألف من اثني عشر، وهم: شمعون بطرس، وأخوه أندرو، وفيليب، ونثائيل، كانوا من تلاميذ يوحنا المعمدان [يوحنا: 1/ 35-49]، وقد أخبرنا بعد ذلك:

«وبعد هذا جاء يسوع وتلاميذه إلى أرض اليهودية، ومكث معهم هناك وكان يعمد وكان يوحنا أيضاً يعمد في عين نون بقرب ساليم، لأنه كان هناك مياه كثيرة، وكانوا يأتون ويتعمدون لأنه لم يكن يوحنا قد ألقي بعد في السجن»، [يوحنا: 3/ 22-24].

ولاحظ أن يسوع هو الذي كان يعمد هنا، وأن يوحنا كان ما يزال يعمل بحرية أيضاً، وكان هذا خلال عام كامل، قبل أن يقوم مرقص باستئناف روايته، بعد اعتقال يوحنا من قبل هيرود أنتيباس، وإلقائه في السجن، وأنا لا أعتقد أنه وجد قط، كتاب، أو فيلم، أو مسرحية قد قدمت يسوع المعمدان، ومع ذلك نحن نمتلك الرواية هنا.

ولم يكن هذا أقل من حملة تعميد مشتركة، قام بها يوحنا ويسوع، حيث

كان يوحنا مقيماً في الشمال، عند مفارق الطرق المهمة لأراضي الجليل، وبيريا، والمدن العشر، وذهاب يسوع جنوباً إلى المنطقة الريفية لليهودية، ولكن كان هناك مزيد أكثر.

فقبل أن يفتتح يسوع حملته في الجنوب، سافر عائداً إلى موطنه في الجليل ليشارك في عرس في قرية قانا الصغيرة، إلى الشمال من الصفورية، وبما أن أمه -كما يظهر- كانت تتولى الترتيبات الاجتماعية، يمكننا أن نفترض أن واحداً من إخوته، لربما جيمس الذي كان دونه في السن، كان هو الذي سيتزوج، ربما من فتاة من تلك القرية، وفيما بعد ذكر إنجيل يوحنا مروراً بأن نثنائيل كان من قرية قانا بالذات [يوحنا:21/ 2]، وبعد هذا أخذ يسوع جميع أسرته -أمه وإخوته- من الناصرة إلى مدينة كفر ناحوم، الواقعة إلى الشمال من طبرية، على الساحل الشمالي الغربي لبحر الجليل [يوحنا: 21/ 2]، وكان الزمان هو ربيع العام 27م، وكان العيد هو عيد الفصح اليهودي الذي اقترب حلوله، والعلاقة مع كفر ناحوم، والارتباط مهم هنا، لأن من المؤكد أنه كان لدى يسوع شيء ما كان إستراتيجياً في الذهن.

وقال إنجيل يوحنا بأن الأخوين صيادي السمك: بطرس «شمعون بطرس» وأندرو، وكذلك فيليب كانوا من بيت صيدا، التي كانت قرية أخرى قائمة على بحر الجليل، إلى الشرق، وكانوا قد نزلوا للالتحاق بيوحنا المعمدان قرب ساليم على نهر الأردن، وكان ذلك قبل بعض الوقت من تعميد يسوع في خريف العام 26م، وكان العام 26-27، الذي امتد من خريف إلى خريف، عاماً للراحة، فتبعاً للتوراة في كل عام بين كل سبعة أعوام تتوقف الأعمال الزراعية، ويسمح للأرض «بالاستراحة»، وتوفر بداية عام الراحة فرصة حاسمة لكشف خطتهم، فآلاف من الفلاحين والقرويين، الذين حياتهم العادية كانت مرتبطة بالدورات الزراعية للفصول، كانوا متحررين من أعمالهم المعتادة، وعلى هذا كان ذلك هو الوقت الصحيح لإشعال الحركة بين الجماهير.

وكان هؤلاء الثلاثة قد التحقوا الآن بيسوع، وكانت هناك أيضاً أسرة هي أسرة زبدي، وزوجته سالومي، وولديها: جيمس ويوحنا، وقد عاشت هذه الأسرة في كفرناحوم، وكان بطرس وأندرو يعرفانهم، وقد عملوا معهم في أعمال صيد الأسماك، ونحن لا نعرف فيما إذا كانت مريم المجدلانية جزءاً من هذه الجماعة في ذلك الوقت، لكنها كانت من المجدل مركز صيد السمك، وقد وقعت المجدل على الطريق إلى الجنوب من كفر ناحوم، وفي هذه المرحلة كان يسوع قد جمع على الأقل عشرة من تلاميذه الذكور، وهم: بطرس، وأندرو، وجيمس، ويوحنا، ونثنائيل، وفيليب، ومن المحتمل كثيراً إخوته: جيمس، ويوسف، وشمعون، ويهوذا، الذين قدموا معه من الناصرة، وذلك مع أمه وأختيه، وعلى هذا كان يسوع قبل مدة طويلة من قيام مرقص باستئناف الرواية، قد أنجز صنع «رسله» الاثني عشر، في ذلك المكان.

إن هذا كله يمكننا استخلاصه من إنجيل يوحنا، وما من شيء من هذا قد ورد ذكره في: مرقص، ومتى، ولوقا، والذي كان يسوع يعمله في ربيع العام 27م، في كفر ناحوم، كان تمتين رابط قلب أتباعه، من أجل الحملة المقبلة في اليهودية في الجنوب، ولم يكن هناك أي شقاق أو انفصال بين يسوع ويوحنا المعمدان، بأخذ يسوع لبعض من أتباعه يوحنا، وكان الأكثر احتمالاً أن ذلك كان خطة جماعية منسقة، فقد أصبح يسوع شريكاً كاملاً مع يوحنا المعمدان، وكانت خطتهما إثارة المنطقة كلها، وهز أركان كل من المؤسسة السياسية والمؤسسة الدينية، خلال أشهر الصيف المقبل مع خريف عام 27م، وكان توقيت هذه الحملة مهماً، على أكثر من مستوى إستراتيجي.

الوقت قد تحقق

كان العام 26–27 أكثر من مجرد عام راحة، فلقد كان هناك اهتمام كبير بين اليهود الأتقياء الذين شاركوا في رؤية تنبؤية حول المستقبل بحساب ما دعوه باسم «نهاية الوقت»، والعهد الجديد مليء بهذا النمط من اللغة، وكان يوحنا المعمدان قد أخبر الحشود بأن فأس الحكم كان «الآن على أصل الشجر» [لوقا: 3/ 9]، وتحدث يسوع عن معرفته كيف يمكن «تفسير الزمان» [لوقا: 12/ 56]، وقد أشار إلى جيله في إطار اصطلاحي، على أنه الجيل الذي سوف يعيش ليرى الرؤيا [مرقص: 13/ 30]، وقد أخبر تلاميذه بأن بعضهم سوف لن يموتوا حتى يروا «ملكوت الله قد أتى بقوة» [مرقص:9/ 1]، وقد أخبر مجلسه المؤلف من اثني عشر، أنهم سوف يجلسون خلفه مثل أمراء: «على اثني عشر عرشاً، تدينون أسباط إسرائيل الاثني عشر» [لوقا: 22/ 30]، وكان بولص قد كتب في خمسينات القرن الميلادي الأول بأن «الوقت المحدد أصبح منذ الآن مقصراً جداً» [1-كورنثوس: 7/ 29]، وكتب بطرس بأن: «نهاية كل شيء قد اقتربت» [1-بطرس:4/ 7]، وأعلن جيمس بأن «القاضي واقف عند الباب» [جيمس: 5/ 9].

ونحن نعرف الآن، وبشكل خاص مع اكتشاف مخطوطات البحر الميت، أن مثل هذه اللغة، كانت مرتبطة بمخططات تأريخية فعلية، وعمليات حساب لتحديد متى ستأتي النهاية بالفعل، وعندما أعلن يسوع بأن «الوقت قد تحقق» وأن «مملكة الرب باتت وشيكة تماماً»، هو لم يكن يتكلم بشكل عام، بل كان يشير بشكل خاص إلى حوادث قد كشفت تبعاً للجدول الزمني للنبوءات.

وكانت هناك خطط متنوعة كثيرة، ولكن الخطة التي جذبت الانتباه الأكبر كانت نبوءة دانيال حول «السبعين اسبوعاً»، حيث أن سفر دانيال يحتوي على عدد من النصوص التنبؤية فيما يتعلق «بنهاية الزمان»، لكن واحداً من هذه النصوص

بشكل خاص، يقدم حساباً نزولياً للأعوام، فتبعاً لهذه النبوءة، إنه منذ وقت صدور مرسوم خاص «لاسترداد القدس وإعادة بنائها»، بعد دمارها في القرن السادس قبل الميلاد من قبل البابليين، سوف تمر مدة مؤلفة من «سبعين أسبوعاً من الأعوام»، فيها كل عام راحة هو علامة «أسبوع»، أو سبعة أعوام، وعلى هذا إن مجموع الوقت سوف يكون سبعين سبع مرات، مما يساوي أربعمائة وتسعين عاماً، وقد أشير إلى هذه المدة ككل على أنها «الوقت المحدد للنهاية». ولنتذكر أن جماعة قمران قد كتبت في مخطوطات البحر الميت وأعلنت «هذا هو الوقت من أجل إعداد الطريق في الصحراء»، وكانوا قد أسسوا حساباتهم على نبوءة دانيال هذه، وقد كتب يوسيفيوس بأن المحرض الرئيس الذي كان وراء بواعث الثورة اليهودية ضد الحكم الروماني هو «هاتف» موجود في «الكتابات المقدسة» جاء فيه «أنه في ذلك الوقت سوف يصبح واحد من بلادهم حاكم العالم»[2]، ولقد كان هو يشير بوضوح إلى نبوءة «السبعين أسبوعاً»، الموجودة في سفر دانيال، ولم يكن الحاكم الذي تمت الإشارة إليه، سوى المسيح اليهودي أو الملك، وربط الإيسينيون الذين كتبوا مخطوطات البحر الميت مدة الأربعمائة والتسعين عاماً هذه، مع مدة عشرة يوبيلات نهائية، سوف يستمر كل واحد منها تسعة وأربعين عاماً[3]، وعند ذلك جرى تقسيم كل يوبيل إلى «أسابيع»، كل سبعة أعوام أسبوع، وعندما يحل زمان اليوبيل العاشر، سوف يكون هناك تسعة وأربعون عاماً حتى النهاية، ولسوف يكون هذا اليوبيل الأخير «الذي لن يعبر حتى يكون كل شيء قد تحقق».

ونحن لا نعرف الخطة الزمانية المحددة التي ربما كان يوحنا المعمدان ويسوع قد صادقا عليها، فقد كانت طريقتهما في حساب الأعوام تختلف عن طريقتنا، وهما بكل تأكيد لم يمتلكا تقويمنا الغريغوري، وإنه على كل حال من المفيد أن يبدأ الإنسان مع العام 457 ق.م، عندما عاد عزراً إلى القدس، ليبدأ بإعادة الأشياء بعد السبي البابلي، وأن يعدّ الإنسان ويحسب نحو الأمام تسعة وستين من «أسابيع»

النبوءة هذه «483 عاماً»، عندما يصل الإنسان إلى العام 26-27م، مع «أسبوع» واحد ليذهب إلى كل عام حتى يصل إلى رقم / 490/ السحري، ومن المحتمل تماماً أن يكون يوحنا المعمدان ويسوع، قد امتلكا شيئاً قريباً من هذا النمط الحسابي، في الذهن، فلربما اعتقد أن عام الراحة 26- 27 م، قد بشر بالسبعة الأعوام الأخيرة، أي المدة ما قبل الرؤيا، ومهما كانت خطتيهما ليس هناك من شك أنهما قد أصبحا مقتنعين بأن الوقت بات وشيكاً، ومع الرب إلى جانبهما، كانا متوازنين مستعدين للتبشير بالحوادث النبوئية للأيام الأخيرة، وبسبب نبوءة دانيال الحاسمة، كانت هناك عاصفة رؤية تتجمع في فلسطين الرومانية للقرن الأول، ولم يكن هناك وقت قط مثل هذا من قبل، ولم يكن على الإطلاق واحد مثله منذ ذلك الحين، ولكن التوقيت لوحده لم يكن كافياً، فقد كانت عناصر التسوية الأخرى، حيوية تماماً من أجل المزج، فقد كان الظهور ظهور مسيحين.

غصنا الزيتون

وصل المسيحيون واليهود إلى التركيز على ظهور مسيح واحد، ولكن هذا لم يكن الوضع المقرر في أيام يسوع، حسبما كنا قد رأينا في مخطوطات البحر الميت، فنحن نقرأ في نص حول مسيحين وليس مسيحاً واحداً كانا يبشران بمملكة الرب، الأول سيكون شخصية من الذرية الملكية لداود، ولكن سيكون إلى جانبه شخصية كهنوتية، هو أيضاً مسيح، من ذرية هارون، ومن سبط لاوي.

وكان زكريا، وهو نبي عبراني من القرن السادس قبل الميلاد، قد أخبر مسبقاً عن رجل يدعى «الفرع» سوف يحمل شرف المرتبة الملكية، ويجلس على عرشه، ولكن زكريا أضاف قائلاً: «سيكون كاهناً على كرسيه، وتكون مشورة السلام بينهما كليهما» [زكريا: 6/ 13]، فهنا صورة واضحة للملك داودي ولمستشاره الراهب المسوح، وقد أشار زكريا في نبوءة أخرى إلى «ابنين لزيت طازج» [يعني

ممسوحين أو مسيحين] «سوف يقفان أمام سيد الأرض كلها»، وقد شبههما في نبوءته بغصني «شجرة زيتون»، مثل اللذين يقفان أمام الشمعدان اليهودي الذي له سبعة أغصان للإضاءة بالزيت، حيث هو يرمز إلى روح الرب، وحضوره.

وقد أصبحت هذه الرؤية المثالية حول مسيحين نموذجاً لكثير من الجماعات اليهودية التي توجهت نحو التفكير الرؤيوي في القرنين الثاني والأول قبل الميلاد، ووضعت شهادة الآباء الاثني عشر من القرن الثاني قبل الميلاد، الأشياء بشكل محكم بالقول: «لأن الرب سوف يقيم من لاوي واحداً ليكون كاهناً أعلى وواحداً من يهوذا ليكون ملكاً»[4]، وهناك من خلال هذا العمل المؤثر تأكيد على أن خلاص إسرائيل سوف يأتي بشكل مشترك من سبط لاوي ومن سبط يهوذا الذي هو سبط الملك داود، وتلقى المسيح الكاهن اهتماماً أكبر من الاهتمام الذي تلقاه المسيح الملك، ووقف في كثير من الجوانب متفوقاً على الشخصية الداودية، وفي الحقيقة أعلن البطريرك يهوذا نفسه: «بالنسبة لي أعطى الرب المُلك، وإليه أعطى الكهانة، وهو قد وضع الملك تحت الكهانة[5]» وتفوه كتاب اليوبيلات، الذي جاء من المدة الزمنية نفسها، وأعلن عن مباركة دائمة على لاوي، على أنه الجد الأعلى للكهنة، وعلى يهوذا بحكم أنه كان أبا «الأمير» الذي سوف يحكم فوق إسرائيل وفوق الأمم[6]، ويبدو أنه بناء على هذه النصوص، أن فكرة المسيحين باتت بناء مثالياً للقيادة اليهودية، لهذا السبب لم يستطع الهشمونيون أوالمكابيون في القرنين الثاني والأول قبل الميلاد -الذين كان باستطاعتهم ادعاء وجود نسب لاوي كهنوتي فقط- أن يؤسسوا أنفسهم بشكل فعال في أعين «الناس» كـ «ملوك»، على الرغم من القوة السياسية والعسكرية الكبيرة جداً، فقد انغرس في الخيال والتصور اليهودي وتأصل أن المستقبل المثالي هو الذي سوف يحكم فيه كل من الكاهن والملك مع بعضهما بعضاً.

وعرَّف يوحنا المعمدان نفسه على أنه «الرسول» الذي كان عليه إعداد

الطريق المؤسس على نبوءة من سفر ملاخي، والنص الذي نقرأه في توراتنا الحديثة اليوم جاء كما يلي:

«هاأنذا أرسل ملاكي فيهيئ الطريق أمامي، ويأتي بغتة إلى هيكله، الرسول الذي تطلبونه وملاك العهد الذي تسرون به هوذا يأتي قال: يهوه رب الجنود ومن يحتمل يوم مجيئه ومن يثبت عند ظهوره». [ملاخي: 3/ 1-2].

وهذه الترجمة مؤسسة على النص العبري القياسي «Masoretic» الذي يعود تاريخ أقدم نسخة منه إلى القرن التاسع للميلاد، ونمتلك نحن الآن رواية من هذا النص نفسه بالذات، تمّ العثور عليها بين مخطوطات البحر الميت، وتاريخ هذا المدرج المخطوط هو القرن الأول قبل الميلاد، وعلى هذا هو أقدم بألف عام من نصنا العبري القياسي، ولاحظ بدقة الفوارق بين الألفاظ.

«وبناء عليه انتبهوا أنا مرسل رسولي، وهو سوف يعدّ الطريق أمامي، وهم سوف يقدمون فجأة إلى المعبد، والسيد الذي تطلبونه، ورسول الميثاق الذي ترغبونه، انتبهوا إنه هو نفسه قادم، قال يهوه رب الحشود، لكن من يستطيع تحملها يوم قدومها»(7).

ففي هذا النص القديم لملاخي هناك شخصيتان سوف تقدمان: رسول الميثاق الذي يعد الطريق، وأيضاً واحد آخر يدعى «السيد الذي تطلبونه»، وكلمة «'adon» التي ترجمت إلى «سيد» هي ليست كلمة عبرية تطلق اسماً على الرب «يهوه»، ولكنها كلمة معناها «رسول» أو حاكم من نوع ما، ومن المحتمل كثيراً أن يسوع ويوحنا المعمدان كانا على دراية بهذا النص من ملاخي، مع التفوه الثنائي، وعرفا نفسيهما تبعاً لذلك، ولقد كان هذا بكل تأكيد فهم جماعة الإيسينيين الذين كتبوا مخطوطات البحر الميت.

ففي واحدة من أقدم وثائق مخطوطات البحر الميت التي تمّ العثور عليها،

وهي قانون الجماعة، كان الإيسينيون يتوقعون قدوم نبي دعوه باسم «المعلم»، وكذلك أيضاً «مسيحان من سبط هارون، وسبط إسرائيل»، وقد تصوروا مستقبلاً فيه مسيح كاهن سوف يترأس على «مائدة مسائحية»، مع الملك المسيح ملك إسرائيل، الذي دعوه باسم «أمير جماعة المصلين» أو «الفرع الداودي» كمرافق له، وهناك كثير من الإشارات في مخطوطات البحر الميت في توقعاتهم المتحرقة لهذين المسيحين اللذين سوف يظهران، وهم عدّوه سوف يكون مهماً بقدر أهمية «الفرع الداودي» وامتلكوا مع هذا آمالاً عراضاً كثيرة من أجل قدوم الكاهن، وفي نص عرف باسم «العهد اللاوي» نحن نقرأ مايلي:

«هو سوف يكفر عن جميع أبناء جيله، ولسوف يبعث إلى كل أبناء شعبه، وكلمته مثل كلمة السماء، ودعوته موافقة لإرادة الرب، وستشع شمسه الأبدية، وستعم ناره حتى نهاية الأرض وستشع فوق الظلام، وسيزول الظلام من على الأرض، والظلام العميق من الأرض الجافة»[8].

ويماثل هذا النص المدهش ويتساوق مع التقدير العالي الذي نظر فيه يسوع إلى معلمه يوحنا المعمدان، وذلك على الأقل وفقاً للمصدر «ق»، وهو المضاد تماماً للغطاء اللاهوتي الذي هدفت إليه نشرات أناجيل عهدنا الجديد في شكلها الأخير حيث أرادت جعل يسوع أعظم من يوحنا، ومن المؤكد أنه يؤيد الاحتمالات الترجيحية التاريخية، في أن يسوع قد نظر إلى يوحنا على أنه أستاذه، وكذلك مسيح سبط هارون الذي تحدث الأنبياء عنه، ولهذه الأسباب كان يسوع قد منح يوحنا القيادة والتوجيه، وهذه نقطة ضاعت في أناجيلنا، ولكن لم تضع من المصدر «ق».

وانتظرت جماعة مخطوطات البحر الميت لمدة طويلة من أجل تحقيق هذه التوقعات المركزية، فقد انسحب أعضاء هذه الجماعة إلى الصحراء اليهودية، في وقت ما في القرن الثاني قبل الميلاد، وذلك استجابة إلى الصوت النبوي الذي سمعوه خلال نبوءات: إشعيا ودانيال، وملاخي، وقد أصبحوا مقتنعين -كما

كنا قد رأينا- بأن «هذا كان هو الوقت»، وقت إعداد الطريق، وكان هذا في وقت ما في القرن الأول قبل الميلاد، حيث قامت شخصية صاحبة نفوذ بينهم، كانت تمتلك مواهب كبيرة روحية وتفسيرية، وقد أشاروا إليه في المخطوطات تحت اسم «معلم الحق والاستقامة»، ونحن لا نعرف اسمه، لكننا نعرف كثيراً من حوادث حياته، لا بل حتى بعضاً من كتاباته، حيث جرى الاحتفاظ بها في المخطوطات، وقد رأت الجماعة فيه نموذجاً عن «النبي موسى»، الذي كان قد دعاهم إلى «ميثاق جديد»، وقد رأوا في أنفسهم أنهم فيه الجماعة الباقية من المؤمنين الإسرائيليين، الذين هجروا ذنوبهم، وفصلوا أنفسهم عن المجتمع غير الرباني الذي كان من حولهم، وقد عدّوا المؤسسة الدينية لوقتهم، سواء الفريسيون، أو الصدوقيون، أنها مؤسسة فسدت ولا أمل يرجى منها، ولا يمكن صنع تسوية معها، وقد عاشوا وفق التفسير الأكثر دقة لشريعة التوراة، وآمنوا يقيناً أنهم كانوا يعيشون في «الأيام الأخيرة»، وقد آمنوا بأن معلمهم قد أعطاهم التفسير الموحى به حول جميع أسرار كتاباتهم التنبؤية.

وعندما قتل معلمهم ربما في وقت ما في منتصف القرن الأول لما قبل الميلاد كانوا مقتنعين أن عدهم التنازلي قد بدأ، وأن مسيحين ينبغي أن يظهرا على الفور، وهناك بعض النصوص التي تحدثت عن مدة «الأربعين سنة» التي أعقبت موت معلمهم، وعبرت السنوات الأربعون، لكن ليس هناك أي شيء مدون في مخطوطات البحر الميت بأن المسيحين قد ظهرا على الإطلاق، وظهر وكأن آمالهم وتوقعاتهم قد توقفت لبعض الوقت، وجرى تعليقها وكانت فئة صغيرة من جماعتهم قد بقيت تعيش في مستوطنتهم التي نعرفها باسم قمران، وكان ذلك في القرن الميلادي الأول، وإذا كانوا بالفعل هم الناس الذين نعرفهم باسم الإيسينيين، فإنهم كانوا قد توزعوا في الجماعات كلها خلال أرض فلسطين، وهم لم يموتوا على الرغم من إخفاق توقعاتهم الأصيلة، ومن

المحتمل كثيراً، أنهم كانوا جزئياً مسؤولين عن بقاء الأمل حياً بقدوم مسيحين.

ومع تقدير هذه الآمال المتجذرة عميقاً، والتوقعات بين اليهود المسائحيين، يمكن للإنسان أن يتصور بسهولة درجة الإثارة والحماسة الشديدة التي كان يوحنا المعمدان ويسوع سيحركانها لدى تحضيرهما لتحركاتهما التالية في ربيع العام 27م، ولا بد أن يوحنا كراهب من سبط لاوي، ويسوع كمنحدر من داود من سبط يهوذا قد بعثا وحركا آمال الآلاف الذين كانوا قد توصلوا إلى توقع وصول المسيحين كعلامة على النهاية، وكان حتى هيرود أنتيباس قد شعر على الفور بلدغة قرح رسالة يوحنا المعمدان حول التوبة، والمسيحيون ميالون لتصور مسيح «حليم ومتواضع» نادراً ما رفع صوته، ولكن الأدلة سوف تظهر أنه تعلم بشكل جيد من معلمه، وأن يسوع كان مثله مثل يوحنا المعمدان، لديه رسالة متطرفة قسمت آل البيوت والقرى، وزلزلت المؤسسة الدينية السياسية.

يسوع في اليهودية

استناداً إلى المؤشرات التي نحصل عليها من إنجيل يوحنا، لا بد أن حملة التعميد التي قام بها يسوع وتلاميذه في ريف اليهودية قد استمرت خلال صيف وخريف، وفي أثناء شتاء العام 27م[9]، وكانت الحملة ناجحة بشكل هائل، بصنع يسوع تلاميذ أكثر وتعميد عدد أكبر مما عمده يوحنا المعمدان، الذي كان يعمل في الشمال، ومع أن إنجيل يوحنا قد ظهر أنه مسرور في أن يروي خبر مثل هذا النجاح وفق طريقة يستشف منها بأن يسوع هو أعظم من يوحنا، ليس هناك من سبب للافتراض بوجود نوع من أنواع التنافس، ويرجح أن الحملة الجنوبية كانت ناجحة جداً، وشكلت قضية قيام يسوع بالتعميد معضلة بالنسبة للمسيحيين المتأخرين، حيث إنه لم يقم بممارسة «تعميد مسيحي» باسم «الآب، والابن، وروح القدس»، وقام محرر متأخر لإنجيل

يوحنا بإضافة جملة معترضة موضحة نفسها: «مع أن يسوع نفسه لم يكن هو الذي يتولى التعميد بل تلاميذه» [يوحنا:4/ 2]، وهذا النوع من الإقحام هو مثل راية حمراء تخبرنا بأن شخصاً ما مزعوجاً جداً، موجود هنا، مع أن النص يقول بكل وضوح بأن يسوع كان هو الذي يتولى التعميد، ويعمل تلاميذ.

والحقائق التاريخية هي واضحة بأن: يسوع قد التحق بحركة يوحنا المعمدان، وجرى تعميده من قبل يوحنا «تعميد توبة لرحض الذنوب»، ثم إنه ارتبط مع يوحنا في حركة استراتيجية، لتصل البلاد كلها على الفور، وكان يسوع يعظ ويمارس التعميد نفسه، أي تعميد يوحنا، فقد كانا متحالفين، وليس هناك من سبب للاعتقاد بأن أياً من رسالتيهما، أو تصرفاتهما، أو عملياتهما قد اختلفت.

ويظهر من المؤكد أن أم يسوع، وأخوته، وأختاه قد استجابوا إلى تعميد يوحنا، ومثل ذلك أيضاً جميع الذين كانوا يعملون معه «كتلاميذ»، بما في ذلك بطرس، وأندرو، وصائدا السمك جيمس ويوحنا، وفيليب، وناثانئيل، وجميع البقية، وليس لدينا ولا رواية على أن أياً من تلاميذ يسوع أو رسله قد أعيد تعميده بعدما أصبح «مسيحياً»، أو بعبارات أخرى، لم يترتب على ولائهم ليسوع كمسيح داودي التورط في أي موقف ديني اختلف عن الذي طبقوه مع يوحنا المعمدان، والحقيقة التي تسبب الصدمة هي أن ما من واحد من رسل يسوع أو تلاميذه قام مطلقاً بتعميد نفسه «تعميداً مسيحياً» صحيحاً حسبما بات يعرف محدداً في العقيدة المسيحية، يعني «باسم الأب والابن وروح القدس»، فلقد كانوا قد عمدوا من قبل يوحنا المعمدان وانتهى الأمر، وتبعاً لمصدر «ق» الذي هو المصدر الأكثر أصالة بين الوثائق المسيحية، إن الذين رفضوا التعميد من قبل يوحنا «قد رفضوا مقصد الرب» [لوقا: 7/ 29-30]، وفي الأسبوع الأخير من حياة يسوع هو أثار هذه القضية بالذات مع خصومه الدينيين، وتحداهم بشكل معلن أن يقولوا بأن يوحنا كان نبياً زائفاً، بما أنهم رفضوا عمادته،

فلم يتجرأوا على فعل ذلك، عارفين بأن الناس جميعاً قد بجلوا يوحنا، وعدّوه نبياً عظيماً، وفيما بعد، بعد وفاة يسوع، عندما جرى اختيار بديل ليهوذا الأسخريوطي في مجلس الاثني عشر، وذلك بعد خيانة يهوذا ليسوع واقترافه الانتحار، عندها ذُكر بالتحديد أنه فقط من المرشحين الذين كانوا مع يسوع، ومن الجماعة الذين كانوا «منذ معمودية يوحنا»، سوف يجري النظر فيهم لشغل هذا المركز المهم [الأعمال: 1/ 22]، ومال المسيحيون فيما بعد إلى التفريق بين الحركتين، أي بين حركة يوحنا المعمدان، وحركة يسوع، على أن الحركة الأولى الأولى كانت «يهودية»، وكانت الثانية حركة «مسيحية»، ولكن كان في أيام حياة يسوع، وبين أتباعه المباشرين حركة واحدة متحدة، وتعميد واحد.

ومع نهاية العام 27م، ومن وجهة نظر هذه الحركة المسائحية، كان هناك نوعان فقط من اليهود في فلسطين هما: الذين استجابوا بشكل إيجابي إلى تبشير يوحنا ويسوع، وتعمدوا، والذين لم يفعلوا ذلك، ولم يكن هناك وسط بينهما، «فالطحين» جرى فصله عن «النخالة»، والفأس موضوع فوق جذر الشجرة.

ولقد أخبرنا بأن يسوع قد قام بحملة تعميده في «ريف اليهودية»، ويستشف من هذا أن ذلك كان خارج مدينة القدس، ربما إلى الغرب فيما دعي باسم «المنطقة الهضبية» لليهودية فإلى الشرق كانت صحراء اليهودية القاحلة، وإلى الشمال كانت الأراضي الأجنبية للسامرة، وبناء عليه أين من المحتمل أن يكون يسوع قد قام بجهوده التعميدية الجماعية.

وحسبما كنا قد رأينا، كان أول الأسئلة التي بدأنا نتصارع معها منذ العام 2001، عندما شرعنا بإزالة كميات الفخار الكبيرة جداً، والعائدة للقرن الأول للميلاد، من كهف صوبا، هو سؤال كيف وصلت هذه الكميات إلى هناك، ولماذا؟ ويشير الدليل الموجود في الكهف إلى مستوى عالٍ جداً وغير اعتيادي من النشاط في هذا الكهف، في أوائل القرن الميلادي الأول، فقد كانت نشاطات أوسع بكثير

وتتجاوز الجمع العادي للمياه من المنطقة المحلية الذي يمكن الحديث عنه، وقد افترضت أنا وشمعون جبسون بأن حشوداً كبيرة من الناس كانت تأتي إلى هذا الكهف، وأن المياه كانت تصب بشكل طقوسي، على الرؤوس من جرار صغيرة، كجزء من قداس اغتسال أو تعميد، وكانت الجرار تكسر بعد ذلك لمنع استخدامها لأغراض عامة، وكنا قد شرحنا هذا النشاط غير الاعتيادي، على أساس إمكانية علاقته مع النشاط المبكر ليوحنا المعمدان.

وقد عدت إلى صوبا مؤخراً، في أثناء كتابة هذا الكتاب، وقد وقعت لي فكرة جديدة، حيث سألت نفسي: من الذي نعرف أنه كان يتولى تعميد حشود واسعة من الناس في المنطقة الريفية لليهودية؟ وبدأت أسأل نفسي: لماذا علينا أن نفترض أنه كان يوحنا، في حين لدينا تقليد معتمد على أن يسوع نفسه كان يعظ ويعمد في المنطقة الريفية اليهودية، وقد عمد حشوداً كبيرة من الناس؟ وقد تذكرت أن مريم أمه قد هربت إلى هذه المنطقة بالذات، عندما كانت حاملة بيسوع لتعيش مع أبوي يوحنا: إليزابيث وزكريا، ويمكن للإنسان أن يفترض أنه عندما يسوع يترعرع، قد قامت أمه وأسرتها بزيارة إليزابيث بما أنهم سافروا إلى اليهودية عدة مرات في العام من أجل الاحتفالات اليهودية، ومن المؤكد أن يسوع كانت له علاقة مع يوحنا قبل سن الثلاثين، عندما واجهه من أجل التعميد في نهر الأردن في الجليل، وكان يوحنا قد أمضى سنواته في العزلة يتجول في هذه الهضاب بالذات والوديان، وليس من الشطط الخيالي أن يفكر الإنسان أن كلًا من يوحنا ويسوع عرفا صهريج الماء الواسع هذا في تلك المنطقة وكانا معتادين عليه ، وأنه يعود بتاريخه إلى أيام إشعياء النبي، ويمكن للإنسان أن يفترض أن جميع السكان المحليين قد عرفوا مكانه ووجوده.

وأنا أتذكر جلوسي خارج الكهف في وقت متأخر من بعد الظهر، عند غياب الشمس، محاولاً أن أتخيل ما الذي من الممكن أنه قد حدث، هل من

الممكن أن بطرس، وجيمس، ويوحنا، والرسل الآخرين، ولربما أم يسوع وإخوته قد وقفوا فوق هذه الأرض بالذات، ودخلوا إلى هذا الكهف بالذات؟ وهل حدث أن تولى يسوع وعظ حشود واسعة من الناس قد اجتمعت في الوادي المنبسط والواسع، الموجود أمامي مباشرة؟ وهل يا ترى قد عاش هنا هو وحاشيته وعسكروا في هذه المنطقة الجميلة، واستخدموا بعض الكهوف الطبيعية التي اكتشفناها في الجوار كله؟ وإذا لم يكن هنا، عندها أين؟ حيث ليس هناك أنهر، أو برك، أو ينابيع مهمة في المنطقة التي تقارن بالحجم مع هذه المنطقة، ذلك أنه يوجد خارج الكهف مباشرة، وادٍ واسع، يمكنه أن يقدم المأوى إلى حشود واسعة من الناس، يمكن أن تجتمع هناك، فمن الممكن أن كهفنا في صوبا قد كان أرض محطة مركزية من أجل وعظ يسوع، وحملته التعميدية في أواخر العام 27م، فلقد وجدت في بعد ظهر ذلك اليوم أنه من السهل تخيل يسوع وأتباعه عند كهف صوبا، وكانت حملة تعميد يسوع ناجحة بطبيعة الحال، لكنها سحقت وتعرضت للبتر في وقت ما في أوائل العام 28م، فقد وصلت أخبار مزلزلة من الجليل إلى الشمال، تحدثت عن أن هيرود أنتيباس قد اعتقل يوحنا المعمدان، وتبعاً لما جاء في إنجيل يوحنا، سمع يسوع حينئذ بأن بعض الفريسيين في القدس، الذين كانوا مضادين ليوحنا، كانوا منزعجين تجاه أخبار نجاح يسوع مع الحشود، ولذلك كانوا يقومون بتحركات تهديدية ضد عمليته [يوحنا: 4/ 1-3] فلقد حان الوقت للذهاب إلى تحت الأرض.

الفصل العاشر

دليل في المملكة

لقد كانت ضربة مزلزلة ومرعبة للحركة المسائحية، فمؤسسها وقائدها يوحنا المعمدان قد ألقي به في السجن من قبل هيرود أنتيباس، حاكم الجليل وبيريا، وتبعاً لإنجيل مرقص كان يوحنا المعمدان قد وجه الملامة بصورة علنية لهيرود لأخذه هيروديا الجميلة، زوجة أخيه فيليب، التي كانت راغبة في أن تكون شريكته في ممارسة الزنى، ولم يذكر يوسيفيوس هذا الحادث بالتحديد، ولكنه قال بأن هيرود كان قد ارتعب تجاه النفوذ غير الاعتيادي الذي امتلكه يوحنا على الناس، وخاف من أن يقوم بثورة ضده، وكان يوحنا قد قام بشكل إستراتيجي بمركزة نفسه على حدود أراضي هيرود، في شرقي الجليل، وبذلك كان بإمكانه النجاة إذا كان الأمر ضرورياً عبر نهر الأردن، إلى المنطقة التي عرفت باسم منطقة المدن العشر، خارج إطار سلطانه، وكان جنود هيرود قادرين على الإمساك به، على حين غفلة، وقد جرى أخذه إلى الجانب الشرقي من البحر الميت، إلى إحدى قلاع هيرود الصحراوية التي عرفت باسم ماخاريوس، وكانت فكرة هيرود هي وضعه في المنطقة النائية القصوى من مملكته، وبذلك تكون هناك فرصة أقل لقيام ثورة شعبية.

وفي الجنوب عرف يسوع أن أيام تعميده صارت معدودة، فقد جرى

تعيين حاكم روماني جديد اسمه بونطيوس فيلاطس، وجاء تعيينه مباشرة من قبل الإمبراطور، تايبيروس، وقد تولى الحكم العسكري على إقليم اليهودية في العام 26م، وقد قام على الفور بتأسيس نفسه كسيد متوحش، دونما اهتمام بالمشاعر اليهودية الدينية، فهو كان قد جلب الرايات العسكرية الرومانية مع التماثيل النصفية لقيصر إلى داخل مدينة القدس المقدسة، وبعد ذلك بوقت قصير أخذ مالاً من خزينة المعبد المقدس ليدفع نفقات إكمال قناة لجر المياه في القدس، وغضبت حشود اليهود واضطربت وتسبب الحادثان بقيام أعمال شغب، وقد ردّ فيلاطس على ذلك بالقوة، فقتل عدداً كبيراً من اليهود[1]، وكان الشيء الوحيد الذي أصر الرومان عليه، هو الاستقرار في اليهودية، وكان آخر شيء أرادوه نبيّاً يهوديّاً له نسب داودي، يجذب حشوداً كبيرة من الناس ويتحدث حول قدوم ملكوت الرب.

وبات على يسوع العودة بشكل ما سلمياً إلى الجليل، حيث يمكنه أن يستكنّ لبعض الوقت، إلى أن يتمكن هو وأتباعه من تقرير الذي سيفعلونه بعد ذلك، وكان قد عرف أنه لا يستطيع السفر عائداً خلال القدس، ومن ثم النزول نحو أريحا، وأخذ الطريق الأساسي العام، المساير لنهر الأردن شمالاً، وأن يعبر مباشرة البقعة التي جرى اعتقال يوحنا فيها، ولكن قرر الذهاب مباشرة نحو الشمال خلال المنطقة الجبلية الوعرة للسامرة، وكان الأتقياء يتجنبون بالعادة هذه المنطقة، حيث إنهم عدّوا السامرة أدنى منهم في الدين والثقافة، وعدّوا المنطقة بشكل عام منطقة كافرة، وكان هيرود الكبير قد بنى هناك عاصمته في سبسطية، وتوج قلعة المدينة بمعبد مكرس للإمبراطور أغسطس، ولم يعد يسوع إلى بلده وموطنه الناصرة، لربما خشية من هيرود، الذي من المحتمل أنه كان يبحث عنه أيضاً، وعوضاً عن ذلك ذهب إلى بلدة قانا الصغيرة إلى الشمال من الصفورية، حيث كان العرس قد حدث قبل سنوات مضت، وإذا كان واحد من إخوانه هو

الذي تزوج من فتاة من قانا، من المحتمل أن أسرة العروس قد أمدت يسوع وعصبة أتباعه بملجأ آمن، ومن المحتمل أنه هناك، مع اقتراب حلول ربيع العام 28م، قد توصل يسوع إلى خطته.

صنع مسيح

نحن لسنا متأكدين كيف ومتى طور يسوع فهمه الذاتي لدوره ولمهمته، فيما اعتقده أنه كان خطة الرب ليكون دليلاً في مملكة الرب، ومن المؤكد أنه عرف وهو يترعرع أنه هو وأخوته كانوا ورثة ذكور من الذرية الملكية للملك داود، وكان مدركاً تمام الإدراك للمعاني المسائحية لهذا الميراث، فالكتابات اليهودية المقدسة كان مليئة بوعود بأن الرب سوف يقيم في «الأيام الأخيرة» ملكاً يكون من ذرية داود، سوف يكون أداة في الإطاحة بالحكم الأجنبي، وفي تأسيس مملكة مستقلة لإسرائيل، وبذلك يدشن عصراً جديداً من السلام والعدل للعالم أجمع، وعرضت نبوءة إرميا هذه الأشياء بشكل بليغ في قوله:

«ها أيام تأتي، يقول يهوه، وأقيم لداود غصن بر، فيملك ملكٌ، وينجح، ويجري حقاً وعدلاً في الأرض في أيامه يخلص يهوذا، ويسكن إسرائيل آمناً». [إرميا: 23/ 5–6].

واستخدم إشعيا اللغة نفسها كثيراً بقوله: «لنمو رئاسته وللسلام لا نهاية على عرش داود وعلى مملكته، ليثبتها ويعضدها بالحق والبر من الآن وإلى الأبد» [إشعيا: 9/ 7].

وتوقع ميخا بأن هذا سوف «يتعظّم إلى أقاصي الأرض» [ميخا: 5/ 4]، ووعد عاموس بأن الرب سوف «يقيم مظلة داود الساقطة» ويعيد بناء بيته مثلما كان في الأيام الخوالي [عاموس: 9/ 11]، وكان هذا المسيح الذي هو «فرع من داود» سيملأ الأرض بمعرفة يهوه مثلما تغطي المياه البحر، ويجعل الذئب

يعيش مع الحمل، والأسد يأكل القش مثل الثور(إشعيا:11/ 6-9)، وجرى تملك صورة هذا الملك الجديد لليهود بشكل جيد في نص شعبي من القرن الأول باسم مزامير سليمان:

«انتبه أيها الرب، وأقم لهم ملكهم، ابن داود،

في الوقت الذي تراه، أيها الرب،

حتى يحكم على عبدك إسرائيل

ومتنه بقوتك حتى يتمكن من شطر الحكام غير العادلين

ولكي يستطيع تطهير القدس

من الأمم،التي دمرت معبدها

بحكمة واستقامة سوف يطرد المذنبين من الميراث......

سوف يدمر الأمم التي بلا رب بكلمة فمه،

ولسوف تفر الأمم من أمامه بسبب لومه لها

وسوف يجمع الناس الأتقياء مع بعضهم

الذين سوف يقودهم في الاستقامة والصلاح

وسوف يحكم أسباط الناس

الذين جرى تقديسهم من قبل الرب إلهه»[2]

وبرنامجه هنا مؤلف من «ست نقاط» هي: الحكم على إسرائيل من على عرش داود، وتطهير القدس من الأجانب، وتأسيس حكم الاستقامة وفصل المذنبين عن شعب اسرائيل، ومدّ حكمه ليشمل جميع الأمم غير الربانية في العالم، ويجمع جميع أسباط إسرائيل المشتتين مع بعضهم بعضاً.

وطلب هذا البرنامج المسرف بالطموح من أي مرشح من ذرية داود،يمكن

أن يشعر بالتحرك المسائحي تجاه مثل هذه الدعوة، وبالنسبة إلى الرومان، لا بـد أن مثل هذه الأفكار قد ظهرت مضللة تماماً، وعملياً كـان يمكـن لليهـود مـن ذوي العقول أن يفسروا لغة أنبيائهم بحرفية غير دقيقة، أو كانوا يتجاهلونها كلياً، ولكن آلافاً من اليهود آمنوا بأن هذا الملـك الـداودي المثـالي سـوف يظهـر فـوق مـشهد الأحداث، ومع قوى الرب المتفوقة سوف ينجز هذه الأشياء، وتشير جميـع أدلتنـا إلى أن يسوع كان هو هذا اليهودي.

ومملكة الرب في هذه النصوص ليست فكرة عاطفية أو أرضية، واللغة صلبة وخاصة، ومعنـى كلمـة «مملكـة» في كـل مـن العبريـة والإغريقيـة «حكومـة» أو «حكم»، مثلما يمكن للإنسان أن يتحدث عن «مملكة» هيرود، أو «حكم» الرومان، وقدمت صلاة يوحنا ويسوع تعليماً محدداً لمملكة الرب على أنها «تنفيذ إرادة الـرب على الأرض»، مثلما تحقق الفعـل في الـسماء،فهذه لم تكـن مملكـة «في» الـسماء، بـل الفكرة هي أن حكم السماء ينفذ إلى التاريخ البشري، ويتجلى بنفسه عـلى الأرض، فلقد جرى فهم ذلك فهماً حرفياً، ولذلك لم يكن هناك شيء أقل من ثورة، وإطاحة كاملة بالأمر الواقع سياسياً، واجتماعياً، واقتصادياً.

وكما كنا قد رأينا في فصل متقدم، كان التوقيت هو كل شيء، فقد كان دانيـال قد رأى مناماً فيه أربعة «وحوش» كبيرة، قامت من البحر، وكان قد أخبر بأن كـلاً منها مثّل «مملكة عالمية» متوالية الحكام، وأنها سوف تقوم، وفهمت هذه الممالـك في أيام يسوع على أنها كانت ممالك:بابل،وفارس، والإغريق،وروما[3]، وعـلاوة عـلى ذلك أخبر دانيال بأنه «في أيام هؤلاء الملوك»، وكان يتحـدث عـن حكـام المملكـة الرابعة، سوف «يقيم إله السموات مملكة لن تنقرض أبداً»،وسوف تسحق وتفتت جميع ممالك العالم الأخرى (دانيال:2/ 44)،وكانت روما ما أن تحركت وانتقلت إلى شرقي البحـر المتوسـط، حتـى احتلـت فلـسطين مـثلما كـان الإسـكندر الكبـير، وقورش، ونبوخذ نصر، قد فعلوا في قرون خلـت، وهكـذا حلـت أيـام «المملكـة

الرابعة» ووصلت، وكان الجمع بين العدّ التنازلي الأخير لدانيال، أي مدة الأربعمائة والتسعين عاماً، أو عشر دورات يوبيل، قد أقنعت الذين كانوا في فلسطين الرومانية للقرن الأول، الذين قدروا الأنبياء العبرانيين تقديراً جاداً، بأنهم كانوا يعيشون في «الأيام الأخيرة» أو في «نهاية العصر»، وإنه لبالغ الأهمية أن نوضح أنهم لم يتوقعوا «نهاية الدنيا»، فتلك العبارة لم تقع على الإطلاق، بل الذي وقع دوماً هو نهاية «العصر»، أو مدة الزمان التي امتلكت فيها ممالك الأميين غير اليهود سلطة قبل حلول العصر الجديد، وهو عصر مملكة الرب، وفي مخطوطات البحر الميت أطلق على هذا العصر اسم «العصر الأخير للشرور».

وشارك يسوع في مفهوم الزمان هذا والتاريخ، وكانت رسالته التي أعقبت اعتقال يوحنا المعمدان، وذلك عندما بدأ بالوعظ والتبشير: «الوقت قد تحقق، ومملكة الرب وشيكة القيام»، ومن المحتمل أنه نشأ وترعرع مع هذه النظرة والتطلع النبوئي، لكن من المؤكد أن ذلك تكثف عندما أصبح بالغاً، وبدأ يقدر أن ما آمن به كان هو قدره ومصيره، ودعوته، فهو قد كان الشخص الصحيح في الوقت الصحيح، لكن كان هناك عنصر حيوي آخر وأنا مقتنع بأن من المحتمل كثيراً شروع يسوع بقراءة بعض النصوص المحددة في الكتابات العبرية المقدسة، ومن ثم تطبيقها مباشرة على نفسه[4]، وحسبما أنا أرى الأشياء، إن هذه الحقيقة حيوية تماماً من أجل فهم تطور شعوره بقدره الذاتي المسائحي، فهناك نصوص متنوعة في نصوص الكتابات المقدسة، قد أعلنت عن برنامج عام للملك الداودي، حسبما ذكرت أعلاه، ولكن هناك نصوص مسائحية أخرى، لاسيما في النصف الثاني من سفر إشعيا، وفي المزامير، حيث هناك المزيد الكثير حول المؤهلات الشخصية، لا بل إن بعضها حتى قد أقدم على كتابة الاسم الأول، من ذلك يبدأ إشعيا في / 61/ بالقول: «روح المولى يهوه عليّ لأن الرب مسحني لأبشر المساكين، أرسلني لأعصب منكسري القلب، لأنادي للمسبيين بالعتق،

وللمأسورين بالإطلاق، لأنادي بسنة مقبولة ليهوه، وبيوم انتقام لإلهنا» فإذا كان هناك إنسان مقتنع بمصير رسالة شخصية، وقرأ مثل هذا النص «وسمع» إنسان صوته، فإن صوتاً قوياً وفعالاً قد بدأ العمل، ويفيد النص في تأكيد وفي تقويه مصير الإنسان، في حين أن التحديد يجد تعريفاً محدداً ومباشراً خلال النص.

ونجد في بعض هذه النصوص الرب يتكلم مباشرة إلى الشخصية المختارة، وفي الغالب تتحرك اللغة متنقلة نحو الخلف ونحو الأمام، من خطاب الرب للفرد إلى جواب الفرد، وانتبه إلى التحول في التفوه في الجملة المفردة التالية:

«أنا، لابل حتى أنا تكلمت ودعوته، وجلبته، ولسوف يزدهر في طريقه» [الرب هو المتكلم].

«اقترب مني واسمع هذا، فمن البداية أنا لم أتكلم بشكل سري، من الوقت الذي حدث أن كنت فيه أنا هناك، والآن أرسلني الرب يهوه وروحه» [استجابة الفرد][5].

وهناك نصوص نجد فيها «حواراً» فعلياً قد قام بين الشخص المختار والرب، مع تقديم الرب لكل من التوجيه والتصحيح، فيما يتعلق بالبعثة الربانية، ويوجد في إشعيا / 49/ واحد من خيرة الأمثلة على هذا، فقد أعلن الفرد المختار: «يهوه من البطن دعاني، من أحشاء أمي ذكر اسمي» [إشعيا: 49/ 1]، وفي مرحلة متأخرة عندما يصبح الفرد المختار محبطاً، يقوم الرب بتقريعه بقوله: «قليل أن تكون لي عبداً لإقامة أسباط يعقوب، ورد محفوظي إسرائيل، فقد جعلتك نوراً للأمم لتكون خلاصي إلى أقصى الأرض» [إشعيا: 49/ 6]، وتعرض بعض هذه النصوص درجة مدهشة من الإلفة والعواطف الشخصية مثل قوله في إشعيا: «أعطاني الرب يهوه لسان المتعلمين لأعرف أن أغيث المعيي بكلمة «يوقظ كل صباح» يوقظ لي أذنا لأسمع كالمتعلمين»[إشعيا:5/ 4].

وعشرات من المزامير تعمل وفق الطريقة نفسها، وبشكل خاص المزامير التي ظهر أنها ذات محتوى مسائحي، فالمزمور / 40/ مدهش تماماً في هذا المقام، حيث هناك ادعاء بأنه قد كتب من قبل داود، لكن من المؤكد أن واحداً من ذرية داود يمكنه بسهولة أن يجد صوته يردد: «بذبيحة وتقدمة لم تسر، لكنك منحتني إذناً مفتوحة.... حينئذ قلت ها أنا ذا جئت، بدرج الكتاب مكتوب عني، أن أفعل مشيئتك يا إلهي سررت، وشريعتك في وسط أحشائي» [الأبيات:6-8]، ونجد هنا تصريحاً محدداً، أن الفرد المتحدث هو أيضاً مكتوب في مدارج الكتابات المقدسة، وقد ربطت فكرة «الأذن المفتوحة» بلطف بالنص المنقول أعلاه من أشعيا 50.

وإذا كان يسوع قد بدأ بشكل موائم، ووجد صوته في مثل هذه النصوص في الكتابات المقدسة، لم يكن الأول في التصرف هكذا، ففي مخطوطات البحر الميت هناك نص مدهش إلى أبعد الحدود يدعى «تراتيل الحمد والشكر»، حيث أن جزءاً منها، قد كتب كما يعتقد العلماء من قبل معلم الحق والصلاح نفسه، فمن المؤكد أن المعلم، قائد جماعة مخطوطات البحر الميت، قد رأى في نفسه أنه المختار لمثل هذا الدور، وقام بشكل منتظم بتطبيق بعض من هذه النصوص بالذات على حياته وعلى أيامه، وهذا نص مدهش أخذ في بعض الأماكن نغمة ترجمة للذات، وهو يمنحنا نظرات إلى المشاعر الداخلية للمعلم، وكيف صاغ هويته الشخصية مسائحياً، فكان بمثابة نبي لجماعته، ومع وجود ذلك النموذج من السهل تصور واحد مثل يسوع، قد منح النسب الداودي، مع أيامه وظروفه، وقد خضع لمسيرة إجراءات مشابهة تماماً.

وأنا أعتقد أنه في بعض النقاط من حياة يسوع، ولربما كان ذلك قبل أن يلتحق بيوحنا في أعمال تعميده، وقبل شروعه بالخروج المعلن بدعوته، وجد يسوع صوته في نصوص من الكتابات المقدسة مثل هذه، وهم لم يمنحوه الوثوق

الداخلي، وقوة الاقتناع، بل زودوه أيضاً بنمط خريطة طريق للذي سوف يحدث، فهناك خط رفيع بين الاعتقاد بأن تلك النبوءة سوف تتوقع ظهور بعض النتائج الخفية للأحداث، وبين السعي إلى حد ما إلى مواءمة هذه الحوادث وتنسيقها، بسبب أنه جرى توقعها في النبوءة، وانشغل العلماء والمؤرخون في مثل النقاش الطويل حول البيضة كانت أولاً أم الدجاجة، فتساءلوا وتجادلوا حول هل دُفع يسوع بوساطة نصوص الكتابات المقدسة، أم أن نصوص الكتابات المقدسة قد فرضت على حياته، بعد حقيقة بذل جهود لإظهار أنه هو قد حقق ما جاء في الكتابات المقدسة، وأنا أعتقد أن الأكثر ترجيحاً هو قد دُفع على العموم إلاّ في حالات قليلة بالكتابات المقدسة[6].

ومع أننا نمتلك مواد أقل بكثير حول يوحنا المعمدان، لكننا نجد في النصوص الموجودة لدينا قد طرح عليه سؤال بشكل متواصل: هل أنت المسيح؟ هل أنت إيليا؟ هل أنت النبي؟ وتعكس هذه التسميات والتصاميم بعض القراءات المحددة لنصوص التوراة العبرانية، التي تولت معالجة توقعات وصول الشخصيات الرئيسة، وأدوارهم المتوقعة في المملكة المعلن عن قرب قيامها، وعندما أجاب يوحنا، من المهم أن أجوبته كانت نصية، ولم تكن من خلال رؤيا شخصية أو وحي، في أنه لم يدع ذلك، فهو قد اقتبس إشعيا / 40/ وملاخي / 3/ وقال بأنه الرسول الذي ورد الحديث عنه في هذه النصوص، وعندما جرى تعميد يسوع كان «الصوت» الذي سمعه هو صدى لنص من إشعياء، وفيما بعد، عندما عرف نفسه وحدد شخصيته بشكل مكشوف معلن إلى أهالي الناصرة، فعل ذلك من خلال النصوص، بوساطة قراءة إشعيا / 61/ بوساطة الشخص الأول وختم قراءته قائلاً: «إنه اليوم قد تم هذا المكتوب في مسامعكم» [لوقا: 4/ 21]، والمرجح لدي هو أن كلاًّ من يسوع ويوحنا قد صاغا تحديد هويتهما الشخصية، ورؤية بعثتهما المشتركة ككاهن وملك من خلال نصوص محددة اقتبست من التوراة

العبرانية، وكذلك من تقاليد التفاسير التي كانت منتشرة بين اليهود الشرقيين الرؤيويين في ذلك الوقت، ومخطوطات البحر الميت هي نافذتنا الأفضل، التي من خلالها يمكن رؤية كيف أن الإنسان قد تصور المستقبل من خلال النص.

مملكة الرب باتت في متناول اليد

لا بد أن اعتقال يوحنا المعمدان من قبل هيرود أنتيباس قد شكل ضربة مرعبة ومفاجئة لكل واحد من الناس، بما في ذلك يسوع، فهو قد انسحب إلى الجليل، ليفكر حول التحرك المقبل، وهذا ما تناوله مرقص في روايته بقوله:

«وبعدما أسلم يوحنا جاء يسوع إلى الجليل يكرز ببشارة ملكوت الرب، ويقول قد كمل الزمان واقترب ملكوت الرب، فتوبوا وآمنوا بالبشارة»، [مرقص: 1/ 14].

وعاد شمعون بطرس وأخوه أندرو، وابنا زبدي: جيمس ويوحنا، إلى كفرناحوم من أجل متابعة أعمال صيد السمك، والانتظار في الوقت نفسه لمعرفة الذي كان في ذهن يسوع حول الخطوة التالية، وأقام بطرس عملياته في بيت ونقل أسرته إلى هناك وغادر يسوع قرية قانا الصغيرة، حيث كان هو وأسرته كما هو مرجح منزويين، وتوجه إلى كفرناحوم، حتى يجعل تلاميذه يعرفون قراره، بمعاودة السير على الطريق، وكان تحركاً جريئاً، تحرك عرف تماماً أنه قد يقود إلى اعتقاله أيضاً.

وعندما أخبرهم قائلاً: «دعونا نترك الشباك، ولنذهب إلى اصطياد الناس، لم يقوموا بشكل أعمى بإلقاء كل شيء في حالة تقوى لاواعية لأمره الذي لا يقاوم، حسبما جرى في الغالب تصوير ذلك، فقد كان هؤلاء التلاميذ، قد عملوا معه، وعاشوا معه لمدة أشهر في العام الماضي في اليهودية، عندما عمدوا حشوداً كبيرة من الناس، والشيء نفسه يرجح أنه يندرج على لاوي أو متى الذي ذهب ليعمل في

مركز جباية ضرائب في كفرنا حوم، ولم يكن معنى تولي هذه الوظيفة أنه كان متعاوناً مع الرومان، بل معناه فقط أنه وجد عملاً في نسيج المجمع المالي، الذي أنتجته صناعة صيد الأسماك في تلك المنطقة، وأقام يسوع مركز قيادة لحركته في بيت بطرس، وبسرعة انتشر الخبر بين أتباعه الذين كانوا معه منذ البداية، وأن شيئاً كبيراً بات وشيك الوقوع، فاحتشد الجميع في كفرنا حوم.

ومن كفرناحوم بدأ يسوع وبطانته بالسفر والطواف على جميع مدن وقرى الجليل، يعظون كل من يود الاستماع، وكانوا يعودون أحياناً إلى كفرناحوم لمعاودة التجمع ثم الانطلاق مرة أخرى، ونحن لا نعرف كم كان عدد التلاميذ، الذين كانوا يتبعون يسوع في هذا الوقت، ولكن يمكن للإنسان أن يتخيل وجود كادر من الأتباع، ربما عدة عشرات، بما في ذلك نساء، سافرن مع الجماعات لتقديم الدعم اللوجستيكي [لوقا: 8/ 1-3]، وقد تنقلوا من قرية إلى قرية، وتعاملوا مع حشود تدفقت عليهم أثناء النهار، وعسكرت خلال الليل.

وكانت الرسالة رسالة بسيطة «تحولوا عن ذنوبكم لأن مملكة الرب قريبة، والحكم بات في متناول اليد»، وكان يسوع يضع يده في كل مكان على الذين كانوا مرضى، أو معاقين جسدياً، ويطرد الشياطين، أو الأرواح الشريرة، وكان من المعتقد أن المرض هو نتيجة ربط «الشياطين» للناس، ولذلك كانت أعمال معالجاته الشفائية وتطهيرهم قد ارتبطت بذلك[7]، وكان يسوع ثائراً سياسياً، لم يتوقع شيئاً كان أدنى من الإطاحة بعنف بممالك العالم، لكنه لم يعتقد أن ذلك سوف يتحقق بجمع السلاح، أو بحشد عصابات من الثوار والعساكر، مثلما حاول بعض الذين عاصروه، فقد كانت الخطوة الأولى هي إلحاق الهزيمة بالشيطان وبقواه، وحسبما كان قد رأى الأشياء كان عليه أولاً وقبل كل شيء هزيمة الشيطان نفسه، قبل الإطاحة بهيرود، وبونطيوس فيلاطس والفرق العسكرية الرومانية، لأنه رأى أن الشيطان كان موجوداً خلف مشهد «حكام

العصر»، وقد ربط يسوع مباشرة قواه ووجهها لطرد الأرواح الشريرة، من أجل «ربط الشيطان»، وفي سبيل تدمير مملكته، فذلك سيمكن من قدوم مملكة الرب، ففي نص من المصدر / ق/ أعلن إعلاناً حاسماً بقوله: «ولكن إن كنت بإصبع الرب أخرج الشياطين فقد أقبل عليكم ملكوت الرب» [لوقا: 11/ 20]، فلقد كان العمل الأول هو علامة من أجل العمل الآخر.

ومضت حملات التبشير واستمرت خلال الأشهر الأولى من العام 29م، وكانت المؤثرات كبيرة جداً، فقد اجتمعت حشود عملاقة لسماع وعظه، ولتشهد أعمال الشفاء المحكية وطرد الشياطين، وتبعاً لمرقص تدفق الناس على الجليل من اليهودية ومن القدس، ومن الجانب الشرقي للأردن، لا بل حتى من صور وصيدا في الشمال، وكان يوحنا المعمدان قد حرك الأشياء كثيراً في الجليل، لكنه لم يكن يتولى الشفاء أو طرد الشياطين، وقد ظهر الآن أنه منعدم المقدرة في السجن في ماخاريوس، وجعلت هذه النشاطات الجديدة يسوع، والقوة الناتجة عنها التي امتلكها، يبدأ بالشعور في ذاته، ونشطت الحركة المسائحية وحثتها حتى أوصلتها إلى مرحلة مركزية، وبالطبع لم يكن كل واحد مسروراً تجاه الذي كان يحدث، فقد كانت هناك جماعات تعارض الفريسيين، وكانوا من المنطقة، التي تهددت فيها قاعدة سلطتهم، ويرجح أنهم خافوا من أن كلاً من نفوذهم وقاعدتهم الاقتصادية قد جرى تحديها، بوساطة التأييد الواسع بين الناس لواعظ فاتن وجذاب، يبشر بمملكة الرب، ويبدأ وكلاء هيرود، الذين يشير العهد الجديد إليهم تحت اسم «الهيروديين»، يخططون من أجل إيقافه [مرقص:3/ 6]، وكان يسوع مدركاً تماماً للخطر، غير أنه قرر دفع الأشياء نحو النهاية، فاتخذ قراراً خطيراً جداً، حافلاً بالمعاني السياسية، وكذلك الروحية.

وانتقل يسوع، كملك مستقبلي لإسرائيل، لإقامة «حكومة» مؤقتة تتشكل من الهيئة الداخلية، أو مجلس الاثني عشر، فقد اختار من بين أتباعه اثني عشر رجلاً سماهم «نواباً» أو «مبعوثين»، وهذا هو معنى الكلمة الإغريقية التي ترجمت إلى «رسل»، وكان مقصده الأخير هو أنه عندما تصبح هناك حكومة عاملة تماماً، كل واحد منهم سوف يجلس على «عرش» واحد من الأسباط الاثني عشر لبني إسرائيل، [لوقا: 22/ 30]، ومن المحتمل أن المسيحيين نظروا مؤخراً نحو اختيار «الاثني عشر رسولاً» على أنها كانت خطوة في التنظيم الروحي، ومن المؤكد أن ذلك قد كان، فقد كانت جماعة مخطوطات البحر الميت قد بنيت وتكونت حول مجلس داخلي، كان مؤلفاً من اثني عشر، ومن المحتمل تماماً أن هذا النموذج قد أثر على يسوع[8]، ولكن الإنسان عليه ألا يتجاوز التطبيقات الثورية لأعمال يسوع.

وكانت المهمة الأولى والأساسية للمسيح الداودي هي جمع أسباط بني إسرائيل، بما في ذلك الأسباط الضائعة، الذين ذهبوا إلى المنفى أثناء القرن الثامن قبل الميلاد، بسبب الغزو الآشوري لبني إسرائيل، فتبعاً ليوسيفيوس كان سبطان فقط من أسباط بني إسرائيل خاضعين للحكم الروماني هما: يهوذا وبنيامين وبعض المزيج من لاوي، في حين أن القسم الأساسي من الأسباط العشرة الأخرى، كان قد هاجر نحو الشمال الغربي، وتمركز حول مناطق البحر الأسود[9]، وأشار اصطلاح «يهود» إلى بعض سبط «يهوذا»، لكنه صار يستخدم من دون تقييد ليعني أي واحد هو من أصل إسرائيلي، وكانت رؤيا يسوع للمستقبل كما سوف نرى تتضمن دعوة جميع الإسرائيليين الموزعين عبر العالم للعودة إلى البلاد، فهذا جميعه قد جرى توقع حدوثه من قبل الأنبياء كلهم في «الأيام الأخيرة» حتى إنه وفي الحقيقة كان قد قال بأن «خروجاً جديداً» للإسرائيليين من أراضي «شتاتهم» أو توزعهم سوف يعادل بحجم الخروج

الأصيل من مصر، في أيام موسى [إرميا: 16/ 14-15].

وعملية فحص قريب لتشكيل هذا المجلس عظيمة البيان والإيضاح، ففي كل مرة كتبت أسماؤهم، في متى، ومرقص، ولوقا، جرى تصنيفهم دوماً في ثلاث شرائح، في كل شريحة أربعة أسماء كما يلي:

1. شمعون بطرس، وأندرو، وجيمس، ويوحنا.
2. فيليب، وبارثلميو[10]، ومتى[11]، وتوما.
3. جيمس، ويهوذا[12]، وشمعون، ويهوذا الأسخريوطي.

والثمانية الأوائل معروفون بشكل جيد، لكن الأربعة الأواخر موضع ريبة غامضة، فهم كتبوا في مصادرنا كلها دوماً في الأخير[13]، ونحن نتوقع وضع يهوذا الإسخريوطي في آخر القائمة بالذات، بما أنه هو الخائن ليسوع، ولكن من هم الثلاثة الآخرون، جيمس، ويهوذا، وشمعون؟، فبالمقارنة مع الآخرين ما من شيء روي عنهم وحكي في أي من أناجيل العهد الجديد، ومن المؤكد أن الصمت الغريب جاء عن قصد، وجاء ترتيب الأسماء عن سابق تصميم، والذي نمتلكه هنا هو مثل تقليدي فيه جاء وضع الآخرين في الأول.

فمع أيام أناجيل عهدنا الجديد، كان الدور الحيوي الذي سيؤديه هؤلاء الثلاثة، لا بل حتى حول وجود الأسرة الحاكمة ليسوع، في طور إجراء نشر الصورة وإعلانها، لكن أسماءهم كجزء من الاثني عشر، من الممكن أنه لم يكن موجوداً، ومن الواضح أن: جيمس، ويهوذا، وشمعون هم أخوة يسوع، وفي الحقيقة عرف يهوذا باسم «يهوذا الجيمسي» في لوقا 6/ 16، وهي عبارة لربما كان معناها «أخو» فهو دعا نفسه باسم «أخو جيمس» في رسالته المؤلفة من صفحة واحدة في نهاية العهد الجديد، وهي وثيقة وصلت إلى قرب إبعادها عن النصوص الشرعية، وعرف جيمس باسم «ابن ألفيوس»، وكنا قد رأينا أن

«ألفيوس» هي صيغة أخرى لاسم «قيلوفا» أخي يوسف، ويرجح أنه كان الزوج الثاني لمريم، وكان شمعون «بن قيلوفا» هو الشخص الذي تولى قيادة حركة يسوع بعدمقتل جيمس، فهو على هذا كان أيضاً أخاً، فأنا مقتنع بأن هؤلاء كانوا الإخوة الثلاثة ليسوع.

وبناء عليه؛ ماذا عن الأخ الذي كان اسمه يوسف ؟ ليس هنا ذكر لاسم يوسف قد ذكر كجزء من الاثني عشر، ومن المرجح أن يسوع قد اختار ثلاثة من إخوته، وترك واحداً في الخارج؟.

فقد كان يوسف الأخ التالي بالسن بعد جيمس، ويوجد هنا شيء غريب كان يحدث هنا، فالشخص الذي عرف باسم «متى» قد وصف بأنه «اللاوي ابن ألفيوس» في مرقص 2/ 14، وبناء عليه لدينا ولد آخر «لألفيوس» الغامض أو قيلوفا، فهذا يجعله أخاً لجيمس، ويهوذا، وشمعون، ولكن لماذا عرف باسم «متى» أو «اللاوي»، ولم يعرف باسم «يوسف»؟ ومن المحتمل تماماً أنه قد عرف بالاسمين معاً، الأول كان اسمه، والثاني قد منح له تشريفاً ليوسف، الزوج المتوفى لمريم، وأخي قيلوفا، وكان مثل هذا الجمع بين الأسماء شائعاً تماماً في تلك المدة الزمانية، خاصة بين الذين ارتبطوا بنسب كهنوتي، مثلما كانت مريم أم يسوع، فلنتذكر أنه في نسبها لوحدها ورد ذكر «متى» ست مرات، ففي الحقيقة كان هذا هو الاسم الأكثر شيوعاً في نسب يسوع من جهة أمه، فالجد الأعلى ليوسف كان اسمه متى، وجده الأعلى كان اسمه لاوي، ومن الجديربالذكر أن المؤرخ اليهودي للقرن الأول الذي نعرفه باسم «يوسيفيوس» كان اسمه يوسف، وقد امتلك أخاً كان اسمه متى، وجداً اسمه يوسف، وكانت أسرته الشيء نفسه لها نسب «كهنوتي»، قد انحدر من المكابيين أو الهشمونيين،ومن المحتمل تماماً أن نسب مريم قد امتلك روابط بهذه الأسرة بالذات، التي أعطتها معياراً «بالكهانة» الملكية، وكذلك نسبها الداودي، ففي مدفن تلبيوت الأسماء: يوسف، ومريم، ويهوذا،

ويسوع، وكذلك أيضاً اسم متى، وهو ليس اسماً أجنبياً لأسرة مثل أسرة مريم، التي آثرت الأسماء الثورية.

ومن المحتمل أن هذا أفضل سر جرى حفظه في العهد الجديد كله، أي أن **إخوة يسوع كانوا بين الذين عرفوا باسم الرسل الاثني عشر**، وهذا يعني أنهم كانوا شركاء مكتومين في جميع هذه الإشارات الكثيرة إلى «الاثني عشر» فهم كانوا مع يسوع في العشاء الأخير، وعندما مات نقل قيادة حركته إلى أخيه جيمس الأكبر، ووضع أمه تحت رعاية جيمس، ولم يكن جيمس سوى «التلميذ المحبوب» الغامض في إنجيل يوحنا.

ويظهر أن أحد الأشياء التي اعتقد الناس أنهم عرفوها حول إخوة يسوع، هو أنهم لم يؤمنوا به، وقد أقيم هذا الرأي الزائف على عبارة واحدة في يوحنا 7/ 5، وقد عدّ ذلك كثير من العلماء أنه إقحام متأخر، حتى أن المترجمين الحديثين وضعوا العبارة بين معترضتين وما أن ندرك أن الإخوة كانوا جزءاً من الاثني عشر، وأن جيمس كان «التلميذ المحبوب» فإن كثيراً من الأشياء تبدأ بإعطاء منطق جديد، وهناك نصان في مرقص رأى فيها بعضهم ما يشير إلى الاستخفاف بأهمية أسرة يسوع، لكنهما تعرضا لقراءة خاطئة تأسست على افتراض زائف بأن الإخوة لم يؤمنوا بيسوع[14]، ومن المدهش كيف أنه أقيمت آراء ثابتة وبنيت على مثل هذه الأساسات المهزوزة.

ففي وقت ما في ربيع العام 29م، قبل عيد الفصح اليهودي، قسم يسوع اثني عشريته إلى قسمين، في كل قسم مجموعة مؤلفة من ستة رجال، وكانت هذه حركة إستراتيجية، وكانت نواياه عظيمة بقدر ما كانت خطيرة، وكانت مهمتهم الطواف في البلاد كلها، وكان عليهم السفر دونما مرافقة، وأن لا يحملوا معهم شيئاً: لا مالاً، ولا مؤناً، ولا أمتعة، ولا أن يغيروا حتى ملابسهم، أخذ كل واحد منهم معه عصا فقط، وزوجاً من النعال، وقميصاً، ووجههم بقوله: «إلى طريق أمم لا

تمضوا وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا، بل اذهبوا بالحري إلى خراف بيت إسرائيل الضالة»، [متى:10/ 5-6]، فقد كان عليهم الاقتراب من كل بلدة أو قرية وأن يعلنوا: «توبوا إنه قد اقترب ملكوت الله»، ووقتها عليهم أن يضعوا أيديهم على المرضى، وأن يطردوا الشياطين، وكان عليهم عدم التهاهل، والبقاء ليلة واحدة في كل مكان، مع أي صاحب بيت أدخلهم إليه.

ولم يكن الذي بادر يسوع إلى القيام به أقل من هجوم روحي، ليعلن مبشراً بوصول مملكة الرب، وقد أعلن عن «السنة المقبولة ليهوه»، وجاء ذلك بناء على إشعيا: 61/ 1-2، الذي فهمه أنه يتكلم عن دوره بمثابة أنه الممسوح من يهوه، أو المسيح، أي أن المدة الحاسمة من ربيع العام 28م إلى ربيع العام 29م، قد انتهت، وكان قضاء الرب جاهزاً ليعلن عن نفسه، وقد أعلن بجرأة إلى الاثني عشر وأخبرهم: «إنكم لن تمضوا خلال جميع مدن إسرائيل، قبل وصول ابن الإنسان»، ووصول «ابن الإنسان» هو الذي نظر إليه المسيحيون فيما بعد كإشارة إلى القدوم الثاني ليسوع، ومنذ أن كان واقفاً معهم، عندما قال هذا، كان يتوقع تأثير بعثتهم الحيوية، وكان دانيال قد امتلك مناماً حول «واحد مثل ابن إنسان قادم في سحب السماء»، وجرى تفسيره بشكل رمزي في سفر دانيال ليعني أن شعب الرب سوف يستولي على ممالك العالم «دانيال: 7/ 13-14»، وهذا الاصطلاح نفسه في الآرامية هو «برإينوش» يعني ببساطة «كائناً بشرياً»[15]، وقد جرى استخدام هذا التعبير نفسه في هذا السفر بالذات لمخاطبة النبي دانيال (8/ 17)، وعبارة «ابن الإنسان» في منام رؤيا دانيال[16] تقف بشكل جماعي من أجل الناس المؤمنين من بني إسرائيل، الذين سوف يتسلمون الحكم من مسيحهم، ونجد في أقدم مجموعاتنا للأقوال مثل الأقوال الموجودة في مصدر «ق» أن يسوع قد تحدث عن «ابن الإنسان» بصيغة الغائب، وقدوم «ابن الإنسان» هو حادثه، وليس فرداً يخرج فجأة من بين السحاب، ولسوف تكون «علامة» قدوم ابن الإنسان علامة فلكية،

فالشمس والقمر سوف يظلمان بوساطة الخسوف والكسوف، وسوف تسقط «النجوم من السماء» [متى:24/ 29]، ولسوف يكون هذا علامة على الإطاحة الحاسمة بالشيطان وبمملكته في السموات، ولسوف يتبع ذلك زلازل وعلامات سماوية أخرى، والمجتمع كله سوف يهتز بوساطة هذه الحوادث الكونية، وسوف يعد هذا كله الطريق إلى الملك المسيح، حتى يحشد مختاريه، ويخرج يوحنا مسيحه الكاهن، وشريكه في الحكم، من السجن، وسيسافر بعد ذلك مع يوحنا إلى القدس حتى يعلن عن تدشين المملكة الجديدة.

ويظهر أن يسوع كان يتوقع أن بعثة الاثني عشر سوف تقود مباشرة إلى هذه الوقائع المثيرة، فقد أخبرته قراءاته للأنبياء أن «سنة يهوه المقبولة» باتت وشيكة، وأن بعثة الأثني عشر سوف تعطي جميع بني إسرائيل الفرصة إما للتوبة، أو للهلاك، وأشارت هذه العبارة إلى مدة سنة واحدة للتجربة، فيها يقف كل شخص في الميزان، وسوف يعقب ذلك «سنةالانتقام»، التي فيها سوف يطيح الرب بممالك العالم من خلال تعاقب تجليات كونية [إشعيا: 61/ 2].

وكما ظهر دوماً في قضايا التوقعات الرؤية، لم يحدث الذي كان متوقعاً كثيراً، والذي كان الأدنى توقعاً، هو الذي حدث، فقد قرر هيرود أن يعمل، فنكصت الحركة كلها وتراجعت وهي تعاني من صدمة.

هيرود يضرب

سمح هيرود أنتيباس لتلاميذ يوحنا بزيارته في قلعة ماخاريوس الصحراوية حيث كان مسجوناً، وقد أبقوه على اطلاع وتقدير على التأثير غير الاعتيادي لحملة تبشير يسوع التي أثارت البلاد كلها، ولا بد أنه شعر بسرور فائض في قلبه بأن يسوع قد افتتح مهمة تبشيره، وقد أعلن عن نفسه صراحة أنه «المسوح من قبل الروح»، الذي حقق نبوءة إشعيا(61) المحورية، فقد كانت هذه الشخصية هي التي ستتولى كما قال: «لأبشر المساكين أرسلني لأعصب منكسري القلب لأنادي للمسبيين بالعتق وللمأسورين بالإطلاق، ولأعلن أن «سنة حظوة ليهوه» قد حلت، واحتفظت رواية لوقا المنقولة عن المصدر «ق» بنموذج عن رسالة يسوع قوله:

«طوباكم أيها المساكين لأن لكم ملكوت الرب

طوباكم أيها الجياع الآن لأنكم تشبعون.

طوباكم أيها الباكون الآن لأنكم ستضحكون.

طوباكم إذا أبغضكم الناس.... لأن أجركم عظيم.

وجاء بعد هذه الإعلانات الإيجابية أربعة أحكام شاجبة نظيره هي:

«ويل لكم أيها الأغنياء لأنكم قد نلتم عزاءكم.

ويل لكم أيها الشباعى لأنكم ستجوعون.

ويل لكم أيها الضاحكون الآن لأنكم ستحزنون وتبكون.

ويل لكم إذا قال فيكم جميع الناس حسناً، لأنه هكذا كان آباؤهم يفعلون بالأنبياء الكذبة» [لوقا: 6/ 20-25].

وتوقعت هذه الرسالة الثورية «ببشارة ملكوت الرب» وتنبأت بتغيير كبير جداً وإعادة تكوين للمجتمع من الأعلى إلى الأسفل، فالذين في السلطة سوف يسقطون، والمظلومون سوف يرجى رفعهم نحو الأعلى، وقد جرى فهم طرد الشياطين على أنه جزء من غمل المسيح «بإعلان العتق للمأسورين»، ومن دون شك أنه كان بالنسبة إلى يوحنا المعمدان الجالس في زنزانة في السجن في ماخاريوس، توقع قيام المسيح «بإعتاق المأسورين»، سوف يجلب أيضاً نهاية لتجسيده الحرفي، فقد كان الأنبياء قد توقعوا بعد كل شيء بأن المسيحيين اللذين هما: المسيح الملك الداودي، والكاهن المسيح، سوف يحكمان جنباً إلى جنب في القدس وركزت جماعة البحر الميت توقعاتها المسائحية على نص إشعيا هذا نفسه(61)، ففي جذاذة ثمينة من الكهف الرابع، دعاها العلماء «النبوءة المسائحية» كان هناك توقع بأن المسيح سوف «يشفي المرضى، ويقيم الموتى، ويجلب بشائر إلى الفقراء»[1]، وقد عرف يسوع ويوحنا المعمدان إما هذا النص من قمران، أو نص مماثل له، وقد أرسل يوحنا رسالة إلى يسوع من السجن يسأله: «هل أنت الواحد، أم علينا توقع آخر»؟ فهو قد أراد الحصول من يسوع على تأكيد مباشر بأنه قد افتتح هذا البرنامج المسائحي، وأجاب يسوع ليس بالاقتباس مباشرة من إشعيا61، بل أجاب بالكلمات نفسها المحفوظة في مخطوط البحر الميت هذا: اذهب وأخبر يوحنا بالذي رأيته وسمعته: إن المرضى قد شُفوا، والموتى قد قاموا، والفقراء جلبت

إليهم بشائر طيبة [لوقا: 7/ 22]، ومن المهم أن نذكر هنا أن إشعيا لم يذكر بالتحديد بأن المسيح سوف «يقيم الموتى»، ولكن يسوع أدخل هذه العبارة في جوابه «كعلامة على المسيح»، عارفاً بأن يوحنا المعمدان كان عارفاً بها ومعتاداً عليها، ربما من المخطوط نفسه، وقد أشار كل من المخطوط ويسوع في جوابه إلى مدى أهمية تحقيق ما جاء في إشعيا61، بالنسبة للحركة المسائحية.

ولكن ماذا حول «إقامة الموتى»؟ لقد كان هناك تقرير غير اعتيادي منتشر بين الناس بأن يسوع قد أقام بالفعل شاباً من على نعشه في قرية نايين التي وقعت إلى الجنوب من الناصرة [لوقا: 7/ 11-15]، وبعد تبادل هذه المراسلات بوقت قصير مع يوحنا، وعندما عاد يسوع إلى كفر ناحوم، وقبل إرساله الاثني عشر، أقام من الموت فتاة كان عمرها اثنتي عشر سنة [مرقص: 5/ 42]، فقد كانت ابنة قائد الكنيس المحلي.

ولم تكن التوقعات المثيرة جداً، والأشياء غير الاعتيادية، أعلى منها الآن، وأنا لم أجد أية إشارة إلى أن يسوع كانت لديه أية خطة في جمع السلاح، وأخذ مفرزة من الجند والنزول إلى ماخاريوس، لإطلاق سراح يوحنا من السجن بالقوة، بل من المؤكد أنه كان يتوقع وقوع حوادث فضائية على الفور تحدث التغيير، سواء بوساطة الزلازل، أو علامات سماوية، سوف ينتج عنها رأساً إطلاق سراح يوحنا، فالقدرات على الشفاء، وعلى طرد الشياطين، قد أُظهرت بكل وضوح، ولم تترك أدنى شك بأن الرب كان جاهزاً للعمل بشكل حاسم من أجل الإطاحة بممالك هذا العالم بوساطة ملكوت الرب.

الإحباط الكبير

وواجه هيرود أنتباس مشاكل نجمت عن أعماله، في الأشهر الافتتاحية للعام 29م، فهو قد نقل عاصمته إلى مدينة طبرية ذات النمط الإغريقي- الروماني المشرق، فهو كان قد بنى هذه المدينة الجديدة تشريفاً للإمبراطور الذي خلف أغسطس عند موته في العام 14ق.م، وتوضعت هذه المدينة على الشاطئ الغربي لبحر الجليل، على مسافة ثمانية أميال إلى الجنوب من كفر ناحوم، وكان قبل عدد كبير من السنين قد مضت قد تزوج أميرة اسمها فاسياليس Phasaelis ابنة الملك الحارث الرابع، ملك الأنباط، وقد كان هذا الزواج تحالفاً سياسياً محضاً لتمتين الحدود الشمالية للبتراء، عبر الأردن، وعندما أخذ هيروديا، زوجة أخيه فيليب، التي كانت أميرة هسمونية، شعر أنه كان مكرهاً على تطليق فاسياليس، مما أزعج الملك الحارث وأغضبه، فكان أن أمر جيشه بمهاجمة قوات هيرود في بيريا، ولحق الهلاك بجيش هيرود، وتحالف أخوه فيليب بقواته مع الملك العربي، مما أجبر الإمبراطور تايبيروس على أمر فرقه القدوم من سورية لمساعدة هيرود، ولهزيمة الحارث.

وأخبرنا يوسيفيوس بأن هيرود قد اعتقل يوحنا المعمدان خوفاً من أن تقود شعبيته إلى ثورة، ولكن تبعاً لما رواه مرقص، أمر هيرود بقتل يوحنا لتوجيهه النقد العلني له، لزناه لدى زواجه من زوجة أخيه، وفي أثناء حفلة شراب أقيمت في قلعة ماخاريوس، بمناسبة الاحتفال بعيد ميلاده الثامن والأربعين، ابتهج هيرود كثيراً وانتشى بالرقص المثير لسالومي ابنة هيروديا، ولذلك أقدم بطيش على وعدها بتلبية أي طلب تسأله إياه، وكانت أمها قد حرضتها على أن تطلب رأس يوحنا، حتى يجلب إلى الحفل على طبق، وفعلت الأم ذلك، لأنها مقتت يوحنا المعمدان، لاستنكاره زواجها، وتمت تلبية طلبها الرهيب في ذلك المساء بالذات.

وسمح لتلاميذ يوحنا بأخذ جسده، وذكر مرقص أنهم دفنوه في قبر، ولكنه

لم يحدد المكان [مرقص: 6/ 9] وكتب يوسيفيوس، بأن كثيرين اعتقدوا بأن جيش هيرود عانى من هزيمة كعقوبة لقتله يوحنا المعمدان[2]، ولا شك أن تعليقه فيه إشارة إلى المكانة الرفيعة التي نظر بها الناس إلى يوحنا.

وكنت منذ عدة أعوام مضت قد زرت قلعة ماخاريوس المكتشفة أثرياً جزئياً، فهي مشكلة من هضبة طبيعية مرتفعة 2.300 قدم فوق سطح البحر الميت، وكان هيرود الكبير، مثلما كان الوضع بالنسبة لمسعدة، ومثلما فعل هناك، قد حصنها حتى تصمد أمام حصار مقداره خمسة أعوام، في حال اضطرت أسرته إلى الفرار أمام ثورة محلية، ومعنى اسم ماخاريوس «السيف»، ولسخرية القدر أن الفرد الذي خافه هيرود أنتيباس كثيراً من أن يقود ثورة، قد مات في هذه القلعة بالذات، حيث قطع رأسه بالسيف، وقد دهشت حين رأيت أن فسيفساء أرض قاعة الاحتفال الرئيسية ما تزال سليمة، أي مكان مشهد رقص سالومي المهين في تلك الليلة بالذات، ويمكن للإنسان أن يسير نازلاً إلى المستويات الدنيا في القلعة، حيث هناك كثير من الغرف أو الزنزانات، حيث ظهر أن بعضها كان محصناً للاحتفاظ بالأسرى، وقد علمت بأنني كنت على الأقل قريباً من المكان الذي أمضى يوحنا فيه الساعات الأخيرة، القليلة من حياته.

وظهر مع موت يوحنا المفاجئ، والشديد الوقع، والوحشي، أن جميع الآمال، والأحلام بحركة مسائحية قد سحقت، فما من واحد كان يفكر حول معاناة مسيح وموته في هذا الوقت، والاحتفال بالنجاح الذي كان سيتبع عودة الاثني عشر من حملتهم التبشيرية، قد تحول إلى يأس، وكانت الأوضاع خطيرة جداً أيضاً، فقد سمع هيرود حول الآثار غير الاعتيادية التي أحدثتها نشاطات يسوع الأخيرة، وتبعاً لمرقص ذهب به الخيال إلى التوهم بأن «يوحنا المعمدان قد قام من الموت» بشكل ما [مرقص: 6/ 14]، فهو لم يكن باستطاعته أن يوضح بشكل آخر ويفهم كيف ظهر أن الحركة التي اعتقد بأنه قد سحقها، قد اقتيدت الآن من قبل واحد

نجاحاته كانت من كل جانب غير اعتيادية مثلما كانت نجاحات يوحنا.

وروت الأناجيل بأن يسوع «انصرف منفرداً إلى موضع خلاء لمدينة تسمى «بيت صيدا» [لوقا: 9/ 10] التي كانت على الطرف الشمالي لبحر الجليل، عبر حدود أراضي هيرود مباشرة، وبعيداً عن متناول يده، وكان بطرس وأندرو قد نشأ هناك، ومثل ذلك فيليب، فهناك كان يمكنهم أن يجدوا مأوى آمناً، ويمكنهم بشكل ما التعامل مع الأسى ومع الصدمة التي شعرت الجماعة كلها بها، وبالنظر نحو الخلف من السهل تصور يسوع واحداً لا يقهر، وأنه كان عارفاً بكل شيء قبل أن يحدث، وأنا لا أعتقد أنه هذا كان مستبعداً، ومن المؤكد أن موت يوحنا كان الحدث الأكثر إحباطاً وتأثيراً مريعاً في حياة يسوع كلها، لأن يوحنا كان قريبه المحبوب، وكان الرجل الذي أعلن عنه «أنه أكثر من نبي» و «أعظم من أي واحد ولد من امرأة» والآن هذا الرجل هو ميت، فكيف يمكن أن يكون هذا صحيحاً؟ وما الذي يعنيه هذا كله، أو لم يكن ملكوت الرب في متناول اليد؟.

ولم يكن من السهل البقاء في الظل، فالجيَشان العاطفي الذي كان يسوع قد أثاره حول بحر الجليل قد ازداد فقط، وانتشر الخبر حول المكان الذي كان فيه يسوع مع أتباعه المقربين، ولذلك أخذت الآلاف تتدفق عليه، وكانت هناك مدد حاول هو فيها مع أتباعه بشكل متتابع الركوب في قارب من أجل النجاة من السحق، حيث أبحر بعيداً عن الأنظار إلى واحد من الموانئ أو المراسي الكثيرة، التي كانت موزعة حول البحيرة، ولكن فقط ليحدد موضعه مجدداً من قبل سكان منطقة أخرى.

وأصبحت الصورة بالنسبة إلينا أسهل، مع فرصة الاكتشاف في العام 1968 الذي شمل بدن سفينة قديمة محفوظة جزئياً في بحر الجليل، وكانت من سفن صيد الأسماك[3]، فقد أنزل الجفاف مستوى ماء البحيرة إلى حد أن القارب المصنوع من الأرز والسنديان والذي هو 8×26 قد ظهر وسط الوحل ليس بعيداً عن ميناء المجدل، حيث كانت مريم المجدلانية قد نشأت، وتبين علمياً أن تاريخ هذا القارب

يرقى إلى القرن الأول للميلاد، ويظهر من حجم هذا القارب أن يسوع وأفراد بطانته المقربين، كان تعدادهم في ذلك الوقت ما بين خمسة عشر رجلاً إلى العشرين، وكانت جميع الأدلة قد ذكرت صعودهم إلى «المركب» ثم نزولهم منه، وكأنهم قد استخدموا سفينة واحدة فقط، ومن المؤكد أن الاثني عشر كانوا معه ويرجح أيضاً أمه، وأختيه، ومريم المجدلانية، ومن المحتمل أتباعاً آخرين منتخبين قلة.

المضي إلى التخفي

يظهر أن يسوع قد حكم بأن مأواه المؤقت في بيت صيدا، لم يكن موقعاً آمناً تماماً، فهو لم يتمكن من تجنب انتباه السكان المحليين واهتمامهم به، فقام هو وعصبته من الأتباع بتحرك وانتقال مفاجىء، فهم توجهوا إلى الشمال نحو قرية قيسارية فيليب «بانياس الجولان»، وهي رحلة مقدارها ثلاثين ميلاً، داخل المنطقة الجبلية الوعرة للجليل الأعلى، لكن ما زال الأمر خارج حدود أراضي هيرود، فقد كان هناك عند رأس ينابيع نهر الأردن، عند سفح جبل الشيخ، مكان اسمه بانياس، من اسم الرب بان، وكانت منطقة كثيرة الخضرة وجميلة جداً، وكانت منطقة مدارية في مظهرها، مع شعاب منحدرة، ومغائر طبيعية، فيها تزود الينابيع نهر الأردن بالمياه.

ونظر الرومان إليها أنها منطقة مقدسة، وذات قداسة طبيعية، وهناك كان هيرود الكبير قد بنى مزاراً كرسه للإمبراطور أغسطس، ما تزال أساساته مشاهدة حتى اليوم، وجرى نصب تماثيل لمختلف الأرباب الرومانية الإغريقية في داخل محاريب حفرت داخل الجروف الصخرية في المنطقة كلها، وكان فيليب أخو أنتيباس قد بنى عاصمته إلى الجنوب وسماها قيسارية فيليب، وأظهرت الحفريات الأثرية بأن المتعبدين كانوا يأتون من جميع المناطق السورية الفينيقية المحيطة، ليأكلوا وليشربوا وليطلبوا الفضل من أربابهم.

ولا بد أن الحيرة قد تملكت أتباع يسوع تجاه نواياه، وسبب اختياره لهذه المنطقة دون سواها من الأماكن؟ ويظهر أن اختياره قد تأسس على عدة حقائق، كانت أولاها مسألة السلامة، فمن المؤكد أن هذا كان آخر مكان، كان أي واحد يفكر في أن يجده فيه، فقد كانت المنطقة تعدّ منطقة طقوس وثنية، من قبل اليهود المتدينين، وكانت بعيدة تماماً عن حدود هيرود، فقد كان يسوع قد صاغ خطة، وكان ذلك في أواخر خريف العام 29م، وهو لم يكن بنيته تنفيذ هذه الخطة حتى عيد الفصح اليهودي في الربيع المقبل، ولقد كان من الضروري، والجوهري أن تتخفى المجموعة وتبقى كذلك خلال أشهر الشتاء، وهو قد أراد ثانية، أن يكون في منطقة نائية، ومكان يختلي به، حتى يشرع في تعليم أتباعه حول التصورات التي كانت لديه حول ما كان منتظراً وقوعه، وقد أدرك أن قراراته من أجل مستقبلهم سوف تتعلق بأعمال، سوف تشكل صدمة كاملة بالنسبة إليهم، حتى ربما ستجلب معارضتهم ورفضهم.

وكان يسوع قد اكتشف إيضاحاً حول لماذا أزيح يوحنا المعمدان بوحشية من وسطهم، إذا كنت مصيباً حول التفات يسوع إلى نصوص الأنبياء في التوراة العبرية من أجل التوجيه، ثم إنه فتش هناك عن جوابه، فإذا كان الرب قد سمح بوقوع مثل هذه الأشياء، فلا بد أنها جزء من خطة ربانية، وعلى الإنسان أن يعثر على الدليل لدى هؤلاء الأنبياء العبرانيين، والنصان اللذان وجدهما يوحنا نفسه موائمان وينطبقان على بعثته، هما إشعيا / 40/ وملاخي / 3/ ، فهو قد كان «رسول يهوه» الذي سوف «يعد الطريق في البرية»، ولكن لم يكن هناك في أي من النصين ما يشير إلى أن هذا الذي يشبه شخص إيليا سوف يقتل، وهناك على كل حال في الإصحاحات الأخيرة من سفر زكريا شيء ما، يبدو وكأن كل واحد قد تجاوزه، فقد كان زكريا قد وضع حواراً متتابعاً، سوف يقود إلى المعركة الذروة من أجل القدس، عندما سوف يتدخل يهوه، ويؤسس ملكوت الرب «زكريا:14»، وتماماً

قبل هذا الوصف لهذا النصر الكبير، هناك بعض الكلمات التي تسبب الارتجاف، من المحتمل أن يسوع كان قد بدأ يتفكر حولها ملياً، وهذه الكلمات:

«استيقظ يا سيف على راعيّ وعلى رجل رفقتي يقول يهوه رب الجنود. اضرب الراعي فتتشتت الغنم وأرد يدي ضد الصغار» [زكريا: 13/ 7].

فمن الذي المكن أن يكون هذا غير يوحنا المعمدان، فهو قد كان الإنسان الذي بدأ «بجمع الغنم» مثل راعي، فعندما كان يسوع قد أرسل اثني عشره، أخبرهم بأن عليهم دعوة الشياه الضائعة من بني إسرائيل، وتبعاً لزكريا كان راعي يهوه واحداً من المسيحين اللذين وقفا بعد الرب مباشرة، رب الأرض كلها كمتعاونين معه، حتى «يضرب بالسيف»، فذلك قد كتب لكل واحد حتى يرى، وكان هذا «الضارب للراعي» سيأتي قبل نهاية العمر، ولذلك ليست هناك إشارة إلى شخصية ما من شخصيات الماضي.

ولكن كان هناك المزيد، ففي إصحاح متقدم «زكريا 12» هناك واحد من «بيت داود» سوف يجرح أو «يطعن»، ولسوف يندب ويناح عليه من قبل أقربائه، ثم إن أقرباء هذا المطعون كانوا قد جرى تحديدهم، فهم قد كانوا من بيت داود، إنما بشكل محدد من نسل ناثان، الأخ المغمور لسليمان، والذي كان الابن الثاني لبثشبع، وهو لم يجلس قط على العرش، وورد ذكر جماعة أخرى، وكان هؤلاء الذين من «بيت لاوي»، ولقد كان وكأن اسم يسوع قد كتب عبر الصفحة، أو لم تكن أمه منحدرة من بيت داود، لكن من خلال ناثان، ثم أولم تمتلك هي المزج غير الاعتيادي للنسب اللاوي مع نسبها؟ فإذا كان الراعي سوف يضرب بالسيف، عندها كان المسيح الداودي هو الذي سوف يجرح، أو يطعن، وكان هذا كله سوف يتحقق ويحدث قبل وصول ملكوت الرب.

وتبعاً لإحدى مخطوطات البحر الميت، وهي وثيقة دمشق، وقعت سلسلة

مرعبة ومماثلة من الحوادث قبل مضي أكثر من مائة سنة، وذكرت هذه الوثيقة «استدعاء» أو موت واحد، دعوه باسم «المعلم الحقيقي»، وهو معروف أيضاً باسم «معلم الحق والاستقامة»، وقد حدث موته بشكل غير متوقع، والتفتت جماعة قمران إلى الأنبياء في محاولة لإيجاد معنى لهذه النهاية المأساوية، وقد وجدوا إيضاحهم في النص نفسه من زكريا، الذي كان يسوع يتفكر حوله ويتأمله، قوله: «اضرب الراعي فتتشتت الغنم»[4].

وبدأ يسوع يتحدث إلى أتباعه حول يوحنا المعمدان، فلقد عرفوا بأن شخصية «إيليا» سوف «تأتي أولاً لتعيد جميع الأشياء»، لكنهم لم يحلموا قط بأنه سوف يقتل، وقد أخبرهم يسوع بشكل مباشر: «أقول لكم إن إيليا أيضاً قد أتى وعملوا به كل ما أرادوا كما هو مكتوب عنه»[مرقص:9/ 13]، ولم يقم مرقص بالتحوير، بل احتفظ هو وحده بقطعة هذه الرواية المهمة، فهاهنا تصريح مباشر في إنجيل مرقص، بأن يسوع قد فسر موت يوحنا المعمدان في ضوء الذي كان «مكتوباً عنه»، وهذه العبارة هي عبارة فنية، وهي تشير إلى شيء كان متوقعاً، أو كتب في النصوص العبرية المقدسة، ويتواءم النص من زكريا 13، حول ضرب الراعي بالسيف مع الذي وقع وصار معروفاً، ولذلك كان من المحتمل كثيراً أنه كان واحداً من النصوص التي بدأ يسوع يتفكر حولها، وقد أصبح المسيحيون معتادين على التفكير حول آلام يسوع وموته، مثلما جرى توقع ذلك من قبل الأنبياء، ولكن تصريح يسوع بأن موت يوحنا كان مثل هذا جرى الإخبار به مسبقاً، وكان لحسن حظنا أنه جرى حفظه لنا في سطر واحد في مرقص، فقد قام كل من متى ولوقا بحذفه، وهذا مثال إضافي على ميلهما نحو التقليل من شأن دور يوحنا المعمدان.

ومثلما كان يسوع قد بدأ يتعامل مع المأساة غير المتوقعة بخسارة معلمه يوحنا المعمدان، من المحتمل تماماً أنه كان قد بدأ يعتقد بأنه هو نفسه سوف

يقابل مصيراً مماثلاً، مع تقديره للميول الرومانية نحو أي واحد سوف يسعى لإشعال ثورة مسائحية، وهذه الإمكانية لم تكن مستبعدة على الإطلاق، ولكن من المحتمل أنها أعيد فرضها على تفكير يسوع بوساطة قراءته لمختلف نصوص الأنبياء، فقد كتب مرقص، أنه للمرة الأولى، عندما كان يسوع في قيسارية فيليب، وقت قيامه هو وجماعته بالتخفي، قد بدأ بتعليم تلاميذه حول آلامه الوشيكة الوقوع، وقد أكد لبعضهم بأنه سوف يعيش إلى أن يرى بأن «ملكوت الرب قد أتى بقوة» [مرقص: 9/ 1]، لكنه حذرهم بأنهم حتى يتبعوه يتوجب عليهم أيضاً «حمل الصليب» [مرقص: 8/ 34].

وكان يسوع مدركاً تمام الإدراك وعارفاً بالذي فعله الرومان بصورة منتظمة بقادة الثوار، وكان من الممكن أن يستخدم هيرود السيف، ولكن الطريقة الرومانية التي اكتملت خلال ما يزيد على مائتي عام من التاريخ، كانت الصلب، فقد احتاج الصلب مدة ثلاثة أيام حتى يموت المصلوب، وكانت الآلام غير محتملة، وجرى استخدام الضحايا عراة كمثال فيه إهانة وتخويف شديد للناس حتى يشاهدوه، وكان بونطيوس فيلاطس الحاكم الروماني في اليهودية، وفي القدس اعتزم يسوع أن يأخذ موقعه، وكان زكريا قد تحدث عن «المطعون»، وبدأ يسوع بشكل مكشوف يحذر الجماعة حول المحاكمات والآلام، التي سوف يواجهونها وستكون أمامهم جميعاً، إذا اختاروا البقاء معه، وقال مرقص بأن بطرس قد «لام» يسوع لتفكيره مثل هذا التفكير، في أن يكون الملك المسيح الذي سيحكم جميع الأمم، ويبشر بملكوت الرب، يمكن أن يعاني من مثل هذه الميتة المهينة، وهو أولم يعد مجلسه المؤلف من اثني عشر تلميذاً بعروشهم وبسلطاتهم؟

وقد أجاب يسوع بطرس بحدة ووجه اللوم إليه بقوله: «اذهب عني يا شيطان لأنك لا تهتم بما لله لكن بما للناس» [مرقص:/ 8/ 33]، وأشار مرقص، أنه مع أن يسوع قد طرح هذا الموضوع عدة مرات، فإن الجماعة ككل لم تتقبله،

وكان الحال وكأنهم لم يكن باستطاعتهم سماع الذي رفضوا تصوره.

ولم يكن نص زكريا هو النص الوحيد، الذي ربما قام يسوع بتقديره، فهو ما أن بدأ يتفكر حول إمكانية تعرضه للآلام شخصياً، وقتها لابد أن كثيراً من النصوص الكتابية المقدسة قد قدمت إلى الذهن، فقد تحدثت مزامير كثيرة حول معاناة المستقيم، لا بل هناك أيضاً نص تكلم حتى عن واحد قدّر له أن يحكم جميع الأمم، قد جرى تسليمه من قبل عصابة من مقترفي الشرور سوف «تطعن يديه وقدميه» [المزمور: 22/ 16]، ذلك أن حجر الزاوية، في هيكل الرب الروحي، قدّر لها أن «ترفض من قبل البنائين» [المزمور: 18/ 22]، وهناك في جميع الإصحاحات الأخيرة من إشعيا نصوص تتماشى مع هذه القاعدة نفسها، وجاء بعضها بصوت الشخص الأول، لذلك ربما بدأ يسوع بتحديدها بأنها خاصة به، كما أن شخصية «العبد» الذي سوف يجمع أسباط بني إسرائيل وأن يصبح نوراً لجميع الأمم هو أيضاً «المهان النفس لمكروه الأمة» [إشعيا: 49/ 7]، وهو قد قال للرب: «بذلت ظهري للضاربين، وخدي للناتفين، وجهي لم أستر عن العار والبصق»، [إشعيا: 5/ 6].

ولكن هل توقع يسوع بأنه سوف يموت؟ علينا أن نتذكر أن أناجيل عهدنا الجديد قد كتبت كلها، بعد ما تحققت الأمور، وبناء عليه إنها تعرض الأحداث مع معرفة كاملة كيف تحققت هذه الأحاديث وجاءت إلى الوجود، وتبعاً لمرقص، الذي زودنا بقلب الرواية هذه حول كشف قيسارية فيليب من دون تعديل، لقد أخبر يسوع تلاميذه بجميع تفاصيل ما سيحدث، وما سيكون، بما في ذلك موته وقيامه من الموت في اليوم الثالث، حيث قال:

«ها نحن صاعدون إلى أورشليم وابن الإنسان يسلم إلى رؤساء الكهنة والكتبة فيحكمون عليه بالموت ويسلمونه إلى الأمم، فيهزأون به ويجلدونه ويتفلون عليه، ويقتلونه، وفي اليوم الثالث يقوم» [مرقص: 10/ 33-34].

ومن المؤكد أن هذا تاريخ قد كتب بعد وقوع الأمر، لتشريف يسوع، الذي اعُتقد بأنه كان يعرف جميع الأشياء قبل وقوعها، ومن المستبعد أن يكون هذا التوقع قد خرج حرفياً من فم يسوع، فقد خلص معظم العلماء إلى أن صياغته من قبل مرقص قد قصد منه إظهار يسوع وقد امتلك معرفة مسبقة بجميع تفاصيل المستقبل، لكن هذا لا يعني القول أن لا شيء في الرواية غير تاريخي، فمن المحتمل كثيراً أن يكون يسوع قد أخبر بهذا تلاميذه، وذلك على أساس قراءته لنصوص الكتابات المقدسة التي أنا أشرت إليها، حول قرب حلول المحن المقبلة.

وإذا كان يسوع قد توقع معاناته على أيدي أعدائه، فأنا مقتنع بأنه قد توقع خلاصه من الموت، وتخليصه من «فم الأسد»، حسبما توقع المزمور [المزمور: 22/ 21]، ففي نص بعد نص يتعامل مع آلام عبيد الرب المستقيمين، لقد جرى دوماً إنقاذهم من «أبواب الموت» في اللحظة الأخيرة، فتبعاً لشاول[5]، لا يتخلى الرب عن «المخلص له»، كما أنه لا يسمح له برؤية الهاوية «المزمور:16/ 10»، وفي المزمور 118 ربما التحديد الأكثر دقة حول هذا الشأن، فالعبد المستقيم للرب هو «الحجر الذي رفضه البناؤون» و«كل الأمم أحاطوا بي»، وأنا صرخت: «لا أموت بل أحيا وأحدث بأعمال يهوه..... ويهوه إلى الموت لم يسلمني»[6]، ومن المحتمل أن يكون يسوع نهل إلهاماً من كلام وتأملات المعلم في قمران الذي كان رائد «الطريق في البرية» في القرن الماضي، وتقدم تراتيل تقديم الشكر، التي كتب جزء منها بشكل خاص، ومباشرة من قبل المعلم، نموذجاً مثالياً حول« معاناة المخلص» الذي عارض ايمانه بالرب القوى الشريرة، وقد جاء نص الترتيلة الثانية كما يلي:

«رجال عنيفون سعوا خلف حياتي. لأني استمسكت بميثاقك، لأنهم وهم جماعة الغش، وقطيع الشيطان، لايعلمون أن موقفي مؤيد من لدنك»[7].

ولقد كان هناك استثناء، فالرب- بعد كل شيء - لم ينقذ دوماً المستقيمين، ففي اشعيا53 توقعات لمعاناة «العبد البار» الذي «قطع من أرض الأحياء»، وقد

قطع عنقه مثل حمل قد ذبح، وتدفق دمه مثل قربان من أجل الذنوب، ومن المحتمل أن يكون يسوع قد وجد في هذا النص توضيحاً لمصير معلمه يوحنا المعمدان، الذي ذبح وفق هذه الطريقة نفسها، وإذا كان يسوع قد آمن بأنه قد أرسل «لإقامة الموتى»، لربما كان قد توقع بأنه كمسيح سوف «يخلص» يوحنا من سجن رتاج الموت، ما أن يكون قد أكمل محنته في الآلام، ووقتها يكون المسيحان قد أكملا تنفيذ مهمتهما المقدرة لهما، فلقد كان يوحنا معلمه، وحسبما قال يسوع: «ليس التلميذ أفضل من معلمه. بل كل من صار كاملاً يكون مثل معلمه» [لوقا:6/ 40]، وقد رأى يسوع أن آلامه المقبلة هي بمثابة «إكمال، قد طلبه الرب من كل منه ومن أتباعه، في سبيل اكتمال ظهور ملكوت الرب، وذلك تماشياً مع ما أخبر به اثني عشيرته في الليلة الأخيرة من حياته حين قال: «أنتم الذين ثبتوا معي في تجاربي. وأنا أجعل لكم كما جعل لي أبي ملكوتا...... وتجلسوا على كراسي تدينون أسباط إسرائيل الاثني عشر » (لوقا:22/ 28-30)، فالآلام سوف تأتي قبل التمجيد والمجد، وكانت درساً من الصعب قبوله.

وبالطبع نحن لا نعرف التفكير الداخلي وصراعات يسوع، والذي حاولت أن أفعله هنا، هو تصور الذي كان يفكر به، على أساس البينات المتوفرة لدينا في الأناجيل، ومن الواضح أن قيسارية فيليب كانت نقطة، فمنذ ذلك الوقت فصاعداً «ثبت وجهه لينطلق إلى أورشليم» وذلك حسب عبارة لوقا [9/ 51].

الحملة الأخيرة

نحن لا نعرف طول المدة التي مكثت بها الجماعة في الشمال، لكنها أخذت أخيراً طريقها عائدة إلى البيت في كفر ناحوم [مرقص: 9/ 33]، وهناك إشارة واحدة على أن ليس كثيراً مما علمهم يسوع حول الآلام الراسية أمامهم قد فهم، ودليل ذلك أن مناقشة قد ثارت أثناء رحلة العودة، حول من سيكون الأعظم،

عندما يصل ملكوت الرب، وفي الحقيقة سأل اثنان من الاثني عشر، وهما صياد السمك: جيمس ويوحنا، عما إذا سيكون باستطاعتهما الحصول على مكانين يختارانهما، واحد على جهة اليمين و الآخر على جهة اليسار، عندما يكون يسوع قد دشن ملكاً [مرقص:10/ 37]، وأجاب يسوع بأن الرب وحده هو الذي يستطيع أن يقرر ذلك، وينبغي أولاً بالنسبة إليهما أن يشربا من «كأس الآلام».

وعندما انتشرت الأخبار بأنه هو وبطانته المقربة قد عادوا إلى كفر ناحوم، بدأت جماعات أكبر من الأتباع بالتجمع هناك، وهي تتساءل عن الذي سوف يتحقق بعد هذا، ويقترح الدليل أن يسوع امتلك في ذهنه استراتيجية محددة ومفصلة شروعاً من هذه النقطة فصاعداً، فهو قد اتخذ قراراً حاسماً ومصيرياً، حيث قرر دفع الأشياء حتى النهاية، حيث بدأ بمسيرة اعتقد أنه سوف ينجم عنها إطاحة مثيرة وحاسمة بالشيطان وبممالكه.

واختار من بين جماعة الأتباع الكبيرة سبعين نائباً، وقد قسمهم، مثلما كان قد فعل مع الاثني عشر، إلى فرق، كل فرقة مكونة من شخصين، وكان عليهم الانتشار قبله في كل بلدة وفي كل مكان، هو عازم على الذهاب إليه، وكانت مهمتهم الأساسية شفاء المرضى وطرد الشياطين، والإعلان في كل مكان: «قد اقترب منكم ملكوت الرب» [لوقا: 10]، وقد نظر يسوع إلى هذا العمل على أنه الرسالة الأخيرة، رسالة خاتمة للعمل الذي كان قد شرع فيه هو ويوحنا قبل ثلاثة أعوام مضت، وقد أخبر المجموعات بأن أية بلدة سوف ترفضهم، قد سجلت من أجل الدمار في الحساب المقبل.

ونحن لا نعرف مدى اتساع سفر هذه المجموعات، ولكن لا بد أنها غطت المناطق في الجليل ومن حوله، ومن المحتمل أنها ذهبت إلى منطقة اليهودية أيضاً، وقد أخبرنا بأن الجميع «قد عادوا مسرورين» منتشين بسبب السلطات التي كانوا قادرين على ممارستها على العالم الشيطاني باستخدام اسم يسوع من أجل الشفاء،

ولطرد الأرواح الشريرة، وقد أخبرهم يسوع قائلاً: «رأيت الشيطان ساقطاً مثل البرق من السماء» [لوقا: 10/ 18]، وامتلك يسوع الرؤيا نفسها، أو المنام، الذي شاهد فيه تنفيذ الإطاحة بممالك الشيطان، ومن المحتمل أن ذلك كان في الوقت نفسه، الذي كانت فيه هذه الفرق تقوم بتنفيذ عملها، وبالنسبة له كان هناك تثبيت مؤكد بأن ملكوت الرب سوف يتجلى على الفور، وأن البلاد كلها سوف ترى «علامة ابن الانسان قادماً في غيوم السماء».

وعند هذه النقطة امتلك يسوع من الأتباع الخلص مائة واحد، أو أكثر، وقد بدأوا بالسفر إلى مختلف المدن بالجوار والقرى، وقد انتقلوا جنوباً نحو القدس واليهودية[8]، وتبعاً للوقا لم تكن الحشود التي تجمعت بالمئات بل بالآلاف، وكانوا من الكثرة بمكان أنهم داسوا على بعضهم بعضاً [لوقا:12/ 1]، وأصبح هيرود أنتباس منزعجاً تماماً وخائفاً من هذه النشاطات، وبعث رسالة من أجل اعتقال يسوع، وحصل بعض الفريسيين على الرسالة وعرف الخطة، فأخبر يسوع بأنه يحتاج إلى مغادرة الجليل، بما أن هيرود قد عزم على قتله، وقد أخبرهم يسوع قائلاً: «امضوا وقولوا لهذا الثعلب ها أنا أخرج شياطين وأشفي اليوم وغداً وفي اليوم الثالث أكمل»[لوقا: 13/ 32]، والإشارة إلى اليوم الثالث إشارة تنبؤية، وهي سرية ولكنها إشارة واضحة إلى كلمات النبي هوشع قوله:

«هلم نرجع إلى يهوه»
لأنه هو افترس فيشفينا،
ضرب فيجبرنا،
يحيينا بعد يومين،
في اليوم الثالث يقيمنا،
فنحيا أمامه» [هوشع: 6/ 2001]

ففي هذا النص كان شعب إسرائيل الذي سحق، سوف ينتعش «بعد ثلاثة أيام»، و«في اليوم الثالث» سوف يبعث قائماً، وكان هوشع يتكلم عن أوضاع بني إسرائيل وهم في المنفى، تحت حكم أجنبي، قد سمح الرب به بسبب ذنوبهم، وفي النصوص التنبؤية غالباً ما جرى استخدام كلمة «يوم» بمثابة رمز لكلمة «عام»[9]، وكان يسوع قد بدأ أعمال «شفائه» لبني إسرائيل، تحقيقاً لأشعيا 61، في ربيع العام 28م، واستمر لقرابة العامين، وقد خطط بأن ينهي عمله «في اليوم الثالث»، الذي سيكون الربيع المقبل لعام 30م، وتبعاً لهوشع إنه عند هذه النقطة سوف يقدم الرب على «إقامة إسرائيل» وتخليصها من الظلم الذي كانت تعاني منه، ولا نعرف فيما إذا كانت هذه الرسالة قد وصلت إلى هيرود، أو أنها لم تصل على الإطلاق، ويرجح أن الإشارات السرية التي كانت تحتويها لم يفهمها، ولكن بالنسبة ليسوع كان كل واحد من هذه النصوص التنبؤية قطعة من الأحجية، وإذا تمسكنا بقراءة هذا النص، وبرؤيا يسوع حول سقوط الشيطان، فقد كان يوما هوشع قد اقتربا من الانتهاء، وباتت «قيامة» إسرائيل وشيكة.

وامتزجت إشارة يسوع إلى قيامه إسرائيل «في اليوم الثالث»، واختلطت فيما بعد مع الأفكار حول قيام يسوع نفسه من الموت «في اليوم الثالث»، ولكن من الواضح أن نص هوشع كان يتحدث حول الشعب، وليس حول المسيح، ولم يمتلك لا هوشع ولا يسوع تحديداً حرفياً بالذهن لأربع وعشرين ساعة في اليوم، وقد استخدم يسوع العبارة بمثابة نموذج «الرمز تنبؤي»، ليدلك على فهمه للمدة الأخيرة من الزمن الذي سيقود إلى خلاص إسرائيل.

وفي حوالي هذا الوقت، أي في أواخر خريف العام 29م، حصل يسوع أيضاً على رسالة تحدثت عن أن أعداءه في القدس، كانوا يبحثون عن سبيل يمكنهم من اعتقاله وقتله [يوحنا: 7/ 1]، ومن المفترض أن هؤلاء الأعداء قد كانوا قادة اليهود من الطبقة الارستقراطية، الذين رأوا في شخصيات مثل يوحنا

المعمدان ويسوع تهديداً لسلطتهم ولسيطرتهم، وذلك من الجانب الاقتصادي للكنيس، ومن جانب تنظيم الشؤون الدينية، ولم يعتقد يسوع بأن الوقت بات صحيحاً بالنسبة له حتى يتواجه مع إما هيرود في الجليل، أو مع السلطات في القدس، ولذلك قرر الانتقال شرقاً، عبر الأردن، إلى منطقة عرفت باسم منطقة المدن العشر، لينتظر هناك خلال الشتاء، وكانت المدن العشر خارج حدود الجليل واليهودية، وكانت محكومة من قبل اتحاد فضفاض لعشر دول مدينة حسب النظام الإغريقي الروماني، وكان من السهل نسبياً بالنسبة ليسوع ولبطانته نصب معسكرهم في منطقة جلعاد الهضبية الجبلية وأن يجد بعضاً من الخلوة والأمن، ونحن لا نعرف فيما إذا كان قد اصطحب معه الجماعة الكبيرة التي كان تعدادها أكثر من مائة، أو أنه اقتصر على أخذ المجموعة الداخلية التي كان قد أخذها شمالاً إلى قيسارية فيليب، وكنت قد تمكنت في العام 1991، من خلال التعقب السري والبحث في النصوص، من تحديد «مكان اختباء يسوع» هذا وزيارته، في الأردن، حيث من المحتمل أن يكون قد أمضى مع عصبته المخلصة ذلك الشتاء الأخير، وكان ذلك من أعظم الاكتشافات إثارة في حياتي.

الأيام الأخيرة في القدس

زودنا إنجيل يوحنا ببعض التفاصيل المدهشة حول الأيام الأخيرة ليسوع، التي مرقص والإنجيلان الأخيران كانوا مدركين لها، ويمكن للإنسان أن يخرج بانطباع من قراءة مرقص أنه بعدما سافر يسوع وعصبة أتباعه، شمالاً إلى قيسارية فيليب، انتقل هو وهم وارتحل نحو الجنوب، مباشرة تقريباً[1]، ويبدو أن هذا لم يكن هو الوضع، فقد أمضى يسوع أشهر الشتاء، أو على الأقل من كانون الأول 29 م، إلى الشرق من نهر الأردن، في مكان أنا سميته «مكان اختباء يسوع»، وقد أعطانا يوحنا مؤشراً على محله بقوله: «ومضى أيضاً إلى عبر الأردن إلى المكان الذي كان يوحنا يعمد فيه أولاً، ومكث هناك»[يوحنا: 10/ 40].

وكان يوحنا يعمد في الوقت الماضي «في عين نون بقرب ساليم لأنه كان هناك مياه كثيرة»[يوحنا: 3/ 23]، ومن الممكن تحديد هذا المكان في هذه الأيام، على أنه «تل سالم» على مسافة ثمانية أميال إلى الجنوب من بيت شين، إلى الغرب من نهر الأردن، وإنه حتى هذا اليوم تزود الينابيع الغنية المسامك الإسرائيلية بالمياه، وفي عودة إلى العام 1991، أنا كنت وقتها أدرس خريطة لهذه المنطقة، فلاحظت أنه يوجد عبر الأردن من تل سالم جرف عميق، أو واد يعرف في هذه الأيام بالعربية باسم «وادي اليابس»، وهو على الضفة الشرقية، ويشكل جزءاً

من المملكة الأردنية الهاشمية في هذه الأيام، وقد لاحظت أن هذا المكان كان في الأيام التوراتية «جدول كريث» المشهور، حيث اختبأ إيليا، عندما كان الملك أخاب السيئ السمعة والملكة إيزابل، ينشدان قتله، فهناك كان إيليا قد جرى إطعامه من قبل الغربان «1-الملوك: 17»، وكان منطقياً بالنسبة لي، أن يكون يسوع قد اختار هذا الموقع، بسبب علاقاته التوراتية، إذ كان قد تخبأ من أعدائه في الجليل ويهوذا، الذين أرادوا أن يقتلوه.

غير أنني لاحظت شيئاً آخر، هو أن «وادي كريث» واقع على مسافة عدة أميال فقط إلى الجنوب من مدينة فحل، التي كانت إحدى المدن العشر، وقد عرفت من قراءاتي أنه عندما هرب أتباع يسوع من القدس في العام 68، قبل أن يقوم الرومان بحصارها الكبير في أثناء الثورة اليهودية الكبيرة، هربوا إلى منطقة فحل، وكان وقتها جيمس أخو يسوع قد جرى قتله من قبل، وكان شمعون أخو يسوع هو قائد جماعة الناصريين، ويقدم سفر الرؤيا رواية تنبؤية حول هذا القرار، وقد أشير إلى الجماعة بشكل رمزي على أنها «امرأة» كانت هاربة من فم «التنين» الذي هو رمز للشيطان «إلى البرية إلى موضعها الذي ترعرعت فيه» [الرؤيا: 12/ 14]، وجعلتهم التقاليد المروية يقيمون هناك أكثر من ثلاثة أعوام، وقد عادوا فقط بعد دمار القدس في العام 70م، وخطر لي أن اختيارهم لفحل لم يكن اختياراً عشوائياً، وإذا كنت مصيباً حول مكان «اختباء يسوع»، وقتها تكون الجماعة قد نظرت إلى «وادي كريث» على أنه كان مكاناً آمناً ليس فقط لأن إيليا قد حمي فيه، وتغذى، بل بسبب أن بعضهم كان قد أمضى وقتاً هناك مع يسوع أيضاً، وفي الحقيقة من المحتمل كلياً أن اختيار شمعون لهذا المكان لمقصد الفرار من القدس له علاقة ما بالوقت الذي كان قد أمضاه هناك مع أخيه يسوع في شتاء العام 29م.

وبعدما قمت بعمليات الربط هذه، قررت زيارة وادي كريث، وقد أصبت بالدهشة تجاه الذي اكتشفته، فعندما يسير الإنسان نحو الشرق على

طول الوادي، يكتشف بسرعة أنه لا يمكن الوصول إليه تقريباً، بسبب شلالات المياه والصخور، ولكن بعد مسافة قصيرة ينفتح ليصبح منطقة محاطة بجروف منزلقة، مع كثير من الكهوف، وهي محمية كلياً من الوصول إليها من الخارج، وهناك قطع من الفخار، تاريخها من القرن الأول، أي من أيام الرومان، وهي مرمية على أرضيات الكهوف، ولقد حاولت أن أتخيل يسوع وعصبته الصغيرة من الأتباع، وهم يعيشون هناك خلال هذه الأشهر الأخيرة الحاسمة من حياة يسوع، ومن المحتمل كثيراً أنه كان بين أتباعه أمه وأختاه، وحيث إننا في ذلك الوقت لم نستطع إنجاز كثير، أكثر من عملية للمسح بسبب التوتر الناجم عن حرب الخليج، ولعل في المستقبل سوف تزودنا الأعمال الأثرية بروابط أكثر تحديداً بين هذا الموقع، وبين أيام يسوع الأخيرة، وكذلك أيضاً حول جماعة الناصرة التي عاشت هنالك فيما بعد.

وفي وسط كانون الأول للعام 29م، قام يسوع بتحرك جريء، ونحن نعرف التاريخ بسبب أن إنجيل يوحنا يخبرنا بأن الوقت كان شتاء، في أيام حكونه[2]، العيد اليهودي، حيث قام برحلة سرية إلى القدس، كاد أن يقتل فيها، فقد دخل إلى معبد هيرود، وعندما كان يسير في منطقة عرفت باسم رواق سليمان، حصره واحد من المسؤولين اليهود، وطلب منه أن يوضح بصراحة فيما إذا كان هو المسيح أم لم يكن، وكانت القضية حرفياً مؤامرة لقتله، فقد كان قيامه بمثل هذا الادعاء، أي بإعلان نفسه ملكاً، كان تحركاً سياسياً، لن يتساهل الرومان معه، حتى من قبل إنسان، ظهر أنه لم يكن لديه جيش أو أي طموح لتفجير ثورة وإشعال فتيلها، ولم يكن هناك أدنى تساهل تجاه المسحاء، فهم لم يُعّدوا متحمسين دينيين لا ضرر منهم، بل أعداء لروما خطيرين ومثيرين للفتنة، ورد عليه يسوع بقوله: «إنك غير مؤمن لأنك لست من شياهي» وقد غضب أعداؤه منه غضباً شديداً، إلى حد أنهم التقطوا الحجارة ليرجموه بها،

وقال يوحنا بأنهم حاولوا اعتقاله، ولكنه هرب، ومضى عائداً إلى مكان اختبائه عبر الأردن.

ولم يقل يسوع حتى الآن بشكل معلن بأنه كان الملك الشرعي لإسرائيل، ولكنه قبل بشكل سري، إنما بصورة محددة، عندما كان في قيسارية فيليب، قبل من شمعون بطرس قوله له مؤكداً: «أنت المسيح»، وكان ذلك عندما كان يخبرهم حول الآلام التي يتوقع قدومها، ولكنه «انتهرهم كي لا يقولوا لأحد عنه»[مرقص:8/ 30]، وكان في الأيام الأولى لحملات دعوته، كان بانتظام يلزم بالصمت أي واحد حاول أن يجعله معروفاً، وكانت الإشاعات وكانت الحشود جاهزة للاستجابة إلى أي واحد سوف يثير الأشياء ضد الرومان، وضد مؤيديهم، ولكن ليس لدينا ولا رواية على أن يسوع قد ذكر نسبه الداودي، وأقل احتمالاً صنع أية مطالبة مكشوفة بالعرش على أساس أنه ملك إسرائيل، وقبل ذلك في ذلك العام، وبعد موت يوحنا، كان من دوافع يسوع في تجنب الحشود، هو أنه عرف أنه كانت هنالك حركة تهدف إلى محاولة إرغامه بالقوة في أن يجعلوه ملكاً [يوحنا: 6/ 15].

وبالحكم صدوراً عن أعماله هو كان نبياً رثوياً، يتولى طرد الأرواح الشريرة، ومعالجاً للأمراض، ولم تكن رسالته حول نفسه، بل كانت حول قدوم ملكوت الرب، لكن كان قد بين بوضوح وتحديد أن قدوم الملكوت مرتبط بأعماله ونشاطاته حيث قال: «ولكن إن كنت بإصبع الرب أخرج الشياطين فقد أقبل عليكم ملكوت الرب» [لوقا:11/ 20]، وكان قد ربط دوره وجعله يتعايش مع تحقيق إشعيا61، وهو نص مسائحي جلي بمحتواه، وبالنسبة إلى يسوع كان التوقيت هو كل شيء، وهو قد أخبر أتباعه مراراً بقوله: «إن وقتي لم يحن بعد» فلقد كانت لديه خطة واضحة في ذهنه، ولسوف يقوم بتحركه في الوقت الصحيح.

في منتصف آذار للعام 30م حل أوان الوقت، حيث قام يسوع وبطانته بالتوجه جنوباً، نزولاً من وادي الأردن إلى القدس، وكانت رحلة احتاجت إلى سفر ثلاثة أيام، ولا بد أنهم عسكروا على الطريق، فقد بات عيد الفصح اليهودي قريباً، ذلك أنه كان سيحل في الأسبوع الأول من نيسان، وكان جميع سكان الجليل على الطريق، آخذين سبيلهم إلى القدس من أجل عيد الفصح اليهودي، ومهما كانت الجماعة حول يسوع في ذلك الوقت كبيرة، لا بد أنها قد بدأت بالازدياد كثيراً بالأتباع وبالفضوليين، وكان هناك شعور كبير بالإثارة في الجو، حيث كان كل واحد يتساءل عن الذي سوف يحدث بعد ذلك، ولربما كان هناك شيئاً من الدهشة، من أن يكون يسوع قد خطط أن يسافر بشكل معلن إلى القدس، وذلك على الرغم من المؤامرات لقتله من قبل هيرود والسلطات في القدس.

وما تزال واحدة من أماكن توقف الحجاج، التي ذكرها يوسيفيوس، مشاهدة عن سفح جبال السامرة، وذلك على طول الطريق، مع كهوف إيواء والتجاء قرب الطريق ونبع طبيعي، ولا بد أنهم قد وصلوا إليها في الليلة الأولى، ويمكن للإنسان أن يتصور جماعة من مختلف الأعمار، رجالاً ونساء مع حقائب وأمتعة، وحيوانات تحميل، وكان تكوينهم الاجتماعي متنوعاً، وكان معظمهم جليليين، مع أن يسوع كان لديه متعاطفون أيضاً في اليهودية والقدس، كما سوف ترى، وكان في القلب الاثنى عشر، بما في ذلك إخوته، ثم أمه، وأختاه، ومريم المجدلانية وسالومي أم صائدي السمك: جيمس ويوحنا، ويونا التي كانت متزوجة من موظف في حاشية هيرود اسمه خوزي، وسوسنة، ونساء وضيعات كن يقدمن الأموال من أجل العملية، وأضاف لوقا بأنه قد كان هناك «كثير من النساء الأخريات» في الجماعة [لوقا: 8/ 1-3].

ووصلوا في الليلة التالية إلى أريحا التي وقعت إلى الشمال من البحر الميت،

وعلى مسافة خمسين ميلاً إلى الشرق من القدس، وكانت مستوطنة قمران، المركز الإداري للإيسينيين، حيث تمّ العثور على مخطوطات البحر الميت، على بعد عدة أميال في الجنوب، وعندما دخلت الجماعة إلى أريحا، اجتمع حشد كبير من الناس، وبدأ رجل أعمى يصرخ بصوت مرتفع قائلاً: «يا يسوع الناصري، يا بن داود، ارحمني»، فلقد كانت هذه كلمات ثورية، فقد كانوا يعادلون إعلان الإنسان بشكل مكشوف بأنه المسيح، أو ملك إسرائيل، وحاول بعض أتباع يسوع إسكات الرجل، عارفين بأن يسوع كان قد حظر مثل هذا الإعلان في الماضي، ووقف يسوع، ودعا الرجل إليه، ولمس عينيه وقال له: «أبصر، إيمانك قد شفاك»، وتبعاً لما جاء في الأناجيل لقد شفي الرجل على الفور، والتحق بعصبة أتباعه، وأصبح ضغط الحشد حول يسوع كبيراً وصار الحشد منتشياً هائجاً بالإثارة، فلقد سمح يسوع أخيراً بالإعلان المكشوف عن مملكته، وليكن ما يكن.

وأمضت الجماعة يوم السبت أي السبت اليهودي في أريحا، وقد تبرهن أن يوم الأحد كان يوماً مليئاً بالعمل، مثلما هو مصيري، وكان اليوم بالنسبة لنا هو الحادي والثلاثين من آذار، لكنه كان اليوم الأول من نيسان، بالنسبة للتقويم اليهودي[2]، وكان عيد الفصح اليهودي يبدأ عند حلول الظلام، وقت انتهاء يوم الرابع عشر من نيسان، وكان آنذاك يوم الخميس، أي بعد أربعة أيام مقبلة، فقد بدأ العدّ التنازلي النهائي.

وكان الإنسان المسافر عبر الطريق المنحدر من أريحا، يدخل إلى القدس من الشرق، ولا بد أن جماعة يسوع قد نالت كمية وافية من الانتباه، كما أن المزيد من الناس كانوا قد وصلوا فيما بعد الظهيرة إلى جبل الزيتون، وعندما وصلت الجماعة إلى القمة، إلى عند القرية الصغيرة بيت عنيا، على الجانب الشرقي، أوقف يسوع المسيرة، وقد أرسل اثنين من تلاميذه إلى البلدة حيث طلب منهما أن يجدا له جحشاً ابن أتان، وأن يجلباه له، وجلس يسوع على ظهر الدابة وأخذ طريقه ببطء عبر الممر

المنحدر، نازلاً من الجانب الغربي لجبل الزيتون، الذي كان يشرف على معبد هيرود، وقلب المدينة، وبدأ أتباعه بنشر الثياب أمام الدابة وهي آخذة طريقها، وفي الوقت نفسه تعاظم حجم الحشود، مع كثير من الإثارة، فقطعوا بعض أغصان الأشجار المورقة وفرشوها أمامها، وبذلك أحدثوا «زريبة ملكية من أجل الملك»، وكان المزمور 118 قد احتفى بالمسيرة وبين أن الذي فيها هو «الآتي باسم يهوه»، الذي جرى الاحتفال بمسيرته بأغصان مورقه [المزمور:118/ 27]، وبقدر ما كانت نية يسوع بديهية كانت محكمة للتدبير، وكان النبي زكريا قد كتب:

«ابتهجي جداً يا ابنة صهيون، اهتفي يا بنت أورشليم: هوذا ملكك يأتي إليك هو عادل ومنصور وديع، وراكب على حمار وعلى جحش ابن أتان» [زكريا:9/ 9].

فقد حل الوقت، ونزل الموت، وجرى الآن كشف ما تنبأ به زكريا حول وقائع «اليوم الأخير»، فبهذا العمل المثير النبوئي الإيمائي كان يسوع يعلن عن نفسه بشكل مكشوف على أنه المطالب بعرش إسرائيل، فما من أحد قد عرف بأن الأنبياء العبرانيين قد أضاعوا النقطة، فقد التهبت الإثارة وتعاظم الهياج حول هذه الحادثة غير الاعتيادية وكانت مثل شرارة في مادة سريعة الالتهاب، وبدأت الحشود تغني وتنشد وتتفوه بشعارات مسائحية محددة قائلين: «مبارك الملك الآتي باسم الرب. سلام في السماء ومجد في الأعالي»، وصار الصراخ والزئير مرئياً من قبل كل واحد في المدينة في الأسفل، وقال واحد من الفريسيين وقد خاف من إمكانات الثورة في المشهد، ليسوع: «يا معلم انتهر تلاميذك» فرد عليه يسوع قائلاً: «أقول لكم إن سكت هؤلاء فالحجارة تصرخ» [لوقا: 19/ 39-40].

ولكن بعد الوصول إلى المدينة اندس بين الجماهير واختفى، وبذلك كان قد نفذ المرحلة الأولى من خطته، ذلك أن هدفه لم يكن قيادة العامة في ثورة، بل تحقيق بعض النبوءات التوراتية المحددة، وهذا ما فعله، بقدومه كملك إلى «صهيون» أو

القدس، راكباً على ظهر جحش ابن أتان، مثيراً بهجة الناس، فلقد تحققت كلمات زكريا في ذلك اليوم.

وكان الوقت بعدما دخل يسوع إلى المدينة قد بات متأخراً من النهار، وقال مرقص بأنه «نظر حوله إلى كل شيء» [مرقص:11/ 11]، ومن المحتمل أنه دخل إلى مجمع المعبد من خلال الأبواب الجنوبية، عاملاً في ذهنه خطته لليوم التالي، ومع حلول الليل عاد إلى بيت عنيا فوق جبل الزيتون، حيث كان مقيماً هناك هو ومجلسه المؤلف من اثني عشر، والنساء، وكانوا مقيمين في بيت الأختين مريم، ومرثا، اللتين كانتا مؤيدتان لحركته.

وفي يوم الإثنين صباحاً، أخذ يسوع وعصبته المختارة من أتباعه طريقهم نازلين من على سفوح جبل الزيتون، وذلك للمرة الثانية، ودخل إلى المعبد، وقد كان هناك على الجانب الجنوبي من مجمع المعبد الكبير والواسع كثيراً منطقة، كان يعمل فيها صرافو العملات، وحيث جرى بيع الحيوانات التي كانت مقبولة طقوسياً للأضحية، ومن وجهة نظر اليهود، لم يكن هناك أي خطأ في أي من الأعمال، والفكرة الرائجة على أن يسوع رفض «صرف النقود» في المعبد هي غير صحيحة، فقد جلب اليهود من جميع أنحاء العالم، النقود من جميع الأنواع كمنح للمعبد، وكان ضرورياً وجود بعض المعايير لتقدير قيمة الصرف، وكانت هنالك حاجة من الناس في أن يكونوا قادرين على شراء حيوانات الأضاحي مباشرة عند المعبد، وليس محاولة جلبهم من مكان بعيد، وخاصة في أيام عيد الفصح اليهودي، عندما يكون هناك مئات الألوف من الحجاج، يطلبون حملاً لكل أهل بيت، وقد افترض بعضهم بأن صرف المال كانت له علاقة ما بتبادل نقود عليها صور «وثنية» بنقود عليها شعارات يهودية، حيث عدّ ذلك دينياً مقبولاً، فالعكس تماماً كان هو الحال، فقد كانت النقود الوحيدة المقبولة في معبد القدس هي مثاقيل صور الفضية، وأنصاف

المثاقيل، التي كان عليها صورة هرقل على الوجه الأول، ونسر جاثم على قوس سفينة على الوجه الثاني، ولم تكن الإصدارات صوراً وثنية بل مضامين ذات قيمة، فقد كان المثقال الصوري مضموناً بأنه كان مصنوعاً من 95٪ من الفضة الصافية[3]، وحاجج الكهنة الصدوقيون الذين تولّوا إدارة المعبد، بشكل موائم، بأن «نقاء» تقدمة الإنسان للرب تتفوق على أي تشويه قد تسببه الصور.

وكانت عملية صرف النقود في عيد الفصح اليهودي قد توسعت كثيراً، منذ أن أمر موسى أنه يتوجب على كل ذكر يهودي، فوق سن العشرين أن يمنح نصف مثقال من الفضة مرة واحدة في العام إلى المعبد «الخروج 3/ 13»، وكانت هذه المنحة المستحقة في عيد الفصح اليهودي، قد تطلبت بالضرورة مناضد خاصة، حتى تقام في المعبد، قبل ثلاثة أسابيع، حتى تتعامل مع الحشود الكبيرة التي ستأتي إلى القدس من أجل العيد[4]، وكان يوسيفيوس قد قدّر أن مليونين ونصف المليون يهودي، من جميع أنحاء العالم اجتمعوا في القدس في عيد الفصح اليهودي، وقد أسس عدده على أن 225.600 خروف جرت التضحية بهم في يوم عيد الفصح اليهودي نفسه[5]، وقد وجد العلماء في هذا الرقم مبالغة كبيرة، لكن حتى وإن أخذ هذا بعين التقدير، لا بد أن مهمة التعامل مع أعداد الحجاج في عيد الفصح اليهودي، قد كانت مرهقة.

وكانت المرابح من هذه النشاطات ضخمة جداً، وامتلك معبد القدس أكثر الأنماط المربحة كثيراً بين المعابد التجارية في جميع العالم الروماني، وكما يتوقع الإنسان، لقد كانت هنالك بعض الرسوم مع رسوم إضافية، مقابل هذه الخدمات، وذهبت هذه الأموال للإنفاق من قبل طبقة كهنة الصدوقيين الأثرياء، الذين امتلكوا بيوتهم الفخمة إلى الغرب من مجمع المعبد، في منطقة عرفت باسم «حارة اليهود» من المدينة القديمة لهذه الأيام، وعمل هؤلاء الرهبان بدورهم بشكل وثيق مع حماتهم الرومان، ولكي يفهم الإنسان الاقتصاد في القدس، الذي

كان بالحقيقة نموذجاً من «دولة المعبد»، يحتاج فقط لأن «يتبع المال».

ولكن ماذا عن الفقراء، أو الذين كانوا بصعوبة يمكنهم تحمل نفقات الرحلة إلى القدس، لقد كانت النفقات التي طلبت من هؤلاء من أجل الأضاحي قليلة جداً، ومن المحتمل أن يسوع قد أخبر بالقصة التي كبرت كثيراً، كيف أن أمه مريم، وأباه بالتبني يوسف لم يكونا قادرين على تقديم خروف عند ولادته، ولقد تدبرا شراء حمامتين، وتوجب عليهما بطريقة ما تأمين خمسة مثاقيل صورية فضية، وأن يقدما بها، حتى يحققا تنفيذ الأوامر التي قضت «بتخليص أول مولود»، وكانت أسرة يسوع نموذجاً عن آلاف الأسر الأخرى في ذلك الوقت، حيث كانت أسرة كبيرة، وفقيرة، ومع ذلك تقية ملتزمة بتنفيذ أوامر الرب.

ووصل يسوع في صباح يوم الإثنين، عند ذروة الموسم التجاري، وكان في ذهنه ثلاث كلمات: زكريا، وإشعيا، وإرميا، ففي نهاية خاتمة حوار زكريا حول «نهاية الزمان» كان قد أعلن: «وفي ذلك اليوم لا يكون بعد تجار في بيت يهوه رب الجنود» [زكريا:14/ 21]، وكان إرميا قد دخل إلى معبد أيامه، الذي هو المعبد الأول الذي بني من قبل الملك سليمان، وأعلن باسم يهوه: «هل صار هذا البيت الذي دعي باسمي عليه مغارة لصوص في أعينكم»؟،[إرميا:7/ 11]، وكان إشعيا قد تنبأ بوقت سوف يكون فيه معبد الرب في القدس «بيت الصلاة يُدعى لكل الشعوب» [إشعيا:56/ 7].

ولم تكن أعمال يسوع في ذلك اليوم قد قصد منها تغيير الأشياء، أو إشعال ثورة، لقد قصد، مثلما فعل عندما ركب على ظهر الجحش نازلاً من جبل الزيتون، أن يصنع علامة من نوع ما، لقد أراد أن يشير إلى أن الإحاطة القريبة بنظام المعبد الفاسد، باتت في متناول اليد، ورؤيا الأنبياء سوف تتحقق، فكان أن بدأ بقلب موائد الصرافين، والإطاحة بمحطات الدفع إلى الذين جلسوا يأخذون المال لبيع الحيوانات، ثم إنه اقتبس كلمات إرميا وإشعيا كشرح لأعماله، وأضاف مرقص بأنه

«لم يدع أحداً يجتاز الهيكل بمتاع» [مرقص:11/ 16]، فلقد كانت هناك أبواب ضيقة من خلالها كانت تمر البضائع لدعم أعمال الصرافة والشراء، ووضع يسوع بعضاً من رجاله الجليلين القساة عند هذه المراكز، ليخبروهم بأن العمل قد أغلق بالنسبة لذلك اليوم.

وسمعت قيادة الكهنة حول الصخب، وكانوا يبحثون من قبل عن سبيل يمكنهم من اعتقال يسوع وقتله، وكانوا أكثر تصميماً من أي وقت لإيقافه، ولكنهم خافوا من الشعب، ولا بد أن الحشد كان كبيراً جداً في صباح الإثنين ذاك، وفرح الشعب المسحوق وابتهج تجاه ما عمله يسوع، ولم يكن ذلك شغباً يمكن للكهنة دعوة الرومان من أجله، وسوف يكونون مرغمين على فعل أي شيء، بما أن الحاكم الروماني بونطيوس فيلاطس، كان معروفاً بوحشيته في التعامل مع حشد المعبد، وكراهيته لليهود بشكل عام، فلقد كانت أعمال يسوع احتجاجاً نبوياً رمزياً، وكان يمتلك تأييد أفراد الشعب، الذين كما يرجح كانوا قد تعبوا من دفع الأسعار التي طلبت لتحقيق هذه المطالب الطقوسية وتلبيتها، وأشار مرقص إلى أن «الحصار» استمر طوال اليوم، وأنه فقط عند المساء، غادر يسوع ورجاله المدينة، وذهبوا عائدين إلى بيت عنيا، لإمضاء الليل.

وكان يوم الثلاثاء يوماً مهماً بالنسبة ليسوع ولمجلسه الاثني عشر، فقد عادوا بشكل مكشوف، إلى المعبد في الصباح الباكر، وأمضى يسوع النهار كله يتجادل حرفياً مع مختلف أقسام مؤسسة المعبد، بما في ذلك الكهنة الصدوقيين، والهيروديين أي المؤيدين السياسيين لأسرة هيرود، وسأله الكهنة: «بأي سلطان تفعل أنت هذه الأشياء؟»، ويظهر أنهم كانوا يشيرون إلى عملية «النبويين» في يومي الأحد والإثنين، فقال بأنه سوف يجيبهم إذا كان سيذكرون أمام الناس المحتشدين الذين كانوا يتبعون عن قصد التغيير، فيما إذا كان يوحنا المعمدان نبياً للرب، أو أنه كان دجالاً مشعوذاً، ومع أن الكهنة كانوا لم يستجيبوا بشكل إيجابي إلى دعوة يوحنا

بالتوبة والتعميد، كان الناس مجتمعين في حشود كبيرة، وخاف الكهنة من الإجابة، عارفين بشعبية يوحنا الكبيرة جداً، وسأل الفريسيون والهيروديون يسوع عما إذا كان يؤيد الضرائب الرومانية، وكان هذا من المحتمل أكثر القضايا حساسية سياسياً ودينياً في ذلك اليوم، فأمسك بيده قطعة من النقود الرومانية، وأجابهم بجوابه المشهور، لكن الأشبه بأحجية غامضة حيث قال لهم: «أعطوا ما لقيصر لقيصر وما للرب للرب» [مرقص:12/ 17].

وتفوه يسوع بشيئين في ذلك اليوم، ظهر أنهما لخصا رأيه كاملاً حول «الدين الصحيح» خاصة والعكس صحيح لما كان يجري في المعبد الهيرودي، وسأل رجل يسوع حول أي وصايا التوراة كانت الأعظم، واقتبس يسوع من الوصايا، فقال بأن أعظم الاعترافات في العقيدة اليهودية هي: «اسمع يا إسرائيل، يهوه ربنا رب واحد، وتحب يهوه ربك من كل قلبك، ومن كل نفسك، ومن كل فكرك، ومن كل قدرتك»، وأضاف بأن أعظم الوصايا «ثانية» هي أن يحب الإنسان قريبه مثل حبه لنفسه، ووافق الرجل وأوضح بأن الإنسان إذا أحب الرب، وأحب قريبه مثل نفسه، فإن ذلك سوف يكون «أفضل من جميع المحروقات والذبائح»، ثم عمل يسوع تصريحاً مدهشاً للرجل، حيث أعلن له قائلاً: «أنت لست بعيداً عن ملكوت الرب»، [مرقص:12/ 28-34]، ويشير هذا إلى أن وجهة نظر يسوع حول مملكة الرب، في أنها لم تتعلق فقط بالإطاحة الثورية بممالك العالم، ولكن ببصيرة روحية خاصة نافذة أكثر، فيما يرغبه الرب أكثر من الكائن البشري، في أن الإنسان لن يكون كاملاً من دون الآخر.

وفي حوالي نهاية اليوم، عندما اصطف الناس ليضعوا أموال منحهم في خزانة المعبد، رأى يسوع امرأة فقيرة قدمت مع قطعتين من النقود النحاسية، فقد كان ذلك كل الذي امتلكته، فأخبر الحشود قائلاً: «إن هذه الأرملة الفقيرة قد ألقت أكثر من جميع الذين ألقوا في الخزانة»، وكانت قطعة النقد تلك تعرف باسم «فلس»

وكانت مائة قطعة منها تساوي ديناراً واحداً، وهو ما كان يساوي أعلى دخل للعامل في اليوم.

وخلال النهار تملك الإعجاب الحشود مع الشعور بالنشوة تجاه جميع الذي قاله يسوع، وأعجبوا بالطريقة التي ظهر فيها وهو يتعامل مع الذين تحدوه، مهما كانت رتبهم أو سلطاتهم، وذكرت الأناجيل بشكل متواصل بأن أعداء يسوع أرادوا اعتقاله، لكنهم خافوا من الحشود، وقال لوقا بأن الناس كانوا يتدفقون على المعبد لسماع كلامه، لأن الخبر انتشر خلال المدينة حول الإثارة التي تسبب لها [لوقا: 21/ 38]، وعرف الرسميون في المعبد أنهم إذا تصرفوا بشكل علني سوف يثيرون شغباً بين الناس، وسوف يتدخل الرومان، ولربما سوف يوجهون اللوم إليهم من أجل الاضطراب، وكان أملهم الوحيد هو اعتقال يسوع بطريقة ما عندما يكون وحيداً، ولربما أثناء الليل، حيث حوله عدد صغير من أتباعه، وكان يومان من عيد الفصح اليهودي قد عبرا، ولم يكن لديهم أدنى فكرة عما كان في ذهن يسوع، أو ما هو قادر عليه، ولذلك قرروا أن عليهم العمل بسرعة.

وجبة عشاء أخيرة

وفي يوم الأربعاء بدأ يسوع يعمل خططاً من أجل عيد الفصح اليهودي، وقد أرسل اثنين من تلاميذه لإعداد غرفة ضيوف واسعة في طابق ثان «علية» حيث يمكنه أن يجتمع بصورة سرية وآمنة مع جماعته الداخلية، وقد عرف واحداً توفرت لديه مثل هذه الغرفة، وأنه قد أعدها من قبل من أجل أن يستخدمها، ويشاهد الحجاج المسيحيون في هذه الأيام موقعاً صليبياً يعرف باسم cenacle أو «العلية»، على الهضبة الشرقية من القدس دعاها الصليبيون خطأ باسم «جبل الزيتون»، وهذه المنطقة هي جزء من «المدينة العليا، حيث بنى هيرود قصره، وهي طبوغرافياً أعلى حتى من جبل الهيكل، وقد كانت القسم الأعظم والأفخم من القدس

القديمة، مع شوارع عريضة، وساحات، وبيوت فخمة للأثرياء، ولذلك من المستبعد كثيراً أن هذا كان هو المكان(6).

الحوادث التي أحاطت بصلب يسوع

التاريخ	3- ابريل	4- ابريل	5- ابريل	6- ابريل	7- ابريل
	13- نيسان	14- نيسان	15- نيسان	16- نسان	17- نيسان
اليوم من الأسبوع:	الأربعاء	الخميس	الجمعة	السبت	الأحد
			«سبت»	«سبت»	
الحوادث	عشاء يسوع الأخير و جيثسيماني اعتقال	الصلب 9- صباحاً الوفاة عند 3 بعد الظهر وجبة فصح بعد غياب الشمس.	يوم الفصح اليهودي. يسوع في قبر.	يسوع في قبر.	قبر فارغ اكتشف.

ويرجح أن «العلية» كانت موجودة في المدينة الدنيا، أصل «جبل صهيون»، حيث عاش الفقراء، وذلك إلى الشمال من بركة سلوان، وفي الحقيقة كان يسوع قد أخبر تلميذيه بأن «يسيرا خلف رجل كان يحمل جرة ماء»، سوف يدخل إلى المدينة، ثم سوف يدخل إلى أحد البيوت، وكان نبع الماء الوحيد موجوداً في الجزء الجنوبي الأدنى من مدينة القدس، وفي الحقيقة كان الموقع الأصيل لبركة سلوان قد اكتشف بالصدفة في العام 2004، ويمكننا الآن أن نحدد بدقة كاملة، المنطقة التي ورد ذكرها في الأناجيل.

ووضعت التقاليد المسيحية المتأخرة، وجبة طعام يسوع الأخيرة مع تلاميذه في مساء يوم الخميس، وصلبه في يوم الجمعة، ونحن نعرف الآن وجود يوم واحد بينهما، وأن وجبة طعام يسوع الأخيرة كانت في ليلة الأربعاء، وأنه قد صلب في يوم الخميس، في الرابع عشر من شهر نيسان اليهودي، فقد جرى أكل وجبة عيد الفصح اليهودي نفسها، في ليلة الخميس، عند الفجر، أي عند ابتداء يوم الخامس عشر من نيسان، ولم يأكل يسوع أبداً من وجبة طعام عيد الفصح اليهودي، فقد كان قد مات في الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم الخميس.

ونشأ الاضطراب والتداخل، بسبب أن الأناجيل كلها تقول بأنه كان هناك اندفاع للحصول على جسده وإنزاله من على الصليب، ودفنه قبل الفجر، بسبب أن «السبث» كان قريباً، وقد افترض كل واحد بأن الإشارة إلى السبث، كانت إشارة إلى يوم السبت، وعلى هذا لابد أن عملية الصلب كانت في يوم الجمعة، ولكن على كل حال كما يعرف اليهود إن يوم عيد الفصح اليهودي نفسه يعرف أيضاً بـ «سبث»، أو يوم استراحة، مهما كان اليوم من الأسبوع الذي وقع فيه، ففي العام 30م، كان يوم الجمعة الخامس عشر من نيسان يوم «سبث» أيضاً، أي وقع سبثان وراء بعضهما، في يومي جمعة وسبت، ويظهر أن «متى» قد عرف هذا، لأنه قال بأن النساء اللائي زرن ضريح يسوع، قدمن في الصباح الباكر من يوم الأحد «بعد السبث»، والكلمة الأصيلة بالإغريقية هي بالتثنية [متى: 28/ 1].

وكما حدث بالغالب، لقد احتفظ إنجيل يوحنا بتواريخ أكثر صحة حول الذي حدث[7]، وقد ذكر يوحنا بكل وضوح بأنه في ليلة الأربعاء كان «العشاء الأخير»، «قبل الاحتفال بالعشاء الأخير»، وقد ذكر أيضاً أنه عندما سلم الذين حكموا على يسوع إياه حتى يصلب في صباح الخميس، لم يكونوا ليدخلوا إلى ساحة فيلاطس حتى لا يتنجسوا، فيكونوا بذلك غير قادرين على أكل طعام الفصح في ذلك المساء [يوحنا:18/ 28]، وقد عرف يوحنا بأن اليهود سوف يأكلون طعام فصحهم التقليدي، أو وجبة seder، في مساء الخميس.

وعندما يقرأ الإنسان: مرقص، ولوقا، يمكن أن يخرج بانطباع بأن «العشاء الأخير» كان طعام وجبة الفصح اليهودي، وحاجج بعضهم، وافترض بأن يسوع لربما أكل طعام الفصح قبل يوم، عارفاً من قبل الوقت الذي سيكون فيه ميتاً، ولكن الحقيقة هي أن يسوع لم يأكل طعام فصح في العام 30م، فعندما بدأ طعام الفصح في فجر يوم الخميس، كان يسوع ميتاً، وبسرعة كان قد وضع في قبر حتى وقت الاحتفال، عندما يمكن ترتيب مراسم دفن مناسبة.

وهناك إيماءات خارج إنجيل يوحنا، بأن هذا كان هو الحال، ففي لوقا، على سبيل المثال، لقد أخبر يسوع أتباعه في أثناء وجبة الطعام الأخيرة، «شهوة اشتهيت أن آكل هذا الفصح معكم قبل أن أتألم لأني أقول لكم إني لا آكل منه بعد حتى يكمل في ملكوت الله»[لوقا: 22/ 14-16]، وقام في وقت متأخر واحد من نساخ المخطوط بإقحام كلمة «مرة ثانية» ليجعله يقول: «إني لا آكل منه، مرة ثانية»، وجاء ذلك بسبب أن التقاليد قد تطورت لتقول بأن يسوع قام بمراعاة الاحتفال بعيد الفصح اليهودي في تلك الليلة، وقد جرى تحويل هذه المراعاة إلى القربان المسيحي، أو القداس، وهناك إشارة أخرى على أن ذلك لم يكن طعام الفصح على الإطلاق، فقد روت مدوناتنا بأن يسوع تشارك في «رغيف من خبز» مع تلاميذه، مستخدماً الكلمة الإغريقية (artos) التي تشير إلى رغيف خبز عادي، وليس إلى رغيف غير مخمر أو (فطير) matzos، الذي يأكله اليهود مع وجبات عيد فصحهم، وكذلك عندما أشار بولص إلى «العشاء الأخير»، إنه لمهم أنه لم يقل «في ليلة عيد الفصح» بل بالحري قد قال: «في الليلة التي جرت خيانة يسوع فيها»، وهو قد ذكر أيضاً «رغيف الخبز» [كورنثوس: 11/ 23] ولو كان ذلك الطعام طعام الفصح، لكان من المؤكد قيام بولص بذكر ذلك، لكنه لم يفعل.

وحتى وقت متأخر من صباح يوم الأربعاء، كان يسوع عازماً على أن يأكل طعام الفصح في ليلة الخميس، فعندما كان قد بعث بتلميذيه إلى المدينة، وجههما بأن يبدآ بعمل الاستعدادات، وكان أعداؤه قد قرروا ألا يحاولوا اعتقاله في أثناء العيد «لئلا يكون شغب في الشعب» [مرقص:14/ 2]، وكان معنى هذا أنه ظهر له أنه سيكون «سالماً» بالنسبة للأسبوع التالي، لأن العيد قد تضمن سبعة أيام للخبز الفطير، وهي التي تأتي بعد طعام الفصح اليهودي، وبحكم أن يسوع كان رأس أسرته، فلابد أنه جمع أمه وأختيه، والنساء اللائي قدمن معه من الجليل، ولربما بعض المؤيدين القريبين منه، في القدس، وكذلك

مجلسه الاثني عشر، وليس من المتصور أن يقوم رأس أسرة يهودية بأكل طعام الفصح منفصلاً عن أسرته مع اثني عشر ذكراً من التلاميذ، فذلك ليس طعام عيد الفصح اليهودي، ولا بد أن شيئاً ما لم يكن محسوباً وقع وبشكل مخيف، ولذلك جرى تغيير جميع خططه للفصح اليهودي.

وكان يسوع قد خطط لوجبة طعام خاصة في مساء يوم الأربعاء لوحده مع مجلسه المؤلف من الاثني عشر، في علية بيت الضيافة، في القسم الأدنى من المدينة، فقد كانت أحداث الأيام القليلة الماضية، قد أوصلت الأشياء إلى أزمة، وقد عرف هو أن المواجهة مع السلطات كان من غير الممكن تجنبها، فقد توقع أن يجري اعتقاله في الأيام المقبلة، وأن يسلم إلى الرومان، ومن المحتمل أن يصلب، وقد قام عن قصد باختيار الوقت والمكان - عيد الفصح اليهودي - في القدس حتى يواجه السلطات هناك، ولقد كان هناك أشياء خاصة بطبيعتها حتى تجري دراستها مع الذين اعتمد عليهم أكثر في أيام الأزمات المقبلة، وكان قد آمن بشكل ثابت أنه إذا قام هو وأتباعه بالتضحية بأنفسهم، ووضعوا مصيرهم في يدي الرب، فإن ملكوت الرب المنتظر سوف يتجلى بذاته، وهو كان عن سابق نية وقصد قد حقق النبوءتين العائدتين إلى زكريا، حين ركب في المدينة كملك على ظهر جحش، وأزال بشكل رمزي «التجار» من بيت الرب.

وعند هذه النقطة في ذلك اليوم علم يسوع بأن يهوذا الإسخريوطي، وكان عضواً موثوقاً في مجلس الاثني عشر، قد عقد صفقة مع أعدائه، في سبيل التمكين من اعتقال يسوع عندما تتوفر الفرصة للتمكن منه منفرداً، بعيداً عن الحشود، لكن كيف عرف يسوع بالمؤامرة نحن لم نخبر، لكنه قال في أثناء الطعام بشكل مكشوف: «إن واحداً منكم يسلمني الآكل معي» [مرقص:14/ 18] ويبدو أن حياته قد نشرت وكشفت تبعاً لخطة بعض الكتابات المقدسة، أولم يكتب داود في المزامير: «أيضاً رجل سلامتي الذي وثقت به آكل خبزي رفع عليّ عقبه»

[المزمور: 41/ 9]، وللتاريخ طريقة غريبة في إعادة نفسه، فقبل مئات من الأعوام مضت قام معلم الحق والعدل، الذي قاد جماعة مخطوطات البحر الميت، باقتباس هذا المزمور بالذات عندما قام واحد من مجلسه الداخلي بخيانته[8].

وعندما أدرك يهوذا الإسخريوطي أن في خطته لذلك المساء، الانسحاب للصلاة في بستان جيثسيماني «الجسمانية» بعد الطعام، فكان أن ترك الجماعة بصورة مفاجئة، وكانت هذه البقعة المنعزلة، التي وقعت عند سفح جبل الزيتون، عبر وادي قدرون من المدينة القديمة، قد وفرت المكان الذي وعد بتسليمه به، وقد حاول بعضهم أن يفسر محرضات يهوذا ودوافعه بشكل إيجابي، فمن المحتمل تماماً أنه أراد بإخلاص تام أن يعلن يسوع ملكاً، وأن يستولي على السلطة، ظاناً أن التهديد بالاعتقال ربما كان سيرغمه على ذلك، ونحن بكل بساطة لا نعرف الذي كان من المحتمل في ذهنه، والأناجيل راضية بكل بساطة بدعوته «الخائن»، ونادراً ما ورد ذكر اسمه من دون هذه الصفة التعريفية.

ولسخرية القدر أن تكون روايتنا الأبكر حول وجبة الطعام الأخيرة تلك في ليلة الأربعاء قد جاءت من عند بولص، وليس من عند أي واحد من أناجيلنا، ففي رسالة إلى أتباعه في مدينة كورنثوس، كتبت في حوالي العام 54م، أورد بولص رواية قال بأنه «تسلمها» من يسوع نفسه حيث قال: «لأنني تسلمت من الرب وأسلمتكم أيضاً، إن الرب يسوع في الليلة التي أُسلم فيها أخذ خبزاً. وشكر فكسر وقال: خذوا كلوا هذا هو جسدي المكسور لأجلكم اصنعوا هذا لذكري كذلك الكأس أيضاً بعدما تعشوا قائلاً: هذه الكأس هي العهد الجديد بدمي. اصنعوا هذا كلما شربتم لذكري» [كورنثوس: 11/ 23-25].

وجرى تكرار هذه الكلمات التي هي كلمات معروفة لدى المسيحي كجزء من القربان أو القداس، مع تغيير بسيط في إنجيل مرقص، ومثل ذلك في إنجيلي متى، ولوقا، وهي تمثل خلاصة العقيدة المسيحية، وعمود الإنجيل المسيحين حيث

إن جميع الكائنات البشرية جرى إنقاذهم من الذنوب بوساطة التضحية بجسد يسوع ودمه فهل من المحتمل تاريخياً أن تكون هذه الرواية، التي قال بولص بأنه تسلمها من يسوع تمثل فعلاً ما قاله يسوع في وجبة الطعام الأخيرة تلك؟ وبقدر ما يمكن أن يظهر مفاجئاً، هناك بعض المشاكل القانونية التي ينبغي دراستها.

كان في كل طعام يهودي يجري كسر الخبز والمشاركة بالخمرة، وكانت المباركة تقال على كل منهما، ولكن فكرة أكل لحم الإنسان وشرب الدم، حتى وإن كانت رمزية، هي غريبة تماماً على التوراة، وحرمت التوراة بشكل محدد شرب الدم، ليس فقط على الاسرائيليين بل على كل واحد وكان نوح وسلالته، كممثلين لجميع البشر، أول من أعطى التحريم ضد «أكل الدم» [التكوين: 9/ 4]، وحذر موسى من أن «كل إنسان من بيت إسرائيل ومن الغرباء النازلين في وسطكم يأكل دماً أجعل وجهي ضد النفس الآكلة الدم وأقطعها من شعبها» [اللاويون: 17/ 10]، وفي وقت متأخر، ذكر جيمس أخو يسوع و «أن هذا واحداً من المطالب الضرورية» بالنسبة لغير اليهودي حتى يلتحق بجماعة الناصريين، وبين بوضوح أن عليهم عدم أكل الدم «الأعمال:15/ 20»، وتعلقت هذه التحريمات بدماء الحيوانات، ذلك أن أكل اللحم البشري، والدم لم يكن محرماً، بل بكل بساطة لم يكن أمراً متصوراً، وهذه الحساسية العامة تجاه فكرة «شرب الدم» بالذات، تقف حائلاً ضد إمكانية أن يكون يسوع قد استخدم هذه الرمزية.

وكما كنا قد بحثنا من قبل، وصفت جماعة الإيسينيين في قمران في إحدى مخطوطاتها «وليمة مسائحية» سوف تقام في المستقبل، يجلس فيها المسيح الكاهن والمسيح الداودي معاً مع الجماعة، ويباركان وجبة طعامهم المقدسة المكونة من الخبز والخمرة، مجيزين إياها إلى جماعة المؤمنين، كاحتفال بملكوت الرب، ومن المؤكد أنهم كانوا سيصابون بالرعب نحو أي اقتراح رمزي بأن الخبز كان لحماً بشرياً، وأن الخمرة كانت دماً، وبكل بساطة إن هذه الفكرة من

غير الممكن أن تكون قد صدرت عن يسوع كيهودي.

وبناء عليه أين من الممكن أن تكون هذه اللغة قد تأصلت؟ وإذا كانت قد ظهرت للمرة الأولى عند بولص، وهو بالحقيقة لم يحصل عليها من يسوع، عند ذلك ما هو مصدرها؟ النظير الأقرب هو بعض الطقوس السحرية الإغريقية الرومانية، فلدينا بردية إغريقية، مدون عليها عزيمة سحر للحب، فيها يتفوه «رجل ذكر» ببعض ألفاظ التجسيد على كأس خمرة، كانت تمثل الدم الذي أعطاه الرب المصري أوزيريس إلى قرينته إيزيس، حتى يجعلها تشعر بالحب نحوه، وكان عندما يشرب حبيبها الخمرة، تتحد هي رمزياً مع محبوبها بشربها لدمه[9]، وفي نص آخر تحولت الخمرة إلى لحم جسد أوزيريس[10]، وعلى هذا كانت رمزية أكل «اللحم» وشرب «الدم» واحدة من طقوس السحر للتوحيد، في الثقافة الإغريقية الرومانية.

وكنا قد أوضحنا دراسياً بأن بولص كان قد نشأ في وسط ثقافي إغريقي روماني، في مدينة طرسوس في آسيا الصغرى، خارج أرض إسرائيل، وهو لم يلتق قط بيسوع أو تحادث معه، وكان الادعاء الذي أطلقه بالاتصال بيسوع هو عن طريق «المنام» ولم يكن اتصالاً بيسوع ككائن بشري بلحم ودم يمشي على الأرض، وكان عندما اجتمع الاثنى عشر ليختاروا واحداً يحل محل يهوذا، بعد أن كان يسوع قد قتل، أصروا على أن يكون البديل واحداً ممن كان مع يسوع منذ أيام يوحنا المعمدان حتى صلبه «الأعمال:1/ 21-22»، ورؤية المنامات وسماع الأصوات لم تكن مقبولة كوسيلة تأهيل للرسول.

ثانياً: إنما أكثر إخباراً، هو أن إنجيل يوحنا الذي روى أحداث وجبة الطعام الأخيرة في ليلة الأربعاء تلك لا يوجد فيه على الإطلاق أدنى إشارة إلى كلمات يسوع هذه في تكريس الطقس الجديد للقربان، فلو كان يسوع قد افتتح التطبيق الجديد في أكل الخبز على أنه جسده، وشرب الخمرة على أنه دمه، وذلك في «العشاء

الأخير»، فكيف يمكن أن يكون يوحنا ترك ذكر ذلك؟ وكان الذي كتبه يوحنا هو أن يسوع جلس أرضاً لتناول العشاء وفي هذا كله إشارات إلى وجبة طعام يهودية عادية، ووقف بعد تناول العشاء، وأخذ طشت ماء وقطعة قماش، وبدأ يغسل أقدام تلاميذه، ضارباً بذلك مثلاً كيف ينبغي أن يعمل الأستاذ والمعلم كخادم، حتى لتلاميذه، ثم بدأ يسوع يتحدث حول كيف أنه ستجري خيانته، وأخبرنا كيف أن يهوذا توقف عن الأكل فجأة وغادر.

وإنجيل مرقص هو قريب جداً في أفكاره اللاهوتية من أفكار بولص، وهنا يرجح أن مرقص كان يكتب بعد عقد من الزمن من تدوين رواية بولص حول العشاء الأخير، فكان أن أقحم هذه الرواية حول «أكل جسدي» و «شرب دمي» في إنجيله، وكان ذلك تحت نفوذ ما ادعى بولص بأنه قد تسلمه، واعتمد كل من متى ولوقا، وأسسا روايتهما كلية على مرقص، ولقد كان لوقا أيضاً مدافعاً من دون خجل عن بولص، وعن كل شيء يمكن تعقب أصله إلى بولص، وكما سوف نرى، ليس هناك أي دليل على أن الأتباع اليهود الأصليين ليسوع، الذين قادهم جيمس أخو يسوع، والذين كان مركز قيادتهم في القدس، قد مارسوا قط أي طقس من هذا النوع، فقد كانوا مثل جميع اليهود قد قدسوا الخمرة والخبز كجزء من الوجبة المقدسة، ويرجح أنهم نظروا نحو الخلف إلى «الليلة التي جرت خيانته فيها» متذكرين وجبة الطعام الأخيرة مع يسوع.

والذي إليه حاجة بالفعل لحل هذه المسألة، هو مصدر مستقل من نوع ما، مصدر أن يكون مسيحياً، لكنه غير خاضع لنفوذ بولص وتأثيره، يمكنه أن يلقي الضوء على الممارسة الأصيلة لأتباع يسوع، ولحسن الحظ أنه في العام 1873، أثناء تقليب محتويات إحدى المكتبات في القسطنطينية تمّ الكشف عن نص، أطلق عليه اسم ديداشي Diadache يعود بتاريخه إلى أوائل القرن الثاني للميلاد[11]، وكان قد ورد ذكره لدى كتّاب كنسيين مبكرين، لكنه اختفى إلى أن اكتشفه كاهن إغريقي

هو الأب برينيوس Bryennios في وثائق مخطوطات قديمة، وجاء الاكتشاف بالصدفة تماماً، ومعنى العنوان وهو ديداشي بالإغريقية «تعليم»، وعنوانه الكامل هو «تعليم الاثني عشر رسول» عبارة عن نموذج «دفتر توجيهات» مسيحية، ربما كتب من أجل المرشحين للتعميد المسيحي للدراسة، وفيه كثيراً من التوجيهات الأخلاقية والنصائح المشجعة، ولكن هناك أيضاً فقرات حول التعميد والقربان، أي وجبة الطعام المقدسة من الخبز والخمرة، ومن هنا جاءت المفاجأة، حيث يقدم المباركة التالية على الخمرة والخبز:

«وبالنسبة للقربان، عليك أن تقدم شكراً وفق ما يلي: أولاً بالنسبة للكأس: نحن نقدم لك الشكر أيها الأب المقدس من أجل الخمرة المقدسة لداود، ابنك الذي جعلته معروفاً لدينا من خلال يسوع ابنك، وليكن المجد إليك إلى الأبد، وبالنسبة إلى الخبز نحن نقدم الشكر لأبينا من أجل الحياة والمعرفة التي جعلتها معروفة لدينا من خلال ابنك يسوع، وليكن إليك المجد إلى الأبد[12]».

ولاحظ أنه ليس هناك ذكر بأن الخمرة تمثل دماً، أو الخبز يمثل جسداً، ومع ذلك فإن هذا هو النص المسيحي الأقدم حول وجبة قربان مسيحي! ويذكرنا هذا النص كثيراً بأوصاف وجبة الطعام المسائحية المقدسة في مخطوطات البحر الميت، وهنا لدينا قداس مسائحي بيسوع كمسيح داودي، والحياة والمعرفة اللتان كان قد جلبهما إلى الجماعة، ومن الواضح أن هذه الجماعة من أتباع يسوع لم تعرف شيئاً حول القداس الذي قدمه بولص ودافع عنه، ولو أن ممارسة بولص جاءت حقاً من عند يسوع لكان هذا النص قد تضمنها بكل تأكيد.

وهناك نقطة أخرى مهمة في هذا المقام، حيث نجد في التقاليد اليهودية أن كأس الخمرة كانت تجري مباركته أولاً، ثم الخبز، وهذا هو الترتيب الذي نجده في الديداشي، ولكن في رواية بولص حول «عشاء الرب» هو جعل يسوع يبارك الخبز أولاً ثم كأس الخمرة، يعني العكس، وقد يظهر هذا أنه عديم الأهمية، حتى

يقوم الإنسان بفحص رواية لوقا حول كلمات يسوع أثناء ذلك الطعام، ومع أن لوقا قد اتبع بشكل أساسي الرواية عن بولص، روى خلافاً لبولص فجعل كأس الخمرة أولاً ثم الخبز، ثم كأساً آخر من الخمرة! وقد أوّل لوقا الخبز وكأس الخمرة الثاني على أنهما «جسد»، يسوع و «دمه»، ولكن فيما يتعلق بالكأس الأول في الترتيب يمكن للإنسان أن يتوقع أنه من التقليد اليهودي ليس هناك شيء قد قيل حول أنها تمثل «دماً»، بل بالحري قال يسوع: «لأني أقول لكم إني لا أشرب من نتاج الكرمة حتى يأتي ملكوت الرب» [لوقا22/ 18]، وهذه الرواية حول الكأس الأولى، التي نجدها في لوقا، قد تركت لتكون بمثابة همزة وصل حول كيف لا بد أن النص الأصيل قد كان عليه، قبل أن جرى إقحام نص بولص، وقد تأكد هذا الآن بوساطة الديداشي.

وإذا فهمنا الأمر في ظل هذا الضوء، فإن تلك الوجبة الأخيرة تصبح منطقية تاريخياً: فلقد أخبر يسوع أتباعه المقربين، فاجتمعوا بصورة سرية في العلية، فأعلمهم أنه سوف لن يتشارك معهم بوجبة أخرى حتى يجيء ملكوت الرب، وكان يعرف بأن يهوذا سوف يفتتح الحوادث في تلك الليلة بالذات، وهي الحوادث التي سوف تؤدي إلى اعتقاله، وكان أمله وكانت صلاته في سبيل أن يجلسوا في المرة المقبلة مع بعضهم ويأكلون، ويقدمون المباركة اليهودية التقليدية على الخمرة والخبز، ذلك أن ملكوت الرب يكون وقتها قد جاء.

وبما أن يسوع التقى فقط بمجلسه المؤلف من الاثني عشر من أجل وجبة الطعام الأخيرة تلك، وقتها لابد أن جيمس، وكذلك إخوة يسوع الآخرين قد كانوا بين الحضور، وتأكد هذا بنص مفقود يدعى «إنجيل العبرانيين » وكان نص هذا الانجيل يستخدم من قبل اليهود المسيحيين الذين رفضوا تعليم بولص وسلطته، وقد بقي لنا من خلال بعض النقول القليلة التي حفظت من قبل كتاب مسيحيين مثل جيروم، ولقد أخبرنا في واحد من النصوص بأن جيمس أخا يسوع،

تعهد بعدما شرب من كأس يسوع الذي دار حولهم، بأنه هو أيضاً سوف لن يأكل أو يشرب مرة أخرى إلى أن يرى وصول ملكوت الرب[13]، وهكذا نحن لدينا هنا برهان نصي حول تقليد يتذكر أن جيمس كان موجوداً في وجبة الطعام الأخيرة.

ويوجد في إنجيل يوحنا إشارات تنبؤية إلى جيمس، فنصف دزينة من المرات ذكر يوحنا شخصية غامضة لم يذكر اسمها، بل اقتصر على دعوتها باسم «التلميذ الذي أحبه يسوع»، وكان الاثنان قريبين من بعضهما كثيراً، وفي الحقيقة كان هذا التلميذ الذي لم يذكر اسمه،يجلس إلى جانب يسوع إما على يمينه أو على يساره، فهو قد اضطجع ووضع رأسه فوق صدر يسوع أثناء تناول الطعام (يوحنا: 13/ 23)، وكان هو التلميذ الذي همس يسوع في أذنه بأن يهوذا هو الخائن، ومع أن هناك رواية تذكر أن هذا كان يوحنا صياد السمك، الذي كان واحداً من ولدي زبدي، إنه لمنطقي أكثر أن تلك العلاقة الوشيجة كانت مشتركة فيما بين يسوع وأخيه الأصغر جيمس، وبعد كل شيء، نحن نعرف من بعض القصص الصغيرة حول يوحنا بن زبدي، أنه كان شخصيا نزقاً وطموحاً، ولذلك لقبه يسوع مع أخيه باسم«ولدي الرعد»، فهما كانا الاثنان اللذان حاولا الحصول على المقعدين الرئيسيين في مجلس الاثني عشر، فقد طلب أولهما بأن يجلس على يمينه، وأن يجلس الآخر على يساره، وطلبا في مناسبة أخرى من يسوع أن يسمح لهما بأن يسألا نزول نار من السماء حتى تحرق قرية لم تقبل تبشيرهما (لوقا:9/ 54)، ووجه يسوع الملامة إليهما في المناسبتين، والصورة التي نحصل عليها ونكونها حول يوحنا بن زبدي هي مضادة تماما للصورة التي نحصل عليها حول العلاقة اللطيفة والوشيجة «للتلميذ الذي أحبه يسوع»، وليس مهماً قدر ترسخ الصورة في الخيال المسيحي، وليس من المنطقي أن نتخيل جلوس يوحنا بن زبدي إلى جانب يسوع، ووضع رأسه فوق صدره.

ويظهر بالنسبة إليّ أن الأدلة تشير إلى جيمس أخي يسوع، في أنه المرشح

الأكثر احتمالاً إلى أنه كان هو التلميذ اللغز الذي لم تتم تسميته، وفيما بعد، وقبل موت يسوع يخبرنا إنجيل يوحنا بأن يسوع وضع العناية بأمه بين يدي «هذا التلميذ الذي أحبه»[يوحنا:20/ 26-27]، فكيف يمكن أن يكون هذا غير جيمس أخيه، الذي كان سيتولى الآن المسؤولية عن الأسرة، كرأس لأهل بيته؟.

وفي وقت متأخر من تلك الليلة، أي بعد العشاء وأحاديثه، أخذ يسوع عصبته المكونة من أحد عشر تلميذاً إلى خارج المدينة الدنيا، عبر وادي قدرون إلى بستان كثيف بأشجار الزيتون، كان اسمه جيثسيماني عند سفح جبل الزيتون، وقد عرف يهوذا المكان بشكل جيد، لأن يسوع غالباً ما استخدمه كمكان للعزلة، وللخلوة، ليستقبل فيه تلاميذه [يوحنا: 18/ 2]، وكان يهوذا قد ذهب إلى المدينة لينبه السلطات حول هذه الفرصة النادرة، لمواجهة يسوع في أثناء الليل، وبعيداً عن الحشود.

وصار الوقت متأخراً، وكان تلاميذ يسوع متعبين ووسنانين، ولكن النوم كان آخر شيء في ذهن يسوع، ذلك أنه لن ينام مرة أخرى، فقد كانت محنته لطوال الليل على وشك أن تبدأ، وقد بدأ يشعر أنه كان يائساً تماماً، وحزين بعمق، وقد أراد أن يصلي حتى يتمتن من أجل المحاكمة التي عرف بأنها سوف تبدأ على الفور، وأخبرنا مرقص بأنه صلى ودعا إذا كان من الممكن «أن تجوز الكأس عنه» [مرقص:14/ 36]، وحث يسوع تلاميذه ليصلوا معه، لكن الطعام، والخمرة، والساعة المتأخرة، أحدثت تأثيراتها، فوقع الجميع نياماً.

الفصل الثالث عشر

الملك ميت

لم تكن عملية صغيرة تلك التي وصلت في تلك الليلة إلى بستان جيثسياني لاعتقال يسوع، وقال إنجيل يوحنا بأن يهوذا قد وصل إلى المكان متبوعاً بالكهنة القادة، مع كوكبة من شرطة المعبد من اليهود، وكتيبة من الجنود الرومان، يعني قوة تألفت من ستمائة رجل[1]، ومع أنه قذف بتهم من الكهنة القياديين، كانت هذه عملية رومانية، فقد كان بونطيوس فيلاطس قد فوض باعتقاله، ذلك أنه من البديهي عندما أخذ يسوع فيما بعد إلى فيلاطس بعد «محاكمته»، لم يظهر متهموه اليهود في ذلك الصباح الباكر، وكأنهم قد جاءوا بزيارة مفاجئة غير معلن عنها من قبل، مع سجينهم المدان، وعلينا أن نفترض أنهم كانوا قد ذهبوا إلى فيلاطس، وحدثوه بشكل مضخم عن الأعمال التحريضية ليسوع في أوائل الأسبوع، وأخبروه بخطتهم باعتقال يسوع بهدوء من دون التسبب بأي شغب أثناء عيد فصحهم، ومن الواضح أن فيلاطس قد وافق رسمياً على خطتهم، وعمل ضمانات بأن يجري دعمهم بما فيه الكفاية بقوة من العساكر الرومان، للحيلولة دون وقوع أي شيء خطأ، وكان الإمبراطور تايبيروس قد أنّب من قَبْل فيلاطس من أجل إثارته السكان بسبب قسوته المتناهية في ردة فعله على الاضطرابات، فقد كان عيد الفصح اليهودي دوماً، موعداً رئيسياً من أجل إثارة الاضطراب

والشغب، فالحشود التي اجتمعت في القدس من جميع أنحاء العالم، كانت كبيرة جداً، وكانت جاهزة لأن تكون جمهوراً مصغياً إلى أي واحد سيكون مسيحاً، أو لأي سبب خاص، وذكر يوسيفيوس بصورة متواصلة بأن الاضطرابات كانت تحدث دوماً أثناء ذلك العيد، وكان فيلاطس حريصاً بأن يقوم بدوره في هذا الاضطراب وفقاً للكتاب فقط، أي: اعتقال بهدوء، ثم محاكمة من قبل ممثلي السنهدرين اليهودي، ثم سيقوم هو بفحص السجين شخصياً، حتى يقرر الذي سوف يفعله بعد ذلك.

ومع أنه ليس لدينا دليل على أن يسوع قد قاوم الاعتقال، ذكرت الأناجيل الأربعة وروت بأنه تبع ذلك مشادة، وأشهرت الأسلحة، ووجه شمعون بطرس السيف نحو رأس واحد من عبيد الكاهن الأعلى وقطع أذنه، ولكن قُدّر بأن المقاومة سوف تكون مخفقة، ويظهر أن يسوع كان مقتنعاً بأن اعتقاله كن جزءاً من خطة الرب، وقد أمر تلاميذه بخفض أسلحتهم، ونحن لسنا متأكدين فيما إذا كانت هناك نية لدى السلطات باعتقال الجماعة كلها أو يسوع فقط، ولكن ما أن جرى غلّ يسوع وحمله بعيداً، حتى كان البقية قد هربوا في الظلام في داخل حرش أشجار الزيتون ونجوا، وتبعاً لإنجيل يوحنا، قام اثنان هما شمعون بطرس «وتلميذ آخر»، أنا أرى أنه كان جيمس أخو يسوع، كما سأوضح فيما بعد، فسارا من الخلف بصورة سرية وعلى مسافة حتى يراقبا ويعرفا الذي سوف يحدث ليسوع.

من قتل يسوع؟

كان المسيحيون مؤخراً متشوقين تماماً لتوجيه اللوم إلى اليهود من أجل اعتقال يسوع وصلبه، ومع أن يسوع كان له أعداؤه اليهود، لقد كان هؤلاء مشكلين بشكل أساسي من الكهنة الصدوقيين الأرستقراطيين، الذين أداروا

المعبد، مع بعض التأييد من بين الفريسيين، وكان يوسيفيوس قد كتب بأن الصدوقيين كانوا قساة القلوب أكثر من أي يهود آخرين، عندما كانوا يجلسون للقضاء[2]، وبالنسبة لشعب اليهود ككل، تمتع يسوع بشعبيته، وكان له أصدقاء في الأماكن العليا، بما في ذلك بين السنهدرين نفسه، الذي كان نمطاً عن مجلس شيوخ محلي يهودي، وكان ذلك هو السبب لجميع الأعمال السرية التي جرت في أواخر الليل، وخلال الصباح الباكر، فقد كان كل واحد مشغولاً بالاستعدادات لعيد الفصح اليهودي، وإذا تحركت الأشياء بسرعة، سوف يكون يسوع على الصليب الروماني في الصباح، قبل أن يعرف أي واحد الفرق، ومن المؤكد أن أعداء يسوع اليهود كانوا المحرضين على توجيه الضربة، ولكن في النهاية كانت النتيجة خلال الرومان ومن خلالهم.

ومرت «محاكمة» يسوع بثلاث مراحل، فقد أخذ أولاً إلى بيت خاص في منتصف الليل، ويظهر أنه كان عائداً إلى الكاهن الأعلى حانان، وكانت وظيفة الكاهن الأعلى، وظيفة سياسية، كان التعيين فيها يصدر عن الرومان، وكان يوسف قيافا هو الذي شغل الوظيفة بشكل رسمي في العام 30م، ولكن حانان والد زوجته كان هو الذي أدار الوظيفة، وحمل أعباءها على كتفيه، وكان حانان قد خدم بشكل رسمي ككاهن أعلى منذ العام 6م، إلى أن عزلة الرومان في العام 15م، لكنه لم يفقد نفوذه، وقد قدر لخمسة من أولاده فيما بعد، أن يشغلوا ذلك المنصب بتعاقب متواصل وغير منقطع تقريباً، ولم يقم الرومان بمثل هذا الاختيار باستخفاف، وقد توجب على الفرد حتى يشغل هذا المنصب أن يمارس مستوى رفيعاً من النفوذ السياسي والفساد حتى يمكنه الاحتفاظ بهذه السلطة والبقاء في منصبه لمدة طويلة، وباستثناء هيرود أنتيباس كان يوسف حانان القائد اليهودي الأكثر ثروة وقوة في وقته، وكانت أسرته الحاكمة أسرة كهانة، وكانت سلطته على الشؤون اليهودية مطلقة تقريباً، ولم تكن هي المرة الأخيرة التي ستحارب فيها

ان الحاكمة أسرة يسوع الحاكمة، التي هددتها بالسلطة الكبيرة التي على الناس، على أساس السلطة الداودية الشرعية، وكما سوف نرى، لقد بن الخامس لحانان، الذي كان اسمه أيضاً حانان الثاني، هو الكاهن الذي تولى تدبير قتل جيمس أخي يسوع بشكل وحشي في العام 62م، فلقد كانت الأسرتان الحاكمتان ليسوع وحانان مثل الماء والزيت، فقد كان كل من يسوع وجيمس قد تفوها بعبارات الويل ضد الأغنياء، وأنذروهم من حساب الرب الوشيك، وكان جزء من البرنامج المسائحي هو التوقعات التنبؤية بأن أسرة الكهنة الفاسدة هذه، سوف يحل محلها خط من الكهنة سوف يعلمون الاستقامة ويمارسونها في نهاية الأيام، «ملاخي:3».

وكان قيافا قد تزوج واحدة من بنات حانان، وبناء عليه خدم بمثابة ظل لحانان، ككاهن أعلى دمية، خلال حكمه الطويل من العام 18م إلى العام 36م، وأشار لوقا إلى «الكهانة العليا لكل من حانان وقيافا»، وكأنهما شغلا وظيفة مشتركة، مشيراً إلى درجة السلطة التي تمتع بها العم أبو الزوجة [لوقا: 3/ 2]، وأشرفت أسرة حانان على ثروة لا تقدر، وعاشت عيشة فخمة، فقد كانت قادرة على ممارسة الاحتكار على جميع التجارة التي ارتبطت بخدمات المعبد، وكان الناس يزدرون أفراد هذه الأسرة، ونحن نمتلك نصاً حاخامياً مدهشاً اشتكى بحرقة من مساوئ هذه الأسرة الكهنوتية بالذات، في أيام يسوع، جاء فيه: «الويل لي بسبب بيت حانان، الويل لي من أجل افتراءات أفراده... الويل لي بسبب بيت قيافا، الويل لي بسبب أقلامهم.... لأنهم الكهنة الأعلون، وأولادهم هم الخزنة، وأزواج بناتهم هم الأوصياء، وعبيدهم يضربون الناس بالعصي»[3]، وكان يسوع بتوجيهه الضربة نحو أعمال حانان، أي تجارة المعبد، قد لامس الوسط الحساس لسلطتهم.

فمنذ الساعة التي ركب فيها يسوع بشكل مكشوف وعلني في المدينة، وقت بعد ظهر يوم الأحد المنصرم، وسمح للحشود أن تحييه وتنادي باسمه «كملك»،

لقد كان من الممكن نسبياً إثارة قضية جريمة كبرى ورفعها ضده، وجرى تصميم السؤال حول دفع الضرائب الرومانية، من أجل تأكيد الدليل، وفي اجتماع كان قد عقد في أوائل الأسبوع، كان قيافا قد قرر وجوب قتل يسوع، ولا بد أنه امتلك المساندة القوية لوالد زوجته، وتبعاً لما رواه إنجيل يوحنا خاف هذان الكاهنان القياديان، أنهما إذا تركا يسوع يستمر، فإن «الجميع سوف يؤمن به فيأتي الرومان ويأخذون موضعنا وأمتنا» [يوحنا: 11/ 48]، وقد اتخذ القرار لإزالته من الوجود، وبقي السؤال فقط متى؟

ونحن لا نعرف كم كان عدد الذين اجتمعوا في دار الكاهن الأعلى في أواخر تلك الليلة، لكن من المؤكد أن الاجتماع لم يكن اجتماعاً رسمياً لجميع السنهدرين اليهودي، وأخذ يسوع إلى داخل تلك الدار، وفي الخارج في الساحة تجمعت كوكبة من حرس المعبد اليهودي، وأشعلوا نار حطب كبيرة للتغلب على البرد أثناء الليل، وكان العبيد والرسل يذهبون ويأتون، وتبعاً لإنجيل يوحنا، تمكن «التلميذ الآخر» اللغز، الذي رأيت فيه جيمس، من الحصول على مدخل إلى الساحة، وتمكن بطرس أيضاً من الدخول لأن الوصيفة التي كانت تحرس الباب قد عرفته [يوحنا: 18/ 15-18]، وأدرك واحد ممن كانوا في الداخل أن لهجة بطرس كانت جليلية، فاتهمه بأنه كان مع يسوع، وأنكر بطرس بشدة أن يكون حتى قد عرفه.

وهناك مؤشر على طبيعة هذه المحاكمة السرية وغير القانونية بوساطة التوقيت، وكذلك بوساطة المكان الذي جرى اختياره من أجل الاجراءات، وقد كان السنهدرين الكامل المؤلف من سبعين عضواً يجتمع في غرفة خاصة في مجمع المعبد خلال النهار، وليس في بيت خاص قرابة منتصف الليل، ولم يكن من المتصور عقد اجتماع رسمي للسنهدرين في يوم الاستعداد من أجل الفصح، فلقد كانت هذه حركة مضادة من جانب عشيرة الكاهن الأعلى، لإزالة عدو من الوجود، ولم يكن ذلك اجتماعاً رسمياً لسماع قضية والحكم فيها، وكانت الفكرة

جعل يسوع يتفوه بشهادة مدونة، يمكن حملها إلى بونطيوس فيلاطس، كدليل على تآمره، ووجهت إليه تهماً متنوعة، ولكن يسوع بقي صامتاً تماماً أثناء الاستجواب، وأثار رفضه أن يقول أي شيء غضب متهميه، وعندما سئل أخيراً السؤال الحاسم: «أأنت المسيح؟» أجاب هو قائلاً: «أنا هو وسوف تبصرون ابن الإنسان جالساً عن يمين القوة وآتيا في سحاب السماء» [مرقص:14/ 62]، وحسبما جرى البحث من قبل، إن هذه الإشارة إلى «ابن الانسان» لم تكن له نفسه، بل إلى نبوءة دانيال: 7/ 13، التي أشارت بشكل رمزي إلى الناس جميعاً، وبشكل إجمالي على أنهم «ابن الإنسان القادم» أمام عرش الرب، حيث يعطون السلطة على جميع الشعوب [دانيال:7/ 27]، فعلى هذا كان الذي يقوله يسوع هو: «نعم، أنا ملك إسرائيل، ولسوف ترون تجلي ملكوت الرب».

وكان إقرار يسوع بأنه كان الملك الداودي، كل ما احتاجوه، وقام بعض الذين كانوا مجتمعين بالبصاق على وجهه، ثم جرى تسليمه إلى الحراس في الدار، الذين شرعوا يسخرون منه، وعاملوه بقسوة بتوجيه الضربات إليه، ووضعوا عصابة على عينيه وضربوه على وجهه، وسخروا منه حتى «ينبئهم من الذي ضربه»، وعند الصباح اجتمع آخرون من الذين كانوا من الوسط الداخلي للكهنة، ونحن لا نعرف كم كان عددهم، ولكن ادعاء مرقص بأن «المجلس كله» اجتمع عند الفجر الذي سيتلوه صباح الفصح، مستبعد كما يظهر، فقد كانت هذه بكل وضوح عملية داخلية، وكل واحد كان يمكن أن يقف ضد القرار، قطعاً لم توجه إليه الدعوة، خاصة الذين كانوا من السنهدرين مؤيدين ليسوع، أو كانوا على الأقل متعاطفين مع قضيته، وكان هناك ميل في التقاليد المسيحية المتأخرة لوضع المسؤولية عن موت يسوع على «اليهود» ككل وكانت فكرة أن يسوع قد أدين وحكم عليه بالموت في اجتماع رسمي للسنهدرين كله، واحدة من السبل لتأييد مثل هذا الادعاء، ولم يقدم إنجيل يوحنا مثل هذا الادعاء، ولا حتى متى الذي

استخدم مرقص كمصدر له، غير أنه بدّل عبارة «المجلس كله» بعبارة: «تشاوروا على يسوع حتى يقتلوه».

وحديثاً ألقى اكتشافان أثريان كانا بالحري مدهشان ضوءاً جديداً على المرحلة الأولى من محاكمة يسوع في تلك الليلة، ففي أثناء إعادة بناء الحي اليهودي بعد حرب الأيام الستة لعام 1967، قام الإسرائيليون بحفريات أثرية ضخمة، كشفوا خلالها مدينة هيرود حسبما كانت عندما دمرها الرومان في العام 70م، فقد كان في هذه المنطقة امتلك الكهنة الأعلون الأثرياء بيوتهم، وذلك إلى الغرب من المجمع المعماري الضخم لمعبد هيرود، وبحكم الصدفة اكتشف الأثريون خرائب بيت ملكي فخم، من المحتمل كثيراً أنه كان عائداً إلى حانان[4]، وكان اتساعه حوالي الألفي قدم مربع، وقد بني من ثلاثة طوابق مع سهولة بالوصول، ومشهد إطلالة جميلة على المعبد في الشرق، ويوجد على الطابق الأرضي على الجانب الغربي ساحة، مع منطقة باب ما تزال مرئية، واحتوت الجدران من الداخل على تزيينات جصية ملونة، مع رخام ورسوم أزهار، وأرضيات من الفسيفساء وجدت في كل مكان، وهناك قاعة ذات أهمية خاصة، فهي واسعة قياسها 36 قدم في 21، وهناك بيوت أخرى مساوية بالفخامة مجاورة لهذا البيت، وفي خرائب بيت آخر وقع إلى الشمال، تمّ العثور على حجرة ثقيلة كتب عليها بالآرامية «لبار كثروس»، الذي معناه «عائدة إلى بيت قيافا»، ومن المؤكد تقريباً أن هذا البيت الملكي كان بيت حانان، حيث أدين يسوع وحكم عليه بالموت، وبناء عليه فإن الغرفة الواسعة كانت قد خدمت كنموذج «قاعة محاكمة»، والساحة في الأسفل كانت مرئية من الداخل، تماماً مثلما جاءت أوصاف الأناجيل.

وفي تشرين الثاني عمل اكتشاف كان مثيراً حتى أكثر، فقد عثر فريق معماري كان ينشئ حديقة إلى الجنوب من المدينة القديمة، عثر بالصدفة على كهف دفن مازال مختوماً، لم يتعرض للإزعاج منذ القرن الميلادي الأول، مع عظام ونواويس

ما تزال سليمة، وقد تبين بصورة لا يمكن تصديقها، أن الكهف هو مدفن أسرة الكاهن الأعلى قيافا، وفي الحقيقة على واحد من النواويس قد نقش «يوسف بارقافا» [أي يوسف بن قيافا]، وعلى هذا هو يحتوي على عظام الرجل الذي ترأس رسمياً على «محاكمة» يسوع.

ففي وقت ما من الصباح الباكر ليوم الخميس، شدّ وثاقه، وأخذ تحت حراسة المتهمين له إلى الحاكم الروماني بونطيوس فيلاطس وكان فيلاطس مقيماً في مجمع القصر الملكي الذي كان هيرود الكبير قد بناه، على الحافة الغربية من المدينة، خارج أسوار المدينة، وهو ما يزال مشاهداً حتى هذا اليوم، وقد امتلك مدخلاً كان مبنياً بالحجارة، ودرج يقود إلى الأعلى إلى دكة مرتفعة أمام المقر الرسمي للقيادة العسكرية التابعة للحاكم، والذي كان موجوداً على الطابق الأرضي من القصر الملكي، وبما أن الكاهنين الأعليين وبطانتيهما، كانوا قد طهروا أنفسهم طقوسياً من أجل تناول طعام الفصح عند فجر تلك الليلة، فإنهم لم يدخلوا إلى منطقة القيادة العسكرية، التي كانت تعد مدنسة.

وعوضاً عن ذلك وقفوا على الدرج في الخارج، وجاء فيلاطس لمقابلتهم، وقد جلس على مقعد القضاء فوق دكة حجرية مرتفعة، وهذه المنطقة التي كانت تصدر فيها قرارات الحكم الرسمية قد أطلق عليها بالعبرية اسم «جباثا» ومعنى ذلك حرفياً «الرصيف الحجري»، وكانت التهم التي سجلوها ضد يسوع سياسية محضة، ولم تكن دينية، في أنه كان يهدد استقرار الشعب، وهو يعارض دفع الضرائب التي جرى فرضها من قبل قيصر، وأنه هو نفسه قد ادعى أنه الملك الشرعي، بحكم أنه كان مسيح اسرائيل [لوقا: 23/ 2]، وكانت أية تهمة من هذه التهم كافية في أعين الرومان لجعله يستحق الموت بوساطة الصليب.

وأخذ فيلاطس يسوع إلى مقر القيادة العسكرية في داخل أسوار القصر، وتقدم الأناجيل الأربعة كلها وصفاً أحكمت صناعته، حول كيف وجد فيلاطس

أن يسوع كان بريئاً من هذه التهم، ومضوا بعيداً بشكل غير اعتيادي، إلى أنه أراد إطلاق سراحه، ولكنه أكره بالتهديد من قبل السلطات اليهودية، مع مؤيديها، الذين كانوا ينتظرون في الخارج، والذين طالبوا بوجوب صلبه، لا بل حتى أنه اقترح إطلاق سراحه تماشياً مع وتنفيذاً للعرف اليهودي بإطلاق سراح سجين يهودي أثناء العيد اليهودي، ورفض أفراد حشد المتهمين ليسوع الاقتراح، وطالبوا عوضاً عن ذلك بإطلاق سراح سجين آخر اسمه بارأباس، كان مسجوناً بسبب الشغب، ولذلك تسلم هذه المبادرة بالعفو الروماني، ورضخ فيلاطس أخيراً، ذلك أنه خاف من الحشود اليهودية، التي استمرت تصرخ بأصوات مرتفعة «اصلبوه»، وطلب طست ماء، وغسل يديه من القضية، وبذلك أعلن مرة أخرى بأن يسوع كان بريئاً، ثم سلم يسوع إليهم حتى يصلب، وأضاف حتى التأكيد التالي بأن «جميع الشعب»، رد على كراهية فيلاطس بالصراخ قائلين: «دمه علينا وعلى أولادنا» [متى:27/ 25].

وهناك اتفاق بين العلماء على أن القليل من هذه الروايات حول محاكمة يسوع أمام فيلاطس هو موثوق تاريخياً، وأن هذه الروايات قد جرى تشكيلها بالكامل من قبل التقاليد اللاهوتية المسيحية المتأخرة، التي أرادت أن تضع الملامة من أجل موت يسوع كلياً على الشعب اليهودي، في حين برأت الرومان بجعلهم متعاطفين نحو يسوع، مع فيلاطس وقد صنع كل الذي أمكنه لإنقاذ حياة يسوع، ذلك أن جميع الأناجيل الأربعة للعهد الجديد، قد كتبت بعد الثورة اليهودية الكبرى ضد الرومان «66-73م»، فقد كانت العواطف المضادة لليهود عامة وقوية في أيام حكم تايبيروس «14-37م»، وقد حرض عليها الحاكم سيجانوس Sejanus الذي كان أكثر المواطنين الرومان نفوذاً في أيامه، وكان بعد الثورة اليهودية الدموية والمكلفة، أن وصلت المشاعر المضادة لليهود إلى درجة الالتهاب لدى الرومان، وكانت أية علاقة ليسوع مع فتنة اليهود وعدم

إخلاصهم لروما ينبغي تجنبها، إذا أرادت الحركة المسيحية الجديدة أن تنتشر بين الرومان، وكان من غير الممكن إنكار أن يسوع قد مات بوساطة الصلب الروماني، وقد كان محرجاً كثيراً، ولكن الملامة من أجل صلبه من الممكن وضعها على عناد اليهود، ثم لعله كان بإمكان الحركة المسيحية أن توضح أصولها اليهودية والموت المهين لقائدها، بشكل أكثر مواءمة، يعني تحت ضوء أقل يهودية، وكان هذا سيمنح التقاليد المسيحية الناشئة فرصة أكبر في ربح متحولين والقبول خلال الإمبراطورية الرومانية، التي كانت تنتشر فيها.

والذي نعرفه هو أن فيلاطس كان معروفاً بقسوته المتناهية وبوحشيته، وبعدم خوفه وتردده في احتقاره وكراهيته لرعيته اليهودية، فمنذ وصوله إلى اليهودية، أصبحت رعونته، وأصبح عنفه أسطورياً، فهو من دون شك كان مؤيداً لسيجانوس، الذي انسحب بعد تايبيروس إلى جزيرة كابريCapri، التي أدارها فعلياً باسم الإمبراطور، ووصف فيلون الإسكندي، الذي كان فيلسوفاً يهودياً معاصراً ومؤرخاً، فيلاطس أنه كان «لا يعرف المرونة بشكل طبيعي، وقد مزج بين الإدارة الشخصية، والعناد وانعدام الشفقة، وكان رجلاً مشهوراً بحقده، وبسرعة غضبه[5]».

وامتلك فيلاطس سمعة الإقدام على الاعتقال من دون محاكمة، وبتجاهل الإجراءات القانونية، وكان فيلاطس حتى وإن اعتقد بأن يسوع كان لا ضرر منه، وأحمق ضالاً، كان سيشعر بالسعادة بإدانته من دون أي تردد، فالصورة التي قدمت فيها أناجيل العهد الجديد فيلاطس هي بكل بساطة غير صحيحة تاريخياً.

فلندع جانباً جميع الأفكار اللاهوتية، ولنركز على ما هو حقائق تاريخية أكثر احتمالاً، وإذا فعلنا ذلك يمكننا أن نقول ما يلي: لقد قام الكاهنان الأعليان حانان وقيافا مع مؤيديهم بتسليم يسوع إلى فيلاطس، متهمين إياه بالتحريض على الفتنة والعصيان، واستجوب فيلاطس يسوع على انفراد حول ما تعلق بالتهم، وعندما

علم بأن يسوع كان جليلياً، قرر إرساله إلى هيرود أنتيباس، الذي كان في المدينة من أجل الفصح، وكان مقيماً في قصره القريب، وكان هيرود يسعى وراء موت يسوع منذ بعض الوقت، وكان مسروراً بأن وجده أخيراً قيد الاعتقال، وفحصه هيرود مطولاً، ولكن يسوع رفض أن يقول أي شيء جواباً لـه، وكـان المتهمـون ليسوع حضوراً، وقد رددوا التهم ضده، وقرر هيرود وجنوده التسلي قليلاً مع يسوع، فألبسوه ثوباً ملكياً وبدأوا يعاملونه بازدراء، وسخروا منه بدعوته باسم «الملك»، ثم أعاد هيرود يسوع إلى فيلاطس، موافقاً على قرار وجوب إعدام يسوع بالصلب، وفي القدس كان فيلاطس هو الذي أمر بتنفيذ القرار القضائي.

فقد أمر فيلاطس بتسليم يسوع إلى حرسه الإمبراطوري، الذين كانوا أكثر الجنود الرومان موضع ثقة، وكانوا نخبة القوات الرومانية في القدس، وقد أخذوا يسوع إلى ساحة القصر، وجلدوه، ويستخلص من الكلمات الإغريقية التي استخدمت أنه جلد بالسياط، وكانت هذه ممارسة رومانية معيارية، وكانت نوعاً من العقوبة التمهيدية للعبيد، أو الذين حكم عليهم بالموت بوساطة الصلب، وكان مثل هذا الجلد قاسياً جداً، إلى حد أنه كان ضد القانون الروماني القيام بتطبيقه على المواطنين الرومان، وكان جزءاً من الطرائق التي استخدمها الرومان من أجل إرعاب وإرهاب أي واحد يعارض الرومان ويقف ضد حكمهم، ولم يحصل الجنود دوماً على «مسيح» كسجين حتى يستفيدوا فائدة كاملة من الأوضاع، فوضعوا تاج سخرية من شوك على رأسه، وقصبة في يده، وانحنوا أمامه، وحيوه بتهكم بمثابة «ملك لليهود»، وأمر فيلاطس بوضع لوحة كتبت باللاتينية، والإغريقية والعبرية، جاءت بمثابة إعلان نصه «هذا يسوع ملك اليهود»، ومن المحتمل أن يسوع قد وضعها حول عنقه عندما اقتادوه بعيداً، وهو يحمل الـ patibulum، أو عارضة دعامة الصليب إلى موضع الصليب، ثم جرى تثبيت الإعلان على الصليب، فوق

رأس الضحية، من أجل الإعلان بشكل عام عن جريمة المصلوب، وكان هذا عنصراً مهم جداً في القصة، كشاهد على حقيقة أن الرومان قد صلبوا يسوع لإثارته الفتنة والعصيان، أي من أجل ادعائه أنه ملك.

وانتهز فيلاطس توفر الفرصة لصلب اثنين آخرين من السجناء اليهود كـ Lestai،وهذا اصطلاح جرت ترجمته بالعادة كـ«لص»، وهو قد استخدم بشكل متواصل من قبل يوسيفيوس لوصف رجال العصابات القنائين «الزيلوت» الذين عملوا ضد روما، وكانت هذه هي العبارة التي استخدمت بكل دقة لوصف السجين بارأباس، الذي كان قد جرى اعتقاله، وقضي عليه بالصلب من أجل قيادته ثورة عنيفة، ويظهر أن الرجلين اللذين صلبا مع يسوع كانا من المشاركين في ذلك الاضطراب الأخير، وكانت المسألة من وجهة نظر فيلاطس أن الثلاثة بما فيهم يسوع كانوا مجرمين بالشيء نفسه، فلقد كانوا مثيرين للفتنة والعصيان ضد روما.

واقتيد يسوع مع الضحيتين الأخيرتين إلى خارج المدينة إلى مكان كان يعرف باسم الجلجلة «أي مكان الجمجمة»، وهو المكان الذي اعتاد الرومان على استخدامه من أجل الصلب، وقال يوسيفيوس: بأنهم اختاروا هذا المكان عن قصد، حتى يمكن رؤيته بسهولة من قبل العابرين، سواء أكانوا على الطرق الأساسية، أم على قمم الهضاب.

أكثر الميتات تعاسة

وصف يوسيفيوس الصلب الروماني على أنه «أكثر الميتات تعاسة»، فكل واحد نشأ في فلسطين الرومانية في القرن الميلادي الأول عرف الهول الناجم عن هذا الرعب، إما بالتجربة المباشرة، وإما بوساطة المشاهدة، فقد كان ضحايا الصلب البائسون، يتركون على الصلبان لأيام، حيث كانوا يشكلون

مشهداً عاماً للسكان اليهود، وقد روى يوسيفيوس أنه في أثناء حصار الرومان للقدس في صيف العام 70م، وصل عدد الأسرى الذين صلبوا يومياً الخمسمائة، ولذلك كانوا من الكثرة بمكان إلى حد أنه لم تترك أحراش في المنطقة، لأن جميع الأشجار قطعت.

ولدينا معلومات لا بأس بها حول طرائق الرومان التي استخدموها في صلب ضحاياهم، ذلك أننا لا نمتلك فقط المصادر المكتوبة، بل جرى الكشف في العام 1968 عن بقايا هيكل عظمي لذكر كان ضحية الصلب، وحصل الاكتشاف في قبر وقع إلى الشمال من القدس، على طريق نابلس، وقد كان في العشرينات من عمره، وكان اسمه يهوه حانان Jehahanan حسبما نقش على ناووسه، وتعطي بقاياه نظرة مدهشة حول التفاصيل التي تعلقت بالصلب الروماني، حسبما مورست في القدس الرومانية للقرن الأول.

ونحن نعرف بأن المسامير وضعت خلال الذراعين الأماميين، وليس خلال اليدين، حيث غرست فيما بين عظمي العكبرة والزند، فبهذه الطريقة، كان مضموناً ربط الذراعين بعارضة الصليب، وظهرت على عظام العكبرة لدى يهوه حانان آثار الكسر فيما بين المسمار والعظم، وكان الأطباء قد أظهروا بأن المسامير من خلال اليدين لن تتحمل وزن الجسد وأن المسامير خلال الرسغ سوف تفجر الأوعية الدموية، فلقد تطلب «علم» الصلب تثبيت المسامير بطريقة تحد كثيراً من النزيف، وإلّا كان الضحية سيعبر سريعاً ويموت خلال دقائق، واستخدمت الاشارات في الأناجيل حول ثقب يدي يسوع كلمة إغريقية، يمكن أن يفهم منها أنها تضمنت الذراعين، وكان القدمان يسمران من خلال عظم الكعب، فهذا هو أكبر العظام في القدم، وكان خرق هذا العظم لا يتسبب بتدفق الدماء ونزيفها، وبالنسبة لوضع يهوه حانان ما يزال المسمار سليماً خلال عظم الكعب، فعندما أنزل من على الصليب، ونقل من فوقه إلتوى المسمار وشكل عقدة داخل الخشب فكان

الذي نقله قد قام ببساطة بقطع الخشب، تاركاً المقطوع مرتبطاً بقدمه.

وكان الموت بوساطة الصلب مسيرة بطيئة، وكان يأخذ وقتاً طويلاً يصل إلى يومين أو ثلاثة أيام، وكان الضحايا يجردون من ثيابهم إلى أن يصبحوا عراة، فيصيرون عرضة لشمس البحر المتوسط المحرقة، وكان الموت ينجم عن الجمع بين الصدمة، والإنهاك، وتشنج العضلات، والجفاف بزوال المياه، وفقدان الدم، والاختناق أو توقف القلب، واعتماداً على الزاوية التي جرت بها مسمرة الذراعين والرجلين، بذلك كان من الممكن جلب الموت بسرعة أكبر، أو إطالته، وكان يجري دعم الكفلين وسندهما بوساطة قطعة من الخشب اسمها sedecula، فهذه كانت تسند الجسد قليلاً، ومع مرور الوقت، وانتشار الإرهاق يصبح التنفس بالفعل صعباً، وإذا توفر سبب لتسريع الموت، وقتها كان من الممكن كسر ساقي الضحية، فذلك كان يتسبب بهبوط الجسد و يجعل التنفس بعد وقت قصير مستحيلاً.

وروى يوسيفيوس حكاية مفادها أنه شاهد بين العدد الكبير من الأسرى المصلوبين، أثناء الثورة اليهودية ثلاثة من معارفه السالفين في قرية صغيرة قرب القدس، فرجا القائد الروماني تيتوس بأن يسمح بإنزالهم من على الصلبان، وأن يوضعوا تحت عنايته، وجرى استدعاء طبيب، وعلى الرغم من جهوده مات اثنان منهم، ولكن واحداً تمت معالجته حتى عاد إلى الصحة وتعافى، وغالباً ما ترك الرومان الجثث حتى تهترئ على الصلبان، ولكن الشريعة اليهودية قضت بدفن الذين جرى «تعليقهم على شجرة» في اليوم نفسه الذي صلبوا فيه[6]، وكان اليهود، عندما ينالون الإذن ينقلون الجثث قبل الفجر، ويتولون دفنها، وبما أن ساقي يهوه حانان كانا مكسورين، يرجح أن جرى التسريع بموته، للسماح بدفنه في اليوم نفسه لصلبه.

وضع يسوع والضحيتان على صلبانهم في الساعة التاسعة من بعد ظهر يوم الخميس، ومن المستحيل القول فيما إذا كان يسوع كان يتوقع بأن الرب سوف ينقذه، بعدما مضت الأمور إلى هذا الحد، فإذا كان قد حدد نفسه وجعلها تتوافق مع الشخصية الداودية التي قدر لها أن «تطعن»، حسبما جاء في زكريا / 12/ ، وقتها من الممكن كلياً أنه اعتقد أنه قد قدر له بأن «يسمّر» على الصليب، لكن على أن يجري إنقاذه من الموت نفسه قبل أن يصبح الوقت متأخراً كثيراً.

والمحتمل كثيراً أن يسوع قد توقع إطاحة مفاجئة ومثيرة، وتجلياً لملكوت الرب، فلربما توقع هزة أرضية كبيرة، سوف تدمر معبد هيرود، مع إظلام للشمس، وتحول للقمر إلى لون أحمر مثل الدم، وبعث للموتى، وظهور فرق من الجيوش الربانية في السماء، ففي خلال الأسبوع المنصرم كان قد أخبر تلاميذه، الذين أعجبوا بجمال وضخامة حجارة مجمع معبد هيرود بأن اليوم سوف يأتي، عندما لن تترك حجر على حجر آخر [مرقص:13/ 2]، وفي أثناء محاكمته كانت إحدى التهم التي وجهت إليه: «نحن سمعناه يقول: إني أنقض هذا الهيكل المصنوع بالأيادي، وفي ثلاثة أيام أبني آخر غير مصنوع بأياد» [مرقص:14/ 58]، وكما كان يسوع قد أخبر تلاميذه في الليلة قبل العشاء الأخير: «الآن دينونة هذا العالم. الآن يطرح رئيس هذا العالم خارجاً» [يوحنا: 12/ 31]، وكان الأنبياء العبرانيون قد كتبوا بحيوية حول: «يوم يهوه» عندما سيرمي الناس ذهبهم وفضتهم في الطرقات، ويختبئون في كهوف الصخور فراراً: «من أمام رعب يهوه ومن مجد عظمته عند قيامه ليرعب الأرض» [إشعيا: 2/ 21] ولسوف يسقط ملوك الأرض، «ويجري حبس جنود الشيطان في هوة عميقة» [إشعيا: 24/ 22]، وكان بالنسبة ليسوع قد وصل «اليوم الثالث» النبوئي، وقدوم «ابن الإنسان في

غيوم السماء» قد بات وشيكاً.

وروت الأناجيل أن كبار رؤساء الكهنة مع الآخرين الذين أيدوهم، قد سخروا من الضحايا، ووجهوا إهانات خاصة نحو يسوع وتهكموا عليه قائلين: «إن كان هو ملك إسرائيل فلينزل الآن عن الصليب فنؤمن به»، ووقفت عن بعد مريم أم يسوع، وكذلك مريم المجدلانية مع نساء أخريات، كن قد سرن خلفه من الجليل، في رحلته الأخيرة هذه إلى القدس، وتبعاً لإنجيل يوحنا، كان «التلميذ الذي أحبه يسوع» موجوداً أيضاً مع أم يسوع، وفي وقت متأخر من النهار عندما بدأ يسوع يعتقد أنه يمكن بعد كل شيء أن يموت، وضع بشكل رسمي أمه تحت رعاية هذا التلميذ، الذي حددت أنا شخصيته، على أنه كان أخاه جيمس، الذي أصبح الآن الأكبر سناً» في الأسرة.

وتبعاً لمرقص كان يسوع على الصليب من الساعة السادسة حتى الساعة التاسعة، أي ما يساوي من الساعة التاسعة صباحاً حتى الساعة الثالثة مساء [مرقص:15/ 33]، وفي نحو النهاية بدأ يشعر بأن حياته قد تلاشت، فصرخ بصوت مرتفع بلغته الآرامية المحلية «ألوي، ألوي لم شبقتني؟»، وهذه هي الكلمات الافتتاحية للمزمور؟: «إلهي، إلهي لماذا تركتني؟» وعند هذه النقطة نكس رأسه، ولفظ روحه، وغير الكلمات من المزمور التي اقتبسها، نحن لن نعرف مطلقاً ما الذي كان آخر ما فكر به، ومن المحتمل كثيراً أنه صار أضعف وازداد ضعفاً، وهو يتفوه بذلك المزمور بالذات، وهو نص صلاة رجل يموت، معزو إلى الملك داود، الذي أنقذ في النهاية من معاناة مخيفة ومن الموت، وفي الحقيقة إن هذا هو المزمور الذي يشير بشكل خاص إلى «ثقبوا يدي ورجلي» [البيت 16]، وينتهي المزمور بإعلان فيه أمل قوله: «الرب لم يحجب وجهه عنه بل عند صراخه إليه استمع»، ومروراً حتى الدقائق الأخيرة، من المحتمل أن يسوع قد اعتقد بأن الرب سوف يتدخل، وينقذ حياته، ويظهر ملكوته.

وبما أن وجبة طعام الفصح اليهودي، كانت ستؤكل بعد فجر ذلك المساء، طلب الكاهنان الأعليان من الرومان كسر أرجل الضحيتين لتعجيل الموت، وقد ذكر إنجيل يوحنا بوضوح أنهم «لم يريدوا أن تبقى الأجساد على الصليب في السبت، لأن يوم ذلك السبت كان عظيماً» [يوحنا: 19/ 31]، وعندما وصلوا إلى يسوع ظهر تماماً بأنه من دون حياة، وقام واحد من الجنود بطعن يسوع برمح في جنبه، فلم يتحرك، فالملك كان ميتاً.

مات ودفن مرتين

كان يسوع ميتاً مع الساعة الثالثة مساء من يوم الخميس، وكانت أسرته وكان أتباعه في حالة صدمة كاملة، فما من واحد منهم كان يمكنه أن يصدق، بأن الرب قد سمح ليسوع، المسيح الداودي، والملك الشرعي لإسرائيل، بأن يموت، ولم تكن هناك استعدادات لدفنه، فأسرة يسوع كانت من الجليل، ولم تمتلك كهف مدفن أسروي في القدس، وكانت الشمس قد بدأت بالمغيب، ووجبة عشاء عيد الفصح اليهودي سوف تبدأ عند حلول الليل، وتوجب عمل شيء سريع مع جسد يسوع، خشية أن تعاني الأسرة من العار، بأنها تركته على الصليب خلال الليل.

دفن مؤقت

وروت الأناجيل بأن يوسف الرامي، كان عضواً ثرياً وصاحب نفوذ في السنهدرين اليهودي، وقد تدخل لتقديم المساعدة، فذهب إلى الحاكم الروماني بونطيوس فيلاطس، واستخدم نفوذه ومركزه كعضو في السنهدرين للحصول على إذن لإنزال جسد يسوع من على الصليب، ودفنه بشكل مؤقت، ومن المعتقد أن يوسف لم توجه إليه الدعوة في الليلة الماضية، لحضور «المحاكمة» التي انعقدت في بيت حانان وقيافا، وقد كان هو واحد من الأقلية من القادة اليهود ذوي النفوذ،

الذين أيدوا يسوع، وقد حصل عل مساعدة رجل اسمه نيقوذيموس، كان أيضاً عضواً في السنهدرين، شاركه في وجهة نظره المتعاطفة نحو الحركة المسائحية، وكانت المشكلة التي واجهاها هي أين يمكن لهما أن يدفنا يسوع بشكل مؤقت، في مثل تلك الظروف الضاغطة.

ولقد افترض بشكل عام بأن القبر الذي وضعوا فيه يسوع في الوقت المتأخر من بعد ظهر ذلك اليوم، كان ملكاً ليوسف الرامي، ولكن هذا لم يكن هو الحال، فهناك سوء فهم تأسس على شرح صغير من المحرر في انجيل متى، وليس لدينا مصدر آخر يؤيد هذا الافتراض(1) [متى: 27/ 60]، وكان مرقص ولوقا قد قالا بكل بساطة: «لقد أخذوا الجسد ومددوه في قبر كان منحوتاً في الصخرة»، وقدم انجيل يوحنا تفاصيل إضافية مهمّة بقوله: «وكان في الموضع الذي صلب فيه بستان، وفي البستان قبر جديد لم يوضع فيه أحد قط»، [يوحنا: 19/ 41] ومن المستبعد أن يكون قبراً قد نحت حديثاً، وكان بشكل موائم قريباً من المكان الذي صلب فيه يسوع، ملكاً ليوسف الرامي، والحقيقة هي أننا لا نمتلك أية فكرة عمّن كان من الممكن صاحب هذا القبر، فهو قد قطع حديثاً ونحت في الصخر، وما من أحد قد استخدمه بعد، وهو بهذا واءم حالة الطوارئ التي واجهها يوسف ونيقوذيموس، فقد كان بإمكانها أن يضعا جثة يسوع في داخله مؤقتاً، وبعد عيد الفصح اليهودي والسبت يمكن للأسرة أن تعود، وتمنح يسوع طقوس دفنه الموائمة، وفقاً للأعراف اليهودية.

وتبعت مريم أم يسوع، ورفيقتها مريم المجدلانية يوسف ونيقوذيموس إلى القبر، وحددتا بعناية مكانه، ولم يكن هنالك وقت لإعداد الجثة للدفن، وفقاً لتقاليد الأعراف اليهودية التي تضمنت غسل الجثة ودهنها، ووضع مختلف أنواع الحنوط والعطور للتغلب على رائحة التعفّن، ذلك أن يوسف ونيقوذيموس كانا قد قاما بكل بساطة بلف الجسد بكفن من الكتان، ومدداه على لوح حجري

كمكان راحة مؤقت، في ذلك الوقت المتأخر من بعد ظهر يوم الخميس، إلى أن ينقضي عيد الفصح اليهودي في يوم الجمعة، وعطلة «السبث» في يوم السبت.

وقد أغلقا المدخل الصغير إلى القبر بوساطة حجرة، كانت مقطوعة لهذه الغاية، لمنع الحيوانات أو الغرباء، الذين يمكن أن يمروا به، وإبقائهم خارجه.

وتضم كنيسة الضريح المقدس المكان التقليدي للجلجلة، والقبر الذي وضع فيه قبر يسوع، وكان المكان في أيام يسوع مقلعاً للحجارة، بالكاد خارج سور هدريان للمدينة على الجانب الشمالي الغربي، وقد أصبح المكان الأعظم قداسة لدى العالم المسيحي، وهو موجود في الحي المسيحي داخل الأسوار الحالية لمدينة القدس القديمة، وهو مكان مبجل منذ القرن الرابع للميلاد، عندما قامت المسيحية التقية هيلانة، أم الأمبراطور الروماني قسطنطين المتحول إلى المسيحية حديثاً، بالإعلان بأن ذلك هو المكان، ويشترك الكاثوليك الرومان، والأرثوذكس الشرقيون، والأرمن، والمسيحيون الأقباط في تبجيل هذا الموقع، ويؤثر الأرثوذكس بشكل عام موقعاً خارج أسوار المدينة القديمة، إلى الشمال من باب دمشق يدعونه باسم «بستان أكرا» أو «بستان الضريح» بعد محطة حافلات المدينة الحديثة في الشرق من القدس، فهناك يجد السواح صخرة يشبه وجه نتوئها الظاهر، كما يقال «جمجمة»، لأن كلمة «جلجلة» تعني «مكان الجمجمة»، وبات كثيرون على قناعة بأن هذا هو الموقع الصحيح، ويوجد بستان هناك، مع قبر قد قيل هو قبر يوسف الرامي.

وتشكل أصالة أي واحد من الموقعين معضلة، فالقبر في الموقع البروتستانتي يرقى بتاريخه إلى العصر الحديدي (القرن الخامس قبل الميلاد)، ولذلك هو قديم جداً حتى يتناسب مع وصف «قبر نحت حديثاً»، وتأسس الموقع الكاثوليكي على تقاليد من القرن الرابع للميلاد، أي بعد ثلاثمائة سنة كاملة مضت على صلب يسوع، وهو على مسافة يردات فقط من السور الشمالي القديم للمدينة، قرب مقطع عميق للحجارة، وهي منطقة بعيدة الاحتمال

لتتخذ من أجل قبور جديدة وبساتين، وتأسست أصالته على آثار مقدسة ادعت الامبراطورة هيلانة بأنها قد عثرت عليها، مثل الصليب الحقيقي ليسوع، حيث كان مدفوناً على مقربة من هناك، وتثبت هذا وتمتن بوساطة منامات رؤية وحكايات عن معجزات، ومن المحتمل كثيراً أن القبر الذي اختارته هيلانة، كان قبر يوحنا هيركانوس، الذي كان الحاكم المكابي من القرن الثاني قبل الميلاد[2]، وقد ورد ذكره مراراً عند يوسيفيوس، بالتحديد في ذلك الموقع، وببساطة لا يتماشى هذا الموقع مع المدونات التوراتية والتاريخية.

والأكثر احتمالاً والأشبه هو أن يكون موقع صلب يسوع على جبل الزيتون، في شرقي المدينة، مشرفاً على المجمع المعماري للهيكل، وذكر واحد من أقدم مصادرنا أن الصلب كان «خارج المعسكر» [رسالة إلى العبرانيين: 13/ 12-13]، وجرى تفسير العبارة التقنية: «خارج المعسكر»، على أنه كان على مسافة لا تقل عن ألف ذراع (حوالي النصف ميل) إلى الشرق من حرم الهيكل[3]، فهناك، نحو قمّة جبل الزيتون كانت تجري طقوس التطهير، وتنفيذ بعض عقوبات الجرائم[4]، وكانت هنالك أيضاً محاولة في القرن الأول للميلاد، لوضع الأضرحة خارج هذا المحيط، في سبيل تجنيب التلويث الطقوسي للهيكل[5]، وقد وافق هذا المقاصد الرومانية بشكل جيد، بما أنهم كانوا يفضلون جعل عمليات الصلب فوق تلال على طرف الطرق الرئيسية، فبذلك كان يمكن للناس رؤية العقوبة، وأخذ الحذر، فقد كان جبل الزيتون مشاهداً من قبل القادمين إلى المدينة على الطرق الرئيسية، وكان بعيداً بما فيه الكفاية عن حرم الهيكل، لذلك كانت الجثث لا تتسبب بتلويث طقوسي، ويقول نص مسيحي من القرن الثاني للميلاد، اسمه «أعمال فيلاطس» بأن يسوع كان قد جرى صلبه قرب المكان الذي اعتقل فيه، وهو بستان جيشيماني على جبل الزيتون، وأشار نصّ «شم - توب shem- Tob» في النص العبري لإنجيل متى، الذي كنت قد ذكرته في الفصل الثامن، إلى الجلجلة كـ«جبل» أو

«هضبة»، وليس هناك في شمال المدينة أي مكان يمكن أن يشار إليه وفق هذه الطريقة، لكن الوصف يتماشى تماماً مع جبل الزيتون، فقد كان هناك فوق قمّة جبل الزيتون أكمة مستديرة أو قبّة، من الممكن أنها حملت اسم «مكان الجمجمة»[6]، وكان الجانب الغربي من جبل الزيتون، المواجه للقدس، منطقة بساتين وقبور، وإذا كان هذا هو الموقع الصحيح، فإن يسوع أمضى الساعات الأخيرة من آلام حياته، وهو مواجه لهيكل القدس مع مشهد كامل لساحاته.

ولم نخبر أين تناولت أسرة يسوع مع نخبة أتباعه وجبة عشاء عيد الفصح اليهودي، مساء موت يسوع، لكن يمكن للإنسان أن يتصوّر فقط المناسبة الحزينة والمهيبة التي لا بدّ أنها قد سادت، ومن المحتمل أن يكونوا قد اجتمعوا في بيت مريم ومرثا في بيت عنيا، على جبل الزيتون حيث كان يسوع مقيماً هو وأتباعه طوال ذلك الأسبوع، ولا بدّ أنهم كانوا مرعوبين من احتمال أن يكون بعض مجموعتهم قد اعتقلوا، ولا بد أن صدمة موت يسوع قد جعلت عقولهم جميعاً غاضبة.

قبر فارغ

لعل محاولة تقرير الذي حدث بعد ذلك، من أصعب الموضوعات وأكثرها خلافاً في دراسة أصول المسيحية، فهنا نحن ندخل إلى منطقة فيها تداخل الإيمان والعقيدة اللاهوتية مع الحقائق التاريخية المحتملة، واختلطت إلى حد بدا من المستحيل تقريباً فصلها، فهناك أشياء قليلة نحن نعرفها بشكل مؤكد، وهناك أشياء كثيرة لربما نحن لن نعرفها على الإطلاق، فهذه هي طبيعة مصادرنا وأدلتنا، والإعلان القياسي المسيحي، معروف تمام المعرفة، في أن يسوع قد قام من الموت، وأنه قد ظهر إلى عدد كبير من الشهود، وأنه صعد بعد ذلك إلى السماء، ليجلس كمسيح ممجد على يمين الرب، وأنه سوف يعود من هناك في نهاية الزمان ليحكم على الأحياء وعلى الأموات، ولكن هذه الرسالة، التي أعدت وفق هذه الطريقة، تحتاج إلى وقت طويل حتى تأتي.

ولقد ظهر هنا ثلاث حقائق لا نقاش حولها، أولاها: إن يسوع كان بالفعل قد مات، وثانيها: أنه قد دفن بسرعة وبشكل مؤقت في قبر غير معروف، وثالثها: إن الحركة التي بدأها يسوع لم تنته مع وفاته، بل انتعشت، ووجدت حياة جديدة تحت قيادة جيمس أخي يسوع.

ولقد ذكرت الأناجيل الأربعة كلها وروت أن القبر الذي وضع فيه يسوع بشكل مؤقت وجد فارغاً، في صباح يوم الأحد، ولكنهم على غير وفاق حول من وصل أولاً إلى القبر، وحول الذي رشح بعد ذلك، فقد قال إنجيل القديس يوحنا بأن مريم المجدلانية قد ذهبت لوحدها، من دون الآخرين، وكان ذلك حتى قبل إشراق الشمس، عندما كان ما يزال هناك ظلام، وأنها كانت الوحيدة التي وجدت أن الحجرة التي أغلقت المدخل قد أزيحت، وأن الجسد ليس موجوداً فوق اللوح، الذي سلف ووضع فوقه في وقت متأخر من بعد ظهر يوم الخميس، فكان أن ركضت على الفور عائدة إلى المدينة لتجد شمعون بطرس و«التلميذ الذي أحبه يسوع» وهي تصرخ: «لقد أخذوا السيد من القبر ولسنا نعلم أين وضعوه» [يوحنا: 20/ 2]، وركض شمعون والتلميذ الذي لم يذكر اسمه طوال الطريق إلى القبر ليتأكدا من الخبر، فوجدا معاً قطعة الكتان التي وضعت حول الجثة، وجسد يسوع قد ذهب، فلم يقفز أي واحد إلى محصلة بأن يسوع قد قام من الموت، فالقضية في ذلك الوقت كانت مسألة فقدان جثة.

وقال مرقص بأن مريم أم يسوع، وسالومي، ومريم المجدلانية، ذهبن مع بعضهن إلى القبر، وعوضاً عن رؤية يسوع واجهن «شاباً» قام بإخبارهن قائلاً: «لا تندهشن، أنتن تطلبن يسوع الناصري المصلوب، قد قام ليس هو ههنا، هوذا الموضع الذي وضعوه فيه»، فهربن من القبر وهنّ مندهشات، ولم يقلن شيئاً إلى أي واحد، وروى متى بأن أم يسوع ومريم المجدلانية ذهبتا معاً إلى القبر، وكان هناك زلزال كبير، ونزل ملاك الرب من السماء، ودحرج الحجرة وأبعدها، وقال للمرأتين، «يسوع ليس

هنا لأنه قام» [متى: 28/ 1-7]، وقال لوقا بأنهن وجدن الحجر مدحرجاً ومبعداً، فدخلن إلى القبر، فلم يجدن الجسد، وتملكتهنّ الحيرة، لكن فجأة ظهر رجلان بثياب برّاقة، وقالا لهن: «لماذا تطلبن الحي بين الأموات» [لوقا: 24/ 2-5].

وقد اقترح بعضهم بأن يسوع لربما لم يكن ميتاً سريرياً، بل كان قد وقع في نوع من أنواع الغيبوبة، استفاق منها فيما بعد[7]، ويشار إلى هذه الفكرة بشكل عام تحت اسم «نظرية الإغماء»، وهذه لها أنواع كثيرة، بما في ذلك فكرة أن يسوع لربما صنع الشيء كله بشكل تآمري، بأن سمح لنفسه بالتخدير، وبذلك كان باستطاعته أن يتألّم كمسيح إسرائيل، لكنه نجا من الموت[8]، وقد ظهرت نظريات خيالية كثيرة كلها تأسست على هذه الفكرة، وقالت إحدى الأفكار بأن يسوع سافر نحو الشرق إلى الهند، ليبحث عن «الأسباط الضائعة»، حيث مات بالأخير هناك، وأن قبره موجود الآن في سرينغار في كشمير[9]، وتسللت أفكار أخرى في الأعوام الحالية إلى عدد من الكتب الشعبية، ذهبت إلى القول بأن يسوع كان قد تزوج من مريم المجدلانية، وأنه بعدما عاش بعد الصلب انتقل معها ومعهما ابنهما ليعيشا حياتهما في جنوبي فرنسا[10]، وحاجج كاتب حديث فقال بأن يسوع قد سافر إلى الشرق، ثم رجع إلى فلسطين ليلتحق بالثورة اليهودية، ومات بعد ذلك في مسعدة في العام 73م[11]، وأنا لا أعتقد أن أياً من هذه النظريات تمتلك أي أساس في المصادر التاريخية المعتمدة، وأعتقد أننا لا نحتاج إلى أن نشك حول إعدام يسوع بوساطة الصلب الروماني، وأنه قد مات بالفعل، وأن موضع دفنه المؤقت قد اكتشف بأنه كان فارغاً، وكان ذلك بعد وقت قصير من عملية الدفن.

روت ثلاثة من الأناجيل الأربعة لعهدنا الجديد «رؤية» يسوع لتدعم فكرة بأنه قد قام من الموت، وهذه الأناجيل هي: متى، ولوقا، ويوحنا، لكن ماذا عن مرقص؟ فهنا نصل إلى واحدة من أكثر الحقائق جهلاً وفهماً في حكايتنا، وهي تسبب الصدمة بقدر ما هي صحيحة، ذلك أن المخطوطات الأصيلة من إنجيل مرقص لم تذكر ظهور يسوع القائم على الإطلاق، وهذا الإنجيل هو أقدم مصادرنا الإنجيلية، فهو قد أنهى حكايته مع القبر الفارغ، ولمدة كان نص العبارة الأخيرة من إنجيل مرقص الأصيل كالتالي: «فخرجن [المريمتان وسالومي] سريعاً وهربن من القبر، لأن الرعدة والحيرة أخذتهن، ولم يقلن لأحد شيئاً، لأنهن كن خائفات» [مرقص: 16/ 8]، وقلت أنا «النص الأصيل» لأنه لأسباب بديهية، كان من غير الممكن إبقاء هذا الانقطاع الذي يسبب الصدمة، وهذه «النهاية غير الكاملة» والسماح لها بالوقوف، فهي لا بد قد تسبب باضطراب عميق للمسيحيين الأوائل، فالمسيحية كانت قد بنيت على فكرة أن يسوع قد ظهر بعد موته لأفراد متنوعين وجماعات، فكيف كان من الممكن لمرقص أن يترك هذا؟..

والذي حدث هو أن بعض النساخ الأتقياء الذين نسخوا مرقص صنعوا نهاية له، وأضافوها إلى نصه في وقت ما في القرن الرابع للميلاد، أي بعد ثلاثمائة عام من تصنيف النص الأصيل، وقد غدت هذه النهاية الملفقة تشكل الفقرات: 9-20/16، ولكنها غير موجودة في أي من نسخنا الأقدم والأكثر موثوقية واعتماداً من إنجيل مرقص[12]، وفي الحقيقة هي صياغة فجّة تفتقر إلى البراعة لرؤية يسوع المروية من قبل: متى، ولوقا، ويوحنا، وهي لا تحتوي مادة مستقلة، يمكن تحديدها على أنها من عند مرقص بشكل أكيد، والأسلوب الإغريقي الذي كتبت به، هو بشكل مؤكد غير مرقصي، وكان كليمنت الاسكندري، وأورجين، من أقدم

علمائنا المسيحيين، حيث عاشا في القرن الثالث للميلاد، هما أيضاً لم يعرفا بوجود هذه النهاية «الأطول»، ففي أيامهما لم تكن قد ظهرت بعد، أما يوسبيوس وجيروم، الكاتبان المسيحيان من أوائل القرن الرابع للميلاد وأواخره، فقد عرفا بوجودها، لكنهما ذكرا بأنها غائبة، وغير موجودة في جميع المخطوطات الإغريقية تقريباً، وذلك بقدر ما عرفا، وجرى فيها بعد وضع نهايتين «مصنوعتين» في التداول، وذلك كبديل أقصر لهذه الخاتمة التقليدية الأطول، ومن الواضح أن ما من أحد يمكنه أن يقبل بأن مرقص قد أنهى كتابه كما اختار أن ينهيه، فهذا يتسبب بصدمة كبيرة وبمعضلة للعقيدة المسيحية.

وتعاملت الترجمات الانكليزية الحديثة للعهد الجديد مع هذه المشكلة القديمة بطرق متنوعة[12]، فمعظمها ما يزال يضع الخاتمة الأخيرة، لكن مع إدخال حاشية توضح بأن مرقص قد انتهى عند 18/ 6، في معظم المخطوطات القديمة المعتمدة، وأنا أشك في أن تكون هذه الحاشية قد لوحظت في الغالب من قبل النسبة العالية من القراء، وبذلك تم إلى حد بعيد تجاهل النهاية الأصيلة لإنجيل مرقص التي تسببت بالصدمة، وطبع آخرون «9-20/16» بين حاصرتين مزدوجتين مع حواشي، وقد تسببت الطبعة القياسية التي أعيد النظر بها، وصدرت عام 1946، بإثارة كبيرة بطبعها النهاية غير الأصيلة بحروف صغيرة في الحاشية، أي مفصولة عن النص الأصيل، وقد كانت هنالك عاصفة كبيرة، تسببت بالنسبة للطبعات التالية «المعاد النظر بها»، بوضع الخاتمة وإعادتها إلى النص الأصيل، مع حاشية.

وكان الذي أخبرنا به النص الأصيل لمرقص هو أن الروايات عن ظهور يسوع لأفراد وجماعات بعد قيامته، لم تكن تعد جزءاً ضرورياً من حكاية «الإنجيل» في حوالي العام سبعين للميلاد، عندما كتب إنجيل مرقص، وعلى هذا كيف تطورت مثل هذه الروايات؟.

وبالفعل إن روايتنا الأقدم حول «رؤية» يسوع هي ليست موجودة في أناجيل العهد الجديد، بل في رسالة من رسائل بولص تعرف باسم الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس، التي كتبت في حوالي العام 54م، ففي أثناء دفاع بولص عن رؤيته ليسوع، روى بأنه قد تسلّم أثراً مروياً، وأجازه إلى الذين تحوّلوا إلى عقيدته، بأن يسوع قد مات، ودفن، وقام «في اليوم الثالث» وتبعاً لبولص ظهر يسوع أولاً إلى «الصفا» أو بطرس، ثم إلى الاثني عشر، ثم إلى خمسمائة تلميذ في وقت واحد، ثم إلى جيمس أخي يسوع، ثم إلى جميع الرسل، وفي النهاية «وآخر الكل ظهر لي أنا»، وهكذا أجاز بولص أثراً مروياً مختلفاً، وفيما يتعلق بقائمة «المبصرين» إن الذي دوّنه هنا لا يتماشى بسهولة مع الذي روته أناجيل العهد الجديد، وعادل بولص أيضاً «رؤيته» الخاصة ليسوع، التي كانت «رؤوية» بكل وضوح، ولم تكن مادية، مع ما رآه المؤسسين الأصيلين، ولربما أراد أن يقول بأن تجاربهم كانت مماثلة تماماً لتجربته، والإدعاء في اليهودية بأن شخصاً ما قد «قام من الموت» ليس مثل الادعاء بأن واحداً قد مات، وهو موجود كروح أو كنفس في العالم السماوي، والذي تدعيه الأناجيل حول يسوع هو أن القبر كان فارغاً، وأن جسده الميت انبعث إلى الحياة، كله بما في ذلك الجراحات، وهو لم يكن شبحاً على الإطلاق أو طيفاً، مع أنه كان يبدو وقد تحقق بشكل «مادي» فجأة، وكان في بعض الأحيان لا يلاحظ، ثم كان يلاحظ فجأة من قبل الذين رأوه، ولكن ظهر بأن بولص قد رغب باستخدام الاصطلاح «قيامة» ليشير إلى شيء هو قريب من الشبح، أو الرؤيا، وكان عندما يذكر جسد يسوع يقول كان جسداً «روحانياً» ولكن «الجسد الروحاني» و«الجسد المتلبس» يمكن أن ينظر إليه إلى حد كبير وفق الظاهرة نفسها.

ومع متى، ولوقا، ويوحنا، أصبحت روايات «رؤيات» ما بعد القبر الفارغ، جزءاً أساسياً في تمتين الادعاء بأن يسوع «قام من الموت»، ويعود تاريخ

متى بالعادة إلى ثمانينات القرن الأول للميلاد، ولوقا إلى التسعينات، ويوحنا إلى نهاية القرن الميلادي الأول.

ويقول إنجيل يوحنا بأن مريم المجدلانية رأت يسوع عند القبر في ذلك الصباح بالذات، وأنه قد أخبرها قائلاً: «إني أصعد إلى أبي وأبيكم، وإلهي وإلهكم»، وروى إنجيل متى بأن مريم أم يسوع ومريم المجدلانية ركضتا من القبر، بعدما رأتا الملاك ينزل من السماء، من أجل إخبار الأتباع الآخرين بالذي حدث، وعلى الطريق قابلهما يسوع وقال: «لا تخافا اذهبا قولا لإخوتي أن يذهبوا إلى الجليل وهناك يرونني»، ولم يتحدث متى عن ظهور آخر على الإطلاق في القدس غير هذه المرة، وقد ذكر بأن الأحد عشر تلميذاً ذهبا على الفور إلى الجليل، إلى جبل هناك، حيث أخبروا من قبل يسوع بأن يذهبوا، ويعملوا تلاميذ بين جميع الأمم «وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس» [متى: 28/ 16- 19].

والذي رواه لوقا هو العكس تماماً، فيسوع تكوّن فجأة وظهر بشكل مادي مباشرة أمام أعين تلاميذه المندهشين، الذين كانوا مجتمعين متخفين في القدس، وكان ذلك عندما أخبرهم بعدم مغادرة المدينة [لوقا: 24/ 49]، ثم أخذهم إلى جبل الزيتون، وبينما كانوا واقفين هناك، بدأ يصعد في الهواء أمام أعينهم، وقد غادر في غيمة وحمل إلى السماء، وهناك المزيد من الحكايات حول رؤية يسوع، بما في ذلك حكاية رجلين كانا يسيران على طريق خارج القدس، وقد تحادثا معه، ولكن لم يعرفاه في البداية، إلى أن «انفتحت أعينهم»، وتحدث يوحنا عن رؤيته في كل من القدس، ثم في الجليل، حيث كان بطرس وجماعته قد رجعوا إلى الجليل، إلى عملهم في صيد السمك.

ومع مرور الوقت أصبحت الروايات خيالية أكثر فأكثر، ففي إنجيل بطرس، الذي يعود بتاريخه إلى القرن الثاني، نزل رجلان من السماء، فتدحرجت الحجرة من أمام القبر، فدخلا، وعندما خرجا مع يسوع، كانت

رؤوس الثلاثة قد وصلت إلى السماء.

ولا توجد طريقة لصنع مواءمة بين هذه الروايات، فاللغة مثقلة بنبرات لاهوتية كثيفة، والذي علينا أن ندركه أن أناجيل: متى، ولوقا، ويوحنا قد كتبت فيما بين أربعين إلى سبعين عاماً بعد موت يسوع، من قبل كتّاب لم يكونوا بالأصل شهوداً، ولم يكونوا مما عاش في فلسطين الرومانية، ففي ذلك الحين صار إعلان «قيامة المسيح» الركن الأساسي في العقيدة المسيحية الحديثة الظهور، وصارت صيغة بولص من القصة – التي سوف أتناولها بالبحث المفصّل فيما بعد – هي الصيغة المنتصرة إلى حدّ بعيد، فقد كانت الكنيسة قد انتقلت في الزمان والمكان وابتعدت عن جذورها المقدسية، وكان جيمس متوفى، وعلى الطريق نحو النسيان، لا بل حتى بطرس، وبولص كانا ميتين، مع أنهما كانا يتذكران كبطلين ومؤسسين للعقيدة المسيحية.

وهذا لا يعني أن هذه الأناجيل لا تحتوي على شيء له قيمة تاريخية، لكن ذلك يعني أن مقصدها في ذكر القبر الفارغ، ورؤية يسوع، هو الإعلان عن أن قيامة يسوع المسيح وموته كانا من أجل خلاص جميع الجنس البشري، ويظهر أيضاً أن كتاب الأناجيل لم يكونوا مهتمين كثيراً بشأن عدد كبير من التناقضات والخلافات بين رواياتهم، هذا إذا كان أحد قد عرف عمل الآخر، ولكنهم عرفوا جميعاً مرقص، وكانوا كلهم متفقين على أن روايته كانت ناقصة، وتحتاج إلى إكمال بشكل كبير جداً.

ما الذي حدث لجسد يسوع؟

يتوجّب على المؤرخين الارتباط بنظامهم في العمل داخل أطر وجهات نظر الحقائق العلمية، فالمرأة لا يمكن على الإطلاق أن تصبح حاملاً من دون ذكر، وهكذا امتلك يسوع أباً بشرياً، سواء أتمكنا من التعرُّف عليه أم لم نتمكّن، والأجساد الميتة لا تقوم – ليس إذا كان واحداً ميتاً سريرياً – مثلما كان حال يسوع بعد الصلب الروماني، وبعد البقاء ثلاثة أيام في القبر، وبناء عليه إذا كان القبر وجد فارغاً، فالمحصلة التاريخية هي بسيطة: لقد جرى نقل جسد يسوع من قبل واحد ما، ودفن بشكل لائق في مكان آخر، ويمكن للمؤرخين أن يرووا الذي قاله بولص، أو ما حُكي عن «رؤية» يسوع مما كان رائجاً ومنتشراً أيام كتابة الأناجيل، لكن هذه الكتابات كتبت بعد عقود زمانية من بعد وقوع الواقعة، وكانت شاهدة أكثر على التطور اللاهوتي للعقائد، وليس على ما كان من المحتمل أنه حدث بالفعل، وشكك بعض المؤرخين بصحّة حكاية القبر الفارغ نفسها، وحاججوا على أنها صنعت وطورت من أجل تأييد الادعاء اللاهوتي بأن يسوع قد قام من الموت، ولكن إذا قدرنا مسألة سرعة دفن يسوع وأن ذلك كان مؤقتاً، علينا أن نتوقع وجود القبر وقد صار فارغاً، حيث لم يكن بالنية أن يترك يسوع في ذلك القبر، والسؤال هو: ما الذي حدث لجسده؟ أين من الممكن أن يكون قد دفن بشكل دائم، ومن قبل من؟ والجواب القصير هو أننا بكل بساطة لا نعرفه، والشيء الممكن للإنسان أن يفعله هو أن يتوقع، ولكن مع ذلك نحن نتملك بعض الإشارات في مصادرنا قد تسمح لنا بشكل معقول أن نعاود بناء بعض الاحتمالات.

وهناك قليلاً من القصص البدائل، بالإضافة إلى قصص أناجيل عهدنا الجديد، فقد روى تيرتوليان tertullian، وهو كاتب مسيحي من القرن الثالث

حجّة كانت منتشرة في أيامه، بأن البستاني في المقبرة هو الذي نقل جسد يسوع، لأنه توجّس بأن الحشود سوف تأتي لزيارة القبر، وأنها سوف تدوس على خضراواته[13]، ونجد في نص متأخر من العصور الوسطى كان اسمه توليدوت يشو toledot yeshu، أخذ البستاني جسده ودفنه في جدول قريب، صوراً عن خوفه من أن يقوم تلاميذه فيأخذون الجسد أولاً، ثم يدعون فيما بعد بأنه قام من الموت، وهناك نصّ قبطي من القرن السادس للميلاد، يخبرنا حتى بأن اسم البستاني كان فيلوجينيس philogenes، ولكن في هذا النص خطط البستاني لأخذ الجسد من أجل دفنه بشكل مشرف، إنما في منتصف الليل عندما جاء لنقله، كان القبر محاطاً بملائكة، وقد شاهد يسوع وهو يقوم من الموت[14]، ويظهر أن جميع هذه الحكايات حول البستاني هي تحسينات أضيفت على ادعاء إنجيل يوحنا بأن مريم المجدلية قد ظنت في البداية بأن يسوع كان هو البستاني، عندما قابلته عند القبر، حيث سألته: «إن كنت أنت قد حملته فقل لي أين وضعته» [يوحنا: 20/ 15].

ومن المحتمل أن رواية يوحنا تقدم لنا أفضل مؤشر حول الذي من المحتمل أنه وقع لجسد يسوع، فإذا كانت مريم المجدلانية قد ذهبت بالحقيقة باكراً جداً إلى القبر لوحدها، وأن القبر كان فارغاً، لا بد أن واحداً ما آخر قد وصل قبل وصولها ونقل الجسد، وقد ترك الإنسان ليخمن، لكن الأكثر احتمالاً هنا أن تكون أمه مريم وأخته سالومي، مع احتمال المساعدة من بعض النساء الأخريات اللائي جئن معهما من الجليل، ومن المحتمل أيضاً مريم، ومرثا اللتان كانتا تقيمان عندهما.

وقال مرقص بأنه بعد فجر يوم السبت، بعد انتهاء احتفال «السبت» «اشترتا حنوطاً ليأتين ويدهنه» [مرقص: 16/ 1]، فبما أن جسد يسوع قد دفن بسرعة بصورة مؤقتة في قبر مؤقت، بسبب عطلة الفصح، من المعقول أن تقدم الأسرة على إكمال دفن يسوع بشكل جيّد بالسرعة الممكنة، ففي التقاليد اليهودية توجب دفن الجثث خلال أربع وعشرين ساعة من الموت إذا كان ذلك

ممكناً، وكان غسل ودهن الجسد العاري للميت المحبوب عمل تقوي أساسي، ومن المحتمل أنهم نقلوه في غسق ليلة السبت، وأخذوه إلى قبر دائم في مكان ما في القدس، وأعدوا الجسد للدفن وفقاً للتقاليد اليهودية، والمدافن مظلمة، لكن كان أمراً عاماً الحصول على سراج زيتي، وبذلك كان من الممكن تنفيذ عملهم بسهولة، بعد فجر يوم السبت، وإذا وثقنا برواية يوحنا، فلبعض الأسباب لم تكن مريم المجدلانية حاضرة وقد ظهرت في الصباح الباكر من يوم الأحد قبل انقشاع الظلام لتجد القبر فارغاً.

ومن المستبعد أن تكون مريم وأولادها قد امتلكوا مدفناً للأسرة في القدس، لكنهم كانوا مرتبطون عن قرب بآخرين، مثل مرثا ومريم، اللتان من الممكن قد وفرتا واحداً لهم، فقد كانت المنطقة كلها من حول القدس مدينة موتى واسعة مؤلفة من مدافن منحوتة بالصخر تعود إلى هذا الزمان، فبعضها واسع، وبعضها على شكل آبدة، وبعضها الآخر صغير مع غرفة تتسع لنصف دزينة أو ما يقارب ذلك للدفن، وقد تمّ العثور على مئات المدافن الأسروية من القرن الميلادي الأوّل، على جبل الزيتون، وذلك حيث عاشت مريم ومرثا، وإذا كان يسوع قد صلب ثم دفن بشكل مؤقت على جبل الزيتون، فإن المدفن الذي اختير للدفن الدائم لم يكن بعيداً.

وفي هذه الحالة لدينا بعض الأدلة الأثرية، فلقد جرى الكشف على جبل الزيتون عن مجموعة جيدة العدد من مدافن القرن الأول للميلاد، تلقي بعض الضوء، بحكم عودتها إلى أتباع يسوع، وكذلك في الجنوب على جبل العدوان، وأكثر بعداً في الجنوب في منطقة تلبيوت[15]، ففوق جبل الزيتون، وعلى أراضي المزار الفرنسيسكاني لدومينوس فلفيت Dominus Flevit، تمّ العثور على أكثر من أربعين ناووساً حجرياً قد نقشت عليها أسماء مثل: لعازر، ويوحنا، ويوسف، ويهوذا، ومرثا، ومريم، ومتى، وسالومي، وشمعون، ويشوع،

والأكثر أهمية «شمعون بن يونه» وهو الاسم الآرامي الدقيق لبطرس تلميذ يسوع، والأسماء هذه كانت شائعة، لكن هنا التجمع الخاص، قرب القرية حيث عاشت مريم ومارثا مع أخيهما لعازر، ولربما قرب المكان الذي صلب يسوع فيه، يظهر أن له أهمية، ووجود مريم ومرثا معاً في ناووس واحد، من المحتمل أنه يشير إلى أنهما كانتا أختين، وهناك نواويس مشابهة أخرى بالأسماء في أماكن قريبة للدفن، ولكن على بعد في الجنوب على جبل العدوان وفي تلبيوت، ولكن هذه المدافن تحتوي على أدلة أكثر تربطهم باليهودية - المسيحية، أكثر من مجرد ترتيب الأسماء وشكلها الظاهري، وهناك علامات صليب على بعض منهم، لربما أضيفت في وقت متأخر من قبل بعض الحجاج، وعبارات مثل «يسوع يا ويلاه» و«يسوع واأسفاه»، وكذلك أحرفاً إغريقية مثل Chi وRho التي هي كما يرجح اختصار لكلمة مسيح في الإغريقية[16].

ومدفن الكفن الذي اكتشفناه في حزيران عام 2000، هو ملاصق أيضاً تماماً لهذه المنطقة، ومثل ذلك مدفن تلبيوت الذي عثر عليه في العام 1980، الذي تحدثت عنه في المدخل، وإذا كان يسوع قد نقل إلى مدفن آخر في منطقة القدس، لربما كانت واحدة من هذه المواقع.

ويمكننا أن نفترض أن أسرة يسوع امتلكت أخيراً مدفناً في مكان ما في القدس، بما أن حركة يسوع قد أسست نفسها أخيراً هناك، تحت قيادة أخيه جيمس، ونحن لدينا أثراً مروياً ذكر بأن جيمس قد دفن في قدرون، وهو واد واقع تماماً تحت جبل الزيتون، وهناك أثر مروي آخر بأن إخوة يسوع قد دفنوا فيما بعد أمهم قرب المكان الذي كان يسوع قد صلب فيه، فوق جبل الزيتون، أو من حوله، أي على بعد قليل نحو الجنوب، حيث يلتقي واديا قدرون وهينوم، أو أبعد نحو الجنوب في تلبيوت، فهذا هو الأفضل بالنسبة لأدلتنا.

وفي هذا الإطار من السهل أن نرى لماذا أهب مدفن الكفن، وناووس

جيمس ومدفن تلبيوت الذي اكتشف في عام 1980 ذلك النقاش الحار، والخلافات بالرأي، وفي قلب العاصفة هناك إمكانية لم يجر الحديث عنها، أن مثل هذا المدفن قد كان حاوياً لبقايا يسوع نفسه، وطبعاً لا المسيحية ولا اليهودية ترحب بمثل هذا الاقتراح.

رجوعاً إلى الجليل

ولكن هناك بديل ممكن لأن يكون مكان الدفن الأخير ليسوع قد كان محله في القدس، فقد كان يسوع وأسرته من الجليل، ومن المدهش أن هناك تشديد على ذكر الجليل في مدوناتنا حول الأحداث التي أعقبت موت يسوع.

وعندما يقرأ الإنسان أناجيل العهد الجديد، يشعر وكأن الموت المأساوي والوحشي ليسوع لم يتسبب بصدمة و أزمة على الإطلاق، لأنه – بعد كل شيء – هو قد قام من الموت بعد مضي ثلاثة أيام، وبدأ الرسل على الفور ببناء الكنيسة، ويبشرون بأن يسوع هو الآن «ملكاً سماوياً» جالساً على العرش على يمين الرب، فهكذا لربما كيف أراد المؤمنون المسيحيون أن يتذكروا الأشياء، بعد خمسين عاماً مضوا، ولكن من المؤكد أن هذا لم يكن هو الحال في الأيام الحزينة التي أعقبت موت يسوع.

ومن المهم أننا في داخل تعقيدات الخلافات بالروايات الموجودة في الأناجيل حول الذي حدث بعد موت يسوع، نجد أن متى ويوحنا جعلا التلاميذ يرجعون إلى الجليل، وهذه نقطة حيوية، ينبغي عدم التخلي عنها، فكل واحد يعتقد أن الكنيسة قد بدأت بقوة كبيرة في القدس بعد القيامة المجيدة ليسوع من الموت، ولكن لو أن هذا كان هو الحال، لماذا توجب على أتباعه الرجوع على الإطلاق إلى القدس؟ وهذه يقينا ليست هذه الصورة التي يعطينا لوقا إياها في كتاب الأعمال، حيث عنده اجتمع التلاميذ في القدس مع توجه موحد حول الشروع ببناء

الكنيسة، وفي الحقيقة يصر لوقا - بخلاف مباشر لكل من يوحنا ومتى، بأنهم لم يغادروا المدينة على الإطلاق [أعمال: 1/ 4].

وروى إنجيل يوحنا، أنه بعد اكتشاف القبر الفارغ، وبعد مختلف «الرؤيات» ليسوع في القدس قام شمعون بطرس، وابنا زبدي، وتوما، ونثنائيل، واثنان آخران، بالرجوع إلى بحر الجليل، «وعادوا إلى عملهم بصيد السمك» [يوحنا: 21]، ويظهر من هذا وكأنهم لم يعرفوا قيامة يسوع على الإطلاق، ولم يشهدوا تجربتها، وفي القرن الثاني للميلاد عرف إنجيل بطرس هذا الأثر المروي أيضاً، فهو قد روى أنه بعد الأيام الثمانية لعيد الفصح اليهودي، قام التلاميذ «بالبكاء والندب، وأن كل واحد منهم عاد إلى وطنه، وهو حزين جداً للذي حدث»، أي عادوا إلى الجليل، وكان من ضمنهم بطرس وأندراوس، حيث استأنفا عملهما بصيد السمك، ولا يتماشى هذا الأثر المروي بشكل جيد، ولا ينسجم مع الذي رواه يوحنا، على أساس تقدير الروايات حول ظهور يسوع لتلاميذه في القدس، ولكنه يسهم في تمتين قصّة الجليل، ويبدو أنه كان أثراً مروياً بديلاً أضيف إلى النهاية نفسها لإنجيل يوحنا، وقد تأسس - كما قال - على رواية شاهد عيان، كان هو «التلميذ المحبوب».

وهنا حيث أصبح مرقص مهماً جداً، ولنتذكر أنه ليس لدى مرقص - الذي هو أقدم أناجيلنا «رؤيات» ليسوع على الإطلاق، ولكنه قد عرف أثراً مروياً بأن يسوع كان قد أخبر الاثني عشر، أثناء العشاء الأخير بأنه سوف «يذهب قبلهم إلى الجليل» [مرقص: 14/ 28]، ويرتبط هذا مع إيماءاته الخفية حول كونه «قام في اليوم الثالث»، التي تشير - كما رأينا - إلى قيامة شعب إسرائيل، وليس إلى قيامة يسوع كفرد، فمن المحتمل أنه في الجليل وجد أتباع يسوع التجديد لإيمانهم بأن ملكوت الرب، بات بالفعل في متناول اليد.

وشيد متى على هذا الأثر المروي الجليلي، فروى بأن الأحد عشر رسولاً

«رأوا» يسوع على جبل محدد في الجليل، ومن المدهش أن متى ذكر أنه حتى بعضاً من أفراد مجموعته الداخلية ارتابوا بأنه كان بالفعل هو الذي رأوه، ولم يذكر متى ظهوراً آخر ليسوع غير هذا الظهور [متى: 28/ 17]، ويتساءل الإنسان: لماذا الجليل، ولماذا هذا الجبل بالتحديد؟ من المحتمل أنهم كانوا يزورون قبر يسوع في الجليل، وأن رواية متى قد جرى تكييفها لاهوتياً، فأعادت توزيع أو صياغة أثر مروي أقدم ربط أتباع يسوع إلى «جبل» في الجليل حيث اختبروا حضور يسوع؟.

ومن المدهش أن هناك قبراً ليسوع ما من أحد يعرفه تقريباً، أو زاره في الجليل، فقد نقل القبالي (المتصوف) المحترم الحاخام إسحق بن لوريا Luria (المعروف باسم «الآري Ari») الذي هو من القرن السادس عشر، نقل أثراً مروياً بأن قبر يسوع الناصري (يشع هانوتزري) كان موجوداً في الشمال، في الجليل خارج مدينة صفد، وكان هذا الأثر المروي معروفاً في الأوساط اليهودية الصوفية، ولكنه نادراً ما نقل ذكره إلى خارجها، ثم إن الحاخام ابن لوريا أتى على ذكر ضريح يسوع داخل قائمة قبور لمختلف حكماء يهود وقديسين، وقد أطلق على مكان دفن هؤلاء اسم «موضع دفن المستقيمين»، وموضوع يسوع موضوع حساس جداً في داخل اليهودية، وإذا كان واحداً من أعظم القادة الروحيين في التاريخ اليهودي، مثل الحاخام إسحق بن لوريا، لم يضع اسم يسوع فقط ضمن أسماء «المستقيمين» بل إنه ادعى معرفة أين كان قد دفن، فإن ردات الفعل يمكن أن تكون مثيرة للاضطراب، ومن وجهة النظر المسيحية كان يسوع قد قام من الموت، وبناء عليه إن أي ادعاء بمعرفة المكان الذي دفن به، سوف ينظر إليه على أنه تعبير على عدم إيمان يهودي وتآمر، ولكن من وجهة النظر اليهودية المحافظة، لقد نظر إلى يسوع بشكل تقليدي على أنه كان «مسيحاً زائفاً»، لا بل حتى شخصية سلبية، وبناء عليه كيف أمكن لواحد بمكانة ابن لوريا أن احترمه وفق هذه الطريقة؟

وموضع القبر موجود إلى الشمال من صفد، ومحدد تماماً، ولذلك قررت قبل

عدة أعوام مضت الذهاب إلى الجليل، والبحث فيها إذا كان يمكنني تحديد مكانه، وقد تبيّن أنه من السهل كثيراً معرفة مكانه، فهو موجود بالأعلى فوق جرف صخري مشرف على الطريق الرئيسي العام، ولم يكن الضريح مدفناً منحوتاً بالصخر، بل على سوية الأرض، مغطى بكتل من الصخور، وهو متّجه نحو القدس إلى الجنوب، وذكرني مظهره كثيراً بقبور الإيسنيين الذين عثر عليهم في مقبرة قمران.

ومع أن إشارتنا الأولى إلى هذا القبر جاءت متأخرة كثيراً، من مصدر حاخامي من القرن السادس عشر للميلاد، إن القضية هي أن الحاخام شمعون بار يوخي Shimon Bar yockai مع عدد كبير آخر من حاخامات العصر الروماني كانوا قد دفنوا في هذه المنطقة، فقد كانت صفد قد أصبحت مركزاً للتعليم الصوفي اليهودي في القرن الثاني للميلاد، ولربما كان ذلك أبكر، فهل كان من المستبعد كثيراً أن تكون أسرة يسوع قد أخذته وأرجعته إلى الجليل من أجل الدفن؟ وصفد موجودة في المنطقة الجبلية المنخفضة إلى الشمال من كفر ناحوم، وكان يسوع قد اتخذ المنطقة مقر قيادته لمدة ثلاثة أعوام، وروت الأناجيل أنه غالباً ما كان يصعد إلى هذه المنطقة الجبلية ليبتعد عن الجماهير، فبذلك كان يمكنه أن يصلي، ومن المحتمل أنهم اختاروا هذه المنطقة المنعزلة، لذلك كان يمكن للجسد أن يرقد من دون إزعاج، وكان ذلك بعيداً عن المخاطر السياسية التي كانت ما تزال تختمر في القدس، فهل من المحتمل أن ذكرى موضع القبر قد انتقلت عبر الأوساط اليهودية من خلال الروايات الشفوية عبر القرون؟

ويظهر أن الأثر الشفوي المروي من قبل متى ولوقا، والمتعلق بالجليل جدير ببعض التقدير، سواءً امتلك الأثر الحاخامي المروي شفوياً حول قبر يسوع في صفد تصديقاً تاريخياً أم لم يمتلك، ويظهر أن قصص الأناجيل هذه المتعلقة بالجليل ما تزال تحتفظ بشيء من الشك وخيبة الأمل والإحباط التي لا بد أنها كانت سمة

الأيام المظلمة التي تلت وفاة معلمهم المحبوب، ومع أن أتباع يسوع أعادوا تشكيل أنفسهم تحت القيادة الجديدة لجيمس، وأخيراً عادوا إلى القدس، ومن المحتمل كثيراً أنه كانت هناك مدة أثناء عودتهم إلى الجليل قاموا خلالها بإعادة النظر بالأمور، أو أنهم عادوا من أجل ذلك، فهذا هو الذي كما يظهر تعكسه الآثار المروية في الأناجيل، وإذا صحّ وكان هذا هو الحال، عند ذلك إن الرواية المثالية عن حركة يسوع الموجودة في الفصول الأولى من كتاب الأعمال هي محاولة لوقا لإعادة توزيع الأشياء بطريقة انتصارية أكثر.

ولا بد أن موت يسوع كان له أثراً مدمراً من نوع ما على المجموعة، مثلما حدث لدى موت يوحنا المعمدان الذي كان في العام المنصرم، فكيف أمكن أن يكون المسيحان كلاهما ميتين؟ فهل كان ملكوت الرب حقاً قريب؟ أما بالنسبة للجلوس على العروش والحكم على إسرائيل، فلا بد أنه بدأ يظهر بأنه بعيد تماماً، فقد كان جيمس، أخو يسوع، التلميذ الذي أحبه يسوع، هو الذي بدأ يدير الأشياء من حوله، فيسوع كان ميتاً، ولكن أسرته بقيت، والقضية التي عاش من أجلها ومات، ما زالت آخذة بالتحقق.

الفصل الخامس عشر

اذهب إلى جيمس العادل

عندما كان يجري قتل قائد حركة مسائحية بعنف، يمكن للإنسان أن يتوقع حدوث فوضى واضطراب، وأن التمزق سوف يتبع ذلك، وأتى يوسيفيوس على ذكر عدد كبير من أصحاب التطلعات المسائحية الآخرين في القرن الأول للميلاد، وقادة ثورات، قام الرومان بإعدامهم، وفي كل حالة كانت الحركة التي بدأوا فيها إما سحقت، أو أنها تلاشت، ومن الواضح أنه كان هناك شيء مختلف حول حركة يسوع، فهي بعد كل شيء قد فقدت قائديها: أولاً يوحنا، ثم يسوع، وهما المسيحيان، اللذان توفرت فيهما كثيراً من الآمال، لكن الحركة لم تمت، لا بل هي بالحقيقة بدأت تنمو وتنتشر.

وحولت وجهة النظر التقليدية بأن يسوع قد ظهر وقام يوم الأحد المجيد، بعد صلبه يوم الجمعة، حولت موته إلى احتفال وإلى نصر، وهذا ما يحتفل به المسيحيون في يوم عيد الفصح، ولكن إذا كان يسوع قد مات حقاً ودفن، ولم تعد أسرته ولا أتباعه يمتلكون وجوده حياً، وهم قد دخلوا في مدة من الحزن المخيف والخسارة، كما تدلل القراءات الإضافية التاريخية للأدلة، كيف تمكنت بعد كل شيء الحركة من البقاء، وحسبما كنا قد رأينا، هناك أثر مروي موجود في إنجيل يوحنا، في الإصحاح الأخير تماماً، إذا استندنا إليه، نجد أن بطرس وعدداً من

الاثني عشر قد عادوا إلى شباك صيدهم في الجليل، حيث استأنفوا حياة عادية لبعض الوقت، وعرف إنجيل بطرس هذا الأثر المروي بشكل جيد أيضاً، ويظهر أن هذا ما كان للإنسان أن يتوقعه، وبناء عليه ما الذي أسهم بالانتقال من اليأس إلى الأمل، وتجديد الإيمان؟

وإنني سوف أعزو بقاء حركة يسوع وانتعاشها إلى ثلاث حقائق، كان أولاها، وجود جيمس نفسه، وكذلك أم يسوع وإخوته، فلقد ذهب يسوع، ولكن جيمس كما سوف نرى بقي شخصية أشبه بالقلعة بالنسبة للعقيدة، وقوة لأتباع يسوع، فلقد كان امتلاكهم لأخي يسوع بينهم، الذي كان من لحمه ودمه، والذي شارك يسوع بالنسب الداودي الملكي قوة نجدة وتفريج قديرة، وهذا سوف يكون الحال مع أسرة يسوع ككل، فقد أصبحوا المرساة بالنسبة لحركته، وكانت مريم مبجلة «كأم للرب» لمدة قرون، ولكن حين نتحدث تاريخياً، كان دورها إنسانياً كثيراً، كأم لهذه الأسرة غير الاعتيادية، المؤلفة من ستة أبناء وابنتين، وهذا ما قد ضاع، ولسوء الحظ ليس لدينا كثير من التفاصيل حول كيف كان جيمس قادراً على إنجاز ما أنجزه كقائد للحركة، لأن دوره كما سنرى جُعل هامشياً تقريباً، في روايات عهدنا الجديد، ولكن النتائج واضحة، فقد كان صغيراً تماماً عندما تولى المسؤولية، ولا بد أنه تطور في الدور مع الأيام، فهو عندما بلغ سن الرجولة، حصل على احترام معاصريه، وكانت الحقيقة الثانية هي الرسالة التي بشر بها كل من يوحنا ويسوع، أي «الأخبار الطيبة عن ملكوت الرب»، وجميع ما ينطوي ذلك عليه، وكان الرسولان على كل حال مبجلان، وكان الذي أعلناه قد عاش، ولم يتعرض للدمار أو للضياع بموتهما، فقد كانا قد تحدثا علانية ضد انعدام العدالة والظلم، وقد أصدرا دعوة للتوبة، وأعلنا عن غفران للذنوب، وجسدا آمالاً مسائحية وإيماناً كان متجذراً في الأنبياء العبرانيين، وكانت قضية المسيحيين قد بقيت، واستمرت حية، وأخيراً، كان كل من يسوع ويوحنا قد أعلنا بأن «نهاية

الزمان» قد اقتربت، وكانت التوقعات النبوئية التي قد جسداها قد ازدادت قوة، ودعمت كما سوف نرى بوساطة الحوادث الاجتماعية والسياسية لأيامهما، فلقد كان جميع ما توقعه الأنبياء العبرانيون، قيد التنفيذ والتحقق أمام أعينهما، فعدم الاستقرار في روما، والتهديد بالحروب والثورة، لا بل حتى المعارضة التي واجهاها من السلطات، قد رؤيت على أنها علامات أن «الوقت المحدد» قد بات قريباً جداً، وذلك حسبما أعلن يسوع تماماً، فلقد كانت هناك جماعة نبوئية، كانت تتوقع رؤية ملكوت الرب، وتجليه بشكل كامل، وبعد كل شيء، كان يسوع قد توقع وصول «ابن الإنسان»، وقد فعل ذلك حتى قبل أن يموت، فعندما كان قد أرسل الاثني عشر، أخبرهم أنهم «لن يكونوا قد دخلوا إلى جميع مدن إسرائيل وتجولوا فيها، قبل تحقق وصول ابن الإنسان»، وفي منام دانيال كان «قدوم ابن الإنسان سيحدث في غيوم السماء»، وذلك كرمز للوقت عندما سوف يعطي شعب الرب الحكم على جميع الأمم «دانيال: 7/ 13-14، 27»، وكان يسوع قد أعلن أن طرده للشياطين كان علامة أكيدة على أن «ملكوت الرب قد وصل» وقد شبه هذا العمل باقتحام حصن «رجل قوي» يعني الشيطان، وقهره «لوقا:11/ 20-22»، ولا شك أن موت يسوع كان صدمة مرعبة بالنسبة إلى جميع الذين أحبوه وتبعوه، ولكنهم ظلوا مستمرين بالاعتقاد بحرارة كبيرة، أن الرسالة المركزية التي أعلنها يسوع، ومن قبله يوحنا المعمدان هي «توبوا لأن ملكوت الرب بات وشيك الظهور».

وكانت الكتلة الأساسية من أتباع يسوع، بما في ذلك الذين كانوا مع الحركة المسائحية منذ الأيام التي كان يوحنا المعمدان قد بدأ فيها عمله، كانت قد اجتمعت في القدس في أواخر الربيع، مع اقتراب الصيف، فقد كان عيد الحصاد أو shavuat قد وقع في الأسبوع الأخير من أيار في ذلك العام، ولم يكن هناك عدد كبير جداً قد بقي، فقط ما يزيد على المائة كانوا الذين بقوا مخلصين خلال الأيام المظلمة،

وأوقات المحنة للفصح «الأعمال:1/ 15»، وقد تجمعوا في منطقة في القدس التحتا، أي فيا [عرف باسم] مدينة داود، وكان بيت الضيوف مع «العلية» حيث أكل يسوع وجبة الطعام الأخيرة، قد أصبح مركز عملياتهم، ومن المحتمل أن اختيار المكان كان أكثر من مسألة مواءمة، فقد كان يسوع قد اختار تلك المنطقة من المدينة عن سابق تصميم، من أجل لقائه الأخير مع الاثني عشر، فقد كان الملك داود قد كتب مزموراً، فيه أعلن الرب: «أما أنا فقد مسحت ملكي على صهيون رابية قدسي» مشيراً بذلك إلى «جبل صهيون» في مدينة داود [المزمور:2/ 6]، وبما أن عدداً كبيراً كانوا من الجليل، ومن مناطق من البلاد، جمعت الجماعة مواردها وشرع أفرادها يعيشون حياة جماعية مرنة، حيث تشاركوا مع بعضهم في وجبات الطعام، وأشركوا فيها الذين كانوا من خارج المدينة، وكانوا يعيشون في بيوت الذين عاشوا في القدس «أعمال: 2/ 46»، ولا بد أنه كان هناك شعور بالخطر، وشعور أيضاً بإثارة التوقعات، وبما أن من المؤكد أن الرب سوف لن يسمح بموت أتباعه المستقيمين، فإن يوحنا ويسوع سوف يمضيان من دون عقوبة، وقبل وقت قصير من يوم عيد الحصاد، اجتمعت الجماعة للتباحث حول أوضاعها، فقد احتاجت إلى قائد جديد، وإحلال واحد جديد مكان يهوذا الإسخريوطي في مجلس الاثني عشر، ذلك أنه قد اقترف الانتحار.

وكان الذي حدث بعد ذلك واحدة من أعظم القصص التي «لم ترو» مما وقع خلال الألفي عام الماضيين، فمعظم الناس يتذكرون الأثر المروي بأن الرسول بطرس قد تولى قيادة الحركة كرئيس للاثني عشر، وليس بعد ذلك بوقت طويل التحق الرسول بولص، المتحول حديثاً إلى الديانة المسيحية من «اليهودية» ببطرس ووقف إلى جانبه، ومع بعضهما أصبح الرسولان بطرس وبولص «العمودان» التوأمان للديانة المسيحية الظاهرة إلى الوجود، حيث بشرا بالإنجيل إلى جميع العالم الروماني، وماتا بشكل مجيد، كشهيدين في روما، التي غدت المركز القيادي الجديد

للكنيسة، حسب التعيين الرباني، ونالت هذه النظرة إلى الأشياء القداسة في الفنون المسيحية عبر العصور، وصارت شائعة، من خلال الكتب والأفلام، لا بل في الحقيقة صارت أولوية بطرس بأنه كان البابا الأول حجر الزاوية في تعليم العقيدة الكاثوليكية الرومانية، ونحن الآن نعرف بأن الأشياء لم تقع وفق هذه الطريقة.

فبطرس لم يرتق ليكون الأول في جماعة الاثني عشر كما سوف نرى بل كان جيمس أخو يسوع، هو الذي أصبح خليفة ليسوع، والقائد الذي لا خلاف حوله للحركة المسيحية، ذلك أن يسوع حاكمهم الداودي قد أزيح من وسطهم، وكان جيمس هو التالي في النسب الداودي الملكي، ولسوف تستمر أسرة يسوع لمدة أكثر من قرن بعد موته، ولكن إذا كانت القضية هي هذه، كيف أمكن إهمال جيمس تقريباً، مع أنه هو الوريث لأسرة يسوع، وتركه خارج حكاية أصول المسيحية، والأكثر أهمية، لماذا؟ فمن النادر ظهور جيمس حتى في الفن المسيحي وفي الأيقونات، وكأنه وجوده بالذات قد نسي كلياً، لكنه ظهر في تاريخ كان مخفياً عن المشاهدة، وهذا التاريخ هو مدهش، وللقصة إيحاءات مع مضامين مهمة من أجل فهمنا ليسوع، والقضية التي عاش من أجلها ومات.

وعلينا أن نبحث عن جيمس في مصادر عهدنا الجديد، لأنه من هاهنا كانت ذكراه قد محيت بشكل واسع، ونحن لدينا رواية واحدة مهمة حول التاريخ المبكر للحركة المسيحية في أعقاب موت يسوع، وهو الكتاب الموجود في العهد الجديد، والذي نعرفه باسم أعمال الرسل، وكان الرجل الذي كتب إنجيل لوقا، هو الذي كتب الأعمال كجزء ثان لعمله الأدبي، وكتاب أعمال الرسل مسؤول إلى حد بعيد عن الصورة المعيارية للمسيحية المبكرة، التي مارس فيها بطرس وبولص دوراً متحكماً كبيراً جداً، أما جيمس فقد أهمل إلى أبعد الحدود، وقد أصبح عرض الأعمال هو القصة، مع أن رواية لوقا أحادية الجانب بشكل مخيف، وتاريخياً موضع تساؤل، ومن المؤكد أن لوقا قد عرف،

لكنه لم يكن يريد أن يذكر بأن جيمس قد تولى قيادة الحركة بعد وفاة يسوع، ووصل به الأمر في إصحاحاته الأولى أنه لم يذكر جيمس حتى بالاسم، ووضع بطرس على أنه القائد الذي لا جدل حوله، لأتباع يسوع، ذلك أن برنامجه الأساسي في الكتاب بشكل عام كان رفع شأن مركزية رسالة ومهمة الرسول بولص، ومع أن في الأعمال أربعة وعشرين إصحاحاً، فإنه ما أن جرى تقديم اسم بولص في الإصحاح التاسع، نجد أن بقية رواية لوقا كلها حول بولص، ذلك أنه بطرس قد بدأ يرمى به إلى خارج الصورة، وهذا الكتاب الذي هو «أعمال الرسل» يمكن تسميته بشكل أفضل «إرسالية بولص وسيرة أعماله».

ولا يعني هذا القول بأن الأعمال تفتقر إلى القيمة التاريخية، فمن دونها كان فهمنا للتطورات المبكرة للحركة المسيحية محدوداً كثيراً، ولسخرية القدر، لقد ترك لوقا من دون دراية في كتابه أدلة غير مباشرة تسمح لنا بتأييد الذي نعرفه من مصادر أخرى، ومن ذلك أن جيمس، وليس بطرس، هو الذي أصبح الخليفة الشرعي ليسوع، وقائد الحركة، فنحن علينا أن نقرأ كتاب الأعمال بعناية، وأن نكون متنبهين طوال الوقت حول النقاط النادرة والمحجوبة، التي وضعها لوقا في القصة.

فقد قام لوقا أكثر من الأناجيل بتهميش أسرة يسوع، ولنتذكر أن لوقا في الإنجيل تجنب عن عمد حتى ذكر إخوة يسوع، فضلاً عن إيراد أسمائهم، مع أنه مصدره، وهو مرقص، قد سجلهم بوضوح وهم: جيمس، ويوسي، ويهوذا، وشمعون [مرقص:6/ 3]، وفي إحدى المرات عندما تبعت امرأة يسوع وصرخت بصوت مرتفع قائلة: «طوبى للبطن الذي حملك والثديين اللذين رضعتهما»، قام لوقا لوحده بجعل جواب يسوع هو «لا بل طوبى للذين يسمعون كلام الله ويحفظونه» [لوقا: 11/ 27-28]، وأكثر من هذا عند الصليب، عندما قال مرقص بوضوح بأن مريم أم جيمس ويوسي» وكذلك

سالومي أخت يسوع كانوا حاضرين، غيّر لوقا هذا فأصبح النص:

«ونساء (لم يذكر أسماؤهن) كن قد تبعنه من الجليل» [لوقا: 23/ 49]، وعند مشهد الدفن فعل الشيء نفسه، فلم يذكر اسمي «مريم المجدلانية ومريم أم جيمس» بين الحضور عند القبر مثلما فعل مرقص الذي هو مصدره، وبذلك غدت روايته المبدلة كما يلي: «وتبعته نساء [مرة أخرى لم يذكر أسماؤهن] كن قد أتين معه من الجليل، ونظرن إلى القبر» [لوقا: 23/ 55]، وكان لوقا قد تبع مرقص في معظم الحالات عن قرب شديد كمصدر له، وكان ذلك أكثر بكثير من «متى»، الذي أضاف دوماً تصحيحاته التحقيقية، ولكن لوقا ابتعد دوماً عن مرقص، عندما كان يصل إلى أم يسوع وإخوته، وأنا أعتقد أنه فعل ذلك حتى يتجنب إثارة الأسئلة حول قيادة بطرس للاثني عشر، أو أولوية إرسالية بولص إلى الأميين وتفوقها، ومن غير الممكن أن يكون مثل هذا التحوير قد حدث بالصدفة، بل لقد كان هناك شيء مهم يحدث هناك، وكان هذا جزء من برنامج لوقا الكامل الذي هدف إلى إعادة تصنيف التاريخ المبكر للحركة المسيحية، وإلى إعادة توزيع الأدوار، بحيث جاء بولص متقدماً على منافسيه المحتملين، بما في ذلك جيمس، ولكن حول ماذا كان تنافسهم؟

فلقد كان لوقا من الأميين، وكان بالحقيقة هو الكاتب الوحيد غير اليهودي، في جميع العهد الجديد، فهو قد أكد نص الأميين للمسيحية، الذي تبناه بولص ودعمه، فهو لم يستطع أن ينكر أن يسوع كان يهودياً، وأن أصول جميع أتباع يسوع كانوا يهوداً، وأن الحركة المسيحية المبكرة كانت بشكل عام حركة نبوئية في داخل اليهودية، لكن كان قد كتب في وقت هو بعد مضي عقدين من الزمان على الثورة اليهودية ضد الرومان، عندما أصبحت الأصول اليهودية للحركة هامشية، وتضاءلت، والأمل النبوئي الكبير قد خبا وتلاشى.

وكان لوقا صاحب ميول رومانية أيضاً، وكان بولص هو بطله، وكان مواطناً

رومانياً، وقد أراد أن يعرف قرّاءه الرومان الأمين كل شيء حوله وحول قيمته، ولذلك نظر نظرة تعاطف نحو تطور الحركة المسيحية غير اليهودية، وكان لوقا حين قدم روايته عن محاكمة يسوع قد تجاوز مرقص، الذي كان مصدره الرئيسي، ليؤكد أن بونطيوس فيلاطس، كان حاكماً عقلانياً وعادلاً، مضى إلى أبعد الحدود من أجل إطلاق سراح يسوع، وأزال الإشارة إلى قيام فيلاطس بجلد يسوع، لا بل حذف أخبار الإهانات الرهيبة والشتائم التي عانى منها يسوع على أيدي الحرس الروماني البريتوري الذي كان تحت إمرة فيلاطس [لوقا:23/ 25]، وتبعاً للوقا، وهو يتبع مجدداً لاهوت بولص كان من غير الممكن ليسوع أن يموت، وأن «يهجر من قبل الرب»، لأن موته كان جزء من خطة الرب بجلب التوبة عن الذنوب إلى العالم [لوقا: 24/ 47]، وأزال لوقا صرخة الألم الأخيرة ليسوع، وعوضاً عن ذلك جعل يسوع يصلي داعياً بشكل مباشر، من أجل الجنود الرومان الذين كانوا ينفذون عملية صلبه قائلاً: «يا أبتاه اغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون» [لوقا:23/ 34]، ولم يكن لوقا يكتب تاريخاً، بل كان يكتب لاهوتاً، وبوضع هذا في أذهاننا علينا أن نتعامل مع الذي أخبرنا به بمنتهى الحذر، وأن نتذكر دوماً ميل برنامجه نحو بولص، ووقوفه إلى جانب الرومان.

أسرة يسوع الحاكمة في القدس

كان السبب الرئيسي في ضياع معرفة أسرة يسوع من الذاكرة المسيحية المتأخرة هو أن كتاب الأعمال طمس عن سابق تصميم وجودها، فبالنسبة للوقا لم تكن هنالك استطاعة في إمكانية عودة أتباع يسوع في حزن وأسى ويأس بعد موت يسوع، ولذلك وضع جميع مشاهدات يسوع في القدس، ووصل به الأمر إلى حد أنه لم يذكر حتى الجليل، ولا ما كان من الممكن حدوثه هناك، وكانت «المشاهدات» قد وقعت تبعاً لما رواه لوقا، في يوم الأحد، أي في اليوم نفسه الذي

جرى فيه اكتشاف القبر الفارغ، ولذلك كانت أية شكوك لا بد أنها جاءت كردات فعل لدى الرسل نحو الموت الوحشي والمرعب لقائدهم، قد تبددت على الفور، وكان «الإنجيل» البولصي «نسبة إلى بولص» الجديد، والذي توجب عليهم التبشير به لعالم الأميين، قد وضع أمامهم من قبل يسوع نفسه، وقال لوقا: بأن يسوع قد قال بشكل محدد للأحد عشر «أن لا يبرحوا من أورشليم» [أعمال:1/ 4]، وبالنسبة للوقا مثلت الجليل، الموطن والدار، والأصول اليهودية ليسوع ولأسرته، ولكن كان شيء ما قد وقع في الجليل بعد تجربة القبر الفارغ، ولا بد أنه شمل أم يسوع، وإخوته، وجميع البطانة التي تبعت يسوع من الجليل إلى القدس، وحسبما كنت قد وصفت من قبل، وتبعاً لمتى ويوحنا، لقد كان في الجليل أن وجد أتباع يسوع تجديداً لإيمانهم، وعزيمة على متابعة العمل بالحركة، لكن لوقا لم يذكر أي شيء من هذا القبيل.

فقد قدم لوقا قصة مختلفة تماماً، فتبعاً لأعمال الرسل، اجتمع بعد مضي قرابة الأربعين يوماً على وفاة يسوع الأحد عشر رسولاً مع بعضهم في القدس، في العلية التي تناولوا فيها وجبة طعامهم الأخيرة مع يسوع، من أجل اختيار خليفة ليهوذا، ودوّن لوقا بعناية أسماء هؤلاء القادة الذين كانوا موجودين كما يلي:

بطرس، ويوحنا، وجيمس، وأندراوس،

وفيليب، وتوما، وبرثولماوس، ومتى،

وجيمس بن حلفي، وسمعان الغيور، ويهوذا أخو جيمس.

ثم إنه أضاف بكل عناية جملة كانت لها قدرة قاتلة، خدمت في تهميش أسرة يسوع لمدة ألفي عام، حيث قال:

«هؤلاء كلهم [الأحد عشر] كانوا يواظبون بنفس واحدة على الصلاة والطلبة مع النساء ومريم أم يسوع ومع إخوته» [أعمال:1/ 13-14].

وبقيام لوقا هنا بفصل الأحد عشر عن «مريم أم يسوع وعن إخوته أيضاً» تمكن بشكل فعال من إعادة توزيع الأشياء، وبذلك نجد أن جيمس وإخوة يسوع الآخرين لم يشغلوا دوراً قيادياً في هذه المرحلة الحاسمة من تاريخ الحركة، فلقد ورد ذكرهم بشكل عابر مثل أن تقول: «آه، نعم، بالمناسبة، لقد كانوا موجودين، إنما بالحقيقة لم تكن لهم أهمية».

ولكن بالطبع كان لوقا قد شعر بأنه كان ملزماً بذكر حضورهم وتضمين ذلك في روايته، فهو لم يتجرأ على شطبهم تماماً من الرواية، عارفاً بالفعل بالدور الحاسم تماماً الذي كانوا قد شغلوه، وكان من دواعي المزيد من السخرية، أن لوقا عندما دوّن أسماء الأحد عشر، ذكر بالتحديد أسماء جيمس، وشمعون، لا بل حتى إنه ذكر يهوذا وأوضح أنه هو الذي كان أخاً لجيمس، وكما سوف نرى كان كتاب الأعمال قد كتب حول قاعدة حقيقة ليست منكرة، فقد كان جيمس هو الذي تولى قيادة الحركة، وبعد وفاة جيمس في العام 62م تولاها أخوه شمعون، وكان لوقا قد كتب الأعمال في تسعينات القرن الميلادي الأول، أي بعدما لا يقل عن ثلاثين عاماً انقضت على وفاة جيمس، ومن المؤكد أن لوقا كان مدركاً بأن شمعون كان أيضاً من أصحاب النسب الملكي، وأنه قد خلف جيمس كرأس للكنيسة في القدس، حتى في الوقت الذي كان لوقا يكتب فيه، وعن قصد وتصميم أنهى لوقا روايته في كتاب الأعمال مع سجن بولص في روما في حوالي العام 60م، فبالنسبة له كانت هذه نهاية الحكاية، ذلك أن بولص كان يبشر في روما بإنجيله إلى عالم الأميين، وباختياره لذلك التاريخ وتوقفه عنده، لم يكن ملزماً برواية خبر موت جيمس، أو خلافته من قبل أخيه شمعون، وهكذا باتت رواية لوقا في الأعمال هي قصة المسيحية المبكرة بالنسبة للأجيال المتعاقبة، والذي اختار عدم روايته قد طواه النسيان.

ومن سخريات القدر أن أبكر الأدلة لدينا، المتعلقة بالدور القيادي الذي

شغله جيمس وإخوة يسوع، بعد موت يسوع، قد وصل إلينا مباشرة من عند بولص، فقد كان يسوع قد صلب في العام 30م، ويرجع تاريخ رسائل بولص إلى خمسينات القرن الأول، وفيما يتعلق بفجوة العشرين عاماً هذه ليس لدينا روايات مدونة متبقية، وهذه هي الأعوام الصامتة في تاريخ المسيحية المبكر، والذي نستطيع أن نعرفه هو أن نعاود القراءة والبحث في السجلات المتبقية، ولحسن الحظ، عاد بولص في رسالته إلى أهل غلاطية، التي كتبت في حوالي العام 50م، عاد إلى الخلف إلى مالا يقل عن أربعة عشر عاماً في تدوينه لسيرة حياته[1]، ويعطينا هذا مصدراً أصيلاً من الشخص الأول، ومثل هذا المصدر هو أثمن أداة يمكن لأي مؤرخ أن يعمل بها، حيث إنها تعود بنا فنصل إلى الخلف إلى عقد من الزمان بعد ثلاثينات القرن الميلادي الأول.

وقد روى بولص في الرسالة إلى أهل غلاطية، وحكى عن نفسه، أنه قام بعد ثلاثة أعوام من التحاقه بالحركة، برحلته الأولى إلى القدس، حيث رأى بطرس الذي دعاه بلقبه الآرامي وهو «كيفاس» وقد مكث بولص معه خمسة عشر يوماً، ثم كتب «ولكنني لم أر غيره من الرسل إلاّ يعقوب أخا الرب» [الرسالة إلى أهل غلاطية: 1/ 19]، وهو هنا لم يسم جيمس باسم الرسول، بل ذكره بكل وضوح وحدده أنه كان «أخو يسوع» ومن المقدر أن الناصريين لم يثقوا ببولص، لأنه كان منذ أمد قصير جداً في مقدمة الذين اضطهدوهم، وقد تحالف مع القادة أنفسهم الذين تدبروا قتل يسوع، وكان بولص قد رأى بطرس، لكنه عرف، أنه كان أساسياً وجوهرياً مقابلة جيمس الذي كان مسؤولاً عن الحركة، وإقدام بولص على ذكره هكذا بشكل عابر هو بالغ الأهمية، وهو لم يكن بحاجة لأن يوضح إلى أي واحد، لماذا توجب عليه الالتقاء مع جيمس.

وبعد هذا روى بولص أنه بعد أربعة عشر عاماً من تحوله، أي قريباً جداً من العام 50م، قام برحلة عودة إلى القدس حتى يتسلم التفويض من أجل

إرساليته إلى الأميين، ممن سماهم «الأعمدة الثلاثة للحركة» أي: جيمس، وبطرس، ويوحنا صياد السمك (غلاطية: 2/ 9)، ومهم أن يكون قد ذكر اسم جيمس، لكن أن يكون بولص قد سماه قبل بطرس ويوحنا، فهذا مهم جداً وحاسم بالنسبة لفهمنا، فترتيب الأسماء يشير إلى وجود نظام مؤسس حول السلطة، فقد تولى مجلس الاثني عشر، وجيمس على رأسه، حكم الناصريين، ولكن بين الاثني عشر، مارس ثلاثة القيادة الرئيسية، وكان هؤلاء هم: جيمس، وبطرس، ويوحنا، وكان جيمس هو أخو يسوع، وكان مشاركاً في النسب الملكي للملك داود، وكان يحتل المنصب المركزي، ولكن كان هناك واحد على يمينه، وكان آخر على جناحه الأيسر مشكلين «أعمدة»، وكان يسوع الذي شغل من قبل المنصب الملكي، قد سئل من قبل الاثني عشر، عن الذي من بينهم سيتسلم امتياز «أن يجلس واحد عن يمينك والآخر عن يسارك» عندما يصل الملكوت (مرقص:10/ 37)، ومات يسوع دون أن يعين إطلاقاً أي واحد لهذين المنصبين، ولكن الآن وقد بات جيمس هو المركز، شغل بطرس ويوحنا هذين الدورين، وذلك كجزء من الحكومة المسائحية التي كان يسوع قد أسسها ودشنها، ونحن نعرف هذه القاعدة من جماعة قمران في مخطوطات البحر الميت، فقد اشترط «قانون الجماعة» «لسوف يكون مجلس الجماعة مؤلفاً من اثني عشر رجلاً، وثلاثة كهنة متقنين للمعرفة التامة بالذي أوحي به من التوراة»[2].

ومع ذلك لم يذكر لوقا شيئاً في الأعمال حول جيمس في أنه كان واحداً من الرسل، أو على الأقل أنه كان قد خلف يسوع كقائد للمجموعة، غير أنه عندما روى خبر هذا اللقاء الذي أجراه بولص في القدس في العام خمسين للميلاد، في رواية في الأعمال، الإصحاح الخامس عشر، شعر أيضاً أنه مجبر على أن يذكر أن جيمس كان مسؤولاً مسؤولية كاملة عن الإجراءات، وكان لوقا قد ذكر في الإصحاحات الأولى من الأعمال بطرس ويوحنا بشكل متواصل، كزوج، مشيراً

بذلك إلى أنهما كانا في موقع القيادة على حركة الناصريين[3]، وكان قد وضع هذين الإثنين على رأس قائمة الاثني عشر، مشيراً بذلك إلى أنهما قد اختيرا لمنصبي «اليمين» و«اليسار» (الأعمال: 1/ 13)، وهذه القائمة مختلفة عن قائمته الأقدم التي ذكر فيها الاثني عشر في إنجيله، حيث كان لديه ترتيب مختلف للأربعة الأول: بطرس وأندراوس، وجيمس، ويوحنا (لوقا:6/ 14)،وجاء تغييره للترتيب في الأعمال حين وضع بطرس ويوحنا في المقامين الأول والثاني، متماشياً مع ما عرفه من بولص حول «أعمدة» الكنيسة، يعني: جيمس، وبطرس، ويوحنا، وقبل اجتماع هذا المجلس المقدسي في العام خمسين للميلاد، كانت المرة الأولى التي ذكر فيها لوقا جيمس، وعرفه بالتحديد والاسم «أخو يسوع»، عندما أطلق سراح بطرس وخرج من السجن، وأخبر مجموعة من أتباع يسوع اجتمعوا في بيت خاص وقال لهم: اذهبوا «وأخبروا جيمس والإخوة بهذا»، أي أنه أطلق سراحه وصار حراً، [الأعمال:12/ 17] ونمتلك هنا إشارة إلى أن بطرس مال لأن يقوم برواية الأشياء إلى جيمس مع إخوة يسوع، ولكن ما من شيء آخر قد قيل وما من تفاصيل أخرى أعطيت، ويظهر أن هذه الرواية قد نجت بالصدفة.

وهكذا نجد في رواية لوقا في الأعمال، أنه عندما كان جيمس يظهر فجأة وبوضوح على أنه قائد الحركة الناصرية في مجلس القدس، نرى أن لوقا كان عارفاً تمام المعرفة بمركز جيمس، ففي هذه المرحلة الحاسمة، هو لم يتجرأ على أن يدع جيمس خارج القصة، وإذا ما جمعنا فيما بين الإشارات العابرة التي أوردها بولص في الرسالة إلى أهل غلاطية، بشأن جيمس في أنه كان «العمود» القيادي للحركة، نستطيع أن نبدأ في تجميع أدلتنا، ذلك أن عدداً لا بأس به من قرّاء الأعمال قد احتاروا حول هذا الشذوذ، فمن هو ذلك اللغز «جيمس» الذي ظهر فجأة في الإصحاح الخامس عشر، من دون توضيح، ولكن وهو يمتلك مثل تلك القوة والسلطة؟

فلقد تمت دعوة مجلس القدس إلى الاجتماع لمواجهة قضية حساسة وخلافية،

هددت بشطر الحركة المسائحية، وهي القضية: حول أية قاعدة ينبغي قبول الأميين في المجموعة؟ فقد كان كل من يوحنا المعمدان ويسوع قد أعلنا عن القرب الوشيك لملكوت الرب، وتبعاً للأنبياء كان حكم الرب سيقع ليس فقط على إسرائيل، بل أيضاً على جميع بني البشر، وتبعاً لذلك وجهت الدعوة إلى اليهود وكذلك إلى غير اليهود، لأن يتوبوا من ذنوبهم وأن يتحولوا إلى الرب من أجل إنقاذهم من «الغضب المقبل»، وأن يهوه كان هو الخالق، و«الرب الوحيد الحقيقي والحي»، وأطلق على عبادة أية أرباب آخرين بأنه كفر، ولكن ما الذي كان مطلوباً من الذين هم غير يهود، الذين استجابوا إلى هذا الإعلان، هل هو الـ «بشائر» بقرب حلول ملكوت الرب؟ وقد كان هناك جناح محافظ في الحركة الناصرية، أصر على أنه ينبغي على هؤلاء الأميين العيش كيهود بشكل كامل، الأمر الذي سوف يتضمن الختان بالنسبة للذكور، ومراعاة جميع شرائع التوراة، وقاوم بولص بشدة هذا الموقف، وقد امتلك تأييد بطرس، الذي كان بعد جيمس، الأكثر نفوذاً بين قادة الناصريين، وبعد كثير من المناقشات والخلافات، روى لوقا بأن جيمس أخو يسوع، كان هو الذي نهض، وقدم قراره قائلاً:

«لذلك أنا أرى أن لا يثقل على الراجعين إلى الرب من الأمم بل يرسل
إليهم أن يمتنعوا عن نجاسات الأصنام والزنى
والمخنوق والدم، لأن موسى منذ أجيال قديمة،
له في كل مدينة من يكرزبه
إذ يقرأ في الكنس كل سبت» [الأعمال: 15/ 19-21].

فقد شعر لوقا هنا أنه مجبر على إعطاء جيمس مكانه الصحيح، مع سلطة كاملة، مع أنه لم يقدم شرحاً يوضح به كيف جاء هذا إلى الوجود، وكان القرار المحوري الذي أصدره جيمس متماشياً مع الممارسة العامة للجماعات اليهودية في

جميع أرجاء العالم الروماني، حيث كان إذا ما انجذب غير يهود إلى الكنيس، كان يرحب بهم كأناس «يخافون الرب» أو «أميين مستقيمين» ولم يكن متوقعاً منهم الاختتان، ولا مراعاة تطبيق التوراة كلها، مثل الذي هو مطلوب من اليهود، وكانوا على كل حال متوقعاً منهم اتباع المبادئ الأخلاقية للتوراة، التي كانت قابلة للتطبيق على جميع الكائنات البشرية، وكان الزنى وجميع أشكال الممارسات الجنسية اللاأخلاقية التي كانت واسعة الانتشار في المجتمع الروماني، مدانة بكل دقة، وكان أكل اللحم الذي ما يزال يحتوي على دم الحيوان المذبوح محرماً عالمياً على جميع الكائنات البشرية منذ أيام نوح «التكوين: 9/ 4» وغير هذا كان هناك المزيد من المساحات المحددة المتعلقة بالسلوك، قد فصلت اليهود عن غير اليهود، كان منها التوقع أن يعيش الإنسان حياة عدالة واستقامة، وكان القرار الذي أعلنه جيمس هنا متماشياً بانسجام مع المقاربة اليهودية نحو الأميين، فهذا ما نعرفه من مصادر أخرى[4]، ولكن ليس كثيراً جداً القرار نفسه وهو مبهم بشأن السلطة التي مارسها جيمس على حركة الناصريين هو الذي جعل هذه الرواية في الأعمال مهمة جداً، وإذا ما اتخذنا هذا كنقطة بداية، يتضح أن الأدلة المجمعة من خارج العهد الجديد، في أن جيمس أخذ عباءة يسوع وشغل «مقعده» أو «عرشه» هي مدهشة تماماً، فبعض هذه الأدلة قد دفن في نصوص قديمة هي موجودة لدينا منذ قرون، وظهر بعضها الآخر في العقود الزمانية القليلة التي مضت.

جيمس العادل واحد

كان إنجيل القديس توما قد اكتشف في مصر العليا، في العام 1945، خارج قرية نجع حمادي الصغيرة، وسلف لي إيضاح هذا، ومع أن النص نفسه يعود إلى القرن الثالث، أظهر العلماء أنه ما يزال يحتفظ على الرغم من التزيينات اللاهوتية المتأخرة بوثيقة آرامية مبكرة، جاءت إلينا من الأيام الأولى لكنيسة القدس[5]، وهي

تقدم لمحات نادرة حول الذي دعاه العلماء باسم «المسيحية اليهودية»، أي حول الأتباع الأكثر قدماً لكل من يسوع وجيمس، وكما علينا أن نتذكر أن إنجيل توما ليس رواية عن حياة يسوع، بل هو بالحري قائمة فيها 114 من «أقواله» أو تعليمه، وقد جاء نص القول 112 كما يلي:

«قال التلاميذ ليسوع: نحن نعرف أنك سوف تتركنا، فمن الذي عند ذلك سيكون قائدنا؟، وأجابهم يسوع قائلاً: ليست هناك مشكلة فحيثما ذهبتم، عليكم الذهاب إلى جيمس العادل، الذي إكراماً له جاءت السموات والأرض إلى الوجود».

فنحن نمتلك هنا إعلاناً واضحاً من يسوع نفسه بأنه سلم قيادة الحركة وتوجيهها الروحي إلى جيمس، ويذكرنا الإسراف الذي لا نظير له ولا معادل في إعلان يسوع، في التشريف الذي أعطاه إلى قريبه يوحنا المعمدان في وصفه له أنه «أكثر من نبي» وأنه الأعظم «بين الذين ولدتهم النساء» في جيله، وعلينا أن نبقى متذكرين بأن إنجيل القديس توما بشكله الحالي قد جاء إلينا من زمن متأخر، عندما أصبحت قضية «من الذي سيصبح قائدنا» قضية حاسمة وحساسة بالنسبة لأتباع يسوع، ويستشف من عبارة «ليست هنالك مشكلة، فحيثما ذهبتم» أن سلطة جيمس وقيادته لم تكن محصورة بكنيسة القدس أو بفلسطين الرومانية فتبعاً لهذا النص جرى وضع جيمس أخي يسوع في موقع المسؤولية عن جميع أتباع يسوع، وتعكس عبارة: «الذي إكراماً له جاءت السموات والأرض إلى الوجود» فكرة يهودية مفادها أن العالم قد إنوجد وهو محفوظ بسبب الفضائل غير الاعتيادية لمجموعة صغيرة من الأفراد المستقيمين أو «العادلين»[6]، وحصل جيمس أخو يسوع على اسم ميزه عن سواه هو «جيمس العادل» وهذا ميزه عن الآخرين الذين حملوا اسم جيمس، وشرفه من أجل مركزه السامي، وزودنا إنجيل توما بالدليل الأبكر والأكثر وضوحاً في ذكره أن جيمس قد خلف يسوع كقائد للحركة، وتأكد

هذا وتأيد بوساطة كثير من المصادر الأخرى.

«ويعدّ كليمنت الإسكندري الذي كتب في أواخر القرن الثاني للميلاد، مصدراً آخر مبكر، وقد أكد خلاله جيمس هذه، فقد كتب عند إحدى النقاط «لم يتصارع بطرس وجيمس ويوحنا بعد صعود المخلص من أجل المجد، بسبب أنهم كانوا قد أعطوا التشريف من قبل المخلص بل إنهم اختاروا جيمس العادل كمشرف عام على القدس[7]، وذكر كليمنت في نص تقدم على هذا النص بدقة أنه «بعد قيامة المولى، أعطى [يسوع] تقاليد المعرفة إلى جيمس العادل، ويوحنا، وبطرس، وأعطاها هؤلاء إلى الرسل الآخرين، وأعطاها الرسل الآخرون إلى السبعين[8]»، وقد احتفظ هذا النص لنا بتراتيب بناء صفوف الحكومة الإقليمية التي تركها يسوع من بعده، وكانت كما يلي: جيمس العادل كخليفة، ويوحنا وبطرس كمستشارين عن يساره ويمينه، ثم من بعدهم بقية الاثني عشر، ثم السبعين.

وكان يوسيبيوس، المؤرخ المسيحي من أوائل القرن الرابع، قد كتب في تعليق له على هذا النص قائلاً «إن جيمس، الذي لقبه الرجال القدماء «بالعادل» من أجل فضائله السامية، قد ورد ذكره مدوناً على أنه كان أول من انتخب إلى «عرش» الإشراف على الكنيسة في القدس[9]»، وكان الاصطلاح الإغريقي الذي أشير به إلى «العرش» هو «الكرسي» أو «المقعد» الخاص بالسلطة، وهو الاصطلاح نفسه الذي قد استخدم بالنسبة للملك، أو للحاكم.

واحتفظ يوسيبيوس أيضاً بشهادة حجيسيبوس Heagesippus، وهو مسيحي يهودي من أوائل القرن الثاني، الذي قال: منذ «أجيال بعد الرسل»:

«انتقلت الخلافة على الكنيسة إلى جيمس أخي الرب، بالترافق مع الرسل، وقد أطلق عليه اسم «العادل» ودعي به من قبل جميع الناس منذ أيام الرب حتى أيامنا، وذلك بما أن كثيرين دعوا باسم جيمس، ثم إنه كان مقدساً من رحم أمه»[10].

وكانت الكلمة الإغريقية التي استخدمها حجيسيبوس هنا هي diadexomat «يخلف»، وهي قد استخدمت بشكل منتظم للتعبير عن انتقال الميراث القائم على القرابة، من ذلك على سبيل المثال، عندما نقل فيليب ملك مقدونيا حكمه إلى ابنه الإسكندر الكبير[11].

وقمنا حديثاً باكتشاف مصدر سرياني عنوانه «صعود جيمس» وهو موجود ضمن مجموع متأخر عرف باسم «الاعتراف الزائف لكليمنت»، وهو يعكس بعض الآثار المروية الأقدم، المتعلقة بكنيسة القدس، تحت قيادة جيمس العادل[12]، وأتت هذه الآثار على ذكر أخبار حوادث وقعت في القدس، بعد سبعة أعوام من موت يسوع، عندما كان جيمس بكل وضوح في موضع القيادة، وقالت: «كانت كنيسة القدس التي تأسست من قبل ربنا تزداد بالأعداد، ذلك أنها حكمت بشكل مستقيم وبثبات من قبل جيمس الذي جعل مشرفاً عليها من قبل ربنا»[13]، واجتازت الصيغة اللاتينية للاعتراف لتأخذ الصيغة التذكيرية التالية «وبناء عليه راقب بحذر عظيم في أن تؤمن أنه ليس هناك أستاذ، ما لم يجلب من القدس الشهادة من جيمس أخي الرب، أو من عند أي واحد قد يأتي من بعده»[4/ 35]، وأكد «كتاب الرؤيا الثانية لجيمس»، الذي هو واحد من النصوص التي عثر عليها مع «إنجيل توما في نجع حمادي، على الروابط الوشيجة بين يسوع وجيمس، ويتماشى هذا مع فكرة أنه كان هو «التلميذ المحبوب» ففي هذا النص قد قيل بأن يسوع وجيمس، قد «رضعا من الحليب نفسه»، وأن يسوع قد قبل أخاه جيمس وقال له: «انتبه يا حبيبي أنا سوف أبوح لك بكل شيء وأكشفه» [50/ 15-22]، وكنت قد ذكرت من قبل في الفصل الثاني عشر، بأن إنجيل العبرانيين قد وضع جيمس على أنه كان موجوداً في العشاء الأخير، وبذلك نستخلص بأنه كان واحداً من الاثني عشر، وزاد احتمال ذلك هو أنه كان «التلميذ الذي أحبه يسوع»، ومع أننا لا نمتلك النص كله، وأنه محفوظ لنا فقط من خلال اقتباسات نقلها منه جيروم، الكاتب المسيحي من القرن

الرابع، لقد كتب هذا الإنجيل بالأصل باللغة العبرية، وقد ذهب بعض العلماء إلى القول أنه ربما عاد بتاريخه حتى إلى ما قبل أناجيل عهدنا الجديد.

والأمر المؤثر حول هذه النصوص هو الطريقة التي تكلموا بها، فهم قد تكلموا بصوت واحد، مع أنه صدر عن كتّاب متنوعين، وكذلك من مدد زمانية متنوعة، والعناصر الأساسية للصورة التي حفظوها لنا، هي مدهشة في توافقها وإصرارها على أن: يسوع قد نقل خلافته في حكم الكنيسة إلى جيمس، وأن جيمس كان معروفاً بشكل واسع، حتى من قبل يوسيفيوس، ومن قبل الغرباء، بسبب سمعته، واستقامته لدى كل من جماعته، وبين الناس، وأن بطرس ويوحنا وبقية الاثني عشر قد نظروا إلى جيمس على أنه كان قائدهم.

وإنطلاقاً مما نعرفه الآن، نحن الآن في وضع قادرون فيه على البحث والتقصي حول نمط المسيحية التي ورثها جيمس العادل من أخيه يسوع، ومن ثم أجازها ونشرها، وما الذي يكشفه لنا هذا الوجود لأسرة يسوع الحاكمة، حول القضية المخفية والمنسية، التي من أجلها عاش يسوع، ومات، ولكن قبل أن أتحول إلى ذلك، وأنتقل إليه، نحن نحتاج أن ننظر إلى بولص، ذلك أن نفوذه المتحكم بالعهد الجديد يقدم التحدي الأعظم إلى أية محاولة لاكتشاف تراث أسرة يسوع.

الفصل السادس عشر

تحدي بولص

كان شاول الطَرَسُوسي، المعروف أكثر باسمه الروماني بولص، رجلاً شاباً، عندما مات يسوع، ولربما كان مثل يسوع، في الثلاثينات من عمره[1]، واسم شاول اسم عبراني، اتخذ تشريفاً لذكرى الملك الأول لإسرائيل، الذي كان مثل بولص من سبط بنيامين الإسرائيلي، واسم بولص الذي كان لقبه الروماني، معناه «صغير»، وتبعاً لما رواه لوقا، كان بولص قد ولد في مدينة طَرَسُوس وفيها نشأ، وكانت طرسوس تابعة لإقليم كليكيا الروماني في آسيا الصغرى «الأعمال:22»، وكان أبواه يهوديان، لكنه امتلك المواطنة الرومانية، التي ورثها هكذا بموجب حق الولادة، هذا وعرف جيروم، الكاتب المسيحي من القرن الرابع، أثراً مروياً آخر مختلفاً، فقد كتب بأن أبوي بولص كانا من الجش «Gischala» في الجليل، وكانت بلدة يهودية على مسافة حوالي الخمسة والعشرين ميلاً إلى الشمال من الصفورية، وأنه قد ولد هناك، وعندما تفجرت الثورة التي وقعت بعد موت هيرود الكبير، في العام الرابع قبل الميلاد، روى جيروم بأن بولص وأبويه وقعوا بالأسر، وكانوا جزءاً من عملية نفي واسعة النطاق من فلسطين لسكان جليليين، حيث أرسلوا إلى طرسوس في كليكيا[2]، وأنا أميل إلى تقدير رواية جيروم، حيث لا بد أنه اعتقد أنها كانت مؤسسة على دليل جيد، ولولا ذلك لما أقدم على معارضة كتاب الأعمال،

الذي قال بأن بولص قد ولد في طرسوس.

وإذا كان جيروم صحيحاً، فإن بولص قد ولد في وقت ما قبل العام الرابع قبل الميلاد، وعلى هذا كان قريباً بالسن من يسوع، وإنه لمهم التفكير بأن أسرة بولص، وأسرة يسوع كانتا تعيشان على بعد أميال عن بعضهما بعضاً، وكانتا قد تأثرتا بالثورات في الجليل، بطرق مختلفة، فقد انتقلت مريم ويوسف إلى الناصرة، أو ربما كما يحتمل قد نفيا مع بقية سكان الصفورية، في حين أرغم بولص مع والديه على مغادرة البلاد، ومن الممكن أن يُلقي الأصل الجليلي لأسرة بولص بعض الشروح على دوافع بولص الأخيرة ومحرضاته، ومن المحتمل أن بولص وأسرته بعدما شاهدوا الخراب الهائل والدمار الذي لحق بالذين كانوا في الجليل واليهودية، الذين سعوا للوقوف في وجه روما، من المحتمل أنهم تعلموا الأكثر حتى يتكيفوا مع الحقائق الاجتماعية والسياسية لعالمهم الروماني، وكان بولص في رسالته إلى المسيحيين في روما، التي كتبت في حوالي العام 56م، عندما كان نيرون امبراطوراً، قد وجههم وأمرهم بأن يدفعوا الضرائب، وأن يشرفوا الموظفين الرومان بما في ذلك الامبراطور، الذي قال عنه بأنه كان نائب الرب للخير «الرومان:13/ 6»، ومن المؤكد أن هذا مضاد، وعلى عكس الرسالة الثورية التي بشر بها يسوع، وكما سوف نرى، لقد كان «ملكوت الرب بالنسبة إلى بولص ملكوتاً روحانياً، ليس على الأرض، بل في السماء» ومع أنه كان يتوقع دينونة نبوئية في المستقبل، أشار على أتباعه أن ينسجموا في المجتمع، وأن يكونوا مواطنين جيدين، وأن ينتظروا بصبر إلى أن يظهر يسوع في غيوم السماء، ليأخذ أتباعه بعيداً من الممالك السماوية.

وبطريقة ما كان أبوا بولص، قد حصلا على المواطنة الرومانية، محتمل من أجل نوع ما من الخدمات المخلصة لروما، أو ربما عن طريق تكديس الثروة والنفوذ في إقليمهم الجديد في كليكيا، وقد قال لوقا بأن بولص كان «صانع خيم» وهي حرفة قد تعلمها بولص من أبيه، ويمكن للكلمة الإغريقية أن تشير إلى

الإنسان الذي كان يعمل في ميدان منتجات الجلود بشكل عام، بما في ذلك نسج الشعر الخشن للماعز، وصنع الأقمشة الكليكية المشهورة، التي استخدمت لصناعة الخيم، التي قدرت كثيراً من أجل الدفء من قبل الجنود والبحارة «الأعمال:18/ 3»، وقال لوقا أيضاً بأن والد بولص كان من الفريسيين «الأعمال: 23/ 6»، ويظهر أن أسرة بولص قد امتلكت الإمكانات، والعزيمة، والنفوذ لإرسال ابنها إلى القدس للدراسة مع جماليل Gamaliel الذي كان الحاخام الفريسي القيادي في ذلك الوقت.

وامتلك بولص علاقات مع أسرة حانان الكاهن الأعلى، وتعاون معها في الجهود من أجل قمع أتباع يسوع بعد صلبه، لا بل أسهم حتى في اعتقالهم، فكيف حصل بولص على مثل هذه الارتباطات في داخل المجتمع الارستقراطي اليهودي، أو حافظ عليها، نحن لا نعرف، وذكر بولص قريباً له اسمه هيروديون، كان يعيش في روما «الرومان: 16/ 11» ومن المحتمل أن هذا قد زوده برابط محتمل مع أسرة هيرود، التي كانت مشهورة ولها مكانتها في روما خلال ذلك الوقت، وقد عاشت أخته في القدس، ويظهر أن الأسرة امتلكت بعض وسائل الوصول والاتصال مع السلطات الرومانية الحاكمة في القدس «الأعمال: 23/ 16»، وفي مرحلة متأخرة من حياته، امتلك بولص الوسائل ليرفع التماساً إلى الامبراطور نيرون، من أجل محاكمة قانونية، فيما يتعلق بالتهم التي قدمت ضده، وقد سمحت له مواطنته الرومانية بعبور آمن وحماية، حتى وإن كان تحت الاعتقال «الأعمال: 25/ 11، 23/ 23-24»، وعندما ما كان بولص قيد «الاعتقال المنزلي» في روما، امتلك روابط مع الذين كانوا من بطانة نيرون، وكذلك مع أعضاء من الحرس البريتوري القوي، الذي انتهى به المطاف إلى إرغام نيرون على الانتحار، «الرسالة إلى أهل فيلبي:1/ 13، 4/ 15-18»، وقد ذكر بشكل محدد إبفرودتس «Eparphroditus» في هذا الإطار،

وهو لربما كان يشير بذلك الاسم إلى أمين سر البلاط تحت حكم نيرون.

وفي حوالي العام 36م، امتلك بولص تجربة «محادثة» فيها ادعى أنه «رأى» يسوع القائم من الموت، وقال بأنه تسلم كلاً من الوحي والتكليف، بأن يسوع كان «المسيح» المجد سماوياً، وأنه هو بولص كان عليه أن يبشر بالأخبار الطيبة حول الخلاص من خلال الإيمان بيسوع، إلى عالم الأميين، وقد بدأ ينظر إلى نفسه على أنه الرسول الثالث عشر، وأنه الرسول الأخير، لكن ليس الأقل شأناً، وأشار إلى نفسه بمثابة الـ «رسول إلى الأميين»، ومثلما كان يسوع قد اختار مجلسه المؤلف من اثني عشر، ليرأسوا على شعب إسرائيل، ادعى بولص بأنه أعطي السلطة على غير اليهود، أو عالم الأميين، لإعدادهم «للقدوم الثاني» ليسوع كمسيح، لكن هذه المرة من السماء.

وهناك «مسيحيتان» منفصلتان تماماً ومتميزتان، متجسدتان في العهد الجديد، والأولى هي معروفة تماماً، وأصبحت صيغة الإيمان المسيحي، التي عرفت من قبل بلايين الناس في الألفي عام الماضيين، وهذه المسيحية كان بولص الرسول هو المقترح الأساسي لها والمؤيد، أما المسيحية الثانية فقد نسيت، ومع نهاية القرن الأول تهمشت بشكل فعلي، وقمعت من قبل المسيحية الأخرى، وإنه حتى في داخل وثائق العهد الجديد نفسه، على الإنسان أن ينظر بدقة وحرص وأن يتقصى حضورها ويفتش عنه، ولم يكن بطل هذه المسيحية واحداً غير جيمس أخي يسوع، وقائد حركة يسوع حتى موته العنيف في العام 62م، هذا وإن صيغتي «الإيمان» مختلفتان تماماً ومتميزتان، في كل من القيم والممارسات، والفكرة الموجودة خلف أسرة يسوع الحاكمة، هي أن يسوع قد تمت خلافته بسلسلة من القادة، كانوا إخوته، وليست فقط حول نسب ملكي وأصالة ومحتد كريم، إن لها علاقة مع قضية صيغة الإيمان المسيحي الذي كان أفضل من مثّل أصول عقائده وتعليمه هو المسيح الناصري ويوحنا المعمدان، اللذان أسسا الحركة المسائحية.

وهناك قليل من الشك حول قبول الرسول بولص في داخل دوائر أتباع يسوع الأصلاء، وفي الحقيقة جرى اعتقاله في العام 58م، وجلب ليمثل أمام حانان الكاهن الأعلى لليهود متهماً بأنه «مقدم طائفة الناصريين» [الأعمال: 24/ 5]، وتبعاً لما رواه بولص، ولما رواه لوقا أيضاً، قدم لـه جيمس العادل، وبطرس، ويوحنا «الأعمدة» الثلاثة للكنيسة «يمين الشركة»، وصدقوا بشكل رسمي على إرساليته للتبشير بين الأميين في العالم الروماني «غلاطية: 2/ 9»، ولقد كان ما أخذ يبشر بـه، ويعلمه هو الذي بدأ بإحداث المشاكل.

مسيح سماوي

كان بولص يهودياً، وفي الحقيقة، كان كفريسي قد درس في القدس قد «تقدم في اليهودية» وتفوق على معاصريه «غلاطية:1/ 14»، وليس هناك دليل على أنه التقى قط بيسوع، أو سمع منه، ولئن كان شاهداً على الحوادث التي أحاطت بصلب يسوع في عيد الفصح اليهودي، في العام 30م، هو لم يذكر ذلك قط، وتأسست علاقته بيسوع على تجربته الرؤيوية، التي ادعى فيها بأنه قد «رأى» يسوع بعد عدة أعوام من صلبه[3]، واعتقد بولص بأن «دعوته» كانت بقدر مقدور حيث قال: «ولكن لما سرّ الرب الذي أفرزني من بطن أمي ودعاني بنعمته.... لأبشر به بين الأمم» [غلاطية:1/ 15-16]، وقد ادعى سماع «صوت» غير متجسد، حدده على أنه «كلمات» يسوع[4]، وفي الحقيقة افتخر بادعائه، في أن لم يكن مثل جيمس وبقية الاثني عشر، الذين عرفوا يسوع، «تبعاً للجسد»، في حين تسلم هو سلطته وتكليفه مباشرة من يسوع السماوي، وبذلك هو لم يكن بحاجة إلى موافقة أرضية، أو تفويض بشري[5]، وحسبما كتب إلى أتباعه الإغريق في كورنثا قائلاً: «إذاً نحن من الآن لا نعرف أحداً حسب الجسد» [2- كورنثة: 5/ 16].

وعلم بولص بأن يسوع كان كائناً سماوياً وإلهياً وجد من قبل، لأنه خلق

بمثابة «المولود الأول» بين جميع مخلوقات الرب[6]، وقد وجد على «شكل رب»، وكان «مساوياً للرب» «فيلبي:2/ 6»، وقد كان من خلال نيابة المسيح جلب الرب العالم إلى الوجود[7]، وكان المسيح في مجده السماوي قبل جميع الأشياء، وكان معبوداً وممجداً من قبل حشود الملائكة، وقد قام نتيجة لذلك «بإفراغ نفسه»، وأخذ شكلاً بشرياً، حيث إنه «ولد من امرأة»، وأرسل إلى العالم من السماء[8]، وكان قصده أن يعيش من دون ذنب، وأن يموت على الصليب كتكفير عن ذنوب العالم، أو حسب عبارة بولص قوله: «لأنه الرب جعل الذي لم يعرف خطية لأجلنا لنصير نحن برّاء للرب فيه» [2-كورنثة:5/ 21]، ثم أقام الرب المسيح، وحوله وأعاده إلى جسده السماوي المجيد، وقد صعد المسيح إلى السماء، وجلس بقوة ومجد على يمين الرب[9].

فبهذه الطريقة كان الرب قادراً على «استمالة» عالم مذنب إلى نفسه، من كل من اليهود والأميين، وتبعاً لبولص لقد غفر للذين قبلوا كفارة المسيح بدمه، غفرت لهم جميع ذنوبهم، وأعطوا «منحة» حياة سرمدية، وأصبحوا مستقيمين مع الرب بوساطة الإيمان، وليس بوساطة الأعمال الجيدة[10]، وتوقع بولص أنه سوف يعيش هو ومعظم أتباعه ليروا المسيح عائداً من السماء بقوة ومجد، وقد كتب بولص بأن يسوع قد علمه بأن أتباعه سوف يمثّلون ثانية «عشاء ربانياً» فيه سوف يشربون خمرة بمثابة «دم» يسوع، ويأكلون خبزاً بمثابة «جسده»، فمن دون ذلك لا يمكنهم النجاة من الحساب، وقد ادعى أن التطبيق غير الصحيح لهذه الوجبة المقدسة، يمكن أن يتسبب بالمرض، لا بل حتى الموت[11]، والمؤمنون الذين ماتوا قبل وصول المسيح، سوف يقيمهم الرب من الموت في أجساد تحولت بشكل مجيد إلى أجساد روحانية، والذين هم أحياء في ذلك الوقت، سوف مثل ذلك يتحولون على الفور من جسد إلى روح، وتمسك بولص بهذا بشكل حرفي كامل، وقد أكد بأن أتباعه سوف يرتفع الأحياء منهم والأموات في الهواء، عند ظهور المسيح،

لاستقباله في غيوم السماء[12]، وأنهم سوف يجلسون للحكم على الملائكة وعلى البشر، ولسوف يشاركون بالمجد السماوي والرفعة مع المسيح إلى الأبد[13]، فلقد تركزت جميع توجهات بولص نحو العالم السماوي، وذلك حسبما كتب إلى أتباعه قائلاً: «ونحن غير ناظرين إلى الأشياء التي ترى بل إلى التي لا ترى، لأن التي ترى وقتية وأما التي لا ترى فأبدية» [2- كورنثا:4/ 18]، وكان تصوره للملكوت الرب سماوياً أيضاً، فكان أن أعلن بشكل محدد: «إن لحماً ودماً لا يقدران أن يرثا ملكوت الرب» [1- كورنثا: 15/ 50].

واتهم بولص أحياناً بأنه طور صيغته من المسيحية بالنهل من الهلنستية، أو من الأفكار «الوثنية»، وكأنه أراد الانتقال إلى خارج اليهودية، من أجل تطلعاته، وهذا بالحقيقة سوء فهم مع تصور فيه تبسيط زائد لأشكال اليهودية المتنوعة في العالم الروماني، فأنا لدي كثير من النصوص اليهودية، تاريخها قبل بولص، كانت قد بدأت في تطوير توجهات ثنوية نحو العالم السماوي، مع توقعات حول مستويات السماء والمراتب المتدرجة للملائكة والشياطين، والطقوس السحرية، والحياة بعد الموت في ممالك روحانية غير مرئية، مع كل من المكافآت والعقوبات، والتمجيد السماوي، لا بل حتى إن الأفكار التوقعية حول الوجود المسبق لشخصيات المخلصين الكونيين الذين مملكتهم سماوية أكثر منها أرضية، هي غير معروفة[14]، وكان بولص قد طور آراءه حول «اللاهوت المسيحي، وأسسها على خبراته الميثولوجية، لكنه كان قادراً على أن ينهل كذلك من مجموعة معقدة من تقاليد التوقعات اليهودية».

وأشار بولص إلى رسالته حول المسيح الممجد سماوياً، وصفحة الغفران والحياة السرمدية التي جعلت متوفرة بموته على الصليب باسم «إنجيلي» وليس الإنجيل الذي جرى التبشير به «غلاطية:1/ 6-9» ودعا «إنجيله» بأنه «وحي لسر» أخفي لمدة أجيال، ولكنه أبيح الآن وكشف عنه إليه من قبل المسيح السماوي

بحكم أنه رسول إلى الأميين[15]، فبما أنه أدرك أنه لا يستطيع على الإطلاق بشكل فعال الادعاء بأن يسوع «في الجسد» قد علمه الذي يتولى التبشير به، فقد كان دفاعه الوحيد هو الآن أن المسيح السماوي، قد كشف هذه الأشياء له بمثابة «كلمة أخيرة»، ونادراً ما ذكر بولص أي شيء علمه إياه يسوع، ولم يقل سوى القليل عن حياة يسوع غير الذي ذكره عن موته على الصليب[16]، وأصبحت الرسالة التي بشر بها يسوع، وتحولت بالنسبة لبولص إلى يسوع الذي هو «الرسالة».

وتعلقت أعظم الجوانب التي لم تتوفر لها تسوية في «إنجيل» بولص الميثولوجي، بأعضاء الحركة المسائحية التي كان يوحنا المعمدان ويسوع قد افتتحاها، وكذلك بوجهة نظره حول الطبيعة المؤقتة للتوراه، أو الشريعة اليهودية، وبإعادة تحديد «روحية» بشأن ممن يتشكل الشعب اليهودي، وقد كانت اليهودية في العالم الروماني متنوعة تماماً، ولكن كان هناك في جميع أشكالها عنصران عامان هما: المكان المركزي للتوراة، والاعتقاد بأن شعب إسرائيل كان شعب الله المختار، وأن التوراة قد أوحي بها من قبل الرب إلى موسى، وأنها مثلت بصورتها هذه الميثاق السرمدي الذي ربط شعب إسرائيل، يعني المنحدرين من إبراهيم، واسحق ويعقوب، وكان ملاخي آخر الأنبياء العبرانيين قد ختم سفره بكلمات: «اذكروا شريعة موسى عبدي»، وأتبع ذلك بالوعد بإرسال «إيليا» مع رسالة التوبة، قبل يوم الحساب العظيم، وكانت مسألة مراعاة التوراه وتوقعات نهاية الأيام قد ارتبطتا مع بعضهما بشكل جوهري.

ومع أوائل خمسينات القرن الأول، كان بولص قد بدأ يقترح صيغته الجديدة حول «إيمان المسيح» الذي اقتضى الإلغاء الجوهري للإيمان اليهودي بوساطة جحد شرعية الوحي الرباني للتوراه، وإعادة تحديد «إسرائيل» على أنها عنت جميع الذين آمنوا بالمسيح، وكما أوضح بولص لم تعد إسرائيل «تبعاً للجسد» «إسرائيل» الحقيقة، وأن يسوع ويوحنا المعمدان قد عاشا وماتا كيهوديين مخلصين لرؤيا

المصير التاريخي لإسرائيل، حسبما أعلن عنه من قبل جميع الأنبياء العبرانيين، وكانت الحركة الناصرية التي اقتيدت من قبل جيمس، وبطرس، ويوحنا، بوساطة أي تحديد تاريخي، حركة مسائحية في داخل اليهودية، لا بل حتى اصطلاح «مسيحي-يهودي» مع أنه كان نافعاً كوصف للأتباع الأساسيين ليسوع، هو بالحقيقة تسمية غير صحيحة، بحكم أنهم لم يعدوا أنفسهم قط أي شيء غير مؤمنين يهود، وبهذا المعنى كانت المسيحية المبكرة هي يهودية، وجرى الترحيب بالأميين للدخول إلى الحركة على أساس رسالة أخلاقية يهودية عالمية إلى جميع بني البشر، ولكن ما من أحد تصور عن بعد أو تخيّل بأن يوحنا المعمدان أو يسوع، قد ألغيا ميثاق الرب مع شعب إسرائيل، أو السرمدية التي عليها تأسس كتاب التوراه، فما من واحد كان في حركة يسوع، يفكر حول «ديانة جديدة»، بل حول استرداد وتحقيق للوعود التي كان الرب قد قطعها قديماً لإسرائيل، وتضمن هذا الوعد بميثاق جديد، كان إرميا قد توقعه، لكنه كان ميثاقاً مجدداً مع «بيت إسرائيل وبيت يهوذا»، وذلك حسبما أعلن النبي إرميا، ومثلما توقع يسوع في اختياره لرسله الاثني عشر، حيث كان كل واحد منهم سوف يحكم على سبط من الأسباط الاثني عشر لإسرائيل المعاد جمعها «إرميا: 31/ 31، لوقا: 22/ 30».

وكان بولص قد بدأ ينظر إلى الأمور، ويراها بشكل مختلف، ولكن لانستطيع القول فيما إذا كان قد طور آراءه عبر الأيام، أم كانوا لديه من البداية، وكما سوف نرى، كان بولص على استعداد للعمل داخل نظام، معه لم يتفق من أجل أن يحدث تغييراً، ويشير قبوله من قبل جيمس، ونيله التصديق منه في مجمع العام خمسين للميلاد، إلى أنه لم يكشف بشكل معلن جميع ما كان يعتقده، وتظهر رسالته إلى الغلاطيين بوضوح المضامين المتطرفة لآرائه، وكانت قد كتبت بعد وقت قصير من مجمع القدس.

فهو قد افتتح الرسالة بالإصرار على أنه حصل على سلطته مباشرة من خلال

تسلمه الوحي من «المسيح»، وليس من قبل أي كائن بشري، وألح على أن اتصاله ببطرس وبجيمس كان محدوداً كثيراً، ثم روى أنه كان حاضراً في مجمع القدس، ولكنه تسلم هناك بشكل جوهري التصديق من أجل التبشير «بإنجيله» إلى الأمين، وقد أشار إلى قادة القدس، أي إلى: جيمس، وبطرس، ويوحنا، على أنهم الأعمدة «المحترمين» للكنيسة وأضاف قائلاً: «أنهم مهما كان شأنهم كانوا لا يعنون شيئاً عندي» [غلاطية: 2/ 69]، وكان المقصود من جميع افتتاحية الرسالة القول: إنه بشكل فعلي، مهما كان الذي قرره قادة القدس، أو لم يقرروه، كان ذلك أمراً هامشياً لا قيمة له، بما أن سلطته كانت من المسيح وليست من الناس.

ثم مضى بولص ليحاجج في الرسالة إلى أهل غلاطية بأن التوراه، أو الشريعة التي أعطيت إلى بني إسرائيل في أيام موسى، كانت وحياً مؤقتاً فقط، وأنها قد ألغيت الآن بقدوم المسيح، وقد كتب يقول: «إذاً قد كان الناموس مؤدبنا إلى المسيح لكي نتبرر بالإيمان، ولكن بعد ما جاء الإيمان لسنا بعد تحت مؤدب» [غلاطية: 3/ 24-25]، واستخدامه هنا الحديث بالشخص الأول، يشير إلى أنه كيهودي لم يعد أيضاً «تحت الناموس»، وعلاوة على ذلك قال بولص بأن التوراه لم تعط حتى بشكل مباشر من قبل الرب، بالمقام الأول، بل أرسلت إلى موسى من خلال وسيط ملائكي، كإجراء مؤقت[17]، وقد حذر أتباعه من الأمين بأنهم إذا أخذوا بمراعاة الأيام اليهودية المقدسة، فلسوف يخاطرون بالسقوط تحت عبودية «أرواح» أدنى مرتبة من الرب[18]، وأكثر من هذا ذهب بولص إلى القول بأن الميثاق الذي أبرم مع إسرائيل عند جبل سيناء، تحت قيادة موسى، كان نظام عبودية، وأن شعب اليهود، هم الآن «كأناس ولدوا تبعاً للجسد» قد طردوا، ما لم يقبلوا بيسوع كمخلص[19]، والذين هم مع الإيمان بالمسيح، جزء من «خلق جديد»، فيه لم يعد التمييز بين «يهود» أو «أمين» قانونياً[20]، ومضامين بولص هي واضحة، في أن ميثاق الرب مع إسرائيل بات لاغياً بوساطة «الإيمان بالمسيح» وبناء عليه «أن تكون يهودياً» وتتبع

وصايا الرب التي نشرت بالتوراه، قد أصبح مهجوراً من طراز قديم.

وأصر بولص بشدة وعزيمة، على أنه غير مطلوب من المتحولين الأميين الختان، وأن يعيشوا كيهود تحت التوراة، وكان جيمس ومجمع القدس قد وافقوا على هذا، بشكل كامل، وقضى جيمس أنه مطلوب من غير اليهود الذين يلتحقون بالناصريين فقط مراعاة المطالب الأخلاقية العالمية، التي أوصت التوراة بها إلى جميع بني البشر، لكن هذا لم يكن أن تقول بأن الأميين كان محظوراً عليهم اتباع التوراة، بل كان الباب دوماً مفتوحاً، وفي الحقيقة جرى قبول يهود أميين أرادوا أن يختتنوا «في حال الذكور»، وتبنوا بشكل كامل جميع وصايا إسرائيل، وأوضح جيمس هذه النقطة في مجمع القدس عندما قال: «لأن موسى منذ أجيال قديمة له في كل مدينة من يكرز به، إذ يقرأ في الكنس كل سبت» [أعمال: 15/ 21]، وكان الأميون أحراراً في التعايش أو الانضمام عن قرب إلى الشعب اليهودي، حسبما يرغبون باتباع أي قسم من أقسام الشريعة اليهودية يجدونه جذاباً روحياً.

وأصر بولص على غير هذا، وذلك عندما أصبح مسعوراً تماماً حول هذه النقطة، وذلك حسبما كتب إلى أتباعه في فيلبي: «انظروا الكلاب، انظروا فعلة الشر، انظروا الذين يقطعون البشرة لأننا نحن المختونون الحقيقيون، الذين نعبد الرب بالروح، ونتمجد في المسيح يسوع، ولا نتكل على الجسد» [فيلبي: 3/ 2-3].

وحذر الغلاطيين بشكل صارم في أن أي واحد سوف يقوم بالختان سوف «يفصل عن المسيح» ولسوف «يسقط من النعمة» [غلاطية: 5/ 4]، وقال بأنه يرغب للذين يقومون بالختان بالانزلاق بالسكين «فيقطعون أنفسهم» [غلاطية: 5/ 12] وكانت لهجته عنيفة جداً، ومريرة، بسبب أنه كان هناك بعض اليهود من حركة الناصريين، قد زاروا طوائف بولص وشجعوا الذين انجذبوا كثيراً، بأن ينتقلوا نحو مراعاة كاملة للتوراة، وقد وصفهم بولص بمثابة «الإخوة الكذبة المُدخلين خفية، الذين دخلوا اختلاساً ليتجسسوا حريتنا» [غلاطية: 2/ 4]،

ويظهر استخدامه للشخص الأول «لنا» ما يشير إلى أنه عدّ نفسه متوائماً تماماً مع طريقة الأميين بالحياة، حتى وإن كان يهودياً، ومن المستبعد أن يكون هؤلاء الناصريون كانوا يطلبون من الأميين تبني طريقة اليهود في الحياة، بما أن مجمع القدس كان قد اتخذ قراره على عكس ذلك، لكن من المحتمل أن يكونوا قد شجعوا مثل هذا الاختيار، على أنه أكثر إرضاء للرب وأكمل.

وفيما يتعلق باهتمامات جيمس وقادة القدس لم تكن أوضاع الأميين بالحقيقة موضع بحث، فهم قد رحبوا بهم وقبلوا بهم تماماً في الحركة الناصرية، وتبعاً لبولص لم يكن التبشير لغير اليهود معارضاً بحد ذاته، والذي كان يشغل جيمس وقادة القدس ويقلقهم فيما إذا كان بولص كان يعلم اليهود بأن بإمكانهم التخلي عن التوراة، والعيش كأميين، ويتوقفون عن مراعاة الوصايا التي أعطيت إلى شعب إسرائيل.

وروى كتاب الأعمال خبر زيارة تالية قام بها بولص إلى القدس في العام 58م، عندما أثيرت القضية مباشرة، ومثل بولص أمام جيمس الذي من الواضح أنه كان ما يزال في موقع المسؤولية، وكذلك أمام شيوخ الجماعة، وقد واجهوه بتقرير كانوا قد تسلموه بأنه كان يعلم «جميع اليهود الذين بين الأمم الارتداد عن موسى قائلاً أن لا يختنوا أولادهم، ولا يسلكوا حسب العوائد» [الأعمال: 21/ 21]، ولم يسجل لوقا بالحقيقة قط جواب بولص، ولكن من المحتمل أنه لم يكن يعرض آراءه التي كان يبثها بين المتحولين، وتبعاً لكتاب الأعمال سمح صمت بولص لجيمس وللآخرين أنه كان كيهودي مكرساً لمراعاة التوراة، حتى أنه التحق بجماعة الناصريين الذين كانوا ملتزمين بتطبيق الطقوس التي تطلبها التوراة في المعبد، وذلك ليظهر التزامه باليهودية، ولكن لدينا مما نقرأه في رسائله سؤال عما إذا كان هذا هو الحال، فقد كتب بولص إلى أتباعه في كورنثا، شارحاً تعقيدات أسلوب عمليته بين مختلف الجماعات سواء

أكانوا يهوداً أو أميين حيث قال:

«فصرت لليهود كيهودي لأربح اليهود، وللذين تحت
التوراه كأني تحت التوراه – مع أنني لست بالفعل
تحت التوراه – لأربح الذين تحت التوراه،
وللذين بلا توراه [الأميين] أصبحت مثل واحد بلا
توراه، مع أني لست بلا شريعة للرب، بل تحت توراه المسيح،
لأربح الذين بلا توراه» [1- كورنثا:9/ 20-21]

ورأى بولص نفسه تحت «توراه أعلى» هي توراه المسيح، ولكنه كان على استعداد للتكيف مع أية ظروف كانت، قد وجد نفسه فيها، أي افتراضاً كان على استعداد لأن يعيش بين الأميين «مثل فرد أمي»، وهذا أمر من المؤكد أن ما من يهودي يراعي الشريعة كان يمكن أن يفعله على الإطلاق.

وكان بولص على استعداد لأن يتألم جسدياً تحت العذاب، من أجل ما بشر به وآمن، وقد قدم لأتباعه قائمة عدد فيها الأشياء التي تحملها، حيث: ضرب، وجنحت به السفن، وجاع وسجن، واقترب حتى من الموت بوساطة الرجم «2- كورنثا: 11/ 20-29»، وليس هناك من شك حول إخلاص بولص، وولعه بالذي آمن به، وقد تمسك بالرؤى التي حصل عليها، وبقناعته الثابتة تماماً، في أنه كان «آخر» الرسل، وأنه لم يكن بأي حال من الأحوال أقل شأناً من أي واحد من الاثني عشر، وفي الحقيقة هو أوضح ذلك بقوله: «أنا تعبت أكثر منهم جميعهم» [كورنثا: 15/ 10]، وغالباً ما قارن بولص نفسه بالمسيح، وآمن أنه كان مثل المسيح، مقدراً له أن يتألم، وأن يقدم حياته كقربان من أجل أتباعه «فيلبي: 2/ 17»، وقد نظر إلى آلامه أنها كانت في سبيل أن «أكمل نقائص شدائد المسيح» [كولوسي: 1/ 24]، وتبعاً لأثر مسيحي روي متأخراً، أعدم بولص صبراً في روما أثناء حكم

نيرون، أي أن ذلك كان في وقت ما قبل العام 58م[21].

ونحن لا نعرف بالحقيقة فيما إذ كان بولص قد أقدم على قطع كامل وحاسم للعلاقات مع جيمس وقادة القدس، أو أنهم فعلوا ذلك معه، ومرة أخرى إن جميع الذي نعرفه هو الرواية الموجودة في كتاب الأعمال، والذي أخبرنا بولص في رسائله، وأنهى كتاب الأعمال قصة حياة بولص وبترها بشكل مفاجئ في العام 58م، وقد أراد لوقا أن يعرض صورة مصالحه ووئام، في مشهده الأخير، بين جيمس وبولص.

وقدم لوقا أيضاً صورة وئام بين بولص وبطرس «أعمال: 15»، ويظهر أن هذا كان مستبعداً تماماً، فقد ذكّر بولص برسالته إلى الغلاطيين بمناسبة قال بأنه قاوم فيها بطرس «مواجهة لأنه كان مَلُوماً، بشأن خلاف حول تابعية مائدة، تورط به يهود وأميون» [غلاطية: 2/ 11] ووسم بولص بطرس بالنفاق، واتهمه بأن جيمس والمتعايشين معه قد أثروا عليه، ويمكن للإنسان أن يشك ويتساءل عما إذا كنا نمتلك كامل الحكاية هنا، لأن لهجة بولص خلال رسالته إلى الغلاطيين قاسية إلى أبعد الحدود، ويمكن للإنسان أن يفترض بشكل سليم، أن بطرس، ومثله كذلك يوحنا، اللذين كانا متعايشين عن قرب مع جيمس، وهم الذين اعترف بهم حتى من قبل بولص على أنهم «أعمدة الحركة» قد عملوا بتوافق تام وانسجام، وتقاسموا رؤية عامة مشتركة للإيمان كانت هي التي تسلموها مباشرة من يسوع خلال حياته.

والتراث المعطاء لبولص هو تراث عملاق هائل، بما أن نصه للإنجيل كان قد قبل بالتدريج أكثر فأكثر من قبل المسيحيين الذين كانوا موزعين في جميع أرجاء العالم الروماني، فبعد العام 70م كما سوف نرى عندما جرى تدمير القدس مركز الحركة، وتم قتل قادتها، أو تشتيتهم، بدأ نفوذ الرسالة الأصيلة للاثني عشر بالتلاشي، ومع العام 150م بات قادة المسيحية الأذكياء الماهرون، مثل جستين

الشهيد، الذي كان يعيش في روما، وكان منافحاً عن أفكار بولص، قد بدأ بتطوير نظام لاهوتي مرتب، بناه حول أفكاره الأساسية، وكان انتصار بولص إلى درجة ما انتصاراً أدبياً، يعني أن رسائله، ونفوذ أفكاره كما تجسدت في كتابات العهد الجديد، بما في ذلك الأناجيل، قد أصبحت عظيمة النفوذ المقنع، إلى حد أنهم أصبحوا يشكلون، ما نظر إليه وعدّ المسيحية الأصيلة الوحيدة، ولو أن كتابات أتباع يسوع المقادسة قد بقيت، لتمكنا وقتها بسهولة كبيرة من معرفة الصيغة المفقودة، التي كانت صيغة مسيحية: جيمس وبطرس، ويوحنا وبقية الاثني عشر ولكانت الديمومة قد كتبت لهذه الصيغة، لا بل إنه حتى الرسالتان الموجودتان في العهد الجديد، والمعزوتان إلى بطرس، تحملان كثيراً ملامح بولص، ولذلك إن كثيراً من العلماء نظروا إليهما وعدوهما إما مدسوستان، أو أنهما صنفتا من قبل أتباع بولص.

ولحسن الحظ نعرف بعضاً من المصادر، هي قليلة ولكنها ثمينة كما هي، منها نستطيع أن نكتشف الرسالة الأصيلة لجيمس مع الاثني عشر، ولكن بوساطة البحث المتيقظ والدقيق، مع منح بعض المكتشفات الحديثة، ينبغي أن نكون قادرين على إعادة بناء العطاء التراثي للأسرة الحاكمة ليسوع بشكل منطقي.

العطاء التراثي لأسرة يسوع الحاكمة

ومع أن جيمس قد حذف ذكره من كتابات مدونات عهدنا الجديد، قد بقي مع ذلك أفضل صلة وصل، وأكثرها مباشرة مع يسوع التاريخي، وعندما على كل حال يقوم الإنسان بتقويم إنجيل بولص، يجد حقيقة لا ريب حولها، هي أن الذي بشر به بولص قد تأسس كلياً على تجاربة الميثولوجية الخاصة، فبولص لم يلتق قط بيسوع، ويرجح أنه كان واحداً من الفريسيين الذين رفضوا تبشير يوحنا وتعميده، وكان جيمس الأخ المحبوب ليسوع، فهما قد نشآ حرفياً معاً في البيت نفسه، والأسرة نفسها، وكان جيمس تبعاً لشهود العيان واضحاً نقياً في كل شيء، من البداية إلى النهاية، وكانت هذه حقيقة تاريخية، إلى حد أنها لوحظت من قبل المؤرخ اليهودي يوسيفيوس، الذي عرف جيمس على أنه كان أخا ليسوع، وبناء عليه، ماذا ستكون النتيجة لو أننا أصغينا إلى النصيحة التي وردت في إنجيل توما قول يسوع: «اذهب إلى جيمس العادل، الذي من أجله أحدثت السماء والأرض؟»، وما الذي كانه «الإنجيل» المفقود، الذي أعلنه جيمس وكنيسة القدس الأصيلة، بصرف النظر عن كل شيء ادعاه بولص؟ فهل من الممكن استرداده؟

والمشكلة التي نواجهها هي أن نفوذ بولص داخل وثائق عهدنا الجديد

القانوني، هو مقنع، وأنا يمكنني أن أذهب إلى حد القول بأن العهد الجديد نفسه هو عطاء تراثي حرفي عائد إلى بولص الرسول، فقد ورد ذكر بولص وتسميته على أنه مصنف ثلاثة عشر سفراً من الأسفار السبعة والعشرين المشكل منها العهد الجديد، فسفر أعمال الرسل كله تقريباً جاء كدفاع عن المقام المركزي لبولص، على أنه الرسول «الثالث عشر»، وكان إنجيل مرقص قد كتب في حوالي العام / 70م/ ، أي بعد موت بولص، وهو بشكل رئيسي سيرة للرسالة التي بشر بها بولص، عازية إياها إلى حياة يسوع، وكان كل من متى ولوقا، قد استخدما رواية مرقص كمصدر أساسي لهما، ولذلك أجازا قلب رسالة مرقص، ويعكس إنجيل يوحنا، على الأقل من الجانب اللاهوتي، جوهر فهم بولص ليسوع، وكان الذي رآه بولص في أن المسيح كرباني، وجد من قبل كابن للرب، قد اتخذ شكلاً بشرياً ومات على الصليب من أجل ذنوب العالم، وأقيم ورفع إلى المجد السماوي على يمين الرب، قد أصبح هو الرسالة المسيحية، ولدى قراءة العهد الجديد، يمكن للإنسان أن يفترض، بأن هذه كانت هي الرسالة الوحيدة التي جرى التبشير بها دوما، وأنه لم يكن هناك إنجيل آخر، ولكن هذا لم يكن هو الحال، فإذا أصغينا بعناية يمكننا أن نظل نسمع صوتاً أصيلاً أبكم كل جزء منه هو «مسيحي» مثله مثل صوت بولص، إنه صوت جيمس، يردد أصداء ما تلقاه من أخيه يسوع.

وإن أكثر الوثائق المهملة في جميع العهد الجديد، هي رسالة كتبت من قبل جيمس، فقد غدت هامشية إلى حد أن عدداً كبيراً من المسيحيين، لا يعرفون حتى بوجودها، ومع ذلك هي جزء من الكتاب المقدس المسيحي، وهي موجودة الآن بمثابة السفر العشرين من العهد الجديد، وقد أعيدت إلى المجموع، فهي قد تركت كلها تقريباً، وعندما بدأ المسيحيون في تحديد شرعية محتويات العهد الجديد في القرن الرابع، أي اتخاذ قرار قانوني حول أي الأسفار سوف تدخل في المحتويات، وأيها لن يجري شمولها آنذاك باتت قانونية رسالة جيمس، موضع سؤال، وقد

أقصيت ولم تدخل ضمن محتويات الـ Muratorian Fagment التي هي أقدم قائمة لمحتويات العهد الجديد، التي قبلت في روما على أنها كتابات مقدسة، في نهاية القرن الثاني[1]، وفي القرن الثالث ذكرها العالمان المسيحيان أورجين ويوسيبيوس ضمن الأسفار المختلف حولها[2]، لا بل حتى العالمان الغربيان المسيحيان جيروم وأوغسطين قد قبلا الرسالة، ولكن فقط مكرهين، ولحسن الحظ أنها أدخلت أخيراً ضمن الكتابات المقدسة القانونية للعهد الجديد.

وكان هناك سببان رئيسيان دفعا المسيحيين المتأخرين للتساؤل حول رسالة جيمس وتعلق السبب الأول بالذي قاله جيمس حول أخيه يسوع، وما لم يقله، فهو قد ذكر اسم يسوع، مرتين بصورة عابرة، ومن الممكن إزالة الإشارتين بكل سهولة، دون أن يؤثر ذلك على محتويات الرسالة، أو النقاط التي كان جيمس يصنعها «جيمس: 1/ 1، 2/ 1»، فضلاً عن هذا، ليس في الرسالة أية إشارة إلى رأي بولص، بأن يسوع كابن سماوي للرب، ولا موته التكفيري على الصليب، أو قيامته المجيدة، فكيف يمكن لوثيقة من العهد الجديد، ليس فيها مثل هذا التعليم من الممكن عدها حقاً «مسيحية»؟ والحقيقة الثانية هي التي تضع الرسالة في موضع عدم استحسان ووفاق مع بعض ما خالف به جيمس مباشرة تعليم بولص حول «الخلاص بوساطة الإيمان» من دون مبادئ الشريعة، وفي الوقت نفسه التمسك بقوة بطبيعة التوراة، وكذلك شرعيته الدائمة من ذلك قوله:

«ما المنفعة يا أخوتي إن قال أحد إن له إيماناً ولكن ليس له أعمال هل يقدر الإيمان أن يخلصه؟.... هكذا الإيمان أيضاً، إن لم يكن له أعمال ميت في ذاته» [جيمس: 2/ 14-17].

«ولكن من اطلع على ناموس الحرية، وثبت وصار ليس سامعاً ناسياً بل عاملاً بالكلمة فهذا يكون مضبوطاً في عمله» [جيمس: 1/ 25].

«لأن من حفظ كل الناموس وإنما عثر في واحدة فقط صار مجرماً في الكل» [جيمس:2/ 10].

وكان جيمس قد وجه رسالته هذه «إلى الاثني عشر سبطاً الذين في الشتات» [1/ 1]، وهذه إشارة مباشرة إلى «الاثني عشر سبطاً» من بني إسرائيل الذين كانوا متفرقين، والذين كان يسوع قد وعد الاثني عشر رسولاً بحكمهم، وتعكس الرسالة إطاراً ثقافياً يهودياً فلسطينياً مبكراً، من ذلك على سبيل المثال، أشار جيمس إلى الاجتماع المحلي، أو مجمع المسيحيين باسم «الكنيس» عاكساً بذلك فهمه للحركة، على أنها كانت جزءاً كاملاً من اليهودية «جيمس: 2/ 2»، ومع أن الرسالة قد كتبت بالإغريقية، على الأقل حسبما نمتلكها هذه الأيام إنها تعكس من الجانب اللغوي كثيراً من التعابير الآرامية والعبرية، وكشفت الأبحاث الحديثة عن وسطها اليهودي الفلسطيني[3].

والأكثر إثارة حول رسالة جيمس هو المحتوى الأخلاقي لتعليمها، حيث أنه نظير مباشر لتعليم يسوع الذي نعرفه من المصدر «ق»، والمصدر «ق» هو أقدم مجموعة لتعليم يسوع و أقواله، أرخها العلماء بحوالي العام / 50م/ وحسبما كنت قد بينت من قبل لم تبق هذه المجموعة كوثيقة كاملة، ولكن كل من متى ولوقا استخدماها بشكل واسع، ويمكننا بواسطة مقارنة كل من متى ولوقا، واستخراج المادة التي استخدماها معاً، لكن من دون استخراج من مرقص، نستطيع الوصول إلى بناء منطقي لهذا الإنجيل المفقود، الذي سميناه بإنجيل «ق»، فهو يحتوي على حوالي / 235/ مقطع، معظمها لكن ليس كلها تماماً، «أقوال» ليسوع، ويأخذنا المصدر «ق» إلى الخلف إلى التعليم الأصيل ليسوع، وهو ناقص لأن معظم الإطار اللاهوتي هو الذي أضافته الأناجيل فيما بعد[4]، ولعل السمة المدهشة أكثر من سواها، المتعلقة بالمصدر «ق»، بالنسبة إلى إعادة هيكلة المسيحية الأصيلة، هي أنه لا علاقة لها البتة مع لاهوت بولص،

خاصة مسيحيته، أو وجهة نظره حول المسيح.

والأجزاء المعروفة أكثر من سواها من المصدر «ق» بالنسبة إلى قـراء التـوراة، هو قداس متى على الجبل «متى: 5-7»، وقداس لوقا على السهل «لوقا:6»، والذي هو مدهش في رسالة جيمس وإن كانت مختصرة أن فيهـا مـا لا يقـل عـن ثلاثـين إشارة، وأصداء، وإيماءات إلى تعليم يسوع الموجـود في المـصدر «ق»، وقليـل مـن المقارنات المدهشة أكثر من سواها هي التالية:

تعليم يسوع في المصدر ق	تعليم جيمس
طوباكم أيها المساكين لأن لكـم ملكـوت الرب «لوقا: 6/ 20»	أما اختار الـرب فقـراء هـذا العـالم أغنياء في الإيـمان وورثـة الملكـوت «2/ 5».
فمـن نقـض إحـدى هـذه الوصـايا الـصغرى.....سـوف يـدعى أصـغر في الملكوت «متى: 5/ 19».	لأن من حفظ كـل النـاموس وإنـما عثر في واحدة فقـد صـار مجرمـاً في الكل «2/ 7».
ليس كـل مـن يقـول لي: يـا رب، يـا رب يدخل الملكوت..... بل الذي يفعل إرادة أبي. «متى: 7/ 21».	ولكـن كونـوا عـاملين بالكلمـة لا سامعين فقط. «1/ 22»
فكـم بـالحري أبـوكم.... يهـب خـيرات للذين يسألونه «متى:7/ 11».	كل عطية صالحة.... نازلة مـن عنـد الآب «1/ 17».
ولكن ويل لكم أيهـا الأغنيـاء لأنكـم قـد نلتم عزاءكم «لوقا:6/ 24»	هلم الآن أيها الأغنياء أبكوا مولولين على شقاوتكم القادمة «5/ 1».
لا تحلفـوا البتـة لا بالـسماء لأنهـا كرسـى الرب..... بل ليكن كلامكم نعـم، نعـم، لا، لا، «متى: 5/ 34، 37».	لا تحلفوا لا بالسماء ولا بالأرض ولا بقسم آخر، بل لـتكن نعمكـم نعـم، ولا كم لا «5/ 12».

وتمتلك رسالة جيمس ارتباطات أخرى مهمة برسالة يسوع ويوحنا المعمدان، فوق هذه التعاليم ذات السمات الأخلاقية، فقد كان جيمس يعرف حول ممارسة دهن المريض بالزيت، مثلما كان يسوع قد مارس، وعلم تلاميذه «جيمس: 5/ 14»، وكان كل من يوحنا ويسوع قد علما، أن حصول الإنسان على غفران الذنوب، و «التسويغ» أمام الرب يتحقق من خلال التوبة والصلاة، أي التوجه بالدعاء مباشرة إلى الرب، وقد كتب جيمس أن الاعتراف بالذنوب والصلاة، كانا الطريق إلى الخلاص «جيمس: 5/ 15-16»، ويتوافق هذا مع تعليم يسوع في المصدر «ق»، وروى يسوع حكاية حول رجلين كانا يصليان في المعبد، كان الأول بينهما رجلاً متفاخراً باستقامته، أما الآخر قد عدّ نفسه أنه لا يستحق شيئاً، ولا حتى رفع عينيه إلى السماء، وكان هذا الرجل يضرب على صدره ويصرخ قائلاً: «اللهم ارحمني أنا الخاطئ»، وبناء عليه أعلن يسوع «إن هذا نزل إلى بيته مبرراً دون ذاك» [لوقا: 18/ 14]، ويتماشى هذا ويتوافق مع التعليم العام للتوراه العبرانية، فيما يتعلق بغفران الذنوب، وذلك حسب تعبير المزمور قوله: «ارحمني يا رب حسب رحمتك، حسب كثرة رأفتك امح معاصيّ. اغسلني كثيراً من إثمي، ومن خطيتي طهرني» [المزمور: 51/ 1]. فاليهودية لا تعلم أن «الخلاص» هو بوساطة الفضيلة الإنسانية، وذلك كما يفترض أحياناً، بل بالحري يجري «التسويغ» لجميع البشر، بوساطة نعمة العثور على غفران ذنوبهم، بوساطة التوبة والصلاة، أي بالدعوة «باسم الرب» [يوئيل:2/ 32] لا بل إنه حتى التضحية بالحيوانات في معبد اليهود، لم تفهم قط على أنها تكفير، أو تغطية للذنوب، ما لم يتحول الانسان أولاً بالإيمان إلى الرب، ويسأل النعمة والغفران «المزمور: 51/ 16».

وتحتوي رسالة جيمس على الصلة الأكثر مباشرة بتعليم يسوع نفسه، وجيمس بشكل جوهري هو صدى عاكس وتثبيت للذي كان قد تعلمه وأجيز إليه من أخيه يسوع، الذي كان بدوره قد تعلم وسمع من يوحنا المعمدان، ومن

المهم أن نذكر أن جيمس لم يقتبس مباشرة من يسوع، أو عزا أياً من هذا التعليم إلى يسوع بالاسم، مع أن هذا التعليم هو تعليم يسوع، فبالنسبة إلى جيمس لم تكن الرسالة المسيحية هي شخصية يسوع، بل الرسالة التي أعلنها يسوع، وليس في رسالة جيمس أي شيء اتسم به تعليم الرسول بولص، وهو لم ينقل شيئاً البتة من الأثر الذي رواه مرقص، فالذي حفظ لنا في هذه الوثيقة الثمينة هو انعكاس الإنجيل الأصيل الذي جرى إعلانه من قبل يسوع، الذي هو «إنجيل ملكوت الرب»، مع مضامينه السياسية والاجتماعية الكاملة.

شهود آخرون

لقد بقي عدة شهود إضافيين إلى هذه الصيغة غير البولصية للديانة المسيحية ومن المدهش أن واحدة من هذه الشهادات، هي من عند الرسول يهوذا، الأخ الثاني ليسوع، ومثلما كان الحال بالنسبة لرسالة جيمس، تناقش رجال اللاهوت في القرن الرابع، حول عما إذا كان ينبغي إدخال رسالة يهوذا في العهد الجديد، ومع أنه جرى الإعلان أخيراً أنها جزء من الكتابات المقدسة، وضعت في آخر مجموعة العهد الجديد، ولم يحدث قط أن قرئت عبارة واحدة من رسالة يهوذا في أوساط قراءات القداسات الكاثوليكية، الرومانية، وسوف يصاب كثير من قراء التوراه في هذه الأيام بالدهشة، عندما يعلمون أننا نمتلك في الحقيقة في داخل العهد الجديد نفسه رسالتين صادرتين ليس عن واحد من إخوة يسوع بل عن اثنين منهما، وكان المصلح البروتستانتي مارتن لوثر، الذي كان من المنافحين المتحمسين عن الرسول بولص، قد حذف رسالتي جيمس ويهوذا من نهاية طبعته للعهد الجديد في العام 1522، مؤكداً أن الرسالتين أدنى بالمؤهلات «من بعض أسفار العهد الجديد»(5)، وقد علق بأن جيمس بشكل خاص كان «تلميذاً ضالاً»، وبذلك أشار إلى رأيه بأن الرسالة تقدم قليلاً من الغذاء الروحي.

ويرجح أن رسالة يهوذا تعود إلى العقود الأخيرة من القرن الميلادي الأول، وهو قد حذر قراءه من بعض «المتطفلين» الذين احتلوا أماكن بين الحركة، وحثهم على الصراع بإخلاص من أجل الإيمان الذي أجيز مرة وإلى الأبد» إلى المؤمنين الأصيلين «يهوذا: 3»، وكان الفعل الذي استخدمه يهوذا هنا هو «paradidomai» وهو يشير إلى الاجازة الرسمية لتقليد أصيل، وتتضمن عبارة «مرة وإلى الأبد» أنه لن يكون هناك تقليد تال سوف يحل محل التقليد الأصيل، ورأى يهوذا صراعاً مقبلاً على الطريق، وخشي من أن يفقد قراءه إبصار الرسالة الأصيلة ليسوع، وهو لم يحدد بالاسم الذين كانوا في ذهنه، ولكنه قال بأن مثل أولئك المعلمين قد حولوا فكرة «النعمة» إلى إجازة من أجل سلوك غير شرعي.

وتشارك كل من جيمس ويهوذا في النظرة الرؤيوية العامة في أن يسوع ويوحنا المعمدان قد أعلنا، وكتب جيمس بأن «قدوم الرب بات وشيكاً» وأن «القاضي واقف عند الأبواب» «جيمس: 5/ 8-9»، ونقل يهوذا عن سفر اينوخ الذي بقي في الأثيوبية، وبقيت قطعاً منه أيضاً في الآرامية بين مخطوطات البحر الميت، وكان اينوخ في الجيل السابع من آدم، وتبعاً لكتابه الرؤيوي تنبأ بأن «الرب قد وصل مع عشرة آلاف من قديسيه، لينفذ الحساب على الجميع، وليدين كل واحد عن جميع الأعمال غير الربانية التي اقترفوها»، والإشارة إلى «وصول الرب» كانت إلى «الرب الوحيد الذي هو مخلصنا»، فهذا ما عبر عنه يهوذا، وليس القدوم الثاني ليسوع «يهوذا: 25»، وعلى هذا كان الذي توقعه أولئك المسيحيون الأوائل قد اقتبس من الأنبياء العبرانيين، الذين كانوا قد توقعوا «قدوم» الإله الآب، يعني «يهوه»، وليس «القدوم الثاني» للمسيح، ولاحظ بعناية اللغة في النصوص التالية:

«ثم إن الرب (يهوه) إلهكم سوف يأتي وجميع القديسين معه» «زكريا:14/ 5».

«هوذا الإله (يهوه) الرب بقوة يأتي، وذراعه تحكم له، هوذا أُجرته معه وعُملته قدامه» «إشعيا: 40/ 10».

«لأنه هوذا الرب (يهوه) بالنار يأتي ومركباته كزويعة ليرد بحمو غضبه وزجره بلهيب نار» «إشعيا: 66/ 15».

وأشار جيمس ويهوذا إلى أخيهما يسوع باسم «الرب»، ولكنهما لم يستخدما اصطلاح «الإله الرب» في الإشارة إليه، بل كانت الإشارة إلى «معلمهم» المحترم الذي قدم حياته في سبيل قضية ملكوت الرب، والكلمة الإغريقية من أجل «رب» هي «kurios» وهي اصطلاح من أجل الاحترام، وهي قريبة بعض الشيء من كلمة «مولى sir» أو «سيد mister» في الاستخدامات الانكليزية القديمة.

وكان من بين الحركات المحورية التي صنعها بولص هي معادلة يسوع كـ «رب» مع نصوص وردت في التوراة العبرانية أشارت بصورة حصرية إلى «الإله الرب» لإسرائيل، أي جعل من يسوع بشكل فعال معادلاً لـ «يهوه»(6)، فعلى سبيل المثال كان الرب قد أعلن من خلال النبي أشعيا:

«التفتوا إليّ وأخلصوا يا جميع أقاصي الأرض لأني أنا الرب وليس آخر بذاتي أقسمت..... إنه لي تجثو كل ركبة، وسوف يحلف كل لسان بالإخلاص والولاء» «إشعيا: 45/ 2322».

وكان بولص قد اقتبس هذا المقطع بالذات، ولكنه بدّل ونقل إشارته إلى «الرب» يسوع كمسيح، وهكذا قال: «لكي تجثوا باسم يسوع كل ركبة ممن في السماء ومن على الأرض ومن تحت الأرض. ويعترف كل لسان أن يسوع المسيح هو رب لمجد الله الآب» «فيلبي: 2/ 10-11»، وكان هذا تغييراً هائلاً، أصبح في النهاية شائعاً تماماً بين المسيحيين الأرثوذكس، الذين بدأوا بسهولة يعادلون يسوع الناصري، الإنسان، مع الإله الرب لإسرائيل، وكان يسوع «رباً في جسد»، وتبعاً لذلك أصبحت أمه مريم «الأم المقدسة للرب»، وعلى الرغم من هذا، بما أن المسيحيين أصروا على أنهم موحدين، أي كانوا متعلقين «بالشيما، shema» التي

هي الاعتراف الكبير لليهودية، والتي نصها: «اسمعي يا إسرائيل، الإله ربنا، والرب واحد» باتت النتيجة لا يمكن النجاة منها، فإذا كان يسوع هو «الرب» حقاً، وأنه هناك رب واحد وليس ربان، عند ذلك هو ليس شيئاً أقل من تجسيد للإله الرب لإسرائيل، أو لنعبر عن الأمور بصراحة: لقد أصبح الرب إنساناً.

وغالباً ما استخدم بولص عبارات «يسوع المسيح» و «والرب يسوع المسيح»، وكأن اصطلاح مسيح، الذي كان اصطلاحاً إغريقياً للـ Messiah، أو الملك الداودي الممسوح، بات اسماً أصيلاً وليس لقباً للتمييز، ولقد كان مدركاً تمام الإدراك لادعاء يسوع بالنسب الداودي، لكنه تلاعب بهذا الجانب الذي شكل خلفيته «البشرية» وخفف من أهميته، وقد كتب إلى الكنيسة في روما يقول: كان مولانا يسوع المسيح «قد ولد من ذرية داود تبعاً للجسد» لكن كان قد أعلن عنه ابناً للرب بقوة «بوساطة القيامة من الموت» «1- الرومان:1/ 2-4»، وبالنسبة إلى بولص كل شيء «تابعاً للجسد» هو «أرضي»، وبناء عليه ليست له أهمية، ولذلك إن ادعاء يسوع بأنه مسيح داودي، هو هامشي بشكل جوهري، من أجل تأكيد وضعة «كابن سماوي للرب»، وهو مسيح سماوي، وإذا كان النسب الداودي ليسوع هكذا قليل الأهمية بالنسبة لبولص، فإن ادعاء جيمس إلى ذلك النسب كان سيعني ما هو حتى أقل.

وكان هذا شيئاً كان عدداً قليلاً من اليهود يمكنهم أن يقبلوه، ولم يحكم جيمس ويهوذا مع الأتباع الأصيلين ليسوع قط بمثل هذه الفكرة، فبالنسبة إليهم كان يسوع «المعلم» المحترم، والمسيح الممسوح، ثم إن يسوع نفسه، كان كيهودي مؤمن قد اعترف بالـ «Shema» ورفع من شأنها، وكأنها «وصية عظيمة» «مرقص:12/ 29»، واحتفظ إنجيل مرقص بواحد من أقوال يسوع في هذا المجال، حيث جاء رجل إلى يسوع وخاطبه: أيها «المعلم الصالح»، وعلى هذا أجابه يسوع قائلاً: «لماذا تدعوني صالحاً ليس أحد صالحاً إلا واحد وهو الله» «مرقص:

10/ 18» وكان يسوع قد أعلن عنه كملك على إسرائيل، وكان بالحقيقة قد أعدم بسبب الادعاء، قبل أن يتمكن من اعتلاء العرش الداودي، وبالنسبة إلى جميع الأنبياء العبرانيين، كان المسيح الداودي سيحكم من مدينة القدس، وليس في السماء، وكان هو الذي سوف يتولى جمع الأسباط الاثني عشر لبني إسرائيل ويجلبهم إلى الأرض المقدسة، بعد انتزاعهم من بعد جميع الأمم التي تشتتوا فيها، وهو الذي كان سيفتتح المرحلة العالمية للسلام والعدالة إلى الكون كله، وعبارة «ملكوت السماء» لم تشر إلى «ملكوت» في السماء، حسبما أوضحت الصلاة التي علمها يوحنا المعمدان ويسوع، تمام الإيضاح قولهما: «ليأت ملكوتك، لتتحقق إرادتك على الأرض مثلما تتحقق في السماء»، ومقابل هذا علم بولص بأن «القدس الأرضية» لم تعد لها علاقة، ولكن هناك واحدة روحية جديدة هي «القدس فوق» حيث يحكم المسيح الآن كملك «غلاطية: 4/ 26»، وبالنسبة لبولص إن شعب إسرائيل، ومدينة القدس، والمسيح الداودي تحولوا جميعاً من الواقع الحرفي إلى الرمزية، ومن الأرض إلى السماء، ويقف جيمس، ويهوذا، والمصدر «ق» بمثابة شهود لصالح صيغة الإيمان المسيحي، التي تعيدنا إلى المسيح نفسه، مع روابط تاريخية ثابتة توصلنا وتعود بنا إلى يوحنا المعمدان.

ولحسن الحظ هناك شهود آخرون قد ظهروا في الآونة الأخيرة، يسمحون لنا بأن نتتبع بوضوح أكبر هذا المسار المنسي خلال المسيحية المبكرة، ولعل الأكثر أهمية هو مصدر مفقود كان اسمه الديداتشي Didache، وقد اكتشف بعامل الصدفة في العام 1873، وذلك كما سلف لي وأوضحت في الفصل الثاني عشر[7]، وتعود هذه الوثيقة بتاريخها إلى بداية القرن الثاني للميلاد، أو ربما أبكر من ذلك، مما يجعلها من حيث القدم مثل بعض الأسفار الموجودة ضمن العهد الجديد القانوني، وهي في الحقيقة كادت أن تحقق بين بعض الأوساط المسيحية المبكرة، الوصول إلى الوضع القانوني.

ويتألف سفر الديداتشي من ستين إصحاحاً، وقد قصد منه أن يكون «مذكرة» من أجل المسيحيين المتحولين، وتعطي الإصحاحات الستة الأولى مختصراً حول المبادئ الأخلاقية المسائحية التي قد تأسست على تعليم يسوع، وهي مقسمة إلى قسمين:

حول طريق الحياة، وحول طريق الموت، وكثير من المحتويات مشابهة لما هو لدينا في القداس على الجبل، والقداس على السهل، يعني أسس المبادئ الأخلاقية لتعليم يسوع، مستقاة من المصدر «ق» الموجود الآن في متى ولوقا، وهي تبدأ «بالوصيتين العظيمتين»، في أن تحب الرب، وأن يحب الإنسان جاره كما يحب نفسه، ونص للقانون الذهبي وهو: «وكل ما لا تريد أن يحدث لك، لا تعمله للآخر»، وتحتوي على كثير من الوصايا الشائعة والنصائح، ولكن في الغالب مع إضافات ليست موجودة في أناجيلنا مثل:

«بارك الذي يلعنك، صلّ من أجل أعدائك، وصم من أجل الذين يضطهدونك» «1–3»

«إذا صفع أحدهم خدك الأيمن، فأدر الآخر له أيضاً، فذلك سوف يجعلك كاملاً» «1–4»

«أعط إلى كل واحد ما يطلبه، ولا تطلب استرداد أي شيء، لأن الأب يريد أن يعطى إلى كل واحد شيئاً من الأعطيات الكريمة التي أعطاها» «1–5».

وهناك الكثير من الأقوال، وجملة كبيرة من التعليم، مما ليس موجوداً في أناجيل عهدنا الجديد، ولكنها مع ذلك متماشية مع التقاليد التي نحن نعرفها من يسوع ومن أخيه جيمس أمثال:

«دع أعطية الإحسان تتعرق في يديك إلى أن تعرف إلى من تعطيها» «1–6».

«لا تكن صاحب رأيين، أو تتكلم من جانبي فمك، لأن الكلام من جانبي فمك هو فخ قاتل» «4-2».

«لا تكن إنساناً يمدّ يديه للتلقي، بل أعدهم إلى الخلف من أجل الإعطاء» «4-5».

«لا تبعد شخصاً محتاجاً، بل شارك في جميع الأشياء مع أخيك، ولا تقل عن أي شيء هو ملكك» «4-8».

ويوجد بعد النصائح الأخلاقية أربعة إصحاحات تتعلق: بالتعميد، وبالصوم، وبالصلاة، وبالقربان، وبالمسح بالزيت، والقربان في الديداتشي، حسبما كنا قد رأينا في فصلنا الثاني عشر، هو وجبة تقديم شكر بسيطة من الخمرة والخبز مع إشارات إلى يسوع على أنه «خمرة داود» المقدسة، وتنتهي بصلاة «الشكر إلى رب داود»، وعلى هذا جرى التأكيد على النسب الداودي ليسوع، وهناك إصحاحات أخيرة حول امتحان الأنبياء، وتعيين القادة الجديرين، ويحتوي الإصحاح الأخير على إنذارات حول «الأيام الأخيرة»، وحول قدوم نبي مخادع زائف أخير، وقيامة المستقيمين الذين كانوا قد ماتوا، وهو ينتهي بلغة مشابهة للغة التي تستخدم من قبل القاضي، ولكنها مأخوذة من زكريا ودانيال: «الرب سوف يأتي وجميع قديسيه معه» و «بعدها سوف يرى العالم الرب قادماً فوق غيوم السماء»، والإشارتان هنا كلتاهما إلى «يهوه» إله بني إسرائيل.

وتذكر محتويات كتاب الديداتشي ونغمتها الإنسان بقوة، بالإيمان والتقوى التي نجدها في رسالة جيمس، وبتعليم يسوع الذي نجده في المصدر «ق»، والأمر المدهش أكثر من سواه حول الديداتشي فيما يتعلق باصطلاحات وجود نمطين من التعليم المسيحي هما:

تعليم بولص، وتعليم أسرة يسوع، هو أنه لا يوجد أي شيء في هذه الوثيقة يتساوق مع إنجيل بولص، حيث ليس هناك يسوع رباني، ولا مسح من خلال

جسده ولا دمه، ولا ذكر لقيامة يسوع من الموت، ففي الديداتشي كان يسوع واحداً جلب معرفة الحياة والموت، ولكن ليس هناك أي تأكيد مهما كان نوعه على شخصية يسوع، بعيداً عن رسالته، وتأتي التضحية، ويأتي غفران الذنوب في الديداتشي من خلال الأعمال الصالحة والحياة المستقيمة «4-6».

ووثيقة الديداتشي هي شاهد دائم إلى جانب شكل الإيمان المسيحي، الذي يمكن تتبعه بالعودة مباشرة إلى يسوع، وهو الإيمان الذي حمله وجرى تخليده من قبل: جيمس، ويهوذا وبقية الرسل الاثني عشر.

جيمس ويسوع

لا يوجد دليل على أن جيمس قد عبد أخاه، أوعدّه ربانياً، وقد جاء تأكيده في رسالته ليس على شخص يسوع، بل على الذي علمه يسوع، وبناء عليه يمكننا أن نتساءل: ما الذي كان رأي جيمس حول أخيه؟ لقد آمن جيمس بأن الرب قد مسح يسوع ليكون مسيحه الداودي، ثم إنه فهم مثلما فعل يسوع أن آلام الإنسان المستقيم، لا بل حتى آلام المسيح وموته، يمكن أن يكون قدره ونصيبه، فيوحنا قد قطع رأسه، ويسوع قد صلب وعدد كبير من قادة بني إسرائيل، قد ماتوا في الأيام الخالية ميتات عنيفة على أيدي أعداء أشرار، وفي إحدى النقاط من رسالته، قام جيمس بتعنيف الذين كانوا أصحاب سلطة وثراء، الذين يظلمون الفقراء، ووجه تهمة خاصة ومحددة ضد مؤسسة أيامه قائلاً: «حكمتم على صدّيق قتلتموه لا يقاومكم» [جيمس: 5/ 6]، وجاء استخدام جيمس لاصطلاح محدد هنا وهو «صدّيق»، على درجة كبيرة من الأهمية، ففي التفكير التوراتي هناك مفهوم «صديق» ومعناه «مستقيم» أو «عادل»، ومثل هذا الانسان يمكن أن يكون يهودياً أو من الأميين، ملكاً أو فلاحاً، نبياً أو مسيحياً، وفي اليهودية يشير مفهوم «صديقي الأمم» إلى أي واحد من جميع بني البشر، الذي يستلم طرق الرب في الاستقامة،

والحب، والعدل، وكان معاصرو جيمس قد أعطوه كما كنا قد رأينا لقب العادل، وعندما أشار جيمس هنا إلى إدانة السلطات، وقتلها «للصدّيق» الذي لم يقاومهم، كان يقصد كما أعتقد أخاه يسوع، فهو قد كان في ذهنه، ولكن لم يكن أخاه يسوع لوحده صديقاً، ولكن كان يوحنا المعمدان مثل ذلك، وكان يسوع قد أخبر الاثني عشر، وهم على طريقهم إلى القدس، أن عليهم جميعاً، حتى يتبعوه «أن يحملوا صليباً»، وأن يشغلوا الدور نفسه، الذي رأوه يشغل، هو شخصياً أي المعاناة في سبيل الاستقامة، وكان جيمس قد أنهى حياته كشهادة على الفكرة نفسها وقد تكلم بصوت مرتفع، وعارض جميع الشرور ووقف ضدها، لكنه واجه بعد ذلك كل ما استوجبته الرسالة من اضطهاد أو آلام، ورأى جيمس في يسوع نموذجاً جديراً بالاتباع، وسعى جيمس كخليفة ليسوع أن يضاهي إيمان يسوع، وأن يتماشى مع تعليمه الأخلاقي، ومع شجاعته في وجه الشرور.

وتناقش المسيحيون واليهود مؤخراً حول عما إذا كانت نبوءة آلام العبد في إشعيا / 53/ كانت تشير إلى يسوع أو إلى شعب إسرائيل، وأنا أعتقد أن الجواب الذي كان سيعطيه جيمس هو الجواب الذي كان يسوع قد أعطاه، وهو: إن الطريق مفتوح إلى كل من يرغب بالاتباع، وذلك بإرادته، فيذهب «إلى الصليب»، فيصبح مثل هذا، عبداً متألماً، لكن هذا كان واحداً بين كثيرين، بين «صديقين» لا يحصون عدداً خلال الأجيال، قد أعطوا حياتهم بشجاعة في سبيل قضية الاستقامة والعدل، وكان جيمس قد نقل مرة نصاً عن الأنبياء العبرانيين يلح على أهمية «إعادة بناء خيام داود»، يعني إعادة تأسيس خط النسب الداودي المسائحي، وهو الذي كان هو مع إخوته يمثلونه الآن، كما جاء في القول: «سأرجع بعد هذا وأبني أيضاً خيمة داود الساقطة وأبني أيضاً ردمها وأقيمها ثانية لكي يطلب الباقون من الناس يهوه وجميع الأمم الذين دُعي اسمي عليهم» «أعمال:15/ 16-17»، وكان هذا هو التراث المعطاء الدائم لأسرة يسوع الحاكمة.

الفصل الثامن عشر

نهاية الزمان

تولى جيمس قيادة أتباع يسوع عند موته في العام / 30م/ وحكم من مدينة داود في القدس، لمدة الثلاثة عقود المقبلة، وينبغي أن لا نتفاجأ لدى معرفتنا أن أعداءه الأساسيين، كانوا هم أنفسهم الذين تولوا إعدام أخيه، يعني أسر الكاهن الأعلى من الصدوقيين، الذين كانوا مسؤولين عن المعبد، ومن المؤكد أنه من سخرية القدر في التاريخ أن يكون الكاهن الأعلى حانان بن حانان الذي ترأس محاكمة يسوع، هو وراء قتل جيمس، وكان ذلك أيضاً في موسم عيد فصح اليهود في العام 62م، وقصة ما حدث هي واحدة من أكثر قصص التآمر لذلك الزمان.

ويوسيفيوس هو أفضل مصدر تاريخي لدينا من أجل موت جيمس، ولشهادته قيمة عالية جداً، مقدرين أنه كان معاصراً لجيمس، وأنه هو شخصياً كان قد ارتقى إلى مكانة الأهمية في المجتمع اليهودي، وتبعاً ليوسيفيوس كان حانان الأصغر سريع الغضب وجريئاً بشكل غير معهود، وكان لا يعرف الرحمة في حكمه على أي واحد وقف ضده، وكانت اليهودية في ذلك الوقت ما تزال تحكم مباشرة من قبل حاكم روماني، ولكن الامبراطور كلوديوس وضع المتبقي من البلاد تحت حكم آخر حكام الأسرة الهيرودية، وهو هيرود أغريبا الثاني الذي كان حفيداً لهيرود الكبير، وكان عندما مات الحاكم الروماني فيستوس Festus وكان

ألبينوس Albinus بديله على طريقه من روما، انتهز حانان الفرصة التي توفرت واستفاد منها بأن أمر باعتقال جيمس وبجلبه إلى أمام السنهدرين، الذي كان تحت إشرافه وإشراف أتباعه، وقد اتهم جيمس مع بعض الآخرين، من المفترض من الناصريين، بخرق الشريعة اليهودية، وأرسلهم ليرجموا، وتستحق كلمات يوسيفيوس الاقتباس:

«هو (حانان) جمع قضاة السنهدرين، وجلب أمامهم جيمس أخا يسوع (المدعو مسيحاً) مع بعض الآخرين، واتهمهم بخرق الشريعة، وأرسل بهم إلى الرجم، والذين كانوا يسكنون المدينة وكانوا يعدون الأكثر اعتدالاً في عقولهم، والذين كانوا يرعون الشريعة ويلتزمون بها بكل دقة، قد غضبوا كثيراً من هذا»[1].

ومن المؤكد أهمية أن يوسيفيوس، الذي كان فريسياً، ولم يكن عضواً في الحركة الناصرية، لم يدون فقط خبر جيمس، بل قد عرف أن جيمس كان أخاً ليسوع، وقد ذهب وفد من أعيان سكان القدس اليهود إلى قيسارية، حيث كان أغريبا الثاني عاقداً محكمة، واشتكوا حول مقتل جيمس، لا بل إن بعضهم ذهب حتى إلى مقابلة ألبينوس، الذي كان آخذاً طريقه من الاسكندرية، وغضب ألبينوس غضباً شديداً، وكتب إلى حانان يتهدده بالعقوبة، وفي الوقت نفسه جرده أغريبا من الكهانة العظمى التي شغلها لمدة ثلاثة أشهر فقط، وكان هذا كله بسبب حركته ضد جيمس.

وكان يوسيبيوس، المؤرخ المسيحي من القرن الرابع، الذي عاش في فلسطين، قد ادعى بأن يوسيفيوس قد ذكر جيمس مرة أخرى في نص متأخر، قام بنقله وهو قوله: «ووقعت هذه الأشياء لليهود انتقاماً لجيمس العادل الذي كان أخاً ليسوع «الذي دعي مسيحاً»، لأن اليهود قد قتلوه على الرغم من استقامته الكبيرة»[2]، ومع أن هذا النص ليس موجوداً في نسخنا من يوسيفيوس العائدة إلى أواخر القرن الرابع عشر، من المحتمل أنها أصيلة، لأنها كانت معروفة أيضاً لدى

أورجين، الذي كان عالماً مسيحياً من القرن الثالث، و «الأشياء» التي أشار إليها يوسيفيوس في ذلك الإطار، هي الأحداث التي أحاطت بالثورة اليهودية، والتدمير الروماني للقدس في العام 70م.

ولدينا أيضاً رواية مفصلة أخرى حول موت جيمس، من لدن حجيسيبوس Hegesippuss الذي كان كاتباً مسيحياً يهودياً من القرن الثاني[3]، حيث كتب: «كان هو «جيمس» في اعتقاد جميع الناس، أنه الأكثر استقامة»، وبناء عليه دعي باسم «العادل» من قبل جميع الناس منذ أيام يسوع حتى أيامه[4]، وأضاف حجيسيبوس تفاصيل أخرى من المحتمل كثيراً أنها كانت صحيحة تاريخياً، فهو قد كتب بأن جيمس كان «مقدساً من رحم أمه»، وكان مثل قريبه يوحنا المعمدان لم يشرب أية خمرة، ولم يأكل أية لحم، وروى حجيسيبوس بأن جيمس قد ارتدى ثوب كاهن، وصلى بشكل متواصل في المعبد، جاثياً وقتاً طويلاً حتى أن ركبتيه صارتا قاسيتين مثل ركبتي جمل، وتبعاً لما رواه حجيسيبوس كان جيمس يصلي بشكل متواصل من أجل الغفران للناس، وأكد إيبيفانيوسEpiphanius، الذي كان كاتباً مسيحياً من القرن الرابع، أن جيمس، قد مارس بحكم انحداره من داود الكهانة لصالح جماعته، وكان يدخل إلى المناطق المقدسة، التي كان يمكن للكهنة فقط أن يدخلوا إليها، وعمل «ككاهن أعلى» لأتباعه[5]، وكنا قد رأينا في الفصل الثاني، بأنّ مريم: أم يسوع، وجيمس قد مثلت كلّاً من الأسرة الملكية الداودية، ومثل ذلك أسرة الكهنة المنتسبين إلى هارون، وهناك تقليد قديم في التوراة العبرانية بأن «بني داود كانوا كهنة» [2-صموئيل: 8/ 18]، وقد تشير هذه التقاليد القديمة إلى أن أتباع جيمس قد نظروا إليه، أنه شغل الدور الكهنوتي وأنه كان يمثل جماعته من الناصريين في المعبد، ومثل ذلك الدور الملكي الداودي.

وقدم كل من حجيسيبوس وإيبيفانيوس تفاصيل أكثر حول كيف وقع موت جيمس، وقد ذكرنا أنه قبل أن يرجم جيمس رمي من فوق الجدار الجنوبي الشرقي

لمجمع المعبد، وأنه سقط في وادي قدرون، وهو في الرمق الأخير، فرجم وقتها، وضرب بعصا حتى الموت، وروى إيبيفانيوس أن شمعون بن قيلوفا» أخا جيمس، والأخ غير الشقيق ليسوع، كان موجوداً أثناء القتل، وقد حاول أن يتدخل، وقد ذكرا أن جيمس قد دفن في تلك المنطقة، ليسن بعيداً عن المعبد نفسه، وادعى حجيسيبوس أن موضع القبر كان معروفاً في أيامه، وما تزال الكتلة الحجرية الضخمة للزاوية الجنوبية الشرقية لمجمع بناء معبد هيرود، في مكانها حتى هذا اليوم، وهي تطل على وادي قدرون، إلى الشرق من جبل الزيتون، مع كثير من مقابرها القديمة، وذلك إلى الجنوب من مدفن الكفن، حيث قدرون يلتقي بوادي هنوم، وإذا كنت أنا مصيباً، كان يسوع قد صلب خارج السور الشرقي للقدس، وأنه مات هو وأخوه جيمس على قرب كبير بالمكان من بعضهما بعضاً، كما ماتا كلاهما أثناء الاحتفال بعيد الفصح اليهودي، على أيدي أسرة حانان الكهنوتية.

وقد اعتقد حجيسيبوس بأن موت جيمس كان مثل موت يسوع تحقيقاً لنبوءة، وكان هذا رأياً شائعاً بين المسيحيين الأوائل، وغالباً ما أشاروا إلى الترجمة الإغريقية لإشعيا 3/ 10، التي نصها: «دعونا نربط العادل، لأنه عبء علينا»، ومثير للارتعاش أن نلاحظ أن جيمس نفسه، قد كتب في رسالته، وفي ذهنه الموت الوحشي لأخيه يسوع يقول:

«حكمتم على البار قتلتموه، وهو لم يقاومكم» [جيمس: 5/ 6]، ويرجح أنه لم تكن لديه أدنى فكرة، حول كيف ستتحقق هذه النبوءة فيما يتعلق بوفاته.

وإن إحدى العناصر المهمة في رواية حجيسيبوس – مع أنها محيرة – هي تأكيده على أن السلطات التي أدانت جيمس طلبت منه أن يخبرها «ما الذي كانه باب يسوع»، وبدت هذه العبارة قليلة التماسك وغير مفهومة بالنسبة للعلماء، لكنني أعتقد أنها تقدم سوء فهم أو تصحيفاً لرواية آرامية قديمة أو عبرية، فاسم «يسوع» بالعبرية هو «يشوا yeshuah» وكلمة «خلاص» هي أيضاً «يشوه

yeshuah»، والتفوه بهما هو نفسه، وكتابتهما هي نفسها تقريباً، فإذا كانت السلطات سألت جيمس «ما الذي كانه باب الخلاص»، فإن التغيير يجعل العبارة معقولة، وتبعاً لحجيسيبوس، لقد أرادوه أن يخبر الناس، الذين كانت أعداد متزايدة منهم تؤمن بيسوع «أن لا يخطئوا حول ما يتعلق بيسوع»، فإذا كان جيمس قد قام خلال ما يزيد على ثلاثين عاماً بالإعلان بأن أخاه كان بمثابة باب الخلاص، فوقتها يكون قد أجاب على سؤال المطالبين، وهكذا إن الطلب من الجماهير الإقلاع عن اعتقادها بيسوع ضعيف وغير معقول، فلقد كان جوابه كاشفاً، فتبعاً لحجيسيبوس كان رد جيمس: «لماذا تسألونني عما يتعلق بابن الإنسان؟ هو سوف يأتي في غيوم السماء»، وطبعاً كان حجيسيبوس مقتنعاً تماماً بأن جيمس قد أشار إلى يسوع كـ «ابن الإنسان»، لكن لم يكن ذلك بالضرورة هو الحال، وإذا كان هذا، ففي الحقيقة كان جواب جيمس حول «باب الخلاص»، وأنه أشار إلى «ابن الإنسان قادماً في غيوم السماء»، كان بكل دقة يردد صدى ما كان يسوع قد أخبر به قيافا أثناء استجوابه في محاكمته قوله: «سوف تبصرون ابن الإنسان آتيا في سحاب السماء» «مرقص:14/ 62»، وحسبما كنت قد بحثت من قبل، تأسس هذا على دانيال: 7/ 13-14، في أن هذا «القدوم لابن الإنسان في سحاب السماء» قد مثل لدى المسيحين الأوائل ليس قدوم يسوع، بل انتصار شعب الرب، تماماً مثلما جرى التفسير بالنسبة لدانيال.

شمعون يتولى مسؤولية استمرار الأسرة الحاكمة

روى يوسيبيوس أنه بعد موت جيمس في العام 62م، اجتمع الذين بقوا من الرسل مع الذين تركوا من أسرة الرب، وتشاوروا مع بعضهم، حول من الذي سوف يخلف جيمس، وكتب يوسيبيوس «أنهم قرروا كلهم بالإجماع أن شمعون بن كلوفاس Clophas كان جديراً بالعرش»(6)، وذكر يوسيبيوس أن

كلوفاس هذا كان قد ورد ذكره في إنجيل يوحنا، وأنه كان أخاً ليوسف، زوج مريم، وهكذا امتلك أيضاً نسباً داودياً، وكما كنت قد حاججت في الفصل الرابع، هناك دليل جيد على أن كلوفاس، كان من الناحية القانونية عم يسوع، وأنه كان الزوج الثاني لأمه مريم، وأن ذلك تأسس على قانون زواج الأخ من أرملة أخيه المتوفى، وكان يوسيبيوس قد كتب في القرن الرابع للميلاد، لكنه أسس معلوماته على كتابات حجيسيبوس، الذي أعادنا إلى القرن الثاني للميلاد، وهو تاريخ أقرب كثيراً إلى زمن ولاية شمعون.

ويمكننا أن نفترض أن بطرس كان ما يزال حياً، عندما مات جيمس، وبما أن بطرس كان واحداً من الوسط الداخلي ليسوع، وأنه خدم بمثابة «الساعد الأيمن» لجيمس وبحكم أنه كان واحداً من «أعمدة» الحركة، لمدة تزيد على الثلاثين عاماً، كان يمكننا أن نتوقع توليه قيادة الجماعة، إنما إقدام الرسل على اختيار شمعون، يظهركم كانت مهمة أسرة يسوع في تفكيرهم، لكن ماذا عن بطرس؟ وما الذي نعرفه عنه؟

ولسوء الحظ أن لدينا قليلاً من المادة التاريخية المعتمدة، فيما يتعلق ببطرس منذ وفاة يسوع إلى وفاة جيمس، وهناك قليل من القصص المبكرة حوله في كتاب الأعمال، وكذلك رسالتان في العهد الجديد معزوتان إلى بطرس، لكن هذه المصادر مثقلة كثيراً جداً بنفوذ وتأثير بولص اللاهوتي، إلى حد أن الصوت الأصيل لبطرس قد ضاع، وفي كتاب الأعمال، لقد تكلم بطرس، وعمل، وامتلك الأفكار نفسها مثل بولص، لا بل حتى «قداساته» هي نظيرة لقداسات بولص: التفكير من أجل التفكير. ومن الممكن بسهولة استخراج العناصر البولصية من رسالتي بطرس، وخاصة رسالة بطرس الأولى، ونجد لباً، ربما كان أصيلاً، ولكن الإجراء غير موضوعي تماماً، وأفضل شيء نستطيع أن نفعله أن نؤمن بالذي قاله بولص، في أن بطرس كان متحالفاً مع جيمس، وبناء عليه يمكننا أن نفترض أنه شارك في

التراث المعطاء لأسرة يسوع، وصادق عليه، وبشر برسالته، وهي الرسالة التي كان هو أيضاً قد تسلمها من يسوع.

وفي إنجيل متى كان يسوع قد أخبر بطرس أنه سوف يعطى «مفاتيح الملكوت»، الأمر الذي اتخذته الكنيسة الكاثوليكية الرومانية على أنه إشارة، بأنه قد وضع مسؤولاً عن حركة يسوع، ولكن ليس لدينا ما يشير إلى أن هذا كان هو الحال، «متى 16/ 19»، فالانتقال من يسوع إلى جيمس ثم إلى شمعون، ظاهر أنه موثق بشكل جيد، وبناء عليه ما الذي كانته مفاتيح الملكوت؟ إن الصورة صورة توراتية، مأخوذة من سفر إشعيا، حيث وعد الرب إلياقيم بن حلقيا بقوله: «واجعل مفتاح بيت داود على كتفه، فيفتح وليس من يغلق، ويغلق وليس من يفتح» «إشعيا: 22/ 21-22» ولم يكن إلياقيم ملكاً، بل كان موظفاً رئيسياً على بطانة الملك حزقيال، الذي حكم في القرن الثامن قبل الميلاد «2-الملوك: 18/ 18»، وكان حزقيال من سلالة داود، وكان المعطى «مفاتيح داود» مثل «رئيس الموظفين» في بيت ملكي، أو المتولي للإدارة، فالذي كان يسوع قد وعد بطرس به، هو أن يكون المحتل لمنصب الساعد الأيمن في المسؤولية، وهذا ما فعله في خدمة جيمس، الذي كان من بيت داود، وتبعاً لبولص كان جيمس قد قرر أن تكون الوظيفة الأساسية لبطرس هي أن يعمل كأستاذ، يحمل رسالة يسوع إلى الجماعات اليهودية الموزعة في جميع أرجاء العالم الروماني «غلاطية: 2/ 7»، ويظهر أن بطرس قد قام مع إخوة يسوع بالسفر بصورة منتظمة، آخذين زوجاتهم معهم، إلى مختلف مناطق الإمبراطورية الرومانية [1-كورنثا: 9/ 5]، فرسالة بطرس الأولى كانت موجهة إلى المنفيين اليهود في «الشتات» «أي يهود كانوا يعيشون خارج أرض إسرائيل» في مقاطعات آسيا الصغرى أي «بنتش، وغلاطية، وكبدوكية، وآسيا الصغرى، وبيثينية»، ويمكن للإنسان أن يفترض أن هذه كانت بعض المناطق التي سافر بطرس إليها.

وهناك أثر مروي بأن بطرس قد مات هو وبولص جنباً إلى جنب في روما، أيام حكم نيرون، وقال يوسيبيوس بأن بولص قد صلب، ولكن هناك أسطورة حققت انتشاراً كبيراً بأنه قد أصر على أن يصلب معكوساً على صليبه، لأنه لم يكن جديراً بأن يموت وفق الطريقة نفسها التي مات فيها يسوع[7]، ومن الصعب معرفة كم من الوزن من الممكن إعطاؤه إلى هذا الأثر المروي على أن بطرس قد مات في روما، بما أن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية قد صنعت فيما بعد هذا الادعاء، وجعلت من بطرس أسقفها الأول أو البابا، وعلى الإنسان أن يتساءل عما إذا كانت الحكايات حول بطرس كشهيد في روما، كانت لاهوتية أكثر منها تاريخية، وكنت قد ذكرت من قبل الناووس الذي عثر عليه فوق جبل الزيتون، وقد نقش عليه الاسم الكامل لبطرس بالآرامية وهو «شمعون باريونه»، وهذا الاسم، عدا عن ذلك، ليس معروفاً في أي من المدونات اليهودية، وسواء أكان بطرس أم لم يكن، يرجح أن القدس كانت مكان الراحة بالنسبة لبطرس، وذلك في المنطقة حيث جرى دفن: يسوع، وجيمس، وجميع أفراد أسرة يسوع.

وجدير بالذكر أن يوسيبيوس وإبيفانيوس قدما قائمة مستقلة بأسماء الذين خلفوا جيمس العادل[8]، ودونا معاً أن شمعون كان هو الثاني، وكتب أولها اسم يهوذا على أنه كان الثالث، ثم استمرا مع القائمة حتى ذكرا اثني عشر رجلاً، قالا بأنهم أداروا شؤون كنيسة القدس بالتعاقب حتى حكم الامبراطور هدريان «135م»، والمشكلة هي أننا نعرف بأن شمعون نفسه استمر في حكمه حتى العام 106م على الأقل، عندما صلب من قبل الإمبراطور تراجان، لأنه منحدر بنسبه من داود، ومن الصعب أن يتصور الإنسان أن ثلاثة عشر رجلاً مختلفين، قد تولوا بالتعاقب المسؤولية خلال الخمسة والعشرين عاماً التالية، والأكثر احتمالاً هو أن هذه القائمة الحاوية لأسماء اثني عشر رجلاً، تمثل «مجلس الاثني عشر»، الذين شغلوا منصبهم كجماعة، اتباعاً للقاعدة التي كان يسوع قد أسسها[9].

ولأسماء هؤلاء الاثني عشر أهمية كبيرة، حيث لدينا بعد جيمس شمعون، وبعد يهوذا لدينا: زكريا، وطوبيه، وبنيامين، ويوحنا، ومتى، وفيليب، وسينيكوسsenikus، ويوستوس justus، ولاوي، ووافرس vaphres، ويوسي، ويهوذا، ومن المحتمل تماماً أن ما بعد الأخير كان يوسف الأخ المتبقي ليسوع، حيث كان ما يزال يجري تذكره بلقبه غير الاعتيادي، الذي حفظه مرقص، وهو يوسي أو يوستوس ومن المحتمل أيضاً أن يوحنا، ومتى، وفيليب، كانوا الشيوخ المسنين، وكانوا بالأصل أعضاء أصيلين من الاثني عشر الذين كانوا قد اختارهم يسوع، ولدينا أثر مروي موثوق، بأن يوحنا، قد عاش بشكل خاص، حتى تجاوز المائة عام كثيراً[10].

وتقول «الأعراف الدستورية» التي رويت في كتابنا ديداتشي، مع أنها صنفت في وقت متأخر كثيراً هو القرن الرابع، بأن الشخص الثالث في هذه القائمة، أي يهوذا، كان هو الذي خلف شمعون، وهو كان أيضاً الأخ الثالث ليسوع، وإمكانية ذلك محتملة كثيراً، في أنها تمكننا من تعقب أسرة يسوع الحاكمة من خلال أربعة إخوة متعاقبين هم: يسوع، وجيمس، وشمعون، ويهوذا، ولكن على الإنسان أن يتساءل حول الاحتمالات التاريخية، وأن ذلك كان بالفعل هو الحال، فإذا كان شمعون قد صلب في ظل حكم تراجان في حوالي العام 106م، وأنه كان، وفقاً لما رواه إيبيفانيوس، قد تجاوز المائة عام من عمره في ذلك الوقت، فهل من المحتمل وقتها أن أخاً أصغر، هو يهوذا، لربما تولى الأمور من بعده؟ ولكن ألم يكن وقتها متقدماً كثيراً في سنه؟

والذي لا نعرفه هو أعوام ولادة إخوة يسوع، ومن المحتمل أنه انقضت أعوام كثيرة بعد ولادة يسوع في العام الخامس قبل الميلاد، حتى ولد جيمس ثم الآخرون، فلربما كانت مريم شابة في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة، عندما كان لديها يسوع، وفي الحقيقة إذا كان الآخرون أولاد قيلوفا وليس يوسف، يمكن

للإنسان أن يسمح بمرور برهة من الزمن امتدت من زواج يوسف من مريم حتى موته، ويظهر أن يوسف قد اختفى من على مسرح الأحداث، في الوقت الذي كان فيه يسوع بالغاً في سن الثلاثين، وبما أن جيمس قد أشير إليه باسم «الأصغر» «مرقص:15/ 40» عندما كان مراهقاً: وهو ربما في عشريناته، فذلك يعني أن مريم أنجبت أربعة إخوة وأختين عندما كانت في عشريناتها، وهذا بالتأكيد يجعل الأمور معقولة بعض الشيء، وذلك بجعل ميلاد جيمس في حوالي العام الخامس بعد الميلاد، مع البقية وقد تبعوه، وعلى هذا كان في أواخر خمسيناته عندما مات في العام 62م، ومن الممكن وقتها أن شمعون كان في قرابة المائة من عمره عندما صلبه الإمبراطور تراجان، وذلك حسب ادعاء إيبيفانيوس، وعند ذلك تكون الأمور مفهومة، على الرغم من هذه التواريخ غير المؤكدة، يعني أن يهوذا الأخ الثالث ليسوع قد جرى اختياره مع أنه كان في التسعين من عمره لحمل مسؤوليات أسرة يسوع الحاكمة بعد وفاة شمعون، وذلك بسبب التشريف الكبير والاحترام الذي كان لدى أولئك المسيحيين المبكرين نحو الأسرة الملكية، ومن المحتمل كثيراً أن الأخ يوسي، أو يوسف، الذي توجب أن يكون الثاني في الخط حتى يخلف جيمس كان ميتاً، في الوقت الذي تولى فيه شمعون القيادة.

ونحن ببساطة لا يمكننا أن نعرف، مع بعض اليقين، فيما إذا كانت أسرة يسوع الملكية، بما في ذلك أولاد إخوته وأخواته وأحفادهم، كانوا يشرفون من قبل المسيحيين الأوائل، استمراراً حتى القرن الثاني للميلاد، مع أنهم كانوا تحت المراقبة والمطاردة من قبل أعلى المستويات في الحكومة الرومانية في فلسطين.

الأسرة الحاكمة الأخرى

كانت العقود الزمانية لأربعينات، وخمسينات، وستينات القرن الأول للميلاد، في فلسطين وفي الامبراطورية الرومانية على اتساعها، أعوام فوضى،

وعدم استقرار، مع عدم هدوء سياسي، وعنف، وثورات، وحروب، ولا شك أن هذا وفر عودة – في فلسطين خاصة – لتجدد الحمى المسائحية، بشكل لم ير له نظير من قبل، ومن البديهي كما يظهر أن جميع الذين كانت لديهم أعين وآذان نحو ما كان الأنبياء العبرانيون قد توقعوه في «الأيام الأخيرة» باتت وشيكة، وأن ملكوت الرب، الذي كان متوقعاً حضوره منذ وقت طويل، آخذ بالاقتراب بسرعة.

وكانت روما قد حكمت من قبل أسرة يوليو كلوديان Julio-claudian، التي كانت سلسلة متعاقبة تشكلت من أول خمسة أباطرة، بداية مع أغسطس، ونهاية مع نيرون، وبذلك امتد حكمها من العام 27ق.م إلى العام 68م، وعلى الرغم من جميع المحاولات لإنشاء سلسلة قانونية من النسب، ما من اثنين من هؤلاء الأباطرة الخمسة امتلكا القرابة كأب وابن، فقد كان أغسطس «27 ق.م إلى 14م» ابناً متبنى من قبل خاله الكبير يوليوس قيصر، الذي اغتيل في العام 44 ق.م، وكان تايبيروس «14–37م» الذي خلف أغسطس ابناً لزوجته الثانية ليفياLivia، ولكن من زوج سالف، ولذلك لم تكن هناك قرابة بينهما، وكان فقط قبل أن يموت أغسطس أجاز الحكم إلى تايبيروس، الذي كان قد تبناه كابن له، وكان حكم كل من أغسطس وتايبيروس طويلاً نسبياً وهادئاً، مع درجة جيدة من ازدهار الإمبراطورية وتوسعها، ومات كلاهما في سن متقدمة بسبب عوامل طبيعية، ولكن قد قُدر لكل شيء أن يتغير على الفور.

وكان كاليغولا Caligula «37–41» حفيداً لأغسطس، كما كان ابناً متبنى من قبل تايبيروس، وكان كاليغولا مصاباً بجنون العظمة، وهو الذي أعلن عن نفسه «رباً» وتزوج من أخته دروسيلا Drasilla، وقتل عدداً لا يحصى من أعضاء مجلس الشيوخ، وعدداً من أفراد الارستقراطية الرومانية، وأمر في العام 41م بنصب تمثال لنفسه في المعبد في القدس، وقام بيترونيوس Petronius الذي كان حاكماً لسورية، والذي أمر بتنفيذ الأمر بتأخير العملية عن قصد، عارفاً بأنها

لأهميتها سوف تطلق شرارة ثورة يهودية على مستوى عام، وفي الوقت نفسه، قام حراس قصر كاليغولا باغتياله، وأصبح كلوديوس «41-54م» الذي كان عما «خالاً» لكاليغولا، وابنا متبنى لتايبيروس، إمبراطوراً، وقد نصب بالفعل من قبل الذين كانوا قد اغتالوا كاليغولا، وقد كان حكمه طويلاً نسبياً ومستقراً مقارنة بحكم كاليغولا، غير أنه أمر اليهود بمغادرة مدينة روما، رداً على عدم الاستقرار المتزايد والحمى المسائحية بين مختلف المجموعات اليهودية، وقامت أغريبينا Agrippina الزوجة الرابعة لكلوديوس بقتله بدس السم له، في سبيل إيصال ابنها نيرون، الذي كان كلوديوس قد تبناه، إلى السلطة، وتحكمت أغريبينا بنيرون «54-68م» وأشرفت عليه بشكل محكم إلى أن تمكن أخيراً من تدبير ضربها حتى الموت، بناء على تحريض خليلته بوبيا poppaea، التي بدأت تحكم من وراء الكواليس، وكانت الأعوام الأولى من حكم نيرون مستقرة بعض الشيء، لكن الأعوام الأخيرة قد اتسمت بحفلات شرب وقصف وعربدة وتبديد للأموال، وعندما تفجرت النيران في روما في العام 64م، ودمرت ثلاثة أرباع المدينة، وجه نيرون اللوم إلى المسيحيين، فكان أن جرى اعتقال الكثيرين منهم وقتلهم، وقدم المؤرخ الروماني تاسيتوس Tacitus تفاصيل شنيعة حول الذي حدث، فالذين اعتقلوا جرى تمزيق بعضهم حتى الموت من قبل الكلاب، وصلب بعضهم الآخر، ووضع بعضهم على النار فوق أراض في القصر الإمبراطوري، وفي أثناء ذلك دعا نيرون السكان إلى التمتع بالمشاهد، والركوب حول عربته[11].

وتفجرت في العام 66م في فلسطين ثورة يهودية كبرى، وكانت فلسطين تحت حكم الحاكم الروماني جيسيوس فلوروس Gessiaus Floraus، وسقطت القدس تحت حكم مجموعات عدة من طوائف الثوار، وعين نيرون قائداً إسبانياً هو فسبسيان من أجل سحق الثورة، وتدفقت عدة فرق عسكرية على البلاد، وجرى تعيين يوسيفيوس قائداً مسؤولاً عن القوات اليهودية في

الجليل، ولكن مع العام 68 كان فسبسيان قد سحق كل قوى المعارضة، وانتقل جنوباً إلى اليهودية لمحاصرة القدس، واستسلم يوسيفيوس، وانتهى ليكون على علاقات طيبة مع فسبسيان، إلى حد أنه أخذ ينصح فسبسيان في جهوده العسكرية، ذلك أنه كان مقتنعاً بأن المعارضة اليهودية كانت مخفقة ومأساوية، وعندما اقترف نيرون الانتحار في العام 68م، حاول ثلاثة من القادة الرومان على التوالي أن يصبحوا أباطرة، فقد زحف القائد غالبا Galba من إسبانيا، وقبله مجلس الشيوخ إمبراطوراً، ولكن أوثو الذي كان عضواً عظيم النفوذ في مجلس الشيوخ، تدبر اغتياله بوساطة حرس القصر، وأعلن نفسه إمبراطوراً، وانتبه القائد فيتيليوس Vitellius إلى الفرصة التي توفرت، فزحف من ألمانيا إلى روما مع فيالقه، وبذلك أرغم أوتو على اقتراف الانتحار، وأصبح هو نفسه إمبراطوراً، وفي الوقت نفسه قرر فسبسيان العمل، فترك الحرب في اليهودية مع حصار القدس في يدي ابنه تيتوس، وسافر إلى روما ليتحدى فيتيليوس، وحاول فيتيليوس الفرار، ولكنه قتل من قبل عساكر كانوا مخلصين لفسبسيان وأعلن مجلس الشيوخ فسبسيان امبراطوراً، وفي صيف العام 69م، عاد الإمبراطور الجديد فسبسيان إلى القدس، والتحق بابنه تيتوس، حتى يتولى شخصياً توجيه المراحل الأخيرة من الحصار.

نهاية الزمان

وطوقت القدس من قبل أربعة فيالق رومانية، هي: الفيلق الخامس عشر، وكان تيتوس قد جلبه من مصر، والفيالق: الخامس، والعاشر، والثاني عشر، الذين كان فسبسيان قد حشدهم من سورية، بما في ذلك قوات رديفة من القوات الرومانية تجاوز عددها الخمسين ألفاً، وقطعت الإمدادات عن المدينة، ومع ربيع العام 70م، كانت هناك مجاعة كبيرة، وروى يوسيفيوس أن بعضهم لجأ حتى إلى

أكل لحوم البشر، واستبدت الفوضى في داخل المدينة المحاصرة، والذين حاولوا النجاة اعتقلوا وصلبوا، وتبعاً ليوسيفيوس الذي التحق الآن بفسبسيان، الذي عسكر على جبل الزيتون، أمام المدينة، كان ما يبلغ تعداده الخمسمائة يؤسرون يومياً ويصلبون، من أجل إرعاب الذين كانوا في الداخل، وإرغامهم على الاستسلام، وجردت قوات فسبسيان جميع الأراضي من حول القدس من الأشجار، في سبيل الحصول على ما يكفي من أخشاب من أجل جمع الصلبان، وبالنسبة للقنائين «الزيلوت» الذين تحكموا بالسكان المحليين، وانحصروا في الداخل، قد رفضوا جميع العروض، ومع الصيف شيد الرومان سلالم فكانوا قادرين على خرق الأسوار، والدخول إلى المدينة على مراحل، وألقوا النار في المدينة، وهدموا الأسوار وسووها بالأرض، وبالأخير المعبد نفسه مع مجموعاته العمرانية وساحاته، أحرق، وأزيل إزالة كاملة.

ويمكن للسواح أن يشاهدوا البقايا المكتشفة من القدس المدمرة، في المدينة القديمة، وترك الأثريون كثيراً من ركام فضلات الدمار، بما في ذلك حجارة هيرودية ضخمة جداً، شكلت فيما مضى أسوار المجمع المعماري الضخم للمعبد، وهي ملقاة في مكانها، لم يتم تحريكها بعد مضي قرابة الألفي عام، وقد جرى الكشف عن الدرج الذي كان يقود إلى داخل المعبد، والذي تم الكشف عنه تحت ردم تجمع بسماكة ثلاثين قدماً أو أربعين، وقد بني الحي اليهودي الحديث فوق الطبقات المدمرة بعد الكشف عنها، ولكن في قاعدة كل بيت تقريباً، وكذلك في المتاحف في المنطقة، تتحدث الخرائب وتروي الحكاية بحيوية أكبر من صفحات يوسفيوس، وقد كتب يوسيفيوس بأن فسبسيان قد دمر المدينة بالكامل كمثل لليهود الذين تجرأوا على معاداة روما، وترك قائماً ثلاثة أبراج فقط، قواعدهم ما تزال مشاهدة قرب باب يافا، كشاهد كما قال على العظمة الماضية للمدينة التي استولى عليها.

وكانت الحرب اليهودية الرومانية مأساوية بلا حدود بالنسبة للديانة اليهودية وبالنسبة للشعب اليهودي، فقد ترك تدمير القدس والمعبد، الشعب اليهودي من دون مركز وطني وديني، وقد جرى أخذ الآلاف كأسرى، ومات عشرات الآلاف بوسيلة ما أو أخرى، وقد كان هناك موكب عظيم للنصر في روما، للاحتفال بانتصار فسبسيان مع أسرى يهود، وغنائم من المعبد بما في ذلك أوعيته المقدسة، واستعراض خلال الشوارع، وضرب الرومان قطعة نقد فضية خاصة كتب عليها «اليهودية قد هزمت» «Ivdaea Capta» ومشهد الاستيلاء موجود بالنسبة إلينا في هذه الأيام على قوس تيتوس في روما، الذي شيد من قبل مجلس الشيوخ الروماني في العام 81م، بعد موت تيتوس وتأليهه، وقد تدبروا رسم مشاهد انتصار فسبسيان وتيتوس على العوارض الحجرية للقوس، ونقشوا عليها ما نصه: «من مجلس الشيوخ الروماني والشعب إلى المؤله أغسطس تيتوس فسبسيان، ابن المؤله فسبسيان»، وكان القوس قد شيد مباشرة بعد إكمال المدرج الروماني المشهور، وتشير أدلة منقوشة جديدة إلى أن المدرج قد بني معظمه بوساطة عمل عبيد يهود، وأن التمويل قد استخرج من اليهودية[12].

وكانت أسباب الحرب معقدة بالطبع، لكن يوسيفيوس الذي عاش خلالها كلها جذب الانتباه إلى الخاتمة التالية المدهشة عندما كتب قائلاً:

«ولكن الذي كان قد أثارهم للحرب، أكثر من أي شيء آخر، كان هاتف نبوءة غامضة، مثلها وجدوا في كتاباتهم المقدسة، جاء فيها أنه في ذلك الوقت، سوف يصبح واحد من بلادهم حاكماً على العالم، وقد فهموا هذا على أنه قصد به واحد من بني قومهم، وضل كثير من رجالهم العقلاء في تأويلاتهم لها، والهاتف على كل حال يشير إلى سيادة فسبسيان، الذي أعلن عنه إمبراطوراً على تراب يهودي[13]».

والذي أكده يوسيفيوس هنا هو أن السبب الرئيسي للحرب، كان سبباً دينياً،

تعلق بتوقع قدوم مسيح يهودي داودي، وتبعاً ليوسيفيوس لقد كانت الحمى المسائحية هي التي غذت بالوقود نيران الثورة، وكان الشعب مقتنعاً بأن الرب سوف يتدخل، وسوف لن يهزم الرومان ويطردهم فقط من فلسطين، بل كما توقع الأنبياء العبرانيون سوف يقيم ملكه المختار، حاكماً على جميع الأمم، و «الهاتف» الذي كان بالتحديد في ذهن يوسيفيوس، كان من دون شك «الأسابيع السبعين» الذين كان قد جرى التنبؤ بهم في سفر دانيال، وجعلوا علامة على مدة زمنية أخيرة مؤلفة من / 490/ سنة موجود فيها قدوم «أمير ممسوح» أو «شخصية مسائحية» «دانيال: 9/ 25» ولكن في استعادة لما حدث، وبعد مأساة الحرب ودمار مدينة القدس، اتهم يوسيفيوس الأتقياء من أبناء بلاده، بأنهم تجاوزوا الجزء المفصلي من نبوءة دانيال، وذلك بخاتمتها المدهشة في قوله:

«وبعد اثنين وستين أسبوعاً يُقطع المسيح، ولن يكون لديه شيء، وعساكر أمير آت يخرب المدينة والمعبد» [دانيال: 9/ 26].

ولم يكن حاكم العالم الذي جاء، واحداً سوى الامبراطور فسبسيان، فهو الذي قام بالفعل «بتدمير المدينة والمعبد»، ولم يكن المسيح المنتظر، وعلى هذا من الذي سيكون «الممسوح» أو «المسيح» الذي «سيقطع»؟ لم يقل يوسيفيوس شيئاً حول ذاك، ولكن كان أتباع يسوع قد قرأوا نبوءة دانيال وفق طريقة مماثلة، وكان ذلك حتى قبل كارثة الحرب الرومانية، ومن المرجح أن تأويلهم قد أثير بالمقتل المأساوي وغير المتوقع لقائدهم جيمس العادل في العام / 62م/ .

وكان جيمس قد انحدر من السلالة الملكية لداود، وعلى هذا كان جديراً بأن يدعى «مسيحاً» أو «الممسوح»، كما أنه قد قتل بالفعل قبل سبعة أعوام مضت بالتمام، قبل إلقاء الرومان الحصار على مدينة القدس، في صيف العام 69م، وكان ذلك أقل بسبعة أعوام، قبل إكمال مدة الـ/ 490/ عاماً، وذلك تماماً كما كان دانيال قد تنبأ، وعلى هذا لم يكن حلول «نهاية الزمان» بحاجة إلى وقت طويل، لأن يتبع.

واحتفظ يوسيبيوس وإبيفانيوس بأثر مروي، بأن أتباع يسوع المقادسة، الذين كانوا الآن تحت قيادة شمعون بن قيلوفا، قد هربوا من مدينة القدس قبيل وقوع الحصار، استجابة «لهاتف منح بوساطة الوحي قبل الحرب»[14]، ورويا بأن هؤلاء الأتباع قد استقروا في مدينة فحل في منطقة المدن العشر، وذلك على الجانب الآخر من الأردن في جبال جلعاد، ومع أن بعض العلماء قد شكك في الموثوقية التاريخية لهذا الأثر المروي، هناك دليل قوي لصالحه، فكما كنا قد رأينا، كان سفر الرؤيا، الذي يرقى بتاريخه إلى أيام نيرون والثورة اليهودية، قد صور الكنيسة بمثابة «امرأة» هربت إلى البراري، «إلى مكانها» حيث عاشت وتغذت لمدة ثلاثة أعوام ونصف العام «رؤيا يوحنا: 12/ 14»، وفي سفر الرؤيا نيرون هو «الوحش» مع الرقم اللغز «666»، ولقد كان بالفعل نيرون هو الذي قام بكل من تعذيب المسيحيين واضطهادهم بعد الحريق في روما، وهو الذي أرسل فسبسيان لقمع الثورة اليهودية في العام 66م[15]، وعندما كان جيمس قد قتل في العام 62م، حسب أتباع يسوع بناء على توقعات دانيال مدة سبعة أعوام أخيرة، ومن الواضح أنهم تركوا المدينة في منتصف تلك المدة، أو في العام 66م، حيث حسبوا بأن «النهاية» سوف تأتي بعد ثلاثة أعوام ونصف العام، أي في العام 70م.

وحفظ لنا إنجيل مرقص عظة طويلة ألقاها يسوع، أطلق العلماء عليها اسم «الرؤيا الصغيرة»، فهي تقدم بشكل أساسي تأويلاً فياضاً لنبوءة دانيال حول الأسابيع السبعين، وقد بنيت حول توقع أن القدس والمعبد، سوف يطوقون في أحد الأيام، من قبل جيوش، ولسوف يجري تدميرهما تماماً قبل إبصار «ابن الإنسان آتيا في سحاب بقوة كثيرة ومجد» «مرقص:13/ 26»، وتم إخبار أتباع يسوع إن على الذين هم في اليهودية «الفرار إلى الجبال» قبل الحصار، لأن وقتاً رهيباً سوف يتبع ذلك، ونحن لا نعرف فيما إذا كان يسوع قد تنبأ بوقوع هذه الأشياء أم لم يتنبأ، فإن معظم العلماء قد خلصوا إلى ترجيح وضعها في فمه، بعد

وقت قصير من تدمير القدس من قبل الرومان في العام 70م، هم مع ذلك قدموا دعماً قوياً إلى الأثر المروي حول الفرار من القدس، ومن المستبعد أن يكون مرقص، الذي كان يكتب بعد وقت قصير من الثورة اليهودية، أراد أن يجعل يسوع يخبر أتباعه بأن يفعلوا شيئاً ما، هم لم يفعلوه قط، ومن الممكن قراءة مرقص بطريقة عكسية بمثابة «تاريخ» في فم يسوع، قد كتب بعد الحقيقة.

وعلاوة على ذلك، وكما كنا قد رأينا في الفصل الثاني عشر، كانت فحل، وهي المنطقة التي قد قيل بأنهم هربوا إليها، واقعة على أميال قليلة إلى الشمال من «وادي كريث» التوراتي وهو المكان الذي روي بأن إيليا قد اختبأ به خوفاً من الخطر، والمرجح كثيراً أن يكون هو المنطقة التي أمضى فيها يسوع الشتاء الأخير من حياته مختبئاً من هيرود أنتيباس، وهو الذي عرف «بمخبأ يسوع» في الأردن، فإذا كان شمعون، قائد المجموعة في هذا الوقت، بالحقيقة أخاً ليسوع، حسبما حاججت، فالفرار في العام 66م، قد كان بالنسبة إليه زيارة ثانية بعد أربعين عاماً.

فكم كان عدد أولئك المسيحيين المقادسة، الذين تبعوا شمعون نحو الشمال الشرقي عبر الأردن إلى إقليم المدن العشر، هذا ما لا يمكننا قوله، ومثير للمشاعر أن نتخيل هذه العصبة من الأتباع المخلصين لأسرة يسوع، وقد أخذت طريقها إلى «مكانها» وأنها عاشت في هذه الكهوف المحاطة بجروف منحدرة، وأن أفرادها جلسوا ينتظرون الأمل الذي أضيء من قبل يوحنا المعمدان قبل أربعين عاماً مضت، وذكر يوسيفوس بأن اللاجئين هربوا في كل اتجاه، من أمام وجه الجيوش الرومانية الزاحفة، فلقد كانت هذه هي المدة الزمانية التي أخليت فيها مستوطنة الإيسينيين في قمران، وجرى إخفاء مخطوطات البحر الميت في الكهوف المحيطة، ونحن نعرف أن / 960/ لاجئاً يهودياً انتهى بهم الفرار في الصحراء الأردنية في الجنوب، في قلعة مسعدة، وهناك اقترفوا الانتحار في ربيع العام 73م، بعد حصار روماني طويل، وأصبحت مسعدة «المكان الأخير» للمقاومة اليهودية، ومن

المحتمل، لا بل من المرجح، أن يهوداً من أتباع يسوع كانوا ضمن هذه المجموعة، فبعض الأدلة الأثرية تشير نحو ذلك الاتجاه، ففي تشرين الثاني عام 1963، أثناء الموسم الأول للحفريات الأثرية في مسعدة، جرى اكتشاف أربعة عشرين من الهياكل العظمية لرجال، ونساء، وأطفال، في داخل كهف بعيد في النهاية الجنوبية للقلعة، ويظهر أنهم كانوا قد فرزوا من بين الكتلة الأساسية للقنائين الثوار، الذين احتلوا المنطقة الشمالية، ويظهر أنهم كانوا جماعة طائفية، من الممكن أنهم كانوا من الإيسينيين أو من الناصريين الذين التحقوا بالآخرين أثناء الفرار[16].

ونحن متأكدون إلى حد بعيد، أنه ليس فقط أتباع يسوع، وجيمس وشمعون، لا بل عدد كبير من اليهود، كانوا قد فهموا نبوءات دانيال، وكانوا قد اقتنعوا أن «نهاية الزمان»، سوف تأتي عما قريب، وأن «ابن الإنسان» قد بات ظهوره وشيكاً، أما دمار مدينة القدس ومعبدها، وما أعقب ذلك ونتج عنه من احتلال روماني لذلك المكان المقدس، الذي جرى تكريسه الآن إلى جوبتير الإله الروماني، قد نعت من قبل أتقياء اليهود بأنه «رجسة الخراب» التي تكلم عنها دانيال «مرقص: 13/ 14»، ولقد فهمت على أنها علامة النهاية.

ضاعت أسرة يسوع الحاكمة ونسيت

نحن لا نمتلك سجلاً تاريخياً حول هؤلاء الفلسطينيين المسيحيين الأوائل، خلال المدة الزمانية من الفرار إلى فحل في العام 66م، إلى إعدام شمعون المسن أثناء حكم تراجان، ربما في حوالي العام 106م، وكأن ستارة قد نزلت فوق تاريخ الأتباع الأصلاء ليوحنا المعمدان، ويسوع، وجيمس، وشمعون، لمدة أربعين عاماً، وهناك مدونات حول ما كان يظهر في مناطق المسيحية إلى الغرب، يعني التي كانت قد وقعت تحت نفوذ بولص وتأثيره، ولكن لم تبق تفاصيل حول ما ظهر بين الذين تبعوا التعليم، الذي قدمته أسرة يسوع، ويمكننا أن نفترض أن بعضهم قد عاد إلى

القدس، وحاولوا استرداد ما أمكنهم من المعايير المعتادة، ولكن الأكثرية منهم لا بد قد تفرقت، ومضت كما يرجح إلى مناطق في شرقي نهر الأردن، ولم تكن تلك الأوقات أوقاتاً اعتيادية، وكانت المخاطر حادة بالنسبة إلى أي واحد كان ما يزال محتفظاً بأي نوع من الأمل المسائحي.

وكان يوسيبيوس قد روى أنه بعد الثورة قام الامبراطور فسبسيان «فأمر بإجراء بحث عن جميع الذين كانوا من أسرة داود، حتى لا يبقى بين اليهود أحد من الأسرة الملكية، ولهذا السبب أنزل مرة أخرى اضطهاداً كبيراً جداً على اليهود[17]، وكان شمعون مع أي واحد من أقرباء أسرة يسوع متخفين، أو على الأقل حافظوا على ظهور قليل، وكان فسبسيان قد خلفه ولداه الطبيعيان: تيتوس «79-81م» ودوميشان Domitian «81، 96»، وبذلك شكلوا أسرة فلافيان Flavian التي عاشت مدة قصيرة، وسار دوميشان على خطوات أبيه، وأعطى أوامر مباشرة، بإعدام أي واحد حمل النسب الداودي، وحفظ حجيسيبوس حكاية مدهشة، نقلها يوسيبيوس، فيها أن اثنين من أحفاد يهوذا أخي يسوع قد اعتقلا، واستجوبا، ثم أطلق سراحهما، وأن ذلك كان أثناء حكم دوميشان[18]، وكتب حجيسيبوس أنهما أحضرا الإمبراطور دوميشان نفسه، ومع أن ذلك كان مستبعداً، كان ذلك أيضاً ممكناً، إنه يقدم تصوراً عالياً حول الأسرة الداودية، وتوترات تلك الأوقات في فلسطين، وقد سئلا عما إذا كانا يحملان النسب الداودي، فاعترفا بذلك، لكنهما أصرا على أنهما لم تكن لديهما تطلعات سياسية، وأنهما كانا رجلين يمتلكان إمكانات متواضعة، يعيشان بوساطة الفلاحة، وبقيت رواية حجيسيبوس في مصادر أخرى قليلة، فيها كان المنحدران من سلالة يهوذا ابنان له، وليس كما قيل حفيدين، وفي الإغريقية من الممكن بسهولة المزج بين كلمتي «ابن» «وحفيد» «huionoi» و «huioi» لأنهما يختلفان عن بعضهما بحرفين فقط، وكان اسمهما كما قيل

زوكر، وهو تصغير زكريا، وجيمس، وعلاوة على هذا كتب حجيسبيوس بأنهما كانا «قادة في الكنائس» بسبب «شهادتهما» على أصول الحركة و «لقرابتهما من الرب»[19]، وقد دعيا باسم «desposyunoi» أي «من أهل المعلم»، أي كانا أعضاء في أسرة يسوع[20]، وكان صلب شمعون جزءاً من المطاردة لأي واحد من «البيت الملكي لليهود[21]»، ولا نمتلك رواية مدونة حول الطريقة التي مات بها يهوذا، ولكننا نعرف أنه خلال العقود المبكرة من القرن الثاني للميلاد في فلسطين على الأقل كان يمكن لتحديد الارتباط بالأسرة الداودية، وبتوقعاتها المسائحية، أن يقود إلى عواقب وخيمة.

وأن تكون يهودياً، أصبح بازدياد أمراً ليس شعبياً في العالم الروماني، فخلال الأعوام 132–135م، تفجرت ثورة يهودية ثانية، لا بل أكثر دموية، في فلسطين، أثناء حكم الامبراطور هدريان، وقد قاد هذه الثورة شمعون بن كسبا Kasiba، وهو الذي عرف بالتاريخ فيما بعد باسم «ابن كوكب»، وقد قبل من عدد كبير من اليهود، على أنه مسيح داودي، وعقوبة لذلك، حظر الرومان عل اليهود، الدخول حتى إلى مدينة القدس، وأعاد هدريان بناء المدينة بشكل كامل، وحولها إلى مستعمرة رومانية، وأعاد تسميتها فصارت تعرف باسم «إيليا كابيتولينا» وذلك تشريفاً للإله الروماني «جوبتير كابيتولينوس»، وكان هو الإله الحامي لروما، وتمّ بناء معبد لجوبتير فوق موقع بقايا خرائب المعبد اليهودي[22]، وبدأ الآن أي أمل في رؤية «ملكوت الرب» على الأرض بالتلاشي، وأصبحت الحمى اليهودية المسائحية باردة بازدياد، وركز إنجيل «بولص» الذي رفض فكرة «إسرائيل تبعاً للجسد»، على الخلاص، وعلى أن ملكوت الرب «ليس على الأرض بل على السماء»، ولاقى هذا المزيد من القبول من قبل الناس.

ونحن نعرف أن هؤلاء المسيحيين الأصلاء قد استمروا بالبقاء، خاصة في المناطق الشرقية من فلسطين، ولكن من دون قوة أو تأثير، وكان لهم دور صغير، أو

لم يكن لهم أدنى دور مؤثر في الذي أودع في العهد الجديد، الذي أصبح القصة الرسمية حول تاريخ المسيحية المبكرة.

وقد باتوا يعرفون بعد ذلك باسم «الإيبونيين»، وهو اصطلاح معناه بالعبرية «المساكين»، وقد عرفهم يوسيبيوس، مع أنه عدّهم هراطقة بالمقارنة مع المسيحية الأرثوذكسية التي دافع عنها، وكان بين تهمه التي وجهها إلى «الإيبونيين» أنهم جعلوا من يسوع «إنساناً واضحاً وعادياً»، قد ولد بشكل طبيعي من «مريم وزوجها»، وعلاوة على ذلك ذكر يوسيبيوس أن «الإيبونيين» قد أصروا على الاعتراف بالشريعة اليهودية أو التوراة، وأنهم اعتقدوا بأن الخلاص كان بوساطة «العمل» وبوساطة «الإيمان» أيضاً، وذلك مثلما كانت رسالة جيمس قد أصرت على تأكيده، ورفض «الإيبونيون» رسائل الرسول بولص، وعدوه مرتداً عن الإيمان الصحيح، وقد استخدموا فقط النص العبري من إنجيل متى، الذي هو مفقود بالنسبة إلينا، ولا يوجد منه سوى بعض النتف، وكان يوسيبيوس متحالفاً مع الإمبراطور قسطنطين، الذي كان شخصياً قد تحول إلى المسيحية في العام 325م، وصنف كل رأي من آراء «الإيبونيين» على أنه هرطقة، ومع ذلك، إنه لسخرية القدر، أن آراءهم كانت هي المؤسسة على تعليم يسوع نفسه والتقليد الذي أجازه إلى إخوته وهم أيضاً أجازوهم إلى غيرهم[23].

وهناك وجهة نظر إيجابية قوية نحو «إنجيل» الايبونيين موجودة الآن في داخل وثائق من القرن الرابع للميلاد، ندعوها باسم «كليمنت الزائف» «Pseudo- Clementine»، وفي وثيقة تدعى «وعظ بطرس» «kerygmata petrou»، وهي وثيقة ذات أهمية خاصة في هذا المجال، وتدعي هذه الوثيقة أنها رسالة كتبت من قبل بطرس إلى جيمس أخي يسوع، واشتكى بطرس بأن رسائله قد حرفت وأفسدت من قبل الذين خضعوا لنفوذ بولص، ولذلك أصبحت لا تساوي شيئاً، وحث جيمس على أن لا يجيز أياً من تعليمه إلى الأمين، بل فقط

إلى الذين هم أعضاء من مجلس السبعين، الذين كان يسوع قد عينهم، وقد انتقد بولص بحدة على أنه كان رجلاً وضع شهادته القائمة على الرؤيات فوق التعليم المؤكد الذي كان الرسل قد حصلوا عليه مباشرة من يسوع[24]، ولم يقدر العلماء مثل هذه المواد، ولم يعدوها أصيلة بمثابة وثائق من القرن الأول، بل قالوا بأنها تعكس روايات أساطير متأخرة حول الخلافات التي وقعت بالفعل أثناء حياة: بولص، وبطرس، وجيمس، وبذلك حفظوا لنا بعض الصراعات - التي حاولت أناجيل العهد الجديد - وخاصة إنجيل لوقا، ومالت إلى تلطيفها.

ونحن الآن فقط من خلال اكتشاف الوثائق الضائعة، والنفاذ بالبصيرة المكتسبة من الاكتشافات الأثرية الجديدة، والقراءات النقدية للعهد الجديد والمدونات التاريخية الأخرى، في وضع قادرون فيه على أن نبدأ بوضع كثير من قطع اللغز مع بعضها، وأخيراً بدأ التراث المعطاء لأسرة يسوع يظهر تحت الضوء، مع نتائج مثيرة بالنسبة إلى الذين يرغبون في أن يسمعوا مرة جديدة التعليم الأصيل ليسوع.

وكنت قد بدأت قصة الأسرة الحاكمة ليسوع مع حكاية مدفنين، وإمكانية علاقتهما مع ناووس المدفن القديم الذي نقش عليه بالآرامية اسم «جيمس بن يوسف أخو يسوع»، وهو الذي وصل إلى معرفة الرأي العام في أواخر العام2002، وذلك عندما انتشرت قصة ناووس جيمس خلال العالم كله بوساطة التقارير، ووجد الناس أنفسهم يتساءلون: من هو جيمس هذا؟ وكيف أمكن أن يكون ليسوع إخوة؟ هذا وكأن ظهور ناووس جيمس، واكتشاف المدفنين - مهما كانت المحصلات حول وضعهما النهائي - قد أشار بطريقة ما إلينا وأظهر المادة الأصيلة لقصة اختفت ونسيت، وهذا بحد ذاته على درجة عالية جداً من الأهمية.

وتقدم لنا معرفة أسرة يسوع الحاكمة، أكثر بكثير من بديل مهم للطرق القياسية التي جرى بها عرض تاريخ المسيحية، وهي تفتح أمامنا ممرات وطرقاً

جديدة للتفكير حول أهمية يسوع الناصري، وماذا يمكن لحياته وتعليمه أن يعنيا بالنسبة إلينا، فلقد كان يسوع الشخصية الأكثر تأثيراً في تاريخ البشرية، ومسائل: من الذي كان هو، وكيف يجري تذكره، هي مسائل عظيمة بالنسبة إلينا كلنا، سواء أكنا علمانيين أو متدينين، وسواء أكنا: يهوداً، أو مسيحيين، أو مسلمين.

خاتمة

استرداد الكنوز الضائعة

ليس التاريخ مجرد عملية تجميع لحقائق بناءة، إنه يتعلق أيضاً بمحاولات لاسترداد الماضي وتخيله، الماضي الذي لم نعد نستطيع أن نلمسه أو نراه، والتاريخ يلامس شغاف القلب، وكذلك الرأس أيضاً، وهنا تتمكن مادة الدليل من صنع فوارق، وتتعلق صناعة التاريخ وأصالته بالناس والأماكن التي ندرسها في النصوص، وتقدم لنا سبلاً وآفاقاً لوصل التصورات التي هي مثيرة للعاطفة ومهمة أيضاً، وأنا كنت قد شعرت بهذا بالفعل، عندما شاهدت للمرة الأولى ناووس جيمس في تورونتو في تشرين الثاني عام 2002، وأنا أعرف بأن المؤرخين الآخرين والأكاديميين في الغرفة شعروا بذلك أيضاً، فلقد كانت اللمسة الحقيقية للماضي هي التي أثارت القلب البشري، بصرف النظر عن كيف أن الإنسان قد علم أو احتفظ وادخر، ويوضح هذا لماذا بدأ هذا الكتاب مع «حكاية مدفنين»، وذلك بوصف اكتشافات مدفن الكفن، ومدفن تلبيوت مع عنقود أسمائها غير المعتاد الذي شمل ستة أسماء، تساوقت مع أسماء أسرة يسوع.

وعند هذه النقطة لم يكن هناك برهان على أن ناووس جيمس - إذا كان أصيلاً - قد جاء من أي من المدفنين، مع أن المزيد من المعلومات قد تظهر إلى النور، لو جرت فحوص الحمض النووي، ولكن الذي هو مهم حول هذه المدافن أنهم يقدمون لنا كهف دفن أسرة من القرن الأول للميلاد، والتي إن لم تكن أسرة

يسوع بالفعل، إنها تعكس العادات نفسها والممارسات التي تعلقت بتذكر الميت، والزحف إلى داخل هذه المدافن، مثلما كنت قد فعلت، كان للالتحاق بالماضي، بطريقة تؤثر على الإنسان أكثر بكثير من المستويات الثقافية، فهي كانت طريقاً لملامسة حقيقية للتاريخ اليهودي القديم في أيام ولادة المسيحية، فالذكر الارستقراطي الذي وجدنا بقاياه ما تزال ملفوفة بالكفن في مدفن هينوم، ربما كان شاهداً على الأيام الأخيرة ليسوع، أو بكلمات أخرى، لقد عاش هذا الرجل ومات في ذلك الزمان، وفي ذلك المكان، واحتوى ناووس قيافا على عظام الرجل الذي ترأس أثناء محاكمة يسوع، ويجلب النظر إلى عظام كعب يهوهانان المخروقة بالمسمار الرعشة لدى تخيل رعب عمليات الصلب الرومانية، وإذا ما تبين أن ناووس جيمس قد جاء من مدفن «أسرة يسوع» فعندها كثيراً جداً سوف ينتج عن دراستنا هذه البقايا، ومع أن منتوجاتنا الصناعية البكماء لا تتفوه بأي كلمة، إنهم يربطوننا بقوة إلى ماض مستمر يمتلك معنى عميقاً من أجل حاضرنا، وهنا في نهاية هذا الكتاب، أنا أريد أن أكشف بعض الكنوز المفقودة من هذا الماضي، وعلاقتهم بحاضرنا، وبمستقبلنا.

وكان تاريخ يسوع، وأسرته الملكية، وولادة المسيحية، حسبما أنا عرضته في هذا الكتاب، قد اختفى جزئياً كنتيجة لجهود عالمية لتشرذم الحركة المسيحية المبكرة وتفتتها، وجزئياً من خلال ضياع الوثائق والمدونات، التي بدأ الآن بعضها يخرج إلى النور، فتبعاً للنص الذي تحدث عن ولادة المسيحية، وأصبح متحكماً أنقص الدور المهم ليوحنا المعمدان، ليصبح دور رائد ليسوع، في حين تعرض وجود جيمس، أخي يسوع، ودوره، جيمس الذي تولى قيادة الحركة بعد وفاة يسوع، إلى الإسكات، أو في بعض الحالات إلى الإنكار، وجرى تحويل يسوع إلى شخصية لم تعد بشرية، وصار بمثابة «رب في جسد»، قد ظهر لوقت قصير بين بني البشر، ومات، وقام وعاد إلى المجد السماوي، وتحولت الرسالة التي بشر يسوع بها إلى

شخص يسوع كرسالة، وذلك عن طريق الإعلان بأن المسيح قد جاء ومات من أجل ذنوب العالم، ومع منتصف القرن الثالث للميلاد، كانت ديانة جديدة قد ولدت، جرى تشكيلها بوساطة هذه المفاهيم اللاهوتية، وفصلت بالكامل عن جميع أشكال اليهودية، وغدت المسيحية بهذا الشكل أوسع ديانة عالمية، وكان لرسالتها تأثير عميق على بلايين البشر خلال الألفي عام التي انقضت من عمر الحضارة الغربية، ومع ذلك، إنه في قلب جميع أشكال المسيحية مازال تعليم يسوع هو الموجود، وهو أكثر من أي من الحقائق الأخرى، وإن الصورة الأسرة ليسوع هي التي جذبت الكثيرين إلى هذه العقيدة، والذي يجعل الأمور مأساوية أكثر، هو أن الذي ضاع، والذي صار على الهامش، والذي نسي إلى حد كبير، كان القصة الأصيلة، التي كانت قصة يسوع التي تتحدث عنه كيف كان بالحقيقة في زمانه ومكانه كمسيح يهودي من القرن الميلادي الأول، طالب بعرش داود، ودشن حركة مسائحية، مع القدرة على تغيير العالم، وإنه فقط بهذا الفهم ليسوع، يمكن للمسيحية وللمسيحيين إعادة إمساك الآلام مع حمى الرسالة الثورية التي أعلنها يسوع، وسعى لأن يعيش وفقاً لتعليمه الراديكالي.

ولحسن الحظ إن القصة الأصيلة، والرسالة الأصيلة ليسوع صار من الممكن استردادها، ذلك أن عناصرها الأساسية باقية متجسدة في داخل وثائق العهد الجديد، وبشكل خاص المصدر «ق»، الذي تم إدراكه، ودعم بنصوص أخرى قديمة، والتشكيلة الغنية من الوثائق الأثرية، التي جاءت الآن إلى النور، فهؤلاء يمكن لهم تزويدنا بصوت حقيقي أصيل، كان منذ زمن طويل أبكماً، لكنه ما يزال يمتلك القوة على تغيير الحياة، لا بل القدرة على تحدي الثقافة الحديثة والمجتمع، مثلما فعل يسوع في أيام حياته.

والقضية هي أن مثل هذا الاسترداد يتحدى كثيراً من العقائد المقدسة للمسيحية المحافظة، ولكن الذي رأيناه، والذي أصبح القصة المسيحية المتحكمة،

كان قد تشكل وبني حول إلهامات بولص، أكثر منه على تعليم يسوع، وإجراءات الاسترداد التي قمت بها من خلال قراءة نقدية لأدلتنا القديمة، في هذا الكتاب هي ضرورية، في محاولة للعثور على القصة المسيحية التي تمثل بشكل أكثر صدقاً يسوع، فهذه هي رغبة ملايين المؤمنين بالمسيحية، ومثل ذلك من الآخرين الذين لا يحصى عددهم، المعجبون بيسوع كشخصية تاريخية، فكثيرون باتوا مستعدين للإصغاء إلى صوت يسوع، ولكن مكرهين على مسايرة اللاهوت المسيحي التقليدي فيما يتعلق بحياة يسوع ورسالته.

وأنا أرى في إجراء الاسترداد عملاً بنّاءً بالدرجة الأولى، وليس عملاً تهديمياً، وهو يتعلق بإجراءات إعادة الاعتبار ليوحنا المعمدان، وليسوع، ولجيمس، ولأسرة يسوع كلها، والنتائج هي إيجابية وليست سلبية، وبنّاءة وليست مخربة، وهي تعيدنا إلى يسوع نفسه، وإلى الناس الذين أحبهم كثيراً، وإلى القضية التي مات من أجلها، وهي يمكن أن تكون قصة تثير الانفعالات المدهشة، والإلهامات، بكل معيار من المعايير، وهي أيضاً تزودنا بنظرة نافذة إلى داخل الذي هو الأكثر ديمومة وإثارة حول الشخصية التاريخية ليسوع.

وحفظت مريم أم يسوع، وإلى درجة أدنى جميع الرسل للتقديس في داخل اللاهوت المسيحي، إلى حد أن وجودهم كحقيقة لها سمة تاريخية قد ضاعت بسهولة، وأصبحت حياتهم ككائنات بشرية، قد عاشوا وتنفسوا على كوكب الأرض، في داخل مجتمعهم الخاص، والأطر السياسية، قد أصبحت ضبابية، وسراباً، ولقد تشارك البشر خلال الأجيال بأشياء عامة، ربطتنا مع بعضنا عبر الزمان والمكان، فآمالنا، وأحلامنا، وسرورنا، وإحباطاتنا، ومعاناتنا، ومآسينا، تربطنا جميعاً مع بعضنا، وإذا ما تطور فهمنا ليسوع صدوراً عن هذه الإنسانية العامة، سوف نكون في وضع لفهم أفضل ليسوع ولأتباعه المبكرين، ولأن نتعرف معهم على مستويات، من دون ذلك يمكن أن تضيع، وفي النهاية إن

قصة يسوع هي قصة بشرية بالكامل، لكنها قصة تتفجر بقوة روحية واستقامة حتى في بداية الألف الثالثة.

قصة يسوع قد استردت

لقد استهدفت في كتاب أسرة يسوع الحاكمة أن أتقدم إلى القارئ بأدلة تتعلق باكتشافنا ليسوع التاريخي، وهناك أشياء كثيرة لن نستطيع معرفتها، بسبب كل من طبيعة المصادر وندرتها، وفيما يتعلق ببعض المناطق لقد تركنا للتخمين وللتوقعات القائمة على الأدلة التي نمتلكها، ولقد لامست الموضوعات التي هي حساسة، بقدر ما هي موضع خلاف مثل: أبوي يسوع، وإمكانية أن تكون مريم قد تزوجت مرة ثانية بعد وفاة يوسف، وإعادة دفن يسوع في ضريح، فهذه كلها مسائل، يجد فيها الإيمان والتاريخ مكان مواجهة متوتر، وقد سعيت إلى تقديم تواريخ ظهرت معقولة، وإلى تحديد أماكن، حيث من المحتمل أن الأشياء التي نقرأ عنها في نصوصنا قد وقعت، ولقد أردت في كل مكان أن أقدم الجانب الإنساني من قصة يسوع، وقد وضعت في داخل إطار تاريخي حقيقي، وهو متحرر من أي برنامج لاهوتي، وبناء عليه كانت النتائج المجردة هي التالية:

امتلك يسوع أبا بشرياً، وأماً بشرية، ويرجح كثيراً أن أمه مريم، عندما أعدت لتتزوج من رجل عجوز اسمه يوسف، وذلك بناء على ترتيبات الأسرة، أصبحت حاملاً من رجل آخر، وكان ذلك قبل الزواج، وفي النهاية حملت مريم بستة أولاد آخرين، كان أربعة منهم ذكوراً مع ابنتين، وذلك سواء أكان ذلك من يوسف أو من أخيه قيلوفا، وكان يوحنا المعمدان وليس يسوع هو الذي دشن الحركة المسائحية، التي أصبحت الديانة المسيحية، وقدر يسوع قريبه يوحنا تقديراً عالياً، لا يمكن لإنسان أن يقدر أي إنسان آخر مثله، فلقد قدره كنبي، ومعلم، ومدشن لملكوت الرب، وكان يسوع قد التحق بالحركة التي بدأها يوحنا، ذلك أنه

جرى تعميده من قبل يوحنا، وقد عمل معه في سبيل تقدم الحركة المسائحية، وحقق يوحنا ويسوع توقعات قدوم مسيحيين، الأمر الذي كان تياراً رائجاً في أيامهما، فأولهما كان منحدراً تماماً من هارون، وكان الثاني منحدراً ملكياً من داود، وكانت رسالتهما المشتركة رسالة بسيطة هي: دعوة إلى التوبة من الذنوب، في ظل رأي قال بوشوك حلول ملكوت الرب، وبالنسبة إلى الذين استجابوا فقد جرى تعميدهم بالماء كعلامة على مشاركتهم في الحركة وفي رسالتها وكانت هناك حركة نبوئية قد توقعت التدخل الفوري للرب في التاريخ لتأسيس ملكوت الرب، حسبما جاء وصف هذا الملكوت بالتفصيل بوساطة جميع الأنبياء، وكان من المتوقع أن تكون حقبة جديدة للعدالة والاستقامة، والسلام لجميع بني البشر، وهي تمركزت على إعادة تأسيس شعب إسرائيل، مع القدس كعاصمة للعالم الجديد، منها سوف تشع معرفة الرب والأخلاق العالمية إلى جميع أمم العالم.

وأعلن يوحنا ويسوع عن العدالة للفقير والمظلوم، وتفوها بتحذيرات الحكم على الذين يرفضون التحول عن طرقهم غير المستقيمة، وقد علما الإلفة مع الرب، كأب سماوي، والعناية الربانية بجميع المخلوقات، وغفرانات الذنوب، وذلك كتبسيط للصلوات، وقد شرعا بنشرها بين أتباعهما، ولم يكن لدى يوحنا ولا لدى يسوع أي فكرة حول بداية ديانة جديدة، ولكنهما عاشا كيهوديين وفقاً للتوراة، أو الشريعة اليهودية، وأصدرا الدعوة إلى كل من اليهود وغير اليهود للتحول إلى وحي توراة موسى والأنبياء العبرانيين.

وقادت جهود تبشير يوحنا ويسوع وتعميدهما إلى اعتقال يوحنا من قبل هيرود أنتيباس حاكم الجليل، وبعد اعتقال يوحنا تابع يسوع العمل الذي كانا قد بدآه، وقد اختار مجلساً داخلياً تألف من اثني عشر، بما فيهم إخوته، ووعد أعضاء هذا المجلس الحكم على أسباط بني إسرائيل الاثني عشر، ودشن حملة في جميع أرجاء الجليل، وأخيراً خلال معظم مناطق فلسطين الرومانية، وبات يعرف بمثابة

مبرئ من الأمراض وطارد للشياطين، وكواعظ يبشر بملكوت الرب، ومعلم للأخلاق التوراتية، وكان يسوع مقتنعاً بأن سقوط الشيطان، الذي هو الحاكم غير المرئي للعالم، بات وشيكاً، وأثارت أعماله معارضة مريرة بين بعض القادة بين: الهيرودين، والفريسيين، والصدوقيين، وبشكل خاص الذين تشاركوا بدرجة من السلطة السياسية مع الرومان في القدس.

وعندما قتل هيرود أنتيباس بشكل غير متوقع ووحشي يوحنا، اعتقد يسوع بأن قدره هو الذهاب إلى القدس، والدخول إلى المعبد، للدخول بمواجهة مباشرة مع السلطات الدينية والسياسية، بوساطة رسالته بإصلاح جذري، ويرجح أنه أدرك أن مواجهاته سوف تقود إلى اعتقاله، ولربما قد يصل الأمر حتى إلى إعدامه، وهنا ليس لدينا من سبيل إلى معرفة التفكير الداخلي ليسوع ودوافعه ومحرضاته، لكنني أنا مقتنع أنها تأسست على نصوص توراتية، يظهر أنها أصبحت دليله، في أنه كان متوقعاً بأن الرب سوف يتدخل لإنقاذه من أعدائه، في اللحظة الأخيرة، ويظهر في ملكوت الرب، ولم يكن يسوع على غرار الآخرين من أبناء جيله، الذين سلحوا أتباعاً لهم ليقاوموا الاحتلال الروماني العسكري، وكان يسوع مقتنعاً أنه إذا عمل بإخلاص فالرب سوف يتدخل.

ومات يسوع، مثله مثل قريبه يوحنا، وهو مؤمن بأن قضيته سوف تتحقق، وكان أتباعه قد تفرقوا وعادوا لبعض الوقت إلى الجليل في خوف وإحباط، فإيمانهم قد امتحن بقسوة متناهية، فالمسيحان كانا قد ماتا، ولقد كان تحت قيادة جيمس، بالارتباط مع بطرس ويوحنا، تمكنت الجماعة من استرداد إيمانها، وقد اعتقدت بأن يسوع مع أنه ميت قد انتصر في قضيته، وهو في النهاية سوف تثبت براءته، ومثله سوف يكون جميع الشهداء الأبرار في سبيل ملكوت الرب، وبات مفهوماً بأن جيمس، وكان أيضاً من أصل داودي، بأنه خليفة يسوع، سوف يتولى رئاسة «الحكومة» المسائحية الوليدة، التي كان يسوع قد دشنها بمجلس الاثني عشر.

وكانت رسالة جيمس، وبطرس، ويوحنا، والاثني عشر، وكان تعليمهم استمراراً لرسالة يوحنا المعمدان ويسوع وتعليمها، وكانوا قد توقعوا تجلياً وشيكاً لملكوت الرب، وقد بشروا برسالة للتوبة من الذنوب، وعمدوا أتباعهم فيما اعتقدوا كان قلب شعب إسرائيل المصلح والمنظم حديثاً، ووجهت الدعوة إلى غير اليهود للالتحاق بهم في مشروع القضية وباتوا مقبولين عندما يتخلون عن عبادة الأصنام، وينصرفون عنها، ويرتبطون بالحد المعقول من الأخلاقيات التي وضعت في التوراة من أجل الأمين.

ولم تكن الرسالة التي بدأ بولص بالتبشير بها في أربعينات وخمسينات القرن الأول للميلاد، حسبما أصر عليها بولص نفسه بعناد، معتمدة على ما تقدم بأي سبيل من السبل، ولم تصدر عن المجموعة الأصيلة لرسل يسوع، التي قادها جيمس في القدس، فلقد تأسست على تجاربه الرؤيوية حول مسيح سماوي، ورسالة بولص هي التي أصبحت الأساس للاهوت المسيحي التقليدي المحافظ، وبالمقابل لم تكن رسالة جيمس والرسل الأصلاء الأساسيين للقدس، قد صدرت عن الإلهامات التي ادعى بولص بأنه تلقاها، بل كانت قد تأسست على الذي تعلمته المجموعة مباشرة من يوحنا المعمدان ويسوع أثناء حياتهما.

وبناء عليه زودنا جيمس وخلفاؤه بأفضل صلة وصل تاريخية بيسوع وتعليمه الأصيل، كما أننا لا نجد أي أثر لإنجيل بولص، ولا للاهوت البولصي في المصدر «ق»، أو في رسالة جيمس، أو في الديداتشي، وهذا ينبغي أن لا يدهشنا، فلقد مثل جيمس وخلفاؤه الصيغة الأصيلة للمسيحية، المتصلة بشكل مباشر أكثر بيسوع التاريخي، يعني أنها تمتلك كل ادعاء بالأصالة والصحة، وأن ذلك كان ما مثلته أسرة يسوع الحاكمة، أنها أكثر من بديل مهم يدور حوله التاريخ المسيحي، هو يسمح لنا لأن نملأ، أو لنقل نستهلك قطعاً

صغيرة مفقودة من القصة، ويفتح فهم الأسرة الحاكمة ليسوع السبيل أمامنا لاستعادة التاريخ الأصيل للمسيحية، ورسالتها المهمة من أجل أيامنا.

من أجل ماذا عاش ومات؟

وإذا ما وقف إنسان على ما قدمته في كتاب أسرة يسوع الحاكمة، قد يشعر بالإغراء لأن يصنف يسوع مع «المسحاء المخفقين» الآخرين، الذين لم تتحقق آمالهم وأحلامهم، ولم تتبلور قط، حسبما كانوا قد توقعوا، لكن القضية هي أعظم دوماً من الشخص، وكانت قضية يسوع هي «ملكوت الرب»، ولكنه كان قد حددها بفصاحة كبيرة ورشاقة في قوله: «ليأت ملكوتك، لتتحقق إرادتك على الأرض مثلما هي في السماء» والجملة الثانية هي شرح للجملة الأولى، فالملكوت سوف يأتي عندما تتحقق إرادة الرب على الأرض، وليس في السماء، ولم يكن الملكوت الذي توقعه يسوع ملكوتاً أرضياً، بل ملكوتاً على الأرض، إنه يشمل أمماً، وشعوباً، وسياسات، وقوى، وحكومات، وهياكل سلطة، ويتماشى هذا ويتساوق مع الأنبياء العبرانيين، الذين كانوا رواد رؤيا ملكوت الرب، يعني أن الأرض سوف تمتلئ بمعرفة الرب، مثلما تغطي المياه البحر، ويوجد على الجدار عبر الشارع من بناء الأمم المتحدة في نيويورك حجر تذكاري منقوش كبير، وقد كتبت عليه كلمات اشعيا قوله: «سوف يطبعون سيوفهم سككاً، ورماحهم مناجل لا ترفع أمة على أمة سيفاً، ولا يتعلمون الحرب فيما بعد»، وهذا الاقتباس مأخوذ من الإصحاح الثاني من سفر إشعيا، وهو واحد من النصوص الأساسية في التوراة العبرانية، التي تلخص رؤيا ملكوت الرب، وتذكرنا أسرة يسوع الحاكمة بمسيحية لم تنج قط من هذا العالم، وتحتفظ برسالة قاطعة ضد جميع أشكال عدم العدالة، وغير الاستقامة، والظلم، وتقدم بالوقت نفسه الفكرة المثالية لملكوت الرب حتى يتحقق على الأرض.

ولكن يسوع لم يعلن فقط عن وصول ملكوت الرب، بل حدد موضحاً مجموعة من الأخلاقيات الأساسية، والقيم الروحية، التي كانت مؤسسة على رسالة الأنبياء العبرانيين، والتي ما تزال تجد مساندة قوية بين المسيحيين وغير المسيحيين سواء، ويمكننا من نصوص مثل المصدر «ق»، ورسالة جيمس، والديداتشي، وإنجيل توما، أن نسترد التأكيد على نفاذ بصائرهم، وأن ندرك قواهم الكامنة، ومناشدتهم المتحدية، وفيما يلي بعض النماذج من أقواله:

«أحبب الرب أولاً، وأخيك الإنسان مثل نفسك، وكل ما تجده بغيضاً إلى نفسك، لا تفعله لآخر، بل افعل إلى الآخرين، مثلما ترغب أن يفعلوا إليك هذا هو جوهر التوراه، وما جاء به الأنبياء، لا تظنن أنني جئت لأدمر التوراة وما جاء به الأنبياء، أنا جئت للتحقيق، وكل من يتراخى نحو إحدى أقل الوصايا، سوف يعدّ «الأقل» من قبل الذين هم في ملكوت الرب، كن منفذاً للتوراة، وليس حاملاً لها فقط، لأن الإيمان من دون عمل هو ميت».

«عندما تعطي صدقة لا تدع يدك اليسرى تعرف الذي تعمله يدك اليمنى دع أعطية صدقتك تتعرق في يدك إلى أن تعرف إلى من ستعطيها، عندما تصلي اذهب إلى غرفتك، وأغلق الباب، وصل لأبيك الذي يرى في السر، الأول سوف يكون الآخر، والآخر سوف يكون الأول، لأن ما من شيء مخفي إلاّ وسيظهر».

«لا تكن صاحب عقلين وتتكلم من جانبي فمك، لأن الكلام من جانبي فمك فخ قاتل، فوق كل شيء أنت تحت قسم إذا قلت: (نعم)، عند ذلك تكون (نعم)، و (لا)، عند ذلك تكون (لا)».

«أعط إلى الإنسان الذي يسألك، ولا تنحرف عن الذي يريد الاستعارة منك ولا تبتعد، وكل من لديه رداءين، ينبغي أن يشارك معه الذي ليس لديه أي رداء، وكل من لديه طعاماً ينبغي أن يفعل مثل ذلك، قدم يد المساعدة دون

أن تتوقع شيئاً بالمقابل، لا تأخذ فائدة».

«اغفر ولسوف يغفر لك، أعط ولسوف تعطى، لأن الكيل الذي تعطيه سيكون الكيل الذي يرد لك به، اعترفوا بذنوبكم أحدكم إلى الآخر، وليصلّ أحدكم للآخر، اهتم بالذين يقفون ضدك، وصلّ للذين لا يثقون بك، واعمل صالحاً للذين يكرهونك، وبارك الذين يلعنونك، ألق اللوح من عينك، وبذلك ترى حتى تزيل الشظية من عين أخيك الإنسان، بالطريقة التي تحكم بها على الآخرين، سوف يحكم عليك، لأن الحكم من دون رحمة سيكون للذي لم يظهر رحمة».

«اقترب من الرب، والرب سوف يقترب منك، اغسلوا أيديكم أيها المذنبون، وطهروا قلوبكم يا أصحاب الحقلين، تفجع، واندب، وابكِ، تواضع بذاتك أمام الرب، وهو سوف يمجدك».

«من غير الممكن اعتلاء ظهر حصانين، أو إيتار قوسين، ولا يمكنك أن تخدم الرب، ونظام هذا العالم، اتباع طريق الاستقامة يقود إلى الصليب، كن متنبهاً عندما يتكلم جميع البشر عنك بشكل طيب، النبي من دون تكريم إلاّ في أوساطه، الذي هو ليس لصالحي هو ضدي».

وبالنسبة إلى يسوع ولأتباعه المبكرين، ولكثيرين آخرين، مثّل قلب التعليم أكثر من مجموعة من التقويات المبتذلة، هو بالحري رسم مخطط برنامج اجتماعي وسياسي، حتى يوضع قيد التنفيذ، في سبيل إمكانية تحقيق ملكوت الرب على الأرض، مثلما هو في السماء، ولقد فهم بشكل جيد كل من تحدياته في نظام العالم الذي يعمل بناء على مبادئ مضادة، من قبل ذلك الجيل، فكان أن قطع رأس يوحنا المعمدان، وجرى صلب كل من يسوع وشمعون، ورجم جيمس حتى الموت، فلقد كان ثمن سماع الصوت، والسعي لاتباعه ثمناً عالياً.

يوفر فهم الأسرة الحاكمة ليسوع آفاقاً جديدة للتفاهم بين: اليهود، والمسيحيين، والمسلمين، فلقد أسهم التنكيل المسيحي باليهود كما هو مفهوم كثيراً في تهميش يسوع في داخل التاريخ اليهودي، فلقرون وجد اليهود من الصعب التفكير حول يسوع من دون ربطه بالسلوك السيئ للذين عملوا باسمه، وحدث في القرن الأخير، وفي أيامنا كثيراً من التغيير مع استرداد يهودية يسوع، والمحاولات المثمرة للمؤرخين في وضع يسوع في إطاره التاريخي الصحيح، كما عبر عن ذلك مارتن بوبرBuber، الفيلسوف اليهودي الكبير للقرن العشرين بقوله:

«أنا لا أؤمن بيسوع، ولكنني أؤمن معه، وأنا أعتقد بثبات أن الجماعة اليهودية سوف تعترف بيسوع خلال مسيرة نهضتها، ليس كمجرد شخصية كبيرة في تاريخها الديني، ولكن أيضاً في أداة إطار تطور مسائحي، امتد عبر أكثر من ألف عام، وكان هدفه الأخير خلاص إسرائيل والعالم»، وكان الذي رفضه اليهود ليس يسوع بل نظام اللاهوت المسيحي الذي عادل يسوع بالرب، والذي ألغى التوراه، وحل محل الشعب اليهودي وميثاقه، واليهود هم مدركون بالفعل للطبيعة غير المخلّصة للعالم، ولو أن يسوع لم يكن المسيح إلى اليهود، ولم يكن منحدراً من سلالة داود، وأنه دشن برنامجاً مسائحياً لم ينته، هو بالتأكيد، كان بالمعايير التاريخية مسيحاً، ويظهر أنه هذه هي البصيرة العظيمة النافذة لبوبر، ويوفر استرداد مناظير تصور جيمس وأتباع يسوع الآخرين الأصلاء، الذين استمروا يأملون ويكافحون في سبيل خلاص مسائحي، والذين اعتنقوا مجموعة من الأخلاقيات التوراتية التي كانت قد تأسست على الأنبياء العبرانيين، حتى بعد وفاة يسوع، يوفر هذا الاسترداد نقطة للوحدة وللتفاهم، كانت مهملة حتى الآن بين اليهود والمسيحيين.

وبالنسبة للمسيحيين، يفتح فهم الأسرة الحاكمة ليسوع طريقاً لاسترداد

جذور يسوع اليهودية وتقديرها، ولقد كانت هناك تطورات مهمة على طول هذه الخطوط في الأعوام الأخيرة، عبر طيف واسع من الجماعات المسيحية سواء أكانت تقليدياً «متحررة» أو «محافظة»، وأكثر فأكثر أصبح المسيحيون معتادين على الأعراف اليهودية الأساسية، وكذلك العطل، وذلك كمحاولة لفهم يسوع بشكل أفضل كيهودي في أيامه، ولم يعد أمراً غير اعتيادي بالنسبة إلى الذين يلتزمون بمراعاة عيد الفصح اليهودي، أن يقوموا بإجراء الاحتفال في الكنائس، مع حاخامات قد وجهت إليهم الدعوة للتعليم، وذلك كجهد في سبيل فهم أفضل ليسوع في زمانه، ومكانه، وجرى في الدراسات الأكاديمية للأصول المسيحية في أية كلية رئيسية أو جامعة، تقديم يهودية يسوع، والدورات التعليمية حول العهد الجديد، والمسيحية المبكرة، ومقاربة يسوع وحركته كجزء أساسي في تاريخ اليهوديات المتنوعة في فلسطين الرومانية، وإذا استطاع المسيحيون إعطاء جيمس مكانه الشرعي كخليفة تولى قيادة حركة يسوع، وبدأوا في إدراك أن صيغته للإيمان تمثل المسيحية مع ادعاءاتها بالأصالة، التي هي قادرة على قهر ادعاءات بولص، لا بل إن المزيد من أبواب التفاهم بين المسيحيين، واليهود سوف تنفتح، ولكن ربما بالقدر نفسه من الأهمية، من جوانب رسالة المسيحية ومقاصدها في العالم، حيث للبرنامج غير المكتمل ليوحنا، ويسوع، وجيمس، أن يجد حياة جديدة، وصلة وثيقة في العصور الحديثة.

ولا يعبد المسلمون يسوع، الذي هو معروف باسم عيسى بالعربية، كما أنهم لا يعدونه ربانياً، بل يعتقدون أنه كان نبياً، أو رسولاً للرب، وقد أطلق عليه اسم المسيح في القرآن، وهم على كل حال بتأكيدهم على يسوع كمسيح، هم يشهدون على رسالته المسائحية، ولكن ليس رسالته كمسيح سماوي، وهناك بالحري علاقات مدهشة فيما بين البحث الذي قدمته في «الأسرة الحاكمة ليسوع»، والعقائد التقليدية للإسلام، ويلح المسلمون ويؤكدون على يسوع كنبي مسائحي

ومعلـم، وهـذا نظـير كامـل لمـا نجـده في المـصدر «ق» وفي كتـاب جـيمس، وفي الديداتشي، وأن تكون مسيحاً عليك أن تعلـن رسـالة، ولكـن هـل هـي الرسـالة نفسها التي أعلنت من قبل إبراهيم، وموسى، وجميع الأنبياء؟ ويصر الإسلام على أنه لا يسوع ولا محمد ﷺ قد جلبا ديانة جديدة، فقد سعى كلاهما إلى دعوة الناس إلى العودة إلى ما يمكن تسميته «الإيمان الإبراهيمي»، وهذا تماماً مـا نجـد التأكيـد عليه في كتاب جيمس، فكتاب جيمس، وتعليـم يـسوع في المـصدر «ق» يؤكـدان مثلما يؤكد الإسلام على تنفيـذ إرادة الـرب، كإظهـار لإيـمان الفـرد، وكـذلك إن مشاريع الإسلام المتعلقة بالأطعمـة، كـما وردت في القـرآن، تـردد أصـداء تعلـيم جيمس في الأعمال / 15/ ، كلمة كلمة تقريباً «قولـه تعـالى»: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ (البقرة 173).

وبما أن المسلمين يرفضون جميع تأكيدات بولص حول يـسوع، والادعـاءات المركزية للمسيحية التقليدية، فإن الهوة ما بين الإسلام والمسيحية حول يسوع، هوة واسعة، وهناك القليل حول يسوع مما جرى تقديمه في هذا الكتاب، يتعارض مـع المفـاهيم الإسـلامية الأساسـية، وكـان النبـي محمـد ﷺ عـلى اتـصال بـبعض المجموعات المـسيحية في شـبه جزيـرة العـرب، وهنـاك بينـات للافـتراض، بـأن المسيحيين الذين التقاهم، من المحتمل أنهم كانوا أقرب إلى عقائد الإبيونيين، أكثـر منهم إلى الكنيسة الغربية، وإذا كان هذا هو الحال، فـإن واحـدة مـن أكثـر النقـاط المدهشة، في التحويل التاريخي ستكون الرأي عن يسوع حسبما قدمته أسرة يـسوع الحاكمة، قد عاشت لسخرية القدر في وجهات النظر الإسلامية التقليدية أيضاً.

ويمكن للمسيحية التي عرفناها من المصدر «ق»، ومن رسالة جيمس، ومن الديداتشي، ومن بعض مصادرنا الأخرى اليهودية المسيحية المتبقية، أن تقدم صيغة عن عقيدة يسوع يمكنها بالفعل أن توحد، لا أن تفرق بـين اليهـود، والمـسيحيين، والمسلمين، وإذا لم يكن هناك شيئاً آخر، يمكن للبصائر التي كشف عنها من خلال

فهمنا لأسرة يسوع الحاكمـة، أن تفـتح أبوابـاً واسـعة وجديـدة ومثمـرة للحـوار والتفاهم بين هذه التقاليد الثلاثة الكبيرة، التي عدت في الماضي آراؤها حول يسوع متعارضة بحدة، إلى حد إغلاق باب النقاش والبحث.

ملحق الصور

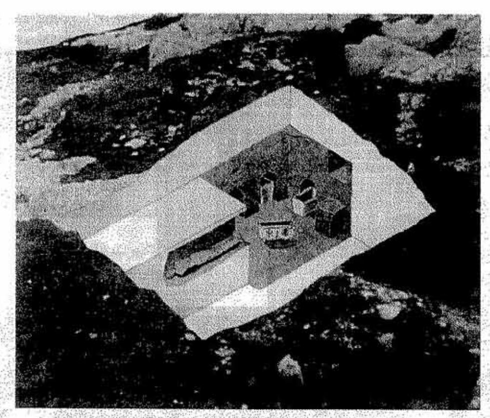
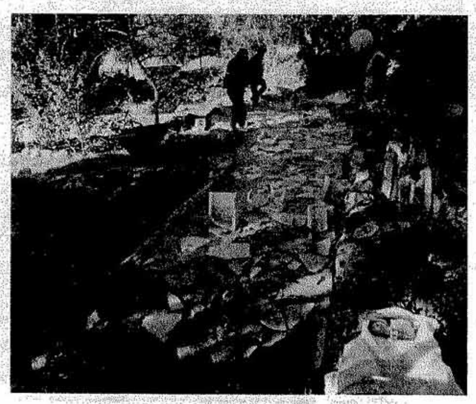


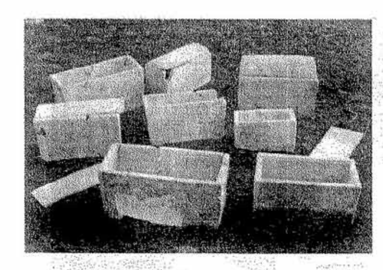
Photo with cutaway drawing of the Tomb of the Shroud
(Jerusalem Archaeological Field Unit)

صورة مقطعية لمدفن الكفن



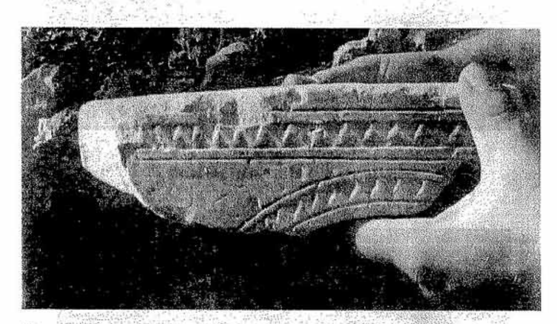
Broken ossuary fragments from the Tomb of the Shroud
(Jerusalem Archaeological Field Unit)

قطع من النواويس المكسرة لمدفن الكفن



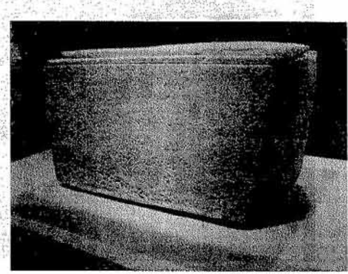
Restored ossuaries from the Tomb of the Shroud
(Jerusalem Archaeological Field Unit)

نواويس مرممة
من مدفن الكفن



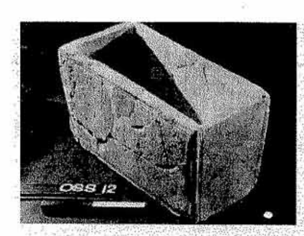
The name "Mary" inscribed on a fragment from the Tomb of the Shroud
(Jerusalem Archaeological Field Unit)

اسم مريم منقوش على
قطعة من مدفن الكفن



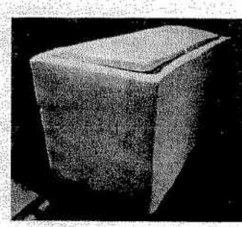
The James Ossuary on display at the Royal Ontario Museum
(James D. Tabor)

ناووس جيمس لدى عرضه في المتحف الملكي في أونتراتو



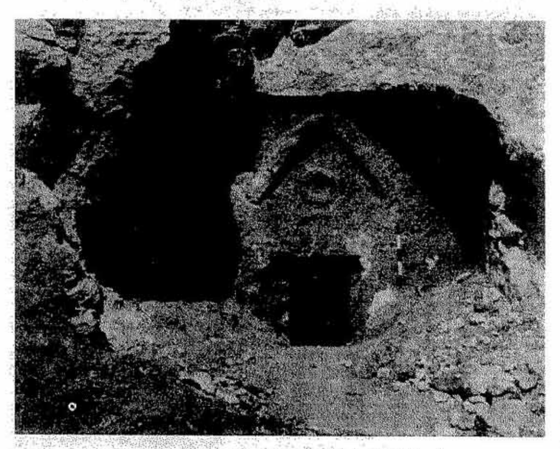
A Tomb of the Shroud ossuary that resembles the James Ossuary
(Jerusalem Archaeological Field Unit)

مدفن الكفن - ناووس يشبه ناووس جيمس



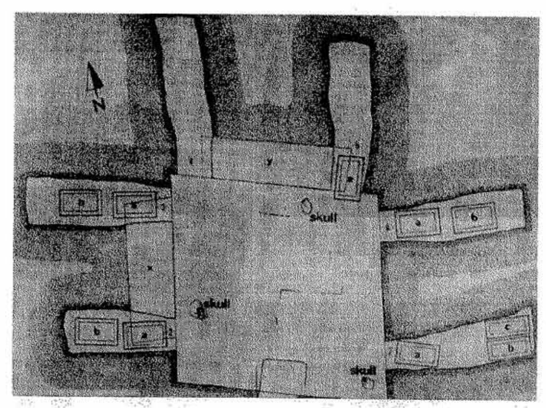
ناووس تلبيوت نقش عليه اسم «يسوع بن يوسف»

A Talpiot ossuary inscribed "Jesus son of Joseph"
(Associated Producers Ltd. Toronto)



The mysterious façade over the entrance to the Talpiot tomb
(Amos Kloner)

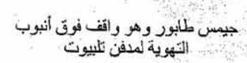
واجهة غامضة فوق مدخل مدفن تلبيوت

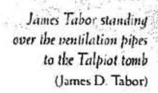


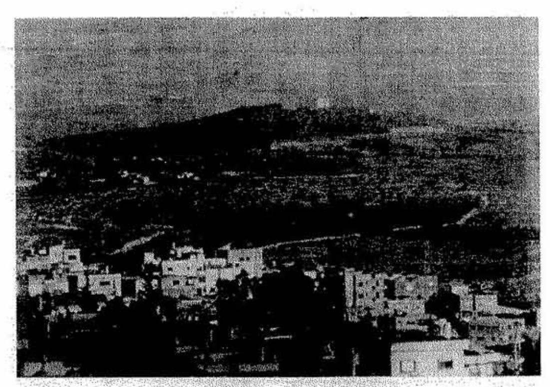
Shimon Gibson's original drawing of the Talpiot tomb with the skulls
(Jerusalem Archaeological Field Unit)

الرسم التخطيطي الأساسي الذي عمله
شمعون جبسون لمدفن تلبيوت مع الجماجم




جيمس طابور وهو واقف فوق أنبوب
التهوية لمدفن تلبيوت


James Tabor standing over the ventilation pipes to the Talpiot tomb
(James D. Tabor)



The ruins of Sepphoris viewed from Nazareth
(James D. Tabor)
خرائب الصفورية مشاهدة من الناصرة

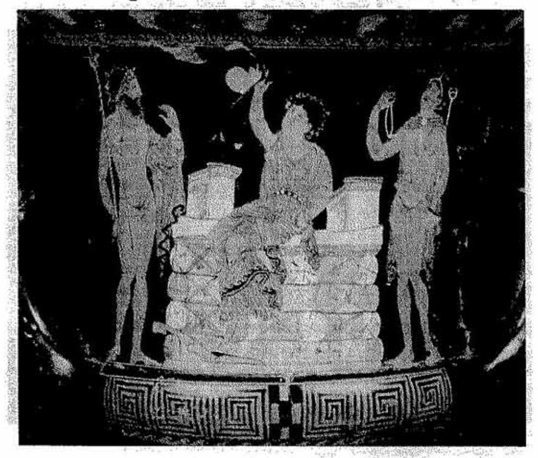


The child Mary with Joachim and Anna by Strozzi
(Bildarchiv Preussischer Kulturbesitz/Art Resource, NY)

الطفلة مريم مع واكيم وحنة رسم ستروزي Strozzi



Drawing of Sepphoris viewed from Nazareth in the time of Jesus
(Balage Balogh)
رسم للصفورية متخيل من الناصرة أيام يسوع

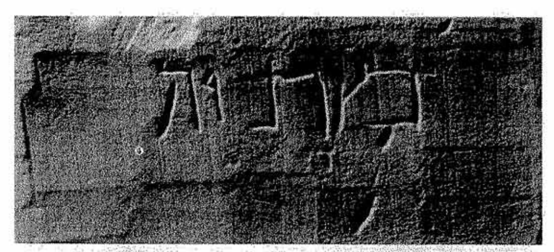


The seduction of Alkmene by Zeus on an ancient Greek vase
(Erich Lessing/Art Resource, NY)
إغواء الكمني Alkmene من قبل زيوس على إناء إغريقي



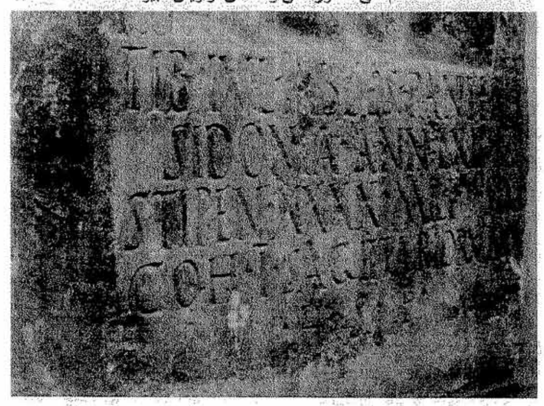
The Assumption of Mary by Poussin
(Erich Lessing/Art Resource, NY)

صعود مريم رسم بوشين Poussin



The name "Matthew" inscribed on one of the Talpiot ossuaries
(Associated Producers Ltd., Toronto)

اسم متى محفور على واحد من نواويس تلبيوت



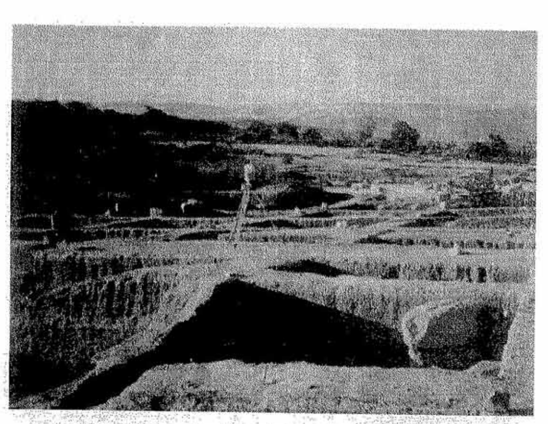
The Tiberius Julius Abdes Pantera inscription
(Seth Tabor-Woodall)

نقش تايبيروس يوليوس أبديس فنتيرا

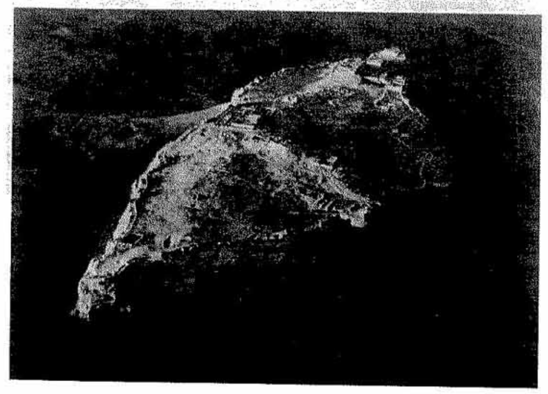


James Tabor examining the Pantera gravestone in Germany
(Seth Tabor Woodall)

جيمس طابور وهو يتفحص شاهد قبر فنتيرا في ألمانيا

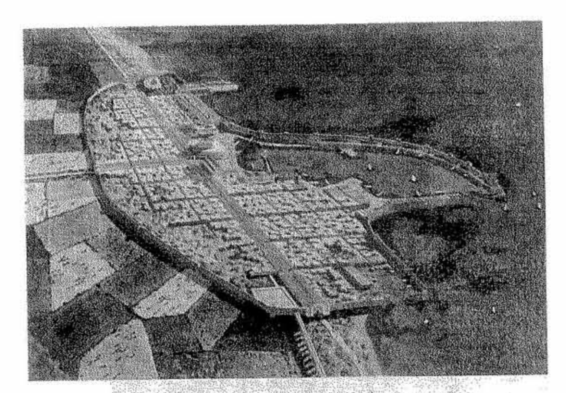


Excavations at Sepphoris with Nazareth in the background
(James D. Tabor)
حفريات أثرية في الصفورية مع الناصرة في الخلف



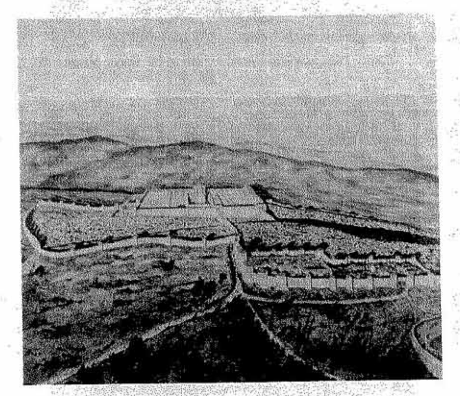
Ruins of Herod's desert fortress Masada
(Todd Bolen/BiblePlaces.com)

خرائب قلعة هيرود الصحراوية في مسعدة



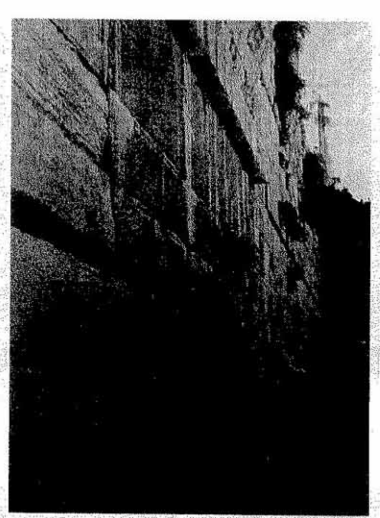
Drawing of Caesarea and its harbor
(Balage Balogh)

رسم لقيسارية وميناتها



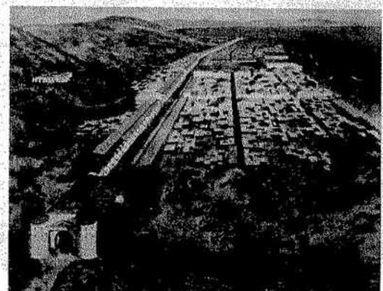
Herod's Jerusalem with the Temple Mount complex
(Balage Balogh)

قدس هيرود مع المجمع المعماري لجبل الهيكل



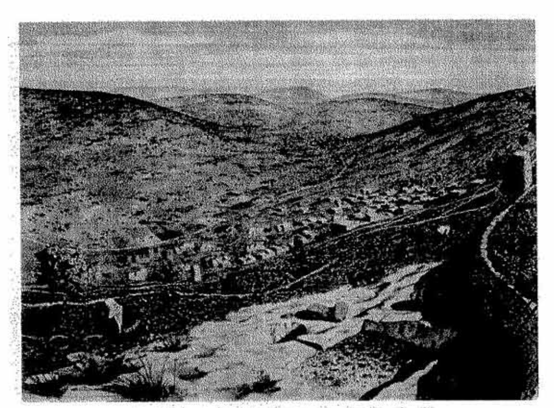
Massive foundation stones still in place at the Temple Mount
(James D. Tabor)

حجارة ضخمة من أساسات ما تزال في مكانها في جبل الهيكل



Ancient Tiberias in the time of Jesus
(Balage Balogh)

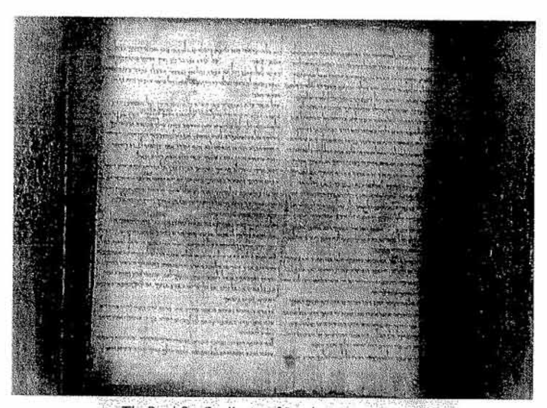
طبرية القديمة في أيام يسوع



The village of Nazareth in the time of Jesus
(Balage Balogh)
قرية الناصرة في أيام يسوع

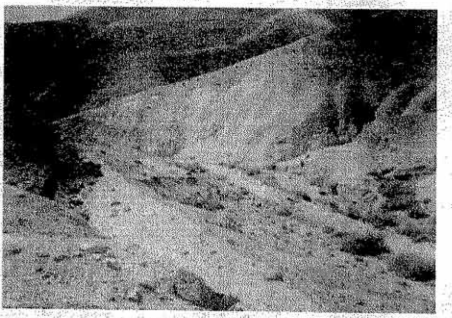


James Tabor in front of a Dead Sea Scrolls cave
(Mike McKinney)
جيمس طابور أمام أحد كهوف مخطوطات البحر الميت



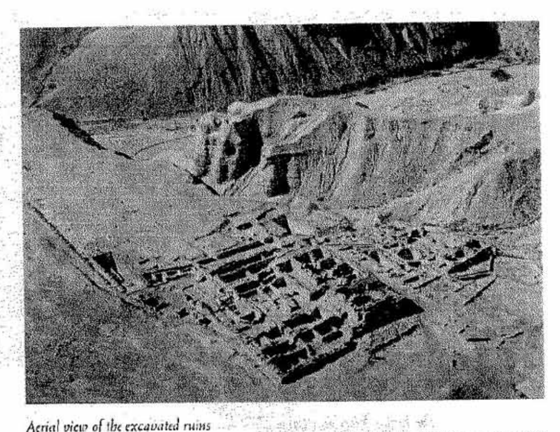
The Dead Sea Scroll copy of Isaiah open to chapter 40
(Z. Radovan/BibleLandPictures.com)

نسخة من سفر إشعيا بين مخطوطات البحر الميت، وهي مفتوحة على الإصحاح /40/.



Ancient Roman road in the Judean desert toward the Dead Sea
(James D. Tabor)

طريق روماني قديم في صحراء اليهودية، نحو البحر الميت



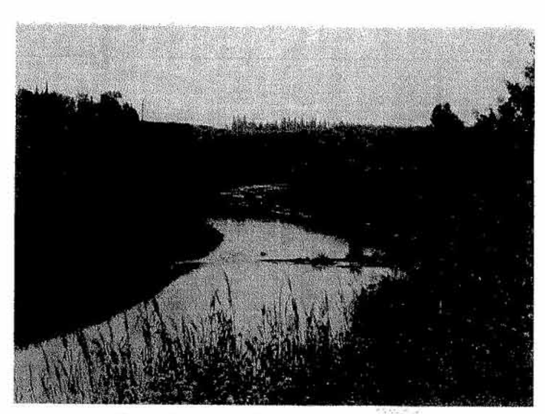
Aerial view of the excavated ruins of the Qumran settlement
(Z. Radovan/BibleLand-Pictures.com)

مشهد جوي لخرائب مستوطنة قمران بعد الحفريات الأثرية



مدخل كهف صوبا بعد كشفه أثريا

The excavated entrance to the Suba cave
(Jerusalem Archaeological Field Unit)



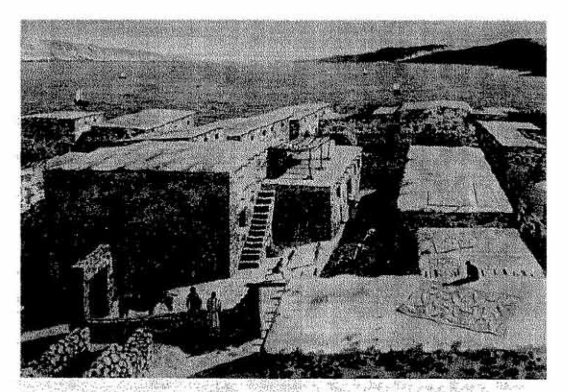
The Jordan River near Salim where Jesus was baptized
(Todd Bolen/BiblePlaces.com)

نهر الأردن قرب ساليم حيث جرى تعميد يسوع



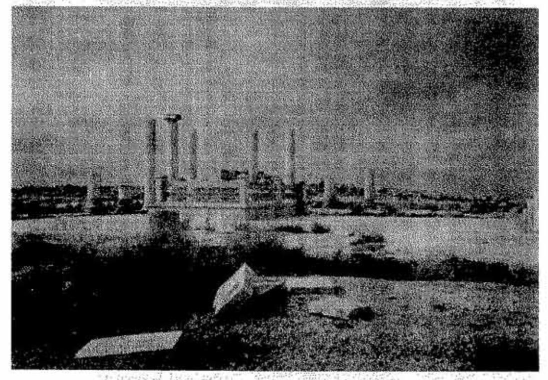
The hill country of Judea near Suba where Jesus baptized multitudes
(James D. Tabor)

المنطقة الهضبية قرب صوبا حيث عمّد يسوع الحشود



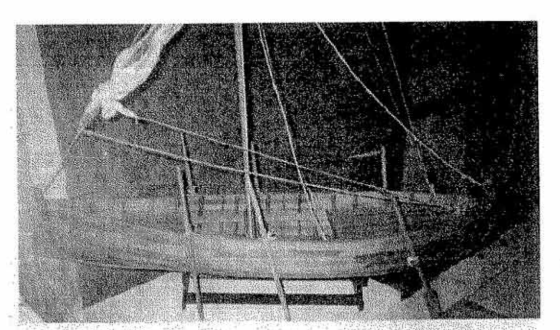
Capernaum with Peter's house in center
(Balage Balogh)

كفرنا حوم مع بيت بطرس في الوسط

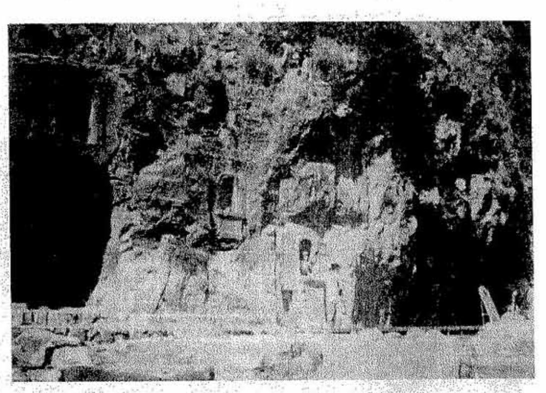


Ruins of Herod's palace atop Machaerus where Salome danced
(James D. Tabor)

خرائب قصر هيرود فوق ماخاريوس حيث رقصت سالومي



Model of a 1st-century Galilean fishing boat based on the ancient hull
(James D. Tabor)
نموذج لمركب صيد أسماك في بحر الجليل صنع على أساس المرسوم البابوي القديم



Shrine area at headwaters of Jordan near Caesarea Philippi
(James D. Tabor)
منطقة معبد عند ينابيع الأردن على مقربة من بانياس الجولان



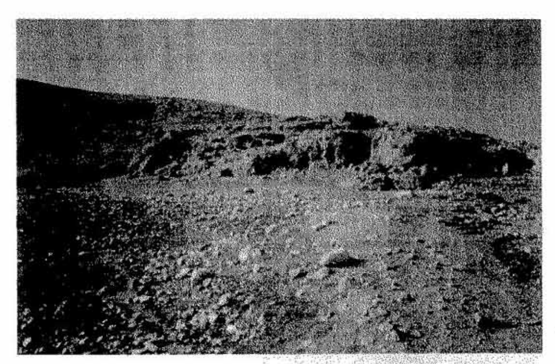
جروف وعرة وكهوف تقود إلى
وادي اليابس

Rugged cliffs and caves leading into Wadi el-Yabis
(James D. Tabor)



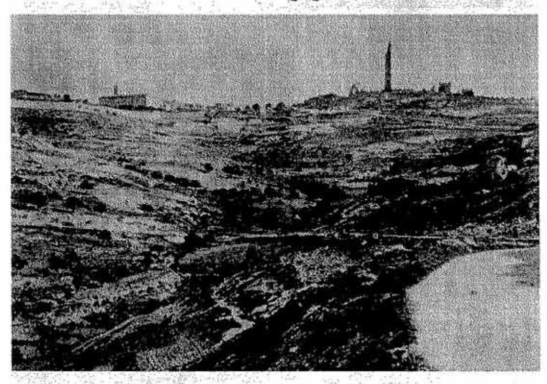
رسم لمكان اختباء يسوع في وادي
اليابس

Drawing of Jesus' hideout in Wadi el-Yabis
(Balage Balogh)



Pilgrim way station with caves on the way to Jericho
(James D. Tabor)

محطة على طريق الحج مع كهوف على الطريق إلى أريحا



19th-century photograph showing the approach to the Mount of Olives from the Judean desert
(Todd Bolen/BiblePlaces.com)

صورة من القرن التاسع عشر تظهر جبل الزيتون مشاهداً من صحراء اليهودية



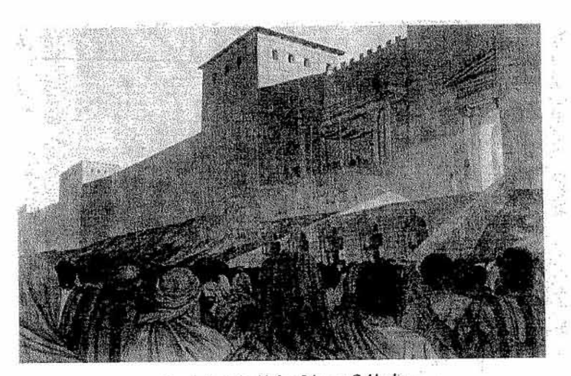
Tyrian silver shekels—required coinage at Herod's Temple
(Z. Radovan/BibleLandPictures.com)

مثاقيل نقدية فضية صورية



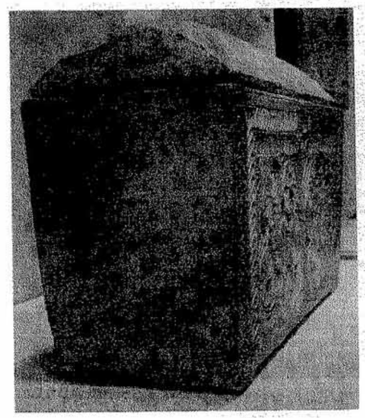
The Garden of Gethsemane
(James D. Tabor)

بستان جيثماني



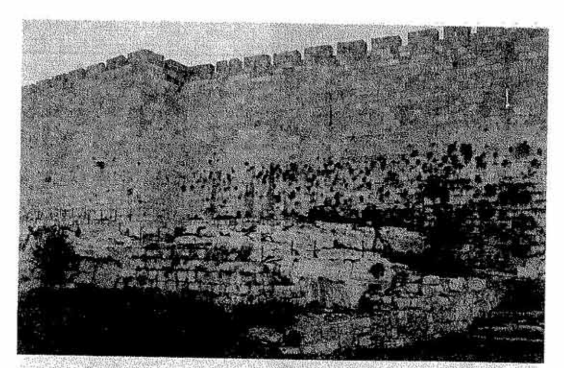
Jesus being judged before Pilate at Gabbatha
(Balage Balogh)

محاكمة يسوع أمام فيلاطس



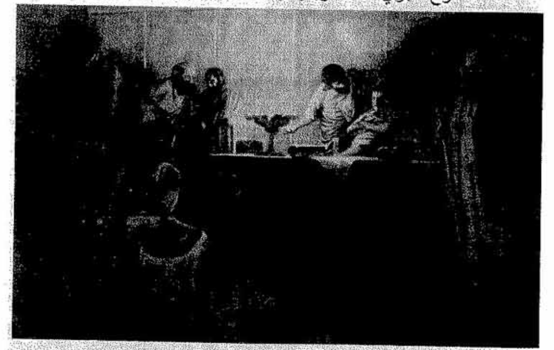
The Caiaphas Ossuary with its inscription on the side
(Associated Producers Ltd., Toronto)

ناووس قيافا مع نقش على جانبه



The excavated stone staircase of Pilate's judgment platform today
(James D. Tabor)

درج حجري كشف أثريا وكان عائدا لقاعة محكمة فيلاطس



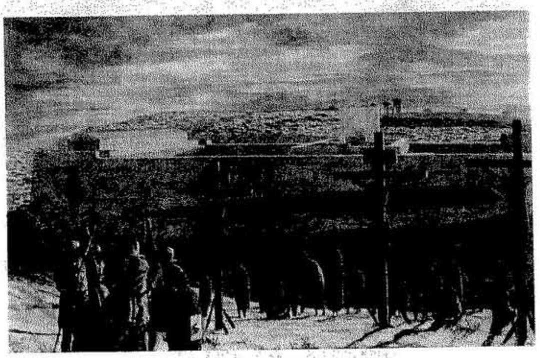
Jesus before Caiaphas in the Priestly Mansion Judgment Hall
(Balage Balogh)

يسوع أمام قيافا في قاعة محكمة بيت الكاهن

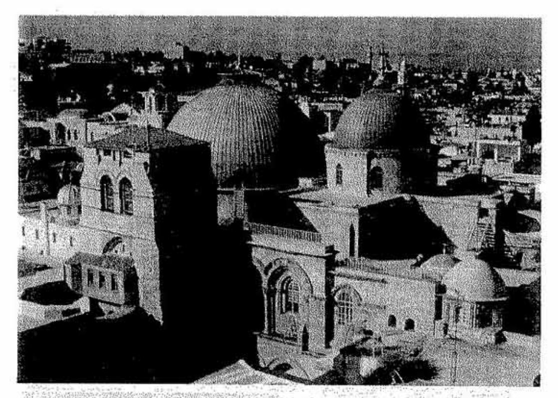


عظام كعب مع مسمار صلب ونموذج معاد تصنيعه

Heel bone with crucifixion nail and reconstructed model
(Z. Radovan/BibleLand-Pictures.com)



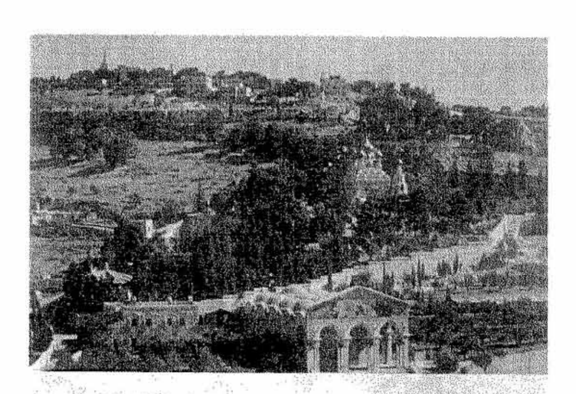
مشهد الصلب من جبل الزيتون



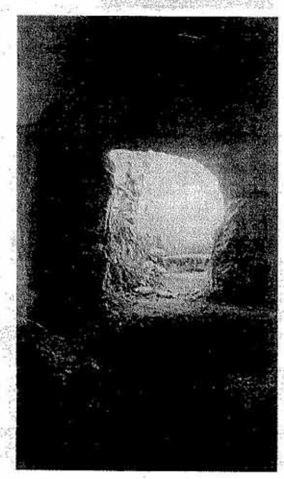
The Church of the Holy Sepulchre today
(Todd Bolen/BiblePlaces.com)
كنيسة الضريح المقدس هذه الأيام



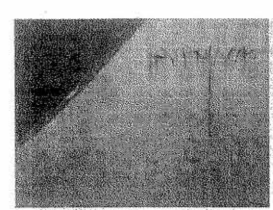
موقع الجمجمة



جبل الزيتون من المدينة القديمة،
وهو يتطلع شرقاً



مدفن فارغ من القرن الأول للميلاد، على جبل الزيتون



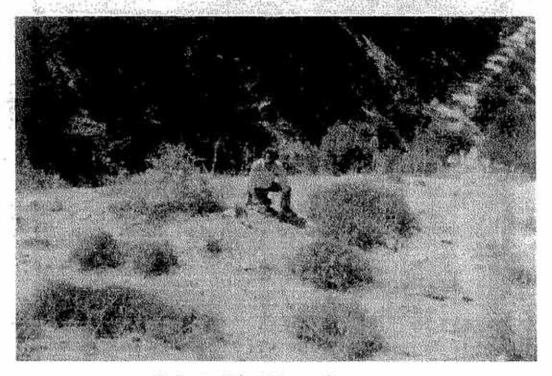
Ossuary fragment with "Simon bar Jonah" inscribed (Associated Producers Ltd., Toronto)

قطعة ناووس وقد نقش عليها اسم «شمعون بريونه»



بطرس وبولص رسم الغريكو Elareco

Peter and Paul by El Greco (Scala/Art Resource, NY)



جيمس طابور جاثيا فوق قبر في الجليل

إنجيل توما



رؤيا بولص السماوية رسم
بارميغيانينو
Parmigianino

Paul's heavenly vision
by Parmigianino
(Erich Lessing/Art
Resource, NY)



موت جيمس رسم لوكين Luiken

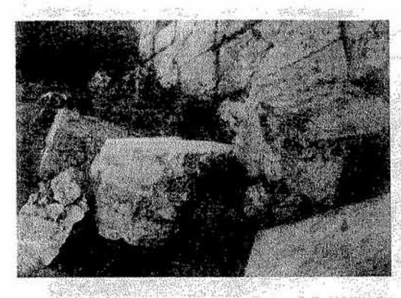
Southeast corner of Temple Mount today

(James D. Tabor)

الزاوية الجنوبية الشرقية لجبل الهيكل في هذه الأيام

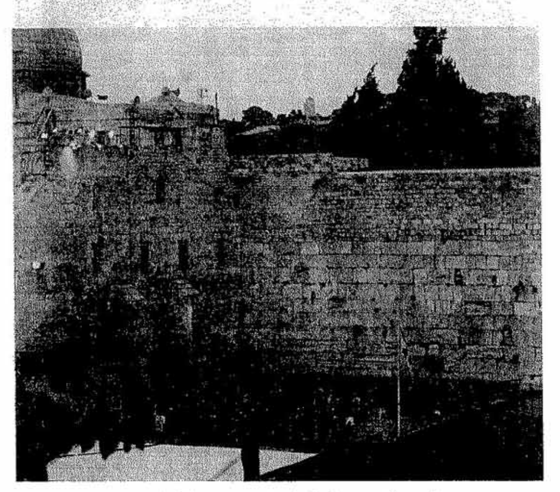


تدمير القدس من قبل الرومان رسم ديفيد روبرت David Roberts

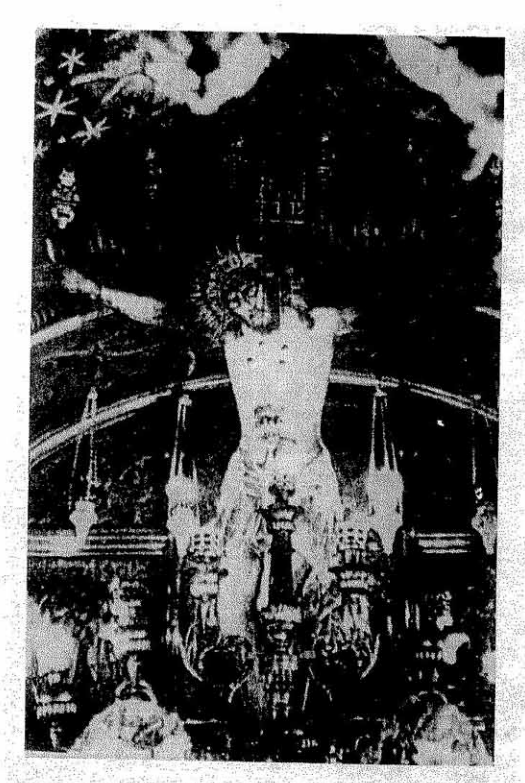


حجارة هيرودية
من بقايا التدمير
الروماني

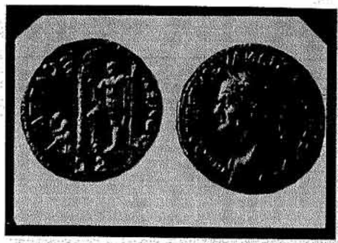
Herodian stones remaining from the Roman destruction
(James D. Tabor)



السور الغربي ترك قائماً دونما تهديم من قبل الرومان

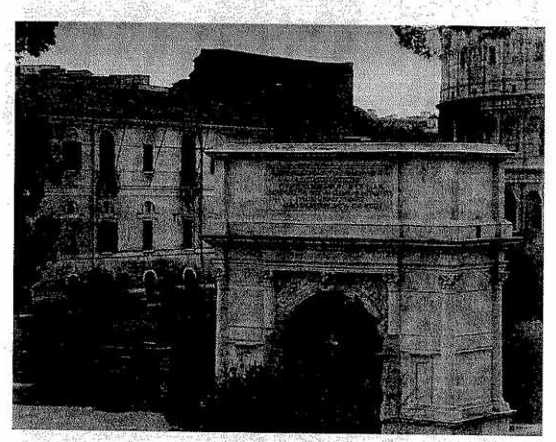


. المسيح المصلوب عند الجلجلة .



قطعة نقد رومانية تمثل احتفال «يهوذا كابتا» Judaea Capita بالنصر الروماني

Roman coin "Judaea Capta" celebrating the Roman victory
(James D. Tabor)

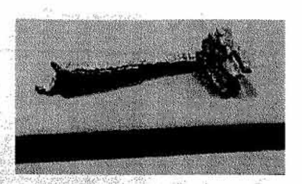


The Arch of Titus and the Colosseum in Rome
(Todd Bolen/BiblePlaces.com)

قوس تيتوس والمدرج في روما



لقطة جوية لموقع المدينة الآرامية «بيت صيدا» على تل البطيحة



مفتاح بيت صياد السمك في بيت صيدا
الذي أهديت نسخة مصنوعة منه
للبابا يوحنا بولس الثاني خلال زيارته
للأراضي المقدسة عام ٢٠٠٠



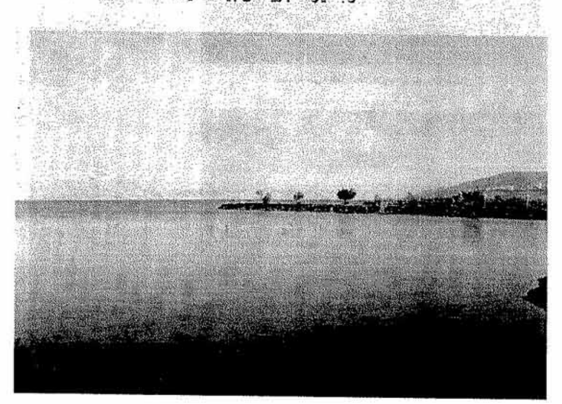
صليب على قطعة فخار عثر عليه في بيت صيدا



زخارف تعود لزمن أغسطس قيصر



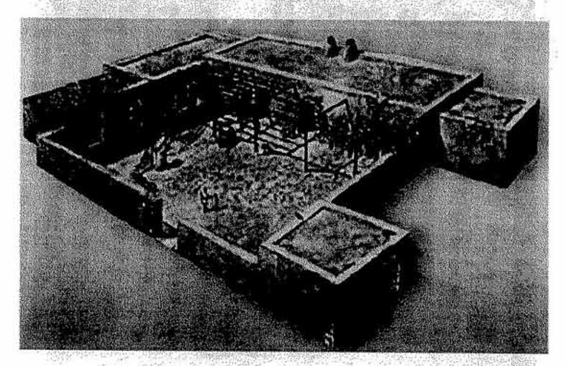
منظر بحيرة طبريا من بيت صيدا



شاطئ طبريا المقابل لبيت صيدا



لوحة تجسد المسيح والحواريين يصيدون السمك في بيت صيدا



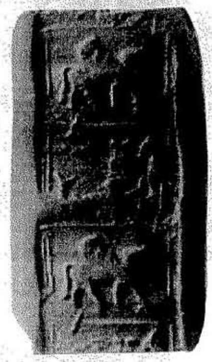
إعادة بناء لبيت صياد السمك



مرساة سفينة



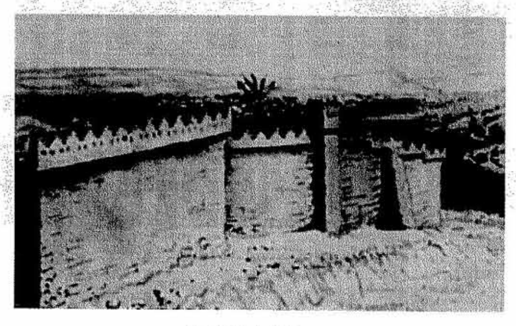




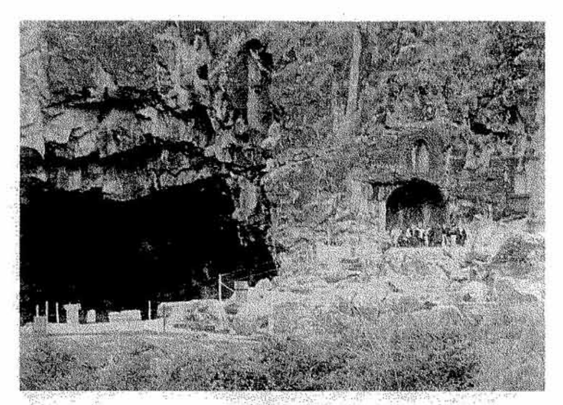
ختم طيني لحصان وسفينة
فينيقية في بيت صيدا



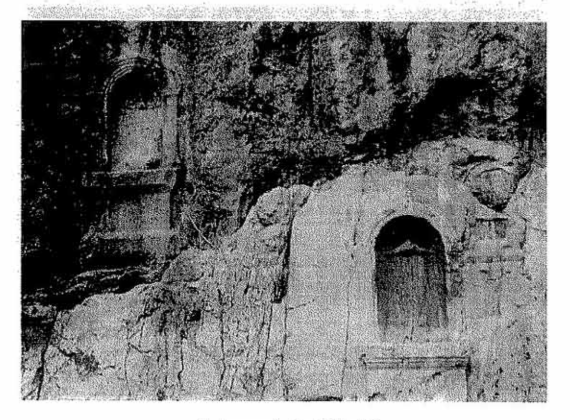
موقع بوابة المدينة



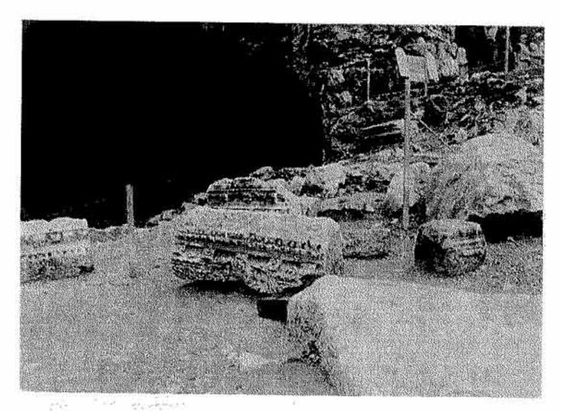
رسم تخيلي لبوابة المدينة



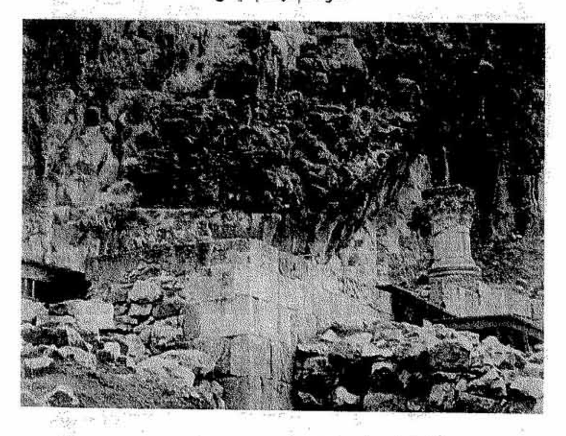
كهف بان



كوى التقدمات قرب معبد بان

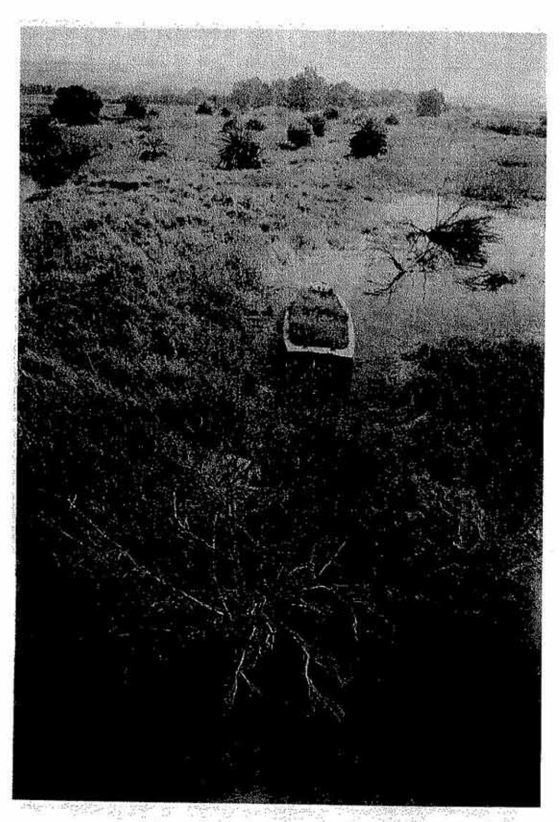


آثار أمام كهف بانياس

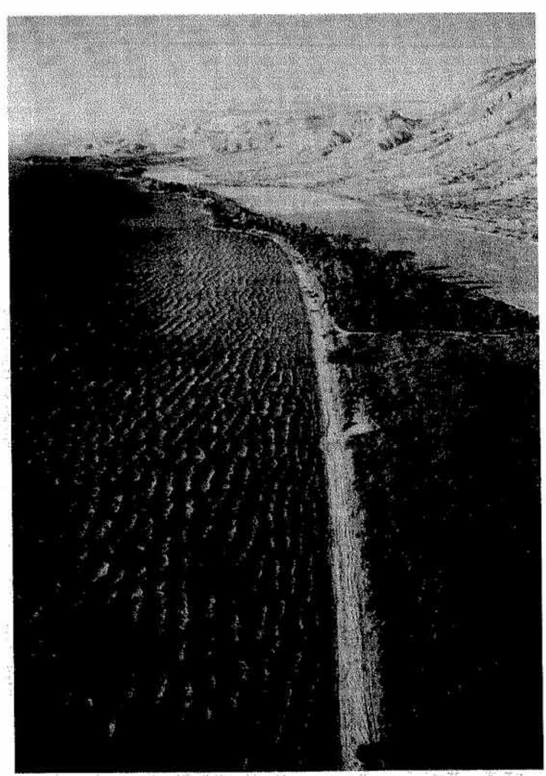




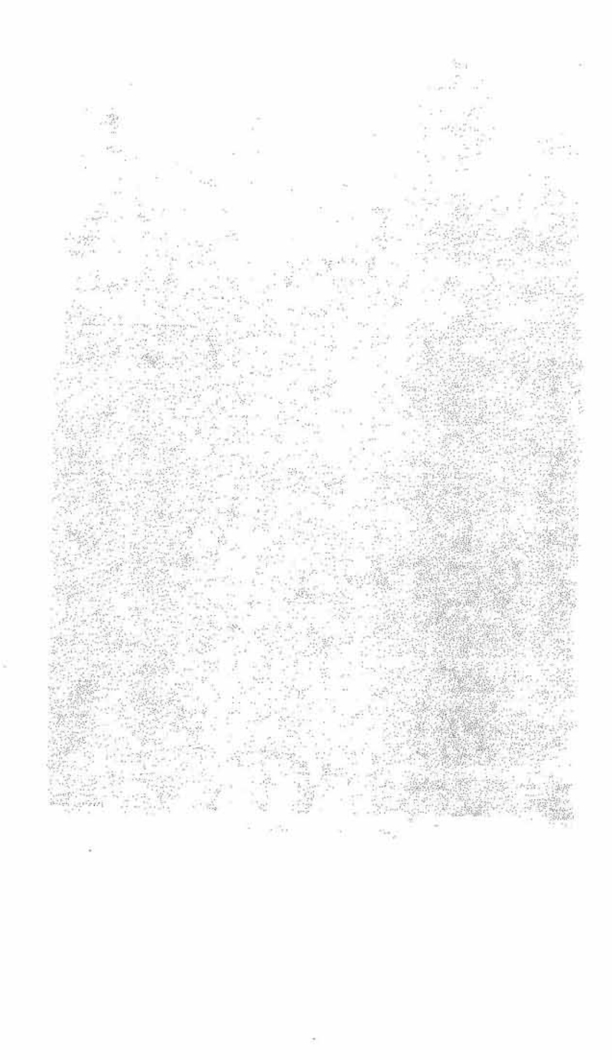
منظر لبحيرة طبريا من البطيحة



زورق صياد سمك مهجور في البطيحة



شاطئ بحيرة طبريا الشرقي



كلمة أخيرة

عندما وقفت في بستان جيثسيماني تلك الليلة في شبابي، لم يكن بالإمكان تصور العقود الزمانية التي تلت في رحلتي في انكبابي على العمل الذي قمت به، وبالنسبة لي كمؤرخ كانت رحلة بحث مدهشة، مليئة بنتائج غير متوقعة، واكتشافات مدهشة، وكان هدفي عند كل التفاتة الاقتراب بقدر الإمكان اعتماداً على أدلتنا من يسوع التاريخي وذلك بقدر ما يمكن استرداده في أيامنا، والمؤرخون واعون تماماً، أنه لا مصادرنا، ولا محاولاتنا لعمل منطق منهم، هي نوافذ شفافة، وبناء عليه، إن رؤيتنا للماضي، ليست واضحة مطلقاً، ومن غير الممكن التحديق «بالحقائق» لكن من دون تفسيره، وتوصل جميع المؤرخون في أبحاثهم إلى درجة منتقاة من الحكم، المحشو بكل من الاهتمامات غير المسبقة وغير المنظمة، والافتراضات الثقافية، حيث ليس هناك مكان إيجابي بشكل مطلق للوقوف عليه، وطوال ما نحن مدركون لمحدوديات مذهبنا، ومقاومون مساواة أعمالنا في إعادة البناء مع الحقيقة المطلقة، يمكننا على الأقل السعي نحو موقف وسطي حول أفضل الأدلة، وعندما أتت الأمور إلى البحث عن يسوع التاريخي، ظهرت حاجتنا لأن نكون مدركين لأحكامنا المسبقة، حاسمة بشكل خاص، فما من شخصية أخرى في التاريخ أثارت مثل هذه الاستجابات الانفعالية، ولا ولدت مثل هذه المحصلات المضادة، والتواضع المدرك أمام البينات ضروري بشكل مطلق، وقد حاولت في دراستي تضمين هذه المقاييس العالية، وأنا سعيد بدرجة النجاح التي توصلت إليها، وأنا واقف مع كل مؤرخ صالح، منفتح دوماً للنقد ولإعادة النظر.

ولقد اكتشفت خلال الأربعين عاماً التي مضت أن هناك أعداداً لا تحصى

من الآخرين يشاركون في السعي للبحث عن يسوع التاريخي، والذين يريـدون أن يعرفوا الصدق، إلى حيثما يقود، وقـد تكـون محـصلاتنا مختلفـة، ولكننـي آمـل أن رحلتي سوف تساعدهم على أن يـروا يـسوع بـشكل أفـضل، كـما كـان في زمانـه ومكانه، وأنا حقاً أعتقد أن فهماً ليسوع ولأسرته، وللأسرة الحاكمة التـي جعلـت رسالته خالدة، هو واحد من أهم المفاتيح لإكمال تقصينا لمعرفـة يـسوع التـاريخي، وأصول المسيحية.

جدول تأريخي بالأحداث والشخصيات الرئيسية

167 64- ق.م	ثورة المكابيين ضد أنطيخوس الرابع حاكم سورية.
63 ق.م	استيلاء الرومان على فلسطين من قبل بومبي، وجعل اليهودية ولاية رومانية.
31 ق.م- 14م	حكم أغسطس أول إمبراطور لروما.
37 - 4 ق.م	حكم هيرود الكبير« ملك اليهود» على فلسطين.
4 ق.م	موت هيرود الكبير، وثورة في الجليل واليهودية.
4 ق.م- 6م	حكم آرخيلوس بن هيرود، على اليهودية.
4 ق.م- 39م	حكم هيرود أنتيباس بن هيرود على الجليل وبيريا.
4 ق.م- 34م	حكم فيليب بن هيرود على المناطق الشرقية.
5 ق.م	ميلاد يوحنا المعمدان ويسوع.
6م	ثورة يهوذا الجليلي بعد عزل آرخيلوس.
14-37م	حكم تابيروس الإمبراطور الثاني لروما.
26 - 36م	حكم بونطيوس فيلاطس على اليهودية.
26م	تبشير يوحنا المعمدان وتعميد يسوع.
29م	قطع رأس يوحنا المعمدان من قبل هيرود أنتيباس.
30م	صلب يسوع.
37-41م	حكم كاليغولا، الإمبراطور الثالث لروما.

41-54م	حكم كلوديوس، الإمبراطور الرابع لروما.
54-68م	حكم نيرون، الإمبراطور الخامس لروما.
خمسينات القرن الأول	سيرة أعمال بولص وتبشيره.
62م	موت جيمس أخي يسوع.
63م	التاريخ التقليدي لموت بطرس.
64م	التاريخ التقليدي لموت بولص.
68-69م	محاولات القادة: غالبا وأوثو، وفيتيليوس لأن يصبحوا أباطرة.
69-79م	حكم فسبسيان، الإمبراطور السادس لروما
66-70م	الثورة اليهودية الأولى، التدمير الروماني للقدس في العام 70م.
73م	سقوط مسعدة آخر مركز للمقاومة اليهودية.
79-81م	حكم تيتوس بن فسبسيان، الإمبراطور السابع لروما.
81-96م	حكم دوميشيان بن فسبسيان، الإمبراطور الثامن لروما.
96-98م	حكم نيرفا، الإمبراطور التاسع لروما.
98-117م	حكم تراجان، الإمبراطور العاشر لروما.
106م	صلب شمعون، خليفة جيمس، أخو يسوع.
117-138م	حكم هدريان، الإمبراطور الحادي عشر لروما.
132-135م	ثورة اليهود الثانية بقيادة المسيح اليهودي ابن كوكب.

حواشي التوثيق

Introduction

1. For more information on these and other interesting sites relevant to biblical studies see http://www.tfba.org.
2. The students with me that afternoon were Kaitlyn Cotanch, Lee Hutchinson, Vicki Powell, Jeff Poplin, and Mark Williams.
3. In the Bible the phrase "gathering the bones" of the deceased possibly refers to this practice of secondary burial. The Jewish practice is summarized in the Mishnah, *m. Sanhedrin* 6:6: "When the flesh had decomposed they collect the bones and bury them in their right place."
4. B. Zissu, S. Gibson, Y. Tabor, "Jerusalem—Ben Hinnom Valley," in *Hadashot Arkheologiyot* (Jerusalem: Israel Exploration Society, 2000), vol. 111, pp. 70–72, Figs. 138–39.
5. Hershel Shanks and Ben Witherington III, *The Brother of Jesus: The Dramatic Story & Meaning of the First Archaeological Link to Jesus & His Family* (New York: HarperSanFrancisco, 2003).
6. David Samuels's "Written in Stone" (*New Yorker*, April 12, 2004), gave many the erroneous impression that the case was closed.
7. A full regularly updated archive of materials both pro and con on the authenticity of the James ossuary inscription can be found at http://www.bib-arch.org
8. Her official letter is at http://bib-arch.org/bswbOOossuary_yardeni.asp.
9. Their official press release is archived at: http://www.rom.on.ca/news/releases/public.php?mediakey=vhggdo3048.
10. See Gibson's published account of this information based on Rafi Lewis' written affidavit in "A Lost Cause," *Biblical Archaeology Review* (November/December 2004): 55–58.

11. Samuels, "Written in Stone," 51.

12. It is interesting that the initial AP headline, "JESUS" CASKET FOUND IN ISRAEL, was defensively softened to CASKETS LABELED JESUS, MARY AND JOSEPH PROBABLY COINCIDENCE within a matter of hours. By the time the story filed by veteran *Jerusalem Post* reporter Abraham Rabinovich appeared in *USA Today* on April 3, the Gannett headline read COFFIN IN ISRAEL IS NOT THAT OF JESUS' FAMILY, EXPERTS SAY. The story had deflated like a punctured tire.

13. L. Y. Rahmani, *A Catalogue of Jewish Ossuaries in the Collections of the State of Israel* (Jerusalem: Israel Antiquities and Israel Academy of Sciences and Humanities, 1994). The ossuary inscribed "Jesus son of Joseph" is catalogue No. 80.503 in the Israeli warehouse and listed as No. 704 in the Rahmani publication.

14. The ossuary is catalogued as S 767 in the warehouse and appears as No. 9/Plate 2 in Rachmani. It was "discovered" by Eleazar Sukenik of Hebrew University, the first Israeli to identify the Dead Sea Scrolls. He found it in a basement storage area of the Palestinian Archaeological Museum (today the Rockefeller) in Jerusalem in 1926. Unfortunately it had no archaeological context. When Sukenik published a report about the ossuary in January 1931, the news that such an inscription existed, it being the only one ever found until that time, created no small stir in the world press, particularly in Europe (see L. H. Vincent, "Épitaphe prétendue de N.S. Jésus-Christ," *Atti della pontificia: academia romana di archaeologie: Rendiconti* 7 [1929–30]: 213–39).

15. For some reason Baruk seems to have misidentified the first one. Instead he showed them a broken inscribed fragment barely six inches in diameter that could not have read "Jesus son of Joseph." No such inscribed fragment exists. The actual 1926 ossuary with this inscription is complete and intact, pictured clearly in the Rachmani catalogue. Had the crew been shown this one it would have more than suited their purposes for filming and I doubt they would have even asked to see the second one. Baruk then brought out the second one, discovered in 1980.

16. The ossuary from Talpiot with the inscription "Jude son of Jesus" is on permanent display in the Israel Museum for public viewing as part of an exhibit showing the common use of these various Jewish names on burial ossuaries of the time.

17. *London Sunday Times*, March 31, 1996.

18. Reuters, April 2, 1996.

19. *London Sunday Times*, March 31, 1996. Zias's comments are all the more interesting given his later skepticism about the authenticity and significance of the so-called "James ossuary" revealed to the public in 2002.

20. Neil Silberman, *The Hidden Scrolls: Christianity, Judaism, and the War for the Dead Sea Scrolls* (New York: Putnam, 1994), p. 129.

21. Associated Press, April 2, 1996.

22. Amos Kloner, "A Tomb with Inscribed Ossuaries in the East Talpiot," *Atiqot* 29 (1996): 15–22. Kloner writes, "The bones within these ossuaries were in an advanced stage of disintegration" (p. 16). He says nothing about the human skulls that Gibson saw and put in his drawing. In a final note in his article he says, "After the completion of the excavation, the bones were reburied" (p. 22). Notice that Kloner did not publish his official report until 1996, sixteen years after the excavation and the same year all the publicity broke. He apparently was not involved in the excavation and writes his report based on the information compiled by the excavator, the late Joseph Gath.

PART ONE: IN THE BEGINNING WAS THE FAMILY

1. A Virgin Shall Conceive

1. Mary's parents, Joachim and Anna, are not named in the New Testament. Our earliest source is the 2nd-century A.D. gospel called the *Protoevangelium of James*. A reliable 3rd-century Greek copy, the Bodmer papyrus, was recently discovered. Joachim and Anna became popular figures in Catholic lore and their story was a favorite theme of Renaissance artists. Churches were dedicated to St. Anne as early as the 5th century and are common throughout the world today. The tradition that Mary was born in Sepphoris is much later, and less reliable, first mentioned by the "Piacenza Pilgrim" in A.D. 570. He reports being shown the house of Mary. A Crusader church was built to commemorate the site, but there is some evidence of Byzantine remains on the grounds including a 3rd-century mosaic. Today the Sisters of St. Anne maintain a convent there and maintain the tradition of Mary's family.

2. Josephus *Jewish War*, Book 1, trans. by H. St. J. Thackeray, Loeb Classical Library (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1927), 386–97 and *Jewish Antiquities*, Book 15, trans. by Allen Wikgren, Loeb Classical Library (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1943), 194–201. Subsequent references to Josephus are to the Loeb Classical Library editions, beginning with the book number.

3. Josephus *Jewish War* 7.300. The destruction of the genealogies is reported by Julius Africanus. See Eusebius, *Church History*, trans. by Kirsopp Lake, Loeb Classical Library (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1984), 1.7.11–13.

4. See Eusebius *Church History* 3.12, 19. These texts will be analyzed extensively in subsequent chapters.

5. Some have put the death of Herod slightly later but 4 B.C. is the most commonly accepted date.

6. Josephus *Jewish Antiquities* 17.271–85.

7. Varus's rule in Syria was characterized by cruelty and arrogance toward the local population. This is the same Varus responsible for the devastating Roman defeat in the Teutoburger Forest, east of the Rhine, in A.D. 9 by the German Arminius, changing the course of history. The Romans lost three legions in what became known as the "Varus Disaster" (*Clades Variana*). Varus was married to the grand-niece of the emperor Augustus and was well connected in aristocratic Roman circles. According to the Roman historian Seutonius, when Augustus heard the news of the defeat he knocked his head against the doorpost crying out "O Quintilius Varus! Give me back my legions!"

8. Josephus *Jewish Antiquities* 17:285–98, and *Jewish War* 2.66–75.

9. Josephus *Jewish Antiquities* 18.27. The Greek word he uses, *proschema*, could be translated in this context as "showplace."

10. In Jerusalem, just outside the Garden of Gethsemane in the Kidron Valley, there is the Church of the Tomb of the Virgin, sometimes called the Church of the Assumption. Queen Helena, mother of the emperor Constantine, built it in A.D. 326. It supposedly has the graves of Mary, Joseph, and Mary's parents, Joachim and Anna. We have no independent evidence of the deaths of Joseph and Mary's parents in Jerusalem.

11. The Greek verb *mnesteuo* means to be legally pledged to be married. It is the same verb used of Mary in Luke 1:27 and Matthew 1:18. In Jewish tradition "engagement" is a type of preliminary "marriage," but without full consummation, and sexual unfaithfulness is regarded as adultery (*Sanhedrin* 57b).

12. The returning to Nazareth is according to Luke 1:26. Apparently Matthew is unaware of this tradition. He does say that the couple eventually settled in Nazareth, but only after the birth of Jesus (Matthew 2:23).

13. When Jesus returned home to Nazareth as an adult he was invited to speak in the synagogue and his family was known by name (Luke 4:16; Matthew 13:55).

14. "Nazareth Village," http://www.nazarethvillage.com.

15. Some Roman Catholic scholars have maintained that Matthew's language—"He took his wife but knew her not until she had given birth to a son"—does not necessarily imply the couple had sexual intercourse thereafter. They point out that the word "until" does not always indicate subsequent change. For example, one might say to another, "Stay sober until I come," without implying that one is to be drunken thereafter. The argument seems strained and in the interest of dogmatic theology, namely the doctrine of the Perpetual Virginity of Mary. The natural reading of both the Greek and the English seems clear—the couple began a normal sexual relationship after Jesus was born.

16. See Babylonian Talmud *Sanhedrin* 57b. The revered Catholic theologian Jerome, who lived in the 4th century A.D., was so insistent that Mary never had sexual relations that he was willing to say she never married, knowing that marriage within Judaism required sexual consummation. He writes: "But as we do not deny what is written, so we do reject what is not written. We believe that God was born of the Virgin, because we read it. That Mary was married after she brought forth, we do not believe, because we do not read it" (*Against Helvidius* 21) in *The Nicene and Post-Nicene Fathers*, vol. 6, ed. W. H. Freemantle, G. Lewis, and W. G. Martley (Grand Rapids: Wm. B. Eerdmans, 1983), 335.

17. There are New Testament scholars who doubt the historical validity of even this bare outline, particularly the story of Jesus' birth in Bethlehem. They maintain that the Bethlehem story was likely added to provide

support for Jesus being the Messiah of the line of David, since Bethlehem was David's city. There is some indication that the question of the location of Jesus' birth, whether in Galilee or in Judea, became a point of controversial discussion among Jewish groups (see John 7:40–44).

18. I will refer to the four New Testament gospels simply by their traditional names: Matthew, Mark, Luke, and John, though most scholars maintain their actual authors are unknown to us. Accordingly, if I write that Matthew or Mark "say" something I mean the book, not the person. A good readable introduction to these matters is found in Bart Ehrman, *The New Testament: A Historical Introduction to the Early Christian Writings* (New York: Oxford University Press, 2004).

19. This is a literal translation of the Greek, rather than the more lofty sounding traditional phrasing "from the Holy Spirit" with definite article and capital letters. In the New Testament the term "holy spirit" is referred to twenty-eight times with the definite article and forty-four times without. Although the meaning is essentially the same, that is, a reference to God's "holy spirit," the use of the article, as in English, does add specificity or emphasis to the term. Accordingly, one might expect in a passage dealing with the source of Mary's pregnancy that the definite article would be used but it is not (compare Matthew 12:32, where one finds the article). The practice of capitalizing "Holy Spirit" followed in most translations of the Bible is a theologically based attempt to personify the Holy Spirit as part of the Godhead or Trinity.

20. All translations from the Bible are my own unless otherwise indicated. I have used italics for emphasis in certain places.

21. The Greek translation of the Hebrew Bible known as the Septuagint or LXX used the word *parthenos* in Isaiah 7:14. It does mean "virgin" but the clear meaning in context is not that a woman becomes pregnant *without a male* but that a virgin girl who has never had sex before becomes pregnant. This special child would be born not of a woman who had already had children, but of one who was a virgin when she got pregnant. Since Matthew wrote in Greek and is quoting Isaiah he uses the word *parthenos* as well. When the Revised Standard Version of the Old Testament was published in 1952 the translators correctly used the English "young woman" rather than the traditional "virgin" in Isaiah 7:14. The translation was de-

nounced by many fundamentalist Christians as a devilish communist attempt to undermine faith in the "virgin birth of Christ."

22. One of the most ancient, the "Apostles' Creed," reads as follows: "I believe in God, the Father Almighty, Maker of heaven and earth, and in Jesus Christ, His only Son, Our Lord, Who was conceived by the Holy Ghost, Born of the Virgin Mary, Suffered under Pontius Pilate, Was crucified, dead and buried. He descended into hell and on the third day He rose again from the dead. He ascended into heaven, and sits on the right hand of the Father Almighty, from thence He shall come to judge the quick [living] and the dead. I believe in the Holy Ghost, the holy Catholic Church, the communion of saints, the forgiveness of sins, the resurrection of the body, and the life everlasting. Amen." (Traditional English translation from the Book of Common Prayer.)

23. Some early Christians did debate whether Mary remained a virgin (*virginitas in partu*), with her hymen remaining intact even though she had borne a child. The *Protoevangelium of James* (chapter 20) is our earliest source for this idea. The text recounts how a midwife, examining Mary after the birth of Jesus, found that she remained physically intact through God's miraculous power. This idea never became official dogma and the opinion of most of the ancient Christian theologians was that Mary was "virgin in terms of a man, not virgin in terms of giving birth" (Tertullian *De carne Christi* 23) in *The Ante-Nicene Fathers*, vol. 3, ed. Alexander Roberts and James Donaldson (Grand Rapids: Wm. B. Eerdmans, 1986), 536.

24. In Roman Catholic teaching there are four Marian dogmas: the Immaculate Conception, the Virginal Birth (meaning Conception), Perpetual Virginity, and the bodily Assumption of Mary into heaven. The latter was only made official in the 20th century when declared an infallible dogma by Pope Pius XII in 1950. See *Catholic Encyclopedia*, 2nd ed., s.v. "The Blessed Virgin Mary" and "Feast of the Assumption."

25. In 1523 Luther wrote in his treatise "That Jesus Christ Was Born a Jew": "When Matthew says that Joseph did not know Mary carnally until she had brought forth her son, it does not follow that he knew her subsequently; on the contrary, it means that he never did know her," in Jaroslav Pelikan and Helmut T. Lehmann, eds., *Luther's Works*, vol. 45 (Philadelphia: Fortress Press, 1955), p. 212. In his "Letter to a Roman Catholic" Wesley

writes, "I believe he was born of the blessed Virgin, who, as well after as she brought him forth, continued a pure and unspotted virgin," in A. C. Coulter, *John Wesley* (New York: Oxford University Press, 1964), p. 495.

2. A *Son of David?*

1. Although a few modern scholars have expressed doubt about the historicity of Jesus' claim to be either a "messiah" or a descendant of David, the tradition is early and widespread in all our documents, with no one even suggesting otherwise. The earliest texts are Romans 1:3; Mark 10:47; Acts 2:30, 13:23, 15:16; 2 Timothy 2:8; Revelation 5:5, 22:16; *Didache* 10:6; Ignatius *Ephesians* 18:2.
2. Josephus says that John Hyrcanus (reigned 135–104 B.C.), though not a descendant of David, declared himself ruler of the nation *and* high priest—roles ideally intended for two "messiahs," one priestly and the other Davidic (*Jewish Antiquities* 14.14; *Jewish War* 1.120–23).
3. The accounts are found, respectively, in Genesis 38, Joshua 2, Ruth 3, and 2 Samuel 11.
4. Jechoniah or "Coniah" is known in the biblical histories as Jehoiachin (see 2 Kings 24:8–15; 2 Chronicles 36:9–10). He came to the throne at age eighteen and only reigned three months. Nebuchadnezzar carried him away captive to Babylon. He was the grandson of the famous king Josiah.
5. Jews and Christians of that time were well aware of the problem that Jeremiah's declaration created for this particular branch of the royal family. Hippolytus, a 3rd-century Christian, even denied that the Jechoniah condemned by Jeremiah was the same one recorded in Matthew's genealogy. The rabbis, realizing the problem, but revering this royal lineage, speculated that God had later repealed the punishment since Jechoniah had repented of his notorious wickedness in exile—a point not made by the biblical writers (see Babylonian Talmud *Sanhedrin* 37b). Eusebius of Caesarea, the 4th-century church historian, realizing the serious potential for objections to Jesus' qualifications as Messiah had he come from this line, suggests that Luke's genealogy traces his actual bloodline (*Quaestiones Evangelicae ad Stephanum* 3.2).
6. The Greek verb is *nomizo*, referring to what is "thought" or even "assumed."

7. There is in fact a "Mariam daughter of Heli" mentioned in an unflattering way in the Jerusalem Talmud (*y.* Yerushalmi *Hagigah* 2:2). The translation of her name is disputed and most scholars agree that this Mary, who is punished in Gehenna by being hung by her nipples, has no connection to the mother of Jesus.
8. Josephus *Life* 1.6: "Thus have I set down the genealogy of my family as I have found described in the public records, and so bid adieu to those who calumniate me."
9. Quoted in Eusebius *Church History* 1.7.13–14. Africanus specifically notes that the members of Jesus' clan were concentrated in Nazareth and nearby Kokhaba. There is another Kokhaba east of the Jordan River that some have identified with Africanus' statement but it seems much more likely, since he mentions Nazareth as well, that he has in mind the town north of Sepphoris (Eusebius *Church History* 1.7.14).
10. The spelling of the name of the town Nazareth from the Hebrew *netzer* has now been confirmed by a broken marble inscription found at Caesarea in 1962. It was written in Hebrew and lists the towns where families of priests had settled in the 4th century A.D. See M. Avi-Yonah, "A List of Priestly Courses from Caesarea," *Israel Exploration Journal* 12 (1962): 137–39.
11. The Dead Sea Scrolls, discovered in 1947 in caves along the Dead Sea, preserve the library of an ancient Jewish sect called the Essense. They will be discussed in some detail later. For example, 4Q 174, a fragment from Cave 4, quotes 2 Samuel 7:14, the promise made to David, and says of the future king, "He is the Branch of David . . . who shall arrive at the end of time." Unless otherwise indicated, translations of the Dead Sea Scrolls are taken from Geza Vermes, *The Complete Dead Sea Scrolls in English* (New York: Penguin, 1997).
12. See Acts 24:5, where the term first occurs.
13. See Dead Sea Scrolls *Damascus Document* 7:18–21; *War Rule (1 QM)* 11:6–7. This designation for the Messiah was based on a prophecy in Numbers 24:17 about a "star" and a "scepter" arising in Israel. Revelation 22:16 designates Jesus as "the descendant of David, the bright morning star," clearly linking the two terms.
14. These proud family members called themselves *desposynoi*, which means "belonging to the Master."

15. Compare Mark 2:14 with Matthew 9:9. Matthew and Levi are the same person.

16. The clearest statement is in the Dead Sea Scrolls *Community Rule (1QS)* 9:10–11: "But they shall be ruled by the primitive precepts in which the men of the Community were first instructed until there shall come the Prophet and the Messiahs of Aaron and of Israel." See also the *Damascus Document* B20.

17. As early as Genesis 3:15 we read of the "seed" of the woman Eve. Leviticus 12:2 speaks of a woman "seeding," (RSV has "conceived") with the verb in the feminine gender.

18. Compare Galatians 4:4 where Paul describes Jesus as "born of a woman," with Romans 1:3 where he asserts that he is "the seed of David" according to the flesh.

3. *An Unnamed Father of Jesus?*

1. The degree to which a literal interpretation might be taken is best illustrated by the claim of the late amateur archaeologist Ron Wyatt to have located the true site of the crucifixion, to have recovered some of the dried blood of Jesus, and to have demonstrated by a lab test that Jesus had no father. According to Wyatt the cells contained only 24 chromosomes—22 autosomal, one X, and one Y chromosome—rather than the normal 46 (http://www.wyattarchaeology.com/ark.htm). An anthropology colleague of mine pointed out that although such an idea is a biological absurdity, if one still wants to imagine it possible the individual would be the most physically deformed creature in the history of the planet—having just half the normal chromosomes needed for normal development.

2. For textual examples with some short notes see my academic Web site: http://www.religiousstudies.uncc.edu/jdtabor/divine.html.

3. Jews were not immune to such ideas, though Jewish texts that relate such stories invariably affirm that the child, though conceived supernaturally, or divinely announced, was the offspring of the husband. Most typically a woman who had not been able to bear children was told she would and her husband had some type of confirming dream. For example, there is a text in the Dead Sea Scrolls where Lamech, the father of Noah, suspected his wife

had become pregnant through an angel, but was then convinced by her that he was indeed the father (*Genesis Apocryphon* 3).

4. Plutarch, *Life of Alexander*, 2–3, Loeb Classical Library, vol. 7, trans. by Bernadette Perrin (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1919, reprint 1999).
5. Translation is my own. The term "whore" (*porne*) in this context is a term of slander for one guilty of sexual immorality or unfaithfulness.
6. Origen, *Against Celsus* 1.69. In *Celsus on the True Doctrine*, trans. by R. Joseph Hoffmann (Oxford: Oxford University Press, 1987). The Christian philosopher Origen wrote a refutation of Celsus' work titled *Against Celsus* around about the year A.D. 248. In addressing the charges that Celsus makes, Origen quotes long sections of the earlier work, thus preserving it for us.
7. Sikhnin is a few miles from Kokhaba, one of the main centers where members of the royal family lived. It is possible the tomb of Jacob has been found in modern Sakhnin and there is also a tradition that he was martyred at Nazareth.
8. There are various spellings of the same name: Pantira, Pandera, Pantiri, Panteri. The story occurs three times in rabbinic literature but the earliest account is found in the Palestinian Tosephta *t. Hullin* 2.24. The other versions are in the Babylonian Talmud (*b. Avodah Zarah* 16b–17a) and the Midrash (*Ecclesiastes Rabba* 1:8:3).
9. Palestinian Tosephta *t. Hullin* 2.22–23. A version is also found in Babylonian Talmud *b. Avodah Zarah* 27b. A somewhat similar healing story is found in Jerusalem Talmud *y. Shabbat* 14d.
10. The "son of Pantera/Pandera" texts become quite confused and garbled in later Jewish polemical materials. Jesus gets confused with another figure known as "ben Stada" who lived in the previous century. Origen answers Celsus by claiming that Jesus had a grandfather named "Panther." The legendary medieval text known as *Toldoth Yeshu*, which exists in many versions, completely switches things around. It opens with a story in which Miriam, mother of Jesus, is engaged to a man of the house of David named Yohanan or John. Across from her house lived a handsome Roman soldier named Yosef/Joseph, son of Pandera, who seduced her. So Joseph becomes the paramour and not the fiancée.
11. Epiphanius *Panarion (Adv. Haer.)* 78.7.5 (PG 42:708D).

12. John of Damascus *On the Orthodox Faith* 4.14 (PG 94:1156–57).

13. Adolf Deissmann, "Der Name Panthera," *Orientalische Studien Theodor Nöldeke gewidmet* (Giessen, Germany: A. Töpelmann, 1906), pp. 871–75.

14. The Latin text reads: "Tib. Iul. Abdes. Pantera. Sidonia. ann. LXII stipen. XXXX. miles. exs. coh I. sagitarriorum. h.s.e." (*Corpus Inscriptionum Latinarum* XIII 7514).

15. Until recently Bad Kreuznach was headquarters to the U.S. Army 1st Armored Division. This important base was closed in December 2001.

16. The slight difference in spelling is insignificant and common with Greek names taken by Semites. On this discovery see *Corpus Inscriptionum Judaicarum* 1211.

17. Cornelius is a prime example. See Acts 10:1–2, where he is described as "a devout man who feared God with all his household, gave charity to the people, and prayed continually to God."

4. Children of a Different Father

1. Epiphanius *Panarion* 78.8–9, and compare *Gospel of Philip* 59:6–11 with *Protoevangelium of James* 19–20.
2. See his instruction in 1 Corinthians 7.
3. The idea of Mary's perpetual virginity was affirmed at the 2nd Council of Constantinople in A.D. 553 and the Lateran Council in 649. Although it is a firmly established part of Catholic dogma it has nonetheless never been the subject of an infallible declaration by the Roman Catholic Church.
4. This is called the Helvidian view, after Helvidius, a 4th-century Christian writer whom Jerome seeks to refute. Eusebius, the early 4th-century church historian, regularly quotes early sources and refers himself to the brothers of Jesus "after the flesh," surely understanding them as children of Mary and Joseph. See Eusebius *Church History* 2.23; 3.19.
5. This is called the Hieronymian view in honor of Jerome (Eusebius Hieronymus, not to be confused with Eusebius of Caesarea), the 5th-century Christian theologian who was its champion.
6. This is called the Epiphanian view in honor of Epiphanius. It occurs as early as the 2nd-century *Protoevangelium of James*.

7. Luke has one later story with Joseph, when Jesus was twelve years old and was left behind after a Passover feast at the temple. This account does mention his father and his mother but most historians question its historical validity. It appears to be modeled closely on typical stories of the time about a precocious child amazing the wise men of his society. (See Luke 2:41–51; compare Josephus *Life* 7–8.)

8. The term *Levirate* comes from the Latin *levir* ("husband's brother"). Jewish authorities differ as to whether the Torah has in mind a deceased brother who is childless or one who specifically lacks a male heir (*Jewish Encyclopedia*, s.v. "Levirate Marriage"). The practical application of this law within Judaism at various points in history is long and complex (*Encyclopaedia Judaica*, s.v. "Levirate Marriage and Halizah").

9. This is from the 2nd-century writer Hegesippus, who preserves for us some of the most valuable early traditions about the Jesus family (Eusebius *Church History* 3.11).

10. See Mark 3:18 and 15:40.

11. There is a Cleopas mentioned in Luke 24:18 but he does not appear to be the same person and the names in Greek are different.

PART TWO: GROWING UP JEWISH IN GALILEE

5. The Lost Years

1. Establishing the basic dates related to a chronology of the birth, life, and death of Jesus is difficult and historians continue to debate various schemes. See the Timeline on page 291. One major modern breakthrough has been the use of computer programs to instantly reconstruct any date in history based on ancient calendars and astronomical data. I have used such a program extensively, particularly in recounting the chronology, day by day, of the final week of Jesus' life. I have put the birth of Jesus in the fall of 5 B.C. and his death at age thirty-three in April of A.D. 30. Following the gospel of John, I assume a three-and-a-half-year preaching career of Jesus from his baptism by John in the fall of A.D. 26, when he was "about thirty," to his death at age thirty-three in April, A.D. 30. There are difficulties and objections with all the major schemes that have been proposed but I find

this one the most convincing. For a detailed treatment of the various proposals see Jack Finegan, *Handbook of Biblical Chronology*, rev. ed. (Peabody, Mass.: Hendrickson, 1998), and for my own proposal in general see John A. T. Robinson, *The Priority of John* (London: SCM Press, 1985), 123–57, on the "Chronology of the Ministry."

2. Origen *Against Celsus* 1.69.
3. See: http://www.salagram.net/JesusLivedInIndia.html and Maury Lee, *Jesus of India* (Philadelphia: Xlibris, 2000). See also Paul Perry, *Jesus in India: Discovering the Secrets of Jesus' Childhood Years* (New York: Ballantine Books, 2003).
4. See http://www.whyprophets.com/prophets/arimthea.htm and E. Raymond Capt, *Traditions of Glastonbury* (Thousand Oaks, Calif.: Artisan, 1983). William Blake's famous lines perhaps refer to this popular legend:

   And did those feet in ancient time
   Walk upon England's mountains green?
   And was the Holy Lamb of God
   On England's pleasant pastures seen?
   "JERUSALEM," 1804

5. *Protoevangelium of James* 9:3.
6. It is difficult to translate ancient monetary values into modern equivalents because of the differences between ancient and modern economies and prices. Four Roman sesterces equaled one Roman denarius or Greek drachma. That was one quarter of a Jewish shekel. The stipend for a freed slave was 1,000 sesterces a year. A common Roman soldier earned about the same but living expenses were paid also for army service. To be a member of the Roman Senate one had to have minimum capital of 1,000,000 sesterces. This was also the annual salary of a Roman governor of a major province. See Richard Duncan-Jones, *The Economy of the Roman Empire: Quantitative Studies*, 2nd ed. (Cambridge, England: Cambridge University Press, 1982).
7. *Vita Sophocles* 1.

6. A Kingdom of This World

1. Josephus *Jewish War* 1.148–53; *Antiquities* 14.66.
2. Josephus *Jewish War* 1.659–63; *Antiquities* 17.174, 179.
3. Josephus *Jewish War* 1.656.
4. Josephus *Jewish War* 1.649–50.
5. Josephus *Jewish War* 2.55–65; *Antiquities* 17.271–85.
6. Josephus *Antiquities* 20.102.
7. Josephus *Antiquities* 17.319.
8. See John 6:1; 21:1.

7. The Religion of Jesus the Jew

1. Josephus *Jewish War* 6.423–26.
2. The Mishnah is the oldest compilation of Jewish discussion of the laws of the Torah put together by the Rabbi Judah the Prince around A.D. 200 in Sepphoris. Until it was written down the traditions and sayings circulated orally. Although written in the 3rd century A.D. some of the material goes back to the time of Jesus.
3. This was commanded in Numbers 15:37–40. Compare Matthew 23:5.
4. These complex issues are thoroughly examined in the masterful work by Louis H. Feldman, *Jew and Gentile in the Ancient World* (Princeton: Princeton University Press, 1993).
5. His main description is in *Jewish War* 2.119–66; he offers a recap in his later work *Antiquities* 18.11–25.
6. See Acts 15:5; 21:20.

PART THREE: A GREAT REVIVAL AND A GATHERING STORM

8. Hearing the Voice

1. As explained previously in my reconstruction of events, I am using a chronology that dates the birth of Jesus in the fall of 5 B.C. and his death at age thirty-three in April of A.D. 30. Following the gospel of John, I accept a

three-and-a-half-year preaching career of Jesus from his baptism by John in the fall of A.D. 26, when he was "about thirty," to his death at age thirty-three in April, A.D. 30. The precise placement of events reported in both the Synoptic gospels and John, within that three-and-a-half-year span, reflects my best judgment based on various chronological markers such as the age of Jesus at his baptism, the arrest of John, the Jewish festivals that John notes, and other indicators. According to Luke 1:36, John was born six months before Jesus. Shortly before Elizabeth's pregnancy, John's father, Zechariah, was serving as a priest in Jerusalem. The priests lived throughout the country but they were divided into twenty-four divisions or orders according to their ancestral families. Each division served for a week two times a year on a rotating cycle of duty that began in the spring each year. Zechariah was of the "course of Abijah," the eighth division, which put his week of service sometime in May, A.D. 6 (Luke 1:5). If Elizabeth became pregnant in June of that year, then John would have been born in late February or early March, 5 B.C. Mary then got pregnant six months after, probably in December, 6 B.C., and Jesus would have been born in late August or early September, 5 B.C.

2. Acts 9:2; 19:9, 23; 22:4; 24: 14, 22; James 5:20; 2 Peter 2:15
3. Josephus *Antiquities* 18.116–19.
4. Dead Sea Scrolls *Community Rule (1QS)* 8.13–14 and 9.19–20.
5. John 3:23–24.
6. F. C. Burkitt, published an English translation of this ancient Syriac text of Matthew in 1904 that is out of print but in the public domain and available on the Web (http:www.trends.ca/~yuku/bbl/aramat1.htm).
7. See Shimon Gibson, *The Cave of John the Baptist* (New York: Doubleday, 2004).
8. Shimon Gibson and James D. Tabor, "John the Baptist's Cave: The Case in Favor," *Biblical Archaeology Review* (May/June, 2005): 36–41, 58. There is a lecture available on a DVD titled "Just Dug Up" by James D. Tabor, "The 'John the Baptist Cave' at Suba: What Are the Facts?" through the Biblical Archaeology Society (www.bib-arch.org).
9. *The Gospel of the Ebionites* as quoted by the 4th-century Christian writer Epiphanius. The Greek word for locusts *(akris)* is very similar to the Greek word for "honey cake" *(egkris)* that is used for the "manna" that the Israelites ate in the desert in the days of Moses (Exodus 16:31).

10. Compare Matthew 11:18–19 and Luke 7:33–34. See also Romans 14:1–4, 21, where Paul characterizes one who follows such an ascetic diet as "weak in faith."

11. There is an Old Russian (Slavic) version of Josephus's *Antiquities* that describes John the Baptizer as living on "roots and fruits of the tree" and insists that he never touches bread, even at Passover.

12. The Q hypothesis, often referred to as the "two source" hypothesis (Mark and Q being the two sources), was first expounded in 1838 by C. H. Weisse.

13. For a reconstruction of Q see www.religiousstudies.uncc.edu/jdtabor/Qluke.html.

14. George Howard, *Hebrew Gospel of Matthew* (Macon, Ga.: Mercer University Press, 1995). The Hebrew text of Matthew is embedded in a 14th-century Jewish treatise titled *Even Bohan*, written by Shem-Tob Ibn Shaprut of Aragon. Howard has persuasively shown that this version of Matthew, preserved in Jewish rabbinic circles, is not a translation of the Greek Matthew contained in our New Testaments. It preserves independent, and I would argue, more authentic readings in a number of crucial places.

9. A Crucial Missing Year

1. See John A. T. Robinson, *The Priority of John* (London: SCM Press, 1985).
2. Josephus *Jewish War* 6.312.
3. Dead Sea Scrolls *11QMelch (11Q13)*.
4. Testament of the Twelve Patriarchs *Testament of Simon* 7.2.
5. Testament of the Twelve Patriarchs *Testament of Judah* 21:1–2.
6. *Jubilees* 31.
7. See Martin Abegg Jr., Peter Flint, and Eugene Ulrich, *The Dead Sea Scrolls Bible* (New York: HarperSanFrancisco, 1999), p. 477.
8. Dead Sea Scrolls *Testament of Levi (4Q541)*.
9. When Jesus finds it necessary to retreat back to Galilee it is "four months until the harvest." This would be sometime around February of A.D. 28 since the "harvest" began in June with the festival of Pentecost or Shavuot.

10. Ushering in the Kingdom

1. Josephus *Jewish War* 2.170–77.
2. *Psalms of Solomon* 17, in R. H. Charles, ed., *The Apocrypha and Pseudepigrapha of the Old Testament*, vol. 2 (Oxford: Clarendon Press, 1913), pp. 647–48.
3. Daniel 7.
4. I have developed this point more fully in a published article, now available on the Web: http://www.religiousstudies.uncc.edu/jdtabor/RUthe1.html.
5. Isaiah 48:15–16.
6. See the remarkable documentation in Michael Wise, *The First Messiah: Investigating the Savior Before Christ* (New York: HarperSanFrancisco, 1999).
7. See Luke 13:16 and 8:2.
8. Dead Sea Scrolls *Community Rule (1QS)* 8.1.
9. Josephus *Antiquities*, 11.131–33.
10. Possibly the Nathanael of John 1:45.
11. Also called Levi in Mark 2:14.
12. He was also known by the nickname "Thaddeus" or "Lebbaeus," meaning "great of heart."
13. There are four lists of the Twelve in the New Testament: Mark 3:16–19; Matthew 10:2–4; Luke 6:14–16; and Acts 1:13, 26.
14. In Mark 3:31–35, when Jesus hears his mother and brothers are outside Peter's house in Capernaum and cannot get in because of the crowds, Jesus says, "Who is my mother and my brothers?—whoever does the will of God." What he is saying implies no rejection of his natural family, but rather an inclusion of all others who would follow God's will. The incident takes place in Capernaum. They are living in the house with him as part of the inner circle. By telling the crowds who were blocking his own family from entering the house, that they too were part of his family, he is showing no dishonor to Mary or his brothers. The other passage similarly cited is Mark 3:21, where those "by him" try to take him away from the crowds, very possibly to protect him.
15. The Hebrew expression occurs many times in the Bible where it refers simply to a "mortal" or a "human" being (e.g., Jeremiah 49:18; Ezekiel 2:1).

PART FOUR: ENTERING THE LION'S DEN

11. Herod Strikes

1. Dead Sea Scrolls 4Q521.
2. Josephus *Antiquities* 18.119.
3. http://www.jewishvirtuallibrary.org/jsource/Archaeology/boat.html.
4. Dead Sea Scrolls *Damascus Document* (CD) col. 19. This copy "B" was found in Egypt in 1897 among some ancient discarded manuscripts. It has now been linked to the Dead Sea Scrolls found at Qumran with copies of the same text found in Cave 4.
5. The Hebrew word *Sheol* refers to the grave or the realm of the dead. It is similar to the Greek term *Hades*. It was metaphorically pictured as having gates or bars.
6. Psalm 118:10, 17–18, 22.
7. Dead Sea Scrolls *Thanksgiving Hymns* 2.21–24.
8. I base this rough estimate on the inner core group of the Twelve and associates, which likely numbered around twenty or so, and seventy or more others that had become his official delegates as well. Luke roughly confirms the number by stating that Jesus followers who gathered in Jerusalem after his death numbered about 120 (Acts 1:15).
9. See Ezekiel 4:5–6.

12. Last Days in Jerusalem

1. Mark knows a tradition that Jesus went "beyond the Jordan" but he apparently has no details and simply mentions it in passing, as part of his narrative of Jesus "on the road, going up to Jerusalem" (Mark 10:1, 32).
2. John 10:22. Using an astronomical computer program we can determine any date in recorded history within a precision range of seconds using any number of ancient calendar systems—Egyptian, Hebrew, Olympiad, Roman, et al. In the year A.D. 29 the festival of Hanukah began at sundown on December 16, a Sunday, and continued for eight days.
3. The precise dates on both the Jewish and Gregorian calendars are arrived at through computer calculations.
4. Mishnah *Bekhoroth* 8.7.

5. Mishnah *Shekalim* 1.3.

6. Josephus *Jewish War* 6.423–27.

7. The assumption that this area was an "Essene quarter" of Jerusalem seems unlikely. There is a "Gate of the Essenes" mentioned by Josephus, at the southern slope of this western hill, but the name does not indicate that Essenes *entered* the city at this point. This opulent area near Herod's palace would be the last place they would wish to go. The ancient names of the gates in Jerusalem always indicate what is *outside*, not *inside*. For example, the "Damascus Gate" is the gate one exits to go to Damascus, the "Jaffa Gate" in the same way leads to Jaffa. Accordingly, the "Essene Gate" would indicate that groups of Essenes had their camps outside that area, down in the western end of the valley of Hinnom.

8. See John A. T. Robinson, *The Priority of John* (London: SCM Press, 1985): pp. 147–56.

9. Dead Sea Scrolls *Thanksgiving Hymns* 9.23–24.

10. Dead Sea Scrolls *The Messianic Rule (1QSa)* 2.11–25.

11. *The Demotic Magical Papyrus of London and Leiden* 15.1–6, in *The Greek Magical Papyri in Translation, Including the Demotic Spells*, ed. Hans Dieter Betz (Chicago: University of Chicago Press, 1968).

12. *Papyri graecae magicae* 7.643ff.

13. *Didache* is pronounced *did-a-kay*.

14. *Didache* 9:1–3, in Bart Ehrman, trans., *The Apostolic Fathers*, Loeb Classical Library 24, vol. 1 (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 2003), p. 431.

15. Quoted by Jerome, *On Famous Men* 2.

13. The King Is Dead

1. The term used in Greek (*speiran*) normally refers to a cohort that at full strength was 600 men. The word could be used for a smaller "detachment," but by any measure would have numbered 200 or more.

2. Josephus *Antiquities* 20.199. This is further confirmed in Acts 5:17.

3. Babylonian Talmud *Pesahim* 57a; Tosephta *Menahot* 13:21.

4. This magnificent discovery is part of the Wohl Archaeological Museum. It is described with extensive photos and diagrams in N. Avigad's book *The Herodian Quarter in Jerusalem* (Jerusalem: Keter, 1989).

5. Christian pilgrims traditionally venerate two sites as the site of the "house of Caiaphas." The most popular is the Roman Catholic church St. Peter in Gallicantu (St. Peter at the Crowing of the Cock) on the eastern slope of Mount Zion. The Armenians have an alternative site on the summit of Mount Zion near the Dormition Abbey.
6. Philo *Embassy to Gaius* 37.301–03, in *Philo*, vol. 10, trans. F. H. Colson, Loeb Classical Library (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1962).
7. Josephus *Jewish War* 7.203.
8. Deuteronomy 21:22–23.

14. Dead but Twice Buried

1. Matthew's assertion that Joseph of Arimathea placed Jesus in "his own new tomb that he had hewn out of the rock" is an editorial addition apparently lacking any historical basis. We know that Matthew's only source on Jesus' death and burial was the gospel of Mark. Since Mark says nothing about Joseph owning the tomb, and Luke, who also uses Mark as a source, lacks such claim, it is clear that Matthew added this connection, probably for theological reasons. Decades after Jesus' death, when Matthew wrote his gospel, the Christians were keen to prove that Jesus was the "suffering servant" figure of Isaiah 53. One of the things Isaiah says about this figure is that "they made his grave with the wicked, and with a rich one in his death" (Isaiah 53:9). Apparently Matthew picked up on this idea of a "rich man" and wanted to appropriate Joseph of Arimathea as a way of showing that Jesus fulfilled prophecy. It is a characteristic of Matthew's editing of his sources to try and insert fulfillments of prophecy in Jesus' life. He does this dozens of times. Matthew is apparently so eager to draw upon this quotation from Isaiah 53:9 that he seems to overlook the fact that this text, if applied to Joseph of Arimathea, would characterize him as not only "rich" but also "wicked."
2. Josephus often mentions this tomb, just north of the old city wall, as a landmark (*Jewish War* 5.259, 304, 356; 6.169). Hadrian later built a temple to Venus on the site.
3. This was originally based on Joshua 3:4–6, which warned the people to stay at least two thousand cubits from the Ark of the Covenant so as not to

defile its holiness. In the days of a permanent Temple the same basic distance was applied to the Temple grounds.

4. The rabbinic sources uniformly interpret this expression from the Torah, "outside the camp," as a technical reference to a distance at least two thousand cubits east of the Temple (see Babylonian Talmud *Yoma* 68a; Mishnah *Sanhedrin* 6:1).
5. Tosephta *Baba Bathra* 1:2 says that around Jerusalem only the tombs of David and some of the ancients were left, out of respect, but the bones of others were transported and reburied outside the area of sanctity. Some of the most spectacular tombs of the 1st century, such as those of Queen Helena and the High Priest Annas are located well outside this perimeter. The 1st-century "tombs of the Sanhedria" are also more than a mile north of the city.
6. The Bordeaux Pilgrim who toured the Holy Land in A.D. 333 writes of the *monticulus* or "hillock" made of bedrock at the top of the Mount of Olives (*Bordeaux Pilgrim* 595.4–596.1). See www.christusrex.org for an itinerary of this early visitor to the Holy Land.
7. In the 20th century this theory has been revived in many popular books including Michael Baigent, Richard Leigh, and Henry Lincoln, *Holy Blood, Holy Grail* (New York: Dell, 1982).
8. Hugh Schonfield, *The Passover Plot* (New York: Bernard Geis, 1965).
9. The Islamic Ahmadiyya Movement has most recently promoted this theory. Its founder, Ghulam Ahmad, who died in 1908, authored the book *Jesus in India*, now available in English (Islam International Publications, 1989). There is a Web site: (http://www.geocities.com/Athens/Delphi/1340/jesus_in_india.htm) that offers a summary of this view.
10. The idea was first popularized by Baigent, et al., in *Holy Blood, Holy Grail* but has received new worldwide attention as the subject of the best-selling novel by Dan Brown, *The Da Vinci Code* (New York: Doubleday, 2003).
11. Donovan Joyce, *The Jesus Scroll* (New York: Dial Press, 1972).
12. This added ending does not appear in our two oldest manuscripts, Sinaiticus and Vaticanus, dating to the early 4th century A.D. It is also absent from about one hundred Armenian manuscripts, the Old Latin version, and the Sinaitic Syriac. Even copies of Mark that contain the ending

often include notes from the scribe pointing out that it is not in the oldest manuscripts.

13. The King James Version, translated in 1611 before some of the more ancient manuscripts came to light, included the later ending and that is how it became so well known and well regarded in the English-speaking world. The most popular modern translation today, the New International Version, includes the later ending, but with a separating line after Mark 16:8 and a note that tells the reader: "The most reliable early manuscripts and other ancient witnesses do not have Mark 16:9–20." This practice is followed by most of the other translations. The later ending is printed, but with a note indicating that it might not be genuine.
14. Tertullian *De Spectaculis* 30.
15. *Book of the Resurrection of Christ by Bartholomew the Apostle* 1.6–7.
16. All these sites are discussed and evaluated in Jack Finegan, *The Archaeology of the New Testament: The Life of Jesus and the Beginning of the Early Church*, rev. ed. (Princeton: Princeton University Press, 1992), pp. 335–89.
17. Some scholars identify these symbols as Christian while others deny they are of any religious significance. See the discussion in Finegan, *Archaeology of the New Testament*, pp. 359–75.

PART FIVE: WAITING FOR THE SON OF MAN

15. Go to James the Just

1. I accept here the so-called "South Galatian" theory that dates Paul's letter to the Galatians around A.D. 50. His conversion experience would have accordingly been around the year A.D. 36 (the "fourteen years" earlier mentioned in Galatians 2:1), which fits with evidence we have from the *Ascents of James* that puts Paul's conversion around seven years after Jesus' crucifixion.
2. Dead Sea Scrolls *Community Rule* Col. 8.
3. See Acts 3:1–11; 4:13–19; 8:14.
4. The 2nd-century B.C. book of *Jubilees* 7:20–33 enumerates a list of ethical requirements for non-Jews very similar to that of James. The rabbis later summarize what they called the "Laws of Noah" under seven headings,

forbidding idolatry, sexual immorality, eating blood, injustice, stealing, murder, and blasphemy (Tosephta *Avoda Zara* 8.4).

5. See the innovative and insightful work of April D. DeConick in *Thomasine Traditions in Antiquity: The Social and Cultural World of the Gospel of Thomas*, edited by April D. DeConick, Jon Asgeirsson, and Risto Uro, Nag Hammadi and Manichaean Studies Series (Leiden: E. J. Brill, 2005); *Recovering the Original Gospel of Thomas: A History of the Gospel and Its Growth*, Supplements to the *Journal of the Study of the New Testament* 286 (London: T. & T. Clark, 2005); and *The Original Gospel of Thomas in Translation: A Commentary and New English Translation of the Complete Gospel*, Supplements to the *Journal of the Study of the New Testament* (London: T. & T. Clark, 2006).
6. This idea is found often in ancient Jewish sources (e.g., *2 Baruch* 15:7).
7. Quoted in Eusebius *Church History* 2.1.3.
8. Quoted in Eusebius *Church History* 2.1.4.
9. Eusebius *Church History* 2.1.2.
10. Eusebius *Church History* 2.23.4.
11. "Diadexomai," in *A Greek-English Lexicon of the New Testament and Other Early Christian Literature*, 3rd edition–BDAG, ed. by Frederick W. Danker (Chicago: University of Chicago Press, 1979), p. 227.
12. Robert E. Van Voorst, *The Ascents of James: History and Theology of a Jewish-Christian Community*, SBL Dissertation Series 112 (Atlanta: Scholars Press, 1989). Van Voorst has isolated this source from *Recognitions* 1.33–71 and demonstrated its antiquity.
13. Syriac *Recognitions* 1.43.3.

16. The Challenge of Paul

1. The Greek term *neaneas* or "young man," used in Acts 7:58 to describe Paul around the year A.D. 35, usually refers to someone at least under forty.
2. Jerome *De Virus Illustribus* (PL 23, 646).
3. 1 Corinthians 9:1; 15:8.
4. 2 Corinthians 12:9; 1 Thessalonians 4:15; 1 Corinthians 11:23.
5. Galatians 1:16.
6. Colossians 1:15.
7. Colossians 1:16.

8. Philippians 2:7–8; Galatians 4:4.

9. Romans 4:24–25; Romans 8:31–34; Philippians 3:20–21.

10. Romans 3:23–25.

11. 1 Corinthians 11:23–30. Paul says he received this ceremony "from the Lord."

12. 1 Corinthians 15:51–54; 1 Thessalonians 4:13–18.

13. 1 Corinthians 6:2–3.

14. There is a vast collection of such texts, some of which predate Paul, that scholars refer to loosely as the Pseudepigrapha (see James H. Charlesworth, *The Old Testament Pseudepigrapha*, 2 vols. [New York: Doubleday, 1983–85]). The writings of Philo, the 1st-century Jewish philosopher, have more in common with Plato than with the thought world of the Hebrew Bible, though Philo claims to be faithfully expounding "Judaism." The Dead Sea Scrolls reflect an extraordinary interest in the heavenly world.

15. Romans 16:25.

16. He refers to sayings of Jesus only twice in all his letters (1 Corinthians 7:10–11 and 9:14).

17. Galatians 3:19–20.

18. Galatians 4:8–11; compare Colossians 2:16–23.

19. Galatians 4:24–31.

20. Galatians 3:28; 2 Corinthians 5:17.

21. Eusebius *Church History* 2.25.5.

17. The Legacy of the Jesus Dynasty

1. See Bruce Metzger, *The Text of the New Testament* (Oxford: Clarendon Press, 1987), pp. 191–201.

2. Eusebius *Church History* 2.23.24–25.

3. See Peter H. Davids, "Palestinian Traditions in the Epistle of James," in *James the Just and Christian Origins*, ed. Bruce Chilton and Craig A. Evans (Leiden: E. J. Brill, 1999), pp. 33–57.

4. For a restored copy of the Q source see http://www.religiousstudies.uncc.edu/jdtabor/Qluke.html.

5. See Alan Wikgren, "Luther And 'New Testament Apocrypha,'" in *A Tribute to Arthur Vööbus: Studies in Early Christian Literature*, ed. R. H. Fisher (Chicago: University of Chicago Press, 1977), 379–90.

6. See David Capes, *Old Testament Yahweh Texts in Paul's Christology*, Wissenschaftliche Untersuchungen zum Neuen Testament 2, 47 (Tübingen: J. C. B. Mohr/Paul Siebeck, 1992).
7. Several English translations are in the public domain and are available on the Web at http://www.earlychristianwritings.com/didache.html. I have used here the new translation by Bart Ehrman, *The Apostolic Fathers*, Loeb Classical Library 24, vol. 1 (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 2003), pp. 417–43. The Loeb edition has a critical Greek text on facing pages with the English translation.

18. The End of the Age

1. Josephus, *Antiquities* 20.200–1. The parenthetical addition "called Christ" is likely a later Christian interpolation.
2. Eusebius *Church History* 2.23.20.
3. Origen wrote: "Now this writer [Josephus], although not believing in Jesus as the Christ, in seeking after the cause of the fall of Jerusalem and the destruction of the Temple . . . says that these disasters happened to the Jews as a punishment for the death of James the Just, who was a brother of Jesus called Christ, the Jews having put him to death, although he was a man most distinguished for his justice" (*Against Celsus* 1.47). It is unlikely that Origen would have created this passage in arguing with his sharp-witted and educated critic Celsus. It is more likely that Josephus's account was removed at some point from the later manuscripts of Josephus that have survived.
4. Eusebius *Church History* 2.23.
5. Epiphanius *Panarion* 29.4.1–4.
6. Eusebius *Church History* 3.11.1.
7. Eusebius *Church History* 2.25.5.
8. Eusebius *Church History* 4.5.3–4; Epiphanius, *Panarion* 66.21–22.
9. The case for such an interpretation was first made by Richard Bauckham in his brilliant and groundbreaking study, *Jude and the Relatives of Jesus in the Early Church* (Edinburgh: T. & T. Clark, 1990), pp. 71–78.
10. Eusebius *Church History* 3.31.2–3 gives the sources.
11. Tacitus *Annales* 15.4.

12. Louis Feldman, "Financing the Colosseum," *Biblical Archaeology Review* 27 (July/August 2001).
13. Josephus *Jewish War* 6.312–13.
14. Eusebius *Church History* 3.5.3; Epiphanius *Panarion* 29.7; 30.2.
15. This is according to an ancient Jewish system called Gematria in which words are given coded numbers based on the numerical value of their letters. In Hebrew and Greek each letter of the alphabet has a number (Alef/Alpha=1; Bet/Beta=2; Gimel/Gamma=3, etc.), thus any word be represented by its total. In Hebrew Nero Caesar is written as NRON QSR *(Neron Qasar)* and the letters are valued as follows: N=50; R=200; O=6; N=50; Q=100; S=60; R=200. The total is 666, the "number of the name" of the "Beast" that represents Rome (Revelation 13:18).
16. See my discussion of the evidence on the Web at www.religiousstudies.uncc.edu/JDTABOR/masada.html.
17. Eusebius *Church History* 3.12.1.
18. Eusebius *Church History* 3.19.1–20.
19. See Eusebius *Church History* 3.20.6.
20. See Eusebius *Church History* 1.7.14.
21. See Eusebius *Church History* 3.32.3–7.
22. The complete name in Latin was *Colonia Aelia Capitolina. Aelia* came from Hadrian's name Aelius.
23. Eusebius *Church History* 3.27.
24. See Hans-Joachim Schoeps, *Jewish Christianity*, trans. Douglas R. A. Hare (Philadelphia: Fortress Press, 1969), for a summary of the basic Ebionite sources that survive and a discussion of their contents.

المحتوى